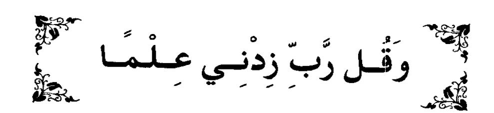
# أدب الدنيا والدين

تأليف

أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي

نسخة مضبوطة ومحققة ومخرجة الأحاديث







الطبعة الأولى

٢٠٠٦م - ١٤٢٧هـ

رقم الايداع: ١١١١٤ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولى: I.S.B.N

977-347-105-5

## بسم الله الرحمن الرحيم

## ترجمة المؤلف (١)

## الماوَرْديُّ

## الإمامُ العلاَّمة، أقضَى القضاة، أبو الحسَن عليُّ بنُ محمدِ بن حَبيب البصريُّ، الماورديُّ، الشافعيُّ، صاحِبُ التَّصانيفِ

**حَدَّثَ عن:** الحسن بن علي الجبلي، صاحب أبي خَلِيفة الجُمَحيّ، وعن محمد ابن عدي المنقري، ومحمد بن مُعلًّى، وجعفَر بن محمدِ بن الفضل.

**حَدَّثَ عنه:** أبو بكرٍ الخطيبُ، ووثقـه، وقال: مـات في ربيع الأول سنة خمسين وأربعمائة، وقد بلغ ستًا وثمانين سنة، وولي القضاء ببلدان شتى، ثم سكن بغداد.

**قال أبو إسحاق في «الطبقات»:** ومنهم أقضى القُضـاة الماورديُّ، تفقَّه على أبي القاسم الصَّميَرِيّ بالبصـرة، وارتحلَ إلى الشيخ أبي حامد الإسفراييني، ودرس بالبصـرة وبغداد سنين، وله مصنفـات كثيرة في الفـقه والتفـسير، وأصول الفـقه والأدب، وكان حافظًا للمذهب. مات ببغداد.

**وقال القاضي شمس الدين في «وفيات الأعيان»:** من طالع كتاب «الحاوي» له يشهد له بالتبحـر ومعرفة المذهب، ولي قضاء بلاد كثيرة، وله تفسـير القرآن سمَّاه «النكت»، و«أدب الدنيا والدين»، و«الأحكام السلطانية»، و«قانون الوزارة وسياسة الملك»، و«الإقناع» مختصر في المذهب.

**وقيل:** إنه لم يظهر شيئًـا من تصانيفه في حياته، وجمعـها في موضع، فلما دنت وفاته، قال لمن يثق به: الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي، وإنما لم أظهرها لأني لم أجد نيـة خالصة، فإذا عاينت الموت، ووقـعت في النزع، فاجعل يدك في يدي، فإن قبـضت عليها وعصرتها، فـاعلم أنه لم يقبل مني شيء منها، فاعمد إلى الكتب، وألقها في دجلة، وإن بسطت يدي، فاعلم أنها قبلت.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي.

قال الرجل: فلما احتضر، وضعت يدي في يده، فبسطها، فأظهرت كتبه.

**قلت:** آخر من روى عنه أبو العز ابن كادش.

**قال أبو الفضل بن خيرون:** كان رجلاً عظيم القدر، متقدمًا عند السلطان، أحد الأئمة، له التصانيف الحسان في كل فن، بينه وبين القاضي أبي الطيب في الوفاة أحد عشر يومًا.

**وقال أبو عمرو ابن الصلاح:** هو متهم بالاعتزال، وكنت أتأول له، وأعتذر عنه، حتى وجدته يختار في بعض الأوقات أقوالهم، قال في «تفسيره»: لا يشاء عبادة الأوثان. وقال في ﴿**جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا**﴾ (الأنعام:١١٢)، معناه: حكمنا بأنهم أعداء، أو تركناهم على العداوة، فلم نمنعهم منها. فتفسيره عظيم الضرر، وكان لا يتظاهر بالانتساب إلى المعتزلة، بل يتكتم، ولكنه لا يوافقهم في خلق القرآن، ويوافقهم في القدر؛ قال في قوله: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ (القمر:٤٩) أي: بحكم سابق. وكان لا يرى صحة الرواية بالإجازة.

وروى خطيب الموصل، عن ابن بدران الحلواني، عن الماوردي.

** ** **

# بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة المؤلف

أخبـرنا الشيـخ الإمام الحـافظ، أبو بكر مـحمّـد بن طَرَخـان بن بَلْتكين بن بُجكم ﷺ، قـال: قال الشـيخ الأديب أبو شُـجاع فـارس بن الحـسين الذُّهليّ السُّهرَوَرْدي، قال:

أخبـرنا الشيخ الإمـام أقضى القضـاة أبو الحسن عليّ بن مـحمّد بن حَـبيبٍ البصريّ الماورديّ ـ رحمه الله تعالى ـ:

الحمـدُ لله ذي الطَّوْلِ والآلاء، وصلى الله على سـيدنا مـحمد خـاتمِ الرسل والأنبياء وعلى آله وصحابته الأتقياء.

*أما بعد:*

فإنَّ شـرفَ المطلوب بشرفِ نتـائجه، وعظَمَ خَطَرِه بكثـرة منافعـه، وبحسَبِ منافعه تجبُ العناية به، وعلى قدرِ العناية به يكونُ اجْتناءُ ثمرته.

وأعظمُ الأمورِ خَطَرًا وَقَدْرًا، وأعمُّها نَفْعًا ورفْدًا، ما استقامَ به الدِّين والدُّنيا، وانتظم به صلاحُ الآخـرة والأولى، لأنَّ باستقـامَة الدِّين تصحُّ العِبـادة، وبصلاح الدُّنيا تتمُّ السَّعادة.

وقـد تَوَخَّيت بهـذا الكتـاب الإشارةَ إلى آدابهـما، وتـفصـيلَ ما أُجْـمِلَ من أحوالهما، على أعدل الأمرين: من إيجـاز وبَسْط، أجمَعُ فـيه بين تحقيق الفُقَهاء، وترقيـق الأدباء، فلا ينبُـو عن فـهمٍ، ولا يـدقُّ في وَهْمٍ، مسـتشهِدًا من كتاب الله ـ جلَّ اسمُه ـ بما يقتضيه، ومن سُنَن رسـولِ الله ﷺ بما يضاهيه، ثم مُتْبعًا ذلك بأمثـال الحكماء، وآدابِ البلغـاء، وأقوال الشعـراء؛ لأنَّ القلوب ترتاح إلى الفنون المختلفة، وتسأم من الفنِّ الواحد، وقد قال عليّ بن أبي طالب ﷺ: «إنَّ القلوب تملُّ كمـا تملُّ الأبدان، فأهدوا إليها طرائفَ الحـكمة»، فكأنَّ هذا الأسلوب، يحبُّ التنقُّل في المطلوب، مـن مكان إلى مكان، وكان المأمـون ـ رحـمه الله تعـالى ـ،

يتنقَّل كثيرًا في داره، من مكان إلى مكان، وينشدُ قولَ أبي العتاهية:

**لا يُصْلِحُ النَّفْسَ إن كانَتْ مُدَبَّرَةً إلاَّ التنقّلُ مِن حالٍ إلى حالِ**

وجعلتُ ما تضمنه هذا الكتاب خمسة أبواب:

**فالبابُ الأول** ـ في فضل العقل، وذمِّ الهوى.

**والباب الثاني** ـ في أدب العلم.

**والباب الثالث** ـ في أدب الدِّين.

**والباب الرابع** ـ في أدب الدنيا.

**والباب الخامس** ـ في أدب النفس.

وأنا أستمِدُّ من الله تعالى حسنَ مَعُونته، وأستَودعه حِفاظ مَوْهبتِهِ بحوله ومَشيئته، وهوَ حَسْبي من مُعِينٍ حَفيظٍ، عليه توكَّلْتُ.

★★

## الباب الأول

# في فضل العقل وذم الهوى

اعلم أنَّ لكُلِّ فضيلة أُساً، ولكُلِّ أدب يَنبوعًا، وأسُّ الفضائلِ، ويَنبُوعُ الآداب، هو العقلُ، الذي جعله الله تعالى للدِّين أصلاً، وللدُّنيا عمادًا، فأوجَبَ التكليفَ بكماله، وجَعَلَ الدُّنيا مُدبَّرةً بأحكامه، وألَّف به بين خَلْقه، مع اختلافِ هِمَمِهم ومآربِهم، وتباينِ أغراضِهم ومقاصِدِهم؛ وجَعَلَ ما تَعَبَّدَهُمْ به قسمين:

قسمًا: وَجَبَ بالعقل، فوكَّده الشرعُ.

قسمًا: جاز في العقل، فأوجبَه الشرعُ؛ وكان العقل عليهما عيارًا.

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**ما اكتسَبَ المرءُ مثلَ عقلٍ يَهدِي صاحبَه إلى هُدى، أو يردُّه عن رَدى**»[1].

ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ، أنه قال: «**لِكُلِّ شيءٍ دِعامةٌ، ودِعامةُ عَمَلِ المَرْءِ عقلُه**»[2]. فبقدر عقله تكونُ عبادتُه لربِّه، أَمَا سمعتم قولَه تعالى خبرًا عن الفُجَّار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك: ١٠).

وقال عُمَرُ بنُ الخطّاب رضي الله عنه: «أصلُ الرجُلِ عقلُه، وحَسَبُه دينُه، ومُروءته خُلُقُه». وقال الحسن البصريُّ ـ رحمه الله ـ: «ما استَوْدَعَ الله أحدًا عقلاً، إلاَّ استنقذَه[3] به يومًا ما». وقال بعضُ الحكماء: «العقلُ أفضلُ مَرجُوٍّ، والجهلُ أَنْكَى[4] عدوٍّ». وقال بعضُ الأدباء: «صديقُ كُلِّ امرئٍ عقلُه، وعدوُّه جهلُه». وقال بعضُ البلغاء: «خيرُ المواهبِ العقلُ، وشرُّ المصائبِ الجهلُ».

وقال بعضُ الشعراء، وهو إبراهيمُ بن حسَّان:

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٦٦٠)، وقال: إسناده ضعيف.

(٢) مسند الحارث «زوائد» (٨٤٠).

(٣) استنقذه: أنجاه.

(٤) انكى: أعظم إيذاءً وضررًا.

يَزِينُ الفتَى في النَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِهِ ... وإنْ كانَ محظُوراً عليه مكاسِبُهْ[1]

يَشِينُ الفتَى في النَّاسِ قِلَّةُ عَقْلِه ... وإنْ كَرُمَتْ أعراقُهُ ومَناسِبُهْ[2]

يعيشُ الفتَى بالعقل في النَّاسِ إنَّهُ ... على العقلِ يجري علمُه وتجارِبُهْ

وأفضَلُ قَسْمِ اللهِ للمرءِ عقلُه ... فليسَ مِنَ الأشياءِ شيءٌ يقارِبُهْ[3]

إذا أكمَلَ الرحمنُ للمرءِ عقلَه ... فقد كَمَلَتْ أخلاقُه ومآرِبُهْ

واعلم أنَّ بالعقل تُعرفُ حقائقُ الأمور، ويُفصَل بين الحسناتِ والسيئاتِ، وقد ينقسم قسمين: غريزيٌّ ومكتسَبٌ.

فالغريزيّ هو العقل الحقيقي، وله حدٌّ يتعلَّقُ به التَّكليفُ، لا يتجاوزه إلى زيادة، ولا يقصرِّ عنه إلى نقصان، وبه يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان، فإذا تمَّ في الإنسان سُمِّي عاقلاً، وخرج به إلى حدِّ الكمال، كما قال صالح بن عبد القُدُّوس:

إذا تمَّ عَقْلُ المرء تَمَّتْ أُمُورُهُ ... وَتَمَّتْ أمانيه وتَمَّ بناؤُهُ

ورُوي عن الضَّحَّاك في قوله تعالى: ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ (يس: ٧٠) أي: من كان عاقلاً.

واختلف الناس فيه وفي صفته على مذاهبَ شتى، فقال قوم: هو جوهرٌ لطيف، يفصل به بين حقائق المعلومات، ومن قال بهذا القول اختلفوا في محلِّه؛ فقالت طائفة منهم: محلُّه الدِّماغ؛ لأنَّ الدِّماغ محلُّ الحسّ، وقالت طائفة أخرى منهم: محلُّه القلبُ؛ لأنَّ القلبَ مَعْدن الحياة، ومادة الحواسّ.

وهذا القول في العقل بأنه جوهرٌ لطيفٌ، فاسدٌ من وجهين:

أحدهما ـ أن الجواهر متماثلة، فلا يصحُّ أن يوجِبَ بعضها ما لا يُوجبه سائرُها، ولو أوجَبَ سائرها ما يوجبه بعضها، لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله.

---

(١) محظوراً عليه مكاسبه: قليل المال والمتاع.

(٢) الأعراق: جمع عِرق أي أصل المرء، والمناسب: جمع مَنْسب، وهو النسب.

(٣) قَسم: عطاء.

**والثاني** - أنَّ الجوهر يصحُّ قيامُه بذاته، فلو كان العقل جوهرًا لجاز أن يكون عقلٌ بغير عاقل، كما جاز أن يكون جسمٌ بغير عقلٍ، فامتنع بهذين أن يكون العقلُ جوهرًا.

**وقال آخرون**: العقلُ: هو المُدْركُ للأشياء على ما هي عليه من حقائق المعنى، وهذا القولُ وإن كان أقربَ ممَّا قبلَه، فيبعد من الصَّواب من وجه واحد، وهو أنَّ الإدراك من صفات الحيِّ، والعقل عَرَض، يَستحيلُ ذلك منه، كما يستحيل منه أن يكون ملتذًا وآلمًا ومشتهيًا.

**وقال آخرون من المتكلمين**: العقلُ هو جملةُ العلوم الضرورية، وهذا الحدُّ[1] غيرُ محصورٍ، لما تضمَّنه من الإجمال، وتناوله من الاحتمال، والحدُّ إنَّما هو بيانُ المحدودِ، بما ينفي عنه الإجمال والاحتمال.

**وقال آخرون**، وهو القولُ الصحيح: إنَّ العقل هو العلمُ بالمدركات الضَّرورية؛ وذلك نوعان: أحدهما: ما وقع عن دَرْك الحواس. والثاني: ما كان مبتدأً في النفوس.

فأمَّا ما كان واقعًا عن دَرْك الحواسِّ، فمثل المرئيات المدركة بالنظر، والأصوات المدركة بالسَّمع، والطُّعُوم المدركة بالذَّوق، والروائح المدركة بالشمِّ، والأجسامِ المدركة باللمس، فإذا كان الإنسان ممن لو أدرك بحواسِّه هذه الأشياء لعلم، ثبت له هذا النوع من العلم؛ لأنَّ خروجه في حال تغميضِ عينيه من أنْ يدركَ بهما ويَعْلَم، لا يخرجُه من أنْ يكونَ كاملَ العقلِ، من حيث عُلم من حاله أنَّه لو أدرك لَعَلِمَ.

وأما ما كان مبتدأً في النفوس، فكالعلم بأنَّ الشيء لا يخلو من وجودٍ أو عَدَمٍ، وأنَّ الموجودَ لا يخلُو من حُدُوثٍ أو قِدَمٍ، وأنَّ من المُحَال اجتماعَ الضِّدَّين، وأنَّ الواحدَ أقلُّ من الاثنين. وهذا النوعُ من العِلم لا يجوزُ أن ينتفيَ عن العاقل، مع سلامة حاله، وكمالِ عقله، فإذا صار عالمًا بالمدركاتِ الضرورية من هذين النوعين فهو كاملُ العقلِ.

وسُمِّي بذلك تشبيهًا بعَقْل الناقة؛ لأنَّ العَقْلَ يمنَعُ الإنسانَ من الإقدام على

(١) الحدُّ: التعريف.

شهواته إذا قَبُحَتْ، كما يمنعُ العقالُ النَّاقةَ من الشُّرود إذا نَفَرت، ولذلك قال عامر ابن عبد القيس: «إذا عقَلَكَ عمَّا لا ينبغي، فأنتَ عاقلٌ».

وقد جاءت السُّنَّة بما يؤيّد هذا القولَ في العقل، وهو ما رُوي عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**العَقْلُ نورٌ في القلبِ، يَفْرق بين الحقِّ والباطلِ**»[1]. وكُلُّ مَن نَفَى أن يكونَ العقلُ جوهرًا، أثبتَ مَحَلَّه في القلب، لأنَّ القلبَ محلُّ العُلوم كلِّها، قال الله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا**﴾ (الحج:٤٦)، فدلت هذه الآية على أمرين: أحدهما: أنَّ العقل علمٌ. والثاني: أنَّ محلَّه القلبُ.

وفي قوله تعالى: ﴿**يَعْقِلُونَ بِهَا**﴾، تأويلان: أحدهما: يعلمون بها، والثاني: يعتبرون بها. فهذه جملةُ القولِ في العقلِ الغريزيّ.

وأما العقلُ المكتسَبُ، فهو نتيجة العقل الغريزيِّ، وهو نهايةُ المعرفة، وصحةُ السياسة، وإصابةُ الفكر، وليس لهذا حدٌّ؛ لأنَّه يزيد إنْ استُعمِلَ، ويَنقُصُ إنْ أُهمِلَ. ونماؤه يكونُ بأحد وجهين:

إمَّا بكثرة الاستعمال إذا لم يعارضْه مانعٌ من هوًى، ولا صادٌّ من شهوة، كالذي يحصُلُ لذوي الأسنان[2] من الحُنْكَة[3] وصحَّة الرَّوِيَّة[4]؛ بكثرة التجارب، وممارسة الأمور، ولذلك حَمِدَت العربُ آراءَ الشيوخ، حتى قالوا: المشايخُ أشجارُ الوَقَار، ومنابعُ الأخبار، لا يَطيشُ لهم سَهْمٌ، ولا يسقطُ لهم وهْمٌ، إن رأوك في قبيحٍ صدُّوكَ، وإن أبصرُوك على جميلٍ أمدُّوك، وقالوا: عليكم بآراء الشيوخ؛ فإنَّهم إن فقدوا ذكاءَ الطبْع، فقد مرَّت على عيونهم وجوهُ العِبَر، وتصدَّت لأسماعهم آثار الغِيَر[5]. وقيل في منثور الحكم: مَنْ طالَ عمرهُ نقَصَتْ قوَّةُ بدنه، وزادَتْ قوَّةُ عقله. وقيل فيه: لا تَدَعُ الأيامُ جاهلاً إلا أدبَّته، وقال بعضُ الحكماء: كفَى بالتجاربِ تأديبًا، وبتقلُّب الأيَّام عظَةً. وقال بعضُ البلغاء: التجربة مرآة العقل، والغِرَّة[6] ثمرة الجهل.

---

(١) لم اجده: ولكن ورد في «التعريفات» للجرجاني على أنه قول وليس بحديث.

(٢) ذوو الأسنان: الشيوخ. (٣) الحُنكة: الحكمة المستفادة من التجارب.

(٤) الروية: التفكر والنظر. (٥) الغِيَر: أحداث الدهر.

(٦) الغرة: الغفلة.

وقال بعضُ الأدباء: كفى مُخْبِراً عمَّا بَقِيَ ما مضى، وكَفَى عِبَراً لأولي الألبابِ ما جرَّبوا. وقال بعضُ الشعراء:

أَلَم تَرَ أنَّ العَقْلَ زَيْنٌ لأهْلِهِ ... ولكنْ تَمَامُ العقْل طُولُ التجاربِ

وقال آخر:

إذا طالَ عُمْرُ المرءِ في غيرِ آفةٍ ... أفادَتْ لها الأيَّامُ في كَرِّها عَقْلا

وأمَّا الوجْهُ الثاني فقد يكونُ بفَرطِ الذَّكاءِ، وحُسْنِ الفطْنَة، وذلك جَوْدة الحَدْسِ، في زمان غير مُمْهِل للحَدْسِ، فإذا امتزج بالعقلِ الغريزيِّ، صارت نتيجتُهما نموَّ العقلِ المكتَسَب، كالذي يكون في الأحداث من وُفور العقل، وجَودة الرأي، حتى قال هَرِمُ بن قُطْبة، حين تنافَرَ إليه عامرُ بن الطُّفَيل، وعَلْقَمةُ بنَ عُلاثَةَ: عليكم بالحديث السنِّ، الحديد الذهن. ولعلَّ هَرِمًا أراد أن يدفعهما عن نفسه، فاعتذَرَ بما قال، لكنْ لم يُنكِرا قولَه، إذعانًا للحقِّ، فصارا إلى أبي جَهْلٍ، لحداثة سنِّه، وحِدَّة ذهنه، فأبى أن يحكم بينهما، فرجعا إلى هَرِمٍ، فحكم بينهما، وفيه يقول لَبيدٌ:

يا هَرِمَ ابنَ الأكرمِينَ مَنْصِبَا ... إنَّكَ قد أوتيتَ حُكْمًا مُعْجِبا

وقد قالت العرب: عليكم بمشاورة الشباب، فإنَّهم يُنْتِجون رأيًا لم ينلْهُ طولُ القِدَم، ولا استولت عليه رطوبة الهَرَم، وقد قال الشاعر:

رأيْتُ العَقْلَ لَم يكن انتهابًا ... ولم يُقْسَمْ على عَدَدِ السِّنينا
ولو أنَّ السِّنينَ تقاسَمَتْهُ ... حَوَى الآباءُ أنْصِبَةَ البنينا

حكى الأصمعيُّ ـ رحمه الله ـ قال: قلت لغلام حَدَث من أولاد العرب كان يحادثني، فأمتعني بفصاحته وملاحته: أيسرُّكَ أن يكونَ لكَ مئةُ ألف درهم وأنتَ أحمقُ؟ قال: لا والله. قلْتُ: ولم؟ قال: أخافُ أن يجنيَ عليَّ حمقي جنايةً تذهب بمالي، ويبقَى عليَّ حُمْقِي. فانظرْ إلى هذا الصبيِّ كيفَ استَخْرَجَ بفَرْط ذكائه، واستنبَطَ بجودة قريحته، ما لعلَّه يدقُّ على مَنْ هو أكبرُ منه سنًا، وأكثرُ تجربَةً.

وأحسنُ من هذا الذَّكاء والفطنة، ما حكى ابنُ قُتيبةَ: أنَّ عمرَ بنَ

الخطَّاب رضي الله عنه، مَرَّ بصبيان يلعبون، وفيهم عبدُ الله بنُ الزُّبير، فهربوا منه إلاّ عبدَ الله، فقال له عمر رضي الله عنه: ما لكَ؟ لِمَ لم تهربْ مع أصحابك؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين، لم أكُنْ على ريبةٍ فأخافك، ولم يكن بالطريق ضيقٌ فأوسعَ لك.

فانظر ما تضمَّنه هذا الجوابُ من الفطْنَة، وقوَّة المُنَّة، وحُسْنِ البَديهة؛ كيف نَفَى عنه اللَّومَ، وأثبتَ له الحجَّة؛ فليس للذَّكاء غايةٌ، ولا لجودة القَريحة نهايةٌ.

حُكي أنَّ سليمان بن عبد الملك أمَرَ الفَرزْدَق بضرب أعناق أُسَارَى من الروم، فاستعفاه الفرزدقُ، فلم يفعَلْ، فأعطاه سيفًا لا يقطَعُ شيئًا، فقال الفرزدقُ: بل أضربهم بسيف أبي رَغْوان مُجاشع، يعني سيف نفسه، فقام فضرَبَ به عنقَ روميٍّ منهم، فنبا السَّيفُ عنه، فضحكَ سليمانُ ومَنْ حولَه، فقال الفرزدَقُ:

أيعجَبُ النَّاسُ أن أضْحَكْتُ سيِّدَهُمْ ... خليفةَ الله يُسْتَسْقَى به المطَرُ

لم ينْبُ سيفيَ من رُعْبٍ ولا دَهَشٍ ... عن الأسيرِ ولكنْ أُخِّرَ القَدَرُ

ولَنْ يُقدِّمَ نَفْسًا قبلَ ميتتِها ... جمعُ اليَدَيْنِ ولا الصَّمْصامةُ الذكَرُ[1]

ثم غمدَ سيفَه وهو يقولُ:

ما إنْ يُعَابُ سيِّدٌ إذا صَبَا ... ولا يُعابُ صارِمٌ إذا نَبَا

ولا يُعابُ شاعرٌ إذا كَبَا

ثم جلس وهو يقول: كأني بابن المَرَاغة[2] قد هجاني، فقال:

بسيفُ أبي رَغْوانَ سيفِ مُجاشعٍ ... ضَرَبْتَ ولم تضرب بسيفِ ابنِ ظالمِ

ثم قام فانصرف، وحضر جريرٌ، وخُبِّرَ الخبر، ولم ينشَدْ له الشعرُ، فأنشأ يقول:

بسيفِ أبي رَغْوانَ سيفِ مجاشعٍ ... ضَرَبْتَ ولم تضرب بسيفِ ابنِ ظالمِ

ثم قال: يا أميرَ المؤمنين، كأنِّي بابن القَيْنِ[3] وقد أجابَني، فقال:

ولا نَقتلُ الأسْرَى ولكنْ نَفُكُّهُم ... إذا أثقَلَ الأعناقَ حَمْلُ المغارمِ

---

(١) الصمصامة الذكر: السيف المتين.

(٢) يريد جريرًا. (٣) يريد الفرزدق.

فاستحسن سليمان حَدْسَ الفرزدقِ على جرير، ثم أخبر الفرزدق بشعر جريرٍ ولم يُخبرْ بحدْسه، فقال الفرزدقُ:

كذاكَ سيوفُ الهندِ تَنْبُو ظُباتُها ... وتقطعُ أحيانًا مَنَاطَ التمائمِ[١]

ولن نقتلَ الأسرى ولكن نفكُّهُم ... إذا أثقلَ الأعناقَ حَمْلُ المغارمِ

وهل ضَربةُ الروميِّ جاعِلةٌ لكُم ... أبًا عن كُلَيْبٍ أو أخًا مثلَ دَارِمِ

فشاع حديثُ الفرزدق بهذا، حتى حُكي أنَّ المهدي أُتي بأسرى من الروم، فأمر بقتلهم، وكان عنده شبيب بن شَيْبَةَ، فقال له: اضربْ عنقَ هذا العِلْجِ[٢]، فقال: يا أميرَ المؤمنين، قد عرفتَ ما ابتُلي به الفَرزدَقُ، فعُيِّر به قومُه إلى اليوم، فقال: إنَّما أردتُ تشريفَكَ، وقد أعفيتُكَ، وكان أبُو الهول الشاعر حاضرًا، فقال:

جَزِعْتَ مِن الروميِّ وهْوَ مُقَيَّدٌ ... فكيفَ ولو لاقَيْتَهُ وهْوَ مُطْلَقُ

دعاكَ أميرُ المؤمنينَ لقتلهِ ... فكاد شبيبٌ عندَ ذلك يَفْرَقُ[٣]

فنحِّ شَبيبًا عن قِراعِ كتيبةٍ ... وأَدْنِ شبيبًا من كلامٍ يُلفَّقُ

وليس العَجَب من خبر الفرزدق ـ إن صحَّ ـ من جودة القريحتين، ولكنَّ العجبَ من اتفاق الخاطرين، ولمثل ذلك قالت الحكماء: آية العقل سرعةُ الفَهْم، وغايتُه إصابةُ الوَهْمِ.

وليس لمن مُنحَ جَودةَ القريحة، وسرعةَ الخاطر، عَجْزٌ عن جوابٍ وإن أعضل[٤]، كما قيل لعليٍّ ﷺ: كيف يحاسبُ الله العبادَ على كثرة عَدَدهم؟ فقال: كما يرزقهم على كثرة عَدَدهم. وقيل لعبد الله بن عباس ﷺ: أين تذهبُ الأرواح إذا فارقَت الأجسادَ؟ فقال: أين تذهب نارُ المصابيح عند فناء الأدهان؟ وهذان الجوابان جوابا إسكاتٍ، تضمَّنا دليل إذعانٍ، وحجَّتَيْ قَهرٍ.

---

(١) الظُبة: حد السيف، ومَناط التمائم: الرقاب.

(٢) العلج: الرجل الغليظ من الكفار.

(٣) يَفرَق: يرتعد ويضطرب خوفًا.

(٤) أعضل: أشكل وصَعُب.

ومن غيـر هذا الفن، وإن كان مُسكتًا، مـا حُكي أنَّ إبليسَ ـ لعنه الله ـ حين ظهر لعيسى ابن مريم ـ عليه السـلام ـ، قال له: ألستَ تقولُ إنَّه لن يصيبَكَ إلاَّ ما كتبه الله عليكَ؟ قال: نعم، قال: فـارْمِ بنفسك من ذُرْوة هذا الجبل، فإنَّه إن يُقدَّر لك السَّلامةُ تـسلَمْ؛ فقال له: يا ملعونَ إنَّ لله أن يخـتبرَ عباده، وليـس للعبد أن يختبرَ ربَّه.

ومثلُ هذا الجـواب لا يُستغـرب من أنبياء الله تـعالى، الذين أمدَّهم بوحـيه، وأيَّدهم بنصره، وإنَّما يُستغرب ممَّن يلجأ إلى خاطره، ويعولُ على بديهته، ورَوى قُـثَمُ بن العـبَّاس ﷺ، قـال: قَـيل لعليِّ بن أبي طالب ﷺ: كم بين السـمـاء والأرض؟ قال: دعوةٌ مستجابةٌ. قـيل: فكم بين المشرق والمغرب؟ قال: مَسيرةُ يومٍ للشمس. فكان هذا السؤال من سائله: إما اختبـارًا وإما استبصارًا، فصدر عنه من الجواب ما أسكَتَ.

فأما إذا اجتمع هذان الوجهان في العـقل المكتسَب، وهو ما ينميه فَرْطُ الذكاء بجودة الحَدْسِ، وصـحةُ القريحة بحـسْنِ البَديهة، مع مـا ينميه الاستعـمالُ بطول التجارب، ومـرورُ الزمان بكثرة الاختبار، فـهو العقلُ الكاملُ على الإطلاق، من الرجل الفاضـل بالاستحـقاق. رَوَى أنس بن مالك ﷺ، قـال: أُثنِيَ على رجلٍ عندَ رسول الله ﷺ بـخير، فـقال: كـيفَ عقلُه؟ قالـوا: يا رسولَ الله، إنَّ من عبادته.. إنَّ من خُلُقه.. إنَّ من فضله.. إنَّ من أدبه.. فقال كيفَ عقلُه؟ قالوا: يا رسولَ الله نُثني عليه بالعبادة وأصناف الخير، وتسألُنا عن عقله؟ فقال رسولُ الله ﷺ: **«إنَّ الأحـمقَ العـابدَ يُصيبُ بجهله أعظمَ من فجور الفـاجرِ، وإنما يَقْرُبُ الناسُ من ربِّهم بالزُّلَف**[(١)] **، على قدر عقولهم»**[(٢)].

واختلَفَ النَّاسُ في العـقل المكتسَب إذا تناهَى وزَادَ، هل يكونُ فـضيلةً أم لا؟ فقال قوم: لا يكون فضيلةً؛ لأنَّ الفضائلَ هيـئاتٌ متوسطةٌ بين خصلتين ناقصتَين، كما أنَّ الخيرَ توسُّطٌ بين رذيلتين، فما جـاوزَ التوسُّطَ خَرَجَ عن حَدِّ الفضيلة. وقد

(١) الزلف: جمع زُلْفة وهي المنزلة والقربة.
(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في «النوادر» (٢/ ٣٥٧).

قالت الحكماء للإسكندر: أيُّها الملك! عليك بالاعتدال في كُلِّ الأمور، فإنَّ الزيادة عَيبٌ، والنقصانَ عَجزٌ. هذا ما وردت به السُّنَّةُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**خيرُ الأمورِ أوسَاطُها**»[1]. وقال عليّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه: خير الأمور النَّمَطُ الأوسَطُ، إليه يرجع العالي، وبه يلحق التالي، وقال الشاعر:

**لا تَذهَبَنَّ في الأمورِ فَرَطا ... لا تسألَنَّ إن سألْتَ شَطَطَا**

**وَكُن مِنَ النَّاسِ جَميعًا وسَطا**

قالوا: لأنَّ زيادة العقل تُفْضي بصاحبها إلى الدَّهاء والمكر، وذلك مذمومٌ، وصاحبُه مَلومٌ. وقد أمر عُمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه أبا موسى الأشعريَّ أن يعزلَ زيادًا عن ولايته، فقال زياد: يا أميرَ المؤمنين، أعَنْ مَوْجدة[2] أم خيانة؟ فقال: لا عن واحدةٍ منهما، ولكن خِفْتُ أن أحملَ على الناس فضْلَ عقلِكَ.

ومن أجل هذا المحكيّ عن عُمر رضي الله عنه، ما قيل قديمًا: إفراطُ العقلِ مُضرٌّ بالجسد. وقال بعضُ الحكماء: كفاكَ مِنْ عقلكَ ما دلَّكَ على سبيل رُشْدِكَ. وقال بعضُ البلغاء: قليلٌ يكفي خيرٌ من كثيرٍ يُطغي.

وقال آخرون وهو أصحُّ القولين: زيادةُ العَقْلِ فضيلةٌ؛ لأنَّ المكتسَبَ غيرُ محدود؛ وإنَّما تكون زيادةُ الفضائل المحدودة نقصًا مذمومًا، لأن ما جاوز الحدَّ لا يسمَّى فضيلةً، كالشجاع إذا زاد على حَدِّ الشجاعة، نُسبَ إلى التَّهور؛ والسخيّ إذا زاد على حَدِّ السَّخاء نُسب إلى التبذير، وليس كذلكَ حالُ العقل المكتسَب؛ لأنَّ الزيادة فيه زيادةُ علْمٍ بالأمور، وحُسْن إصابة بالظُّنون، ومعرفةُ ما لم يكن إلى ما يكون، وذلك فضيلةٌ لا نقصٌ.

وقد رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**أفضَلُ النَّاسِ أعْقَلُ النَّاس**»[3]. ورُوي عنه ﷺ أنه قال: «**العَقْلُ حيثُ كان ألُوف مألوفٌ**»[4]، وقد قيلَ في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ (الإسراء: ٨٤)، أي: بحسب عقله، وقال القاسم

---

(١) **منقطع**: أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٣/ ٢٧٣) من طريق ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد عن هارون عن كنانة أن النبي ﷺ.

(٢) أي غضب. (٣) انظر مسند الحارث في «زوائد الهيثمي» (٢/ ٨١٢) (٨٣٧).

(٤) روى علي بن بهرام ثنا عبد الملك بن أبي كريمة عن بن جريج عن عطاء عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن إلف مألوف ولا خير في من لا يألف وخير الناس أنفعهم للناس**».

ابن محمد: كانت العرب تقول: من لم يكن عقلُه أغلَبَ خصال الخير عليه، كان حَتْفُه في أغلب خصال الخير عليه. وقيل في منثور الحكم: كُلُّ شيءٍ إذا كثُرَ رَخُصَ إلاَّ العقلَ، فإنَّه إذا كثُرَ غلا. وقال بعضُ البلغاء: إنَّ العاقلَ مِنْ عقله في إرشاد، ومِنْ رأيه في إمداد، فقولُه سديدٌ، وفعلُه حميدٌ؛ والجاهلُ مِن جهله في إغواءٍ، ومِن هواه في إغواءٍ، فقولُه سقيمٌ، وفعلُه ذميمٌ. وأنشدني ابنُ لَنْكَكَ لأبيه:

مَنْ لم يكُن أكثَرُهُ عقلَه أهْلَكَهُ أكثَرُ ما فيهِ

وأما الدَّهاءُ والمكرُ فهو مذمومٌ؛ لأنَّ صاحبَه صَرَفَ فَضْلَ عَقْله إلى الشرِّ، ولو صَرَفَهُ إلى الخير لكان محمودًا. وقد ذَكَر المغيرةُ بن شُعْبة عمرَ بنَ الخطاب ﷺ فقال: كان والله أفضل من أن يَخْدَعَ، وأعقَلَ من أن يُخدَعَ. وقال عمرُ ﷺ: لستُ بالخِبِّ[1]، ولا يَخْدعني الخِبُّ. واختلفَ النَّاسُ فيمن صَرَفَ فَضْلَ عقله إلى الشرِّ، كزياد[2] وأشباهه من الدُّهَاة: هل يُسمَّى الداهيةُ منهم عاقلاً أم لا؟ فقال بعضُهم: أسمِّيه عاقلاً؛ لوجود العَقْل منه؛ وقال آخرون: لا أسمِّيه عاقلاً حتى يكونَ خيِّرًا ديِّنًا؛ لأن الخيرَ والدِّينَ من مُوجَبات العقل، فأمَّا الشرِّيرُ فلا أسمِّيه عاقلاً، وإنَّما أسمِّيه صاحبَ رَوِيَّةٍ وفكرٍ.

وقد قيلَ: العاقلُ مَنْ عَقَلَ عن الله أمره ونهيه، حتى قال أصحاب الشافعيِّ ﷺ، فيمن أوصَى بثُلُث ماله لأعقلِ النَّاسِ: إنَّه يكون مصروفًا في الزُّهَّاد؛ لأنَّهم انقادوا للعقل، ولم يغترُّوا بالأمَل.

وروى لُقمان بن عامر عن أبي الدَّرْدَاء: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**يا عُوَيْمر، ازْدَدْ عقلاً تزدَدْ من ربِّك قربًا**». قلتُ: بأبي أنتَ وأمِّي! ومَن لي بالعقل؟ قال: «**اجْتَنِبْ محارمَ الله، وأدِّ فرائضَ الله، تكُنْ عاقلاً، ثم تنفَّلْ بصالحات الأعمال، تَزْدَدْ في الدُّنيا عقلاً، وتَزْدَدْ مِن رَبِّك قربًا، وبه عزًا**»[3].

وأنشدني بعضُ أهلِ الأدب هذه الأبياتَ، وذكر أنَّها لعليِّ بن أبي طالب ﷺ:

---

(١) الخب: المخادع.

(٢) هو زياد ابن أبيه أحد دهاة العرب.

(٣) مسند الحارث «زوائد» (٢/٨٠٨) (٨٢٩).

إنَّ المكارمَ أخلاقٌ مطهَّرةٌ ... فالعَقْلُ أوَّلُها، والدِّين ثانيها
والعِلْمُ ثالثُها، والحِلْمُ رابعُها ... والجودُ خامسُها، والعُرفُ سادِيها
والبرُّ سابعُها، والصَّبْرُ ثامنُها ... والشُّكْرُ تاسعُها، واللينُ عاشِيها
والنَّفْسُ تعلَمُ أنّي لا أصدِّقُها ... ولسْتُ أَرْشُدُ إلاَّ حينَ أعصِيها
والعَينُ تعلَمُ من عينيْ محدِّثها ... إن كان مِن حزبِها أو مِن أعادِيها
عيناكَ قد دلَّتا عينيَّ منك على ... أشياءَ لولاهما ما كنتَ تُبديها

واعلَمْ أنَّ العقْلَ المكتسَبَ لا ينفكُّ عن العَقْلِ الغريزيِّ؛ لأنه نتيجة منه، وقد ينفكُّ العَقْلُ الغريزيُّ عن العقل المكتسَب، فيكونُ صاحبُه مسلوبَ الفضائلِ، موفورَ الرَّذائلِ، كالأنْوَكِ[1] الذي لا تجد له فضيلةً، والأحمق الذي قلَّما يخلو من رذيلة، وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«الأحْمَقُ كالفَخَّار، لا يُرْقَعُ ولا يُشْعَب»**[2]. ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«الأحْمَقُ أبغَضُ خَلْقِ الله إليه، إذْ حَرَمَهُ أعزَّ الأشياءِ عليه»**[3]. وقال بعضُ الحكماء: الحاجَةُ إلى العقلِ أقبَحُ مِنَ الحاجة إلى المال. وقال بعضُ البلغاء: دَوْلَةُ الجاهلِ عِبْرةُ العاقلِ.

وقال أنوشِرْوان لبُزُرْجُمُهْر: أي الأشياء خيرٌ للمرء؟ قال: عقل يعيش به، قال: فإن لم يكن؟ قال: فإخوان يسترُون عيبَهُ، قال: فإن لم يكن؟ قال: فمالٌ يتحبَّبُ به إلى النَّاسِ، قال: فإن لم يكن؟ قال: فعِيٌّ[4] صامتٌ، قال: فإن لم يكن؟ قال: فموتٌ جارفٌ.

وقال سابور بن أَرْدَشير: العقلُ نوعان؛ أحدُهما مطبوعٌ، والآخرُ مسموعٌ، ولا يصلُح واحدٌ منهما إلاَّ بصاحبه. فأخذ ذلك بعضُ الشعراء، فقال:

رأيْتُ العَقْلَ نَوْعَيْنِ ... فمسموعٌ ومطبُوعُ
فلا ينفَعُ مسمُوعٌ ... إذا لم يكُ مطبُوعُ

---

(١) الأنوك: الأحمق.
(٢، ٣) لم أصل إليه.
(٤) العي: الجهل.

كـمـا لا تنفع الشـمسُ وضـوءُ العينِ ممنوعُ

وقد وصف بعضُ الأدباء العـاقلَ بما فيه من الفـضائل، والأحمقَ بما فـيه من الرذائل، فقال:

العاقلُ إذا والَى بَذَلَ في المودَّة نَصْره، وإذا عادَى رَفَعَ عن الظلم قدره؛ فيَسْعَدُ مُواليه بعقـله، ويعتصم مُعاديه بعَدْله، إن أَحْسَنَ إلى أحد، تركَ المطالبةَ بالشُّكر، وإن أساء إليه مسيء، سبَّب له أسباب العُذْر، أو منَحه الصفْحَ والعفْوَ.

والأحْـمَقُ ضالٌّ مُـضِلٌّ، إن أُونس تكبَّـر، وإن أُوحِشَ تكدَّر، وإن اسـتُنطق تخلَّف، وإن تُرك تكلَّف، مـجالستُـه مَهَنَة[1]، ومعاتبـتُه مِحنَةٌ، ومجـاورتُه تَغُرٌّ، وموالاتُه تضُرّ، ومقاربتُه عَمى، ومقارنتُه شقا.

وكانت ملوكُ الفُرس إذا غضبت على عاقلٍ حبستْه مع جاهلٍ.

والأحمقُ يُسيء إلى غيره، ويظنُّ أنَّه قد أحـسن إليه فيطالبُه بالشُّكر؛ ويُحْسِنُ إليه فيظنُّ أنَّه قد أساء إليه فيطالبه بالوِتْر[2]؛ فَمسَاوِئ الأحْمَقِ لا تنقضِي، وعيوبُه لا تتناهَى، ولا يقفُ النظرُ منها إلى غـاية إلا لَوّحت مما وراءها، بما هو أدنى منها وأردى، وأمرُّ وأدْهى، فما أكثَرَ العِبَرَ لمن نَظَرَ، وأنفعَهَا لمن اعتبَرَ!.

وقال الأحنفُ بنُ قيسٍ: من كلِّ شيءٍ يُحفظ الأحمق، إلاَّ من نفسه.

وقال بعضُ البلغـاء: إنَّ الدُّنيا ربَّما أقبلت على الجـاهل بالاتفاق[3]، وأدبَرَتْ عن العاقل بالاستحقاق، فإنْ أتتك منها سُهْمَةٌ[4] مع جهلٍ، أو فاتتك فيها بُغْيَةٌ مع عقلٍ، فلا يحملنَّكَ ذلك على الرغبة في الجهل، والزُّهد في العقل، فدولةُ الجاهلِ من الممكنات، ودولةُ العاقلِ من الواجبـات، وليس مَنْ أمكنه شيء من ذاته، كمن استوجَبَهُ بآلته وأداته.

وبَعْدُ، فدولةُ الجاهل كالغريب، الذي يحنُّ إلى النُّقلة، ودولة العاقل كالنسيب

---

(١) مَهنة: هوان وحقارة.

(٢) فيطالبه بالوتر: يطالبه أن يرد على السيئة بمثلها.

(٣) أي من غير أن يستحقها بجهد وجدارة.

(٤) أي نصيب وحظ.

الذي يحنُّ إلى الوُصلة، فلا يفرحُ المرءُ بحالة جليلة نالها بغير عقلٍ، أو منزلة رفيعة حلَّها بغير فضلٍ؛ فإنَّ الجهل يُنْزِلُه منها، ويُزيله عنها، ويَحطُّه إلى رتبته، ويردُّه إلى قيمته، بعد أن تظهر عيوبُه، وتكثُرَ ذنوبُه، ويصيرَ مادحُه هاجيًا، ووليُّه معاديًا.

واعلم أنَّه بحسب ما ينشر من فضائل العاقل، كذلك يظهرُ من رذائل الجاهل، حتَّى يصيرَ مَثَلاً في الغابرين، وحديثًا في الآخرين، مع هَتْكِهِ في عصره، وقُبحِ ذكره في دهره، كالذي رواه عطاء عن جابر ﷺ، قال: كان في بني إسرائيلَ رجلٌ له حمار، فقال: يا رب، لو كان لك حمار لعلفتُه مع حماري! فَهَمَّ به نبيٌّ من أنبياء الله، فأوحى الله تعالى إليه: إنَّما أُثيبُ كُلَّ إنسانٍ على قدرِ عقله. واستعمل معاويةُ رجلاً من كَلْب، فذُكرَ المجوسُ يومًا عنده، فقال: لَعَنَ الله المجوسَ ينكحون أمهاتهم، والله لو أُعطيتُ عشرةَ آلاف درهمٍ ما نكحت أمِّي، فبلغ ذلك معاويةَ، فقال: قَبَّحه الله! أتَرونه لو زادُوه فَعَل؟ وعزله.

وولَّى الرَّبيع العامريّ - وكان من النَّوْكَى[1] - بعضَ منابر اليمامة، فأقاد كلبًا بكلب، فقال فيه الشاعر:

شَهِدْتُ بأنَّ الله حقٌّ لقاؤُه ... وأنَّ الرَّبيعَ العامريَّ رَقيعُ[2]
أَقادَ لنا كَلْبًا بكلبٍ ولم يَدَعْ ... دماءَ كِلابِ المسلمينَ تَضيعُ

وليس لمعارّ[3] الجهلِ غايةٌ، ولا لمضارّ الحمق نهايةٌ، وقد قال الشاعر:

لِكُلِّ داءٍ دواءٌ يُستطَبُّ بِهِ ... إلاَّ الحماقةَ أعيَتْ مَنْ يُداويها

## فصل

وأمَّا الهوى فهو عن الخير صادٌّ، وللعقل مضادٌّ؛ لأنه يُنتِجُ من الأخلاق قبائحها، ويظهر من الأفعال فضائحها، ويجعلُ سِترَ المروءة مهتوكًا، ومدخَلَ الشرِّ مسلوكًا.

---

(١) النوكى: الحمقى. (٢) رقيع: أحمق.
(٣) المعار: جمع مَعَرة وهي الأذى والضرر.

قال عبد الله بنُ عبَّاس رضي الله عنهما: الهوى إلهٌ يعبَدُ من دون الله، ثم تلا قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (الجاثية:٢٣). وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ (الحديد:١٤). يعني بالشهوات، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾: يعني بالتوبة، ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ يعني في أمر الله، ﴿وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ﴾ يعني بالتَّسْويف، ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ يعني الموت، ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (الحديد:١٤). يعني الشيطان.

ورُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «طاعةُ الشَّهْوَةِ دَاءٌ، وعِصْيانُها دَوَاءٌ»[١].

وقال عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه: اقدَعُوا[٢] هذه النُّفوس عن شَهواتها، فإنَّها طُلعة[٣]، تنزِعُ[٤] إلى شرِّ غاية، إنَّ هذا الحقَّ ثقيل مُرِّيٌّ[٥]، وإن الباطلَ خفيفٌ وَبِيٌّ[٦]، وتَرْكُ الخطيئة خيرٌ من معالجة التوبة، ورُبَّ نظرةٍ زرعَتْ شهوةً وشَهْوة ساعةٍ أورثَتْ حزنًا طويلاً.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: أخافُ عليكم اثنتين: اتباعَ الهوَى، وطولَ الأملِ، فإنَّ اتباعَ الهَوَى يصدُّ عن الحقِّ، وطولَ الأمل ينسِي الآخرة.

وقال الشَّعبيُّ: إنَّما سمِّي الهَوَى هَوى؛ لأنَّه يَهْوِي بصاحبه.

وقال أعرابيٌّ: الهوى هَوانٌ، ولكن غُلِط باسْمه. فأخذه الشاعرُ، فقال:

إنَّ الهَوَانَ هُوَ الهَوَى قُلِبَ اسْمُهُ ... فإذا هَوِيتَ فَقَدْ لَقِيتَ هَوَانا

وقيلَ في منثور الحكم: مَنْ أطاعَ هَوَاه، أَعْطى عدوَّه مُناهُ. وقال بعضُ الحُكَماء: العَقْلُ صديقٌ مقطوعٌ، والهَوَى عدوٌّ متبوعٌ. وقال بعضُ البلغاء: أفضلُ النَّاسِ مَنْ عَصَى هَوَاهُ، وأفضلُ منه مَن رَفَضَ دُنْياه. وقال هشام بن عبد الملك بن مروان:

إذا أَنْتَ لَمْ تَعْصِ الهَوَى قادكَ الهَوَى ... إلى كُلِّ مَا فِيهِ عليكَ مَقَالُ

قال ابنُ المعتز - رحمه الله -: لم يقلْ هشام بن عبد الملك سوى هذا البيت.

---

(١) لم أصل إليه.
(٢) اقدعوا: ازجروا وامنعوا.
(٣) طُلَعة: كثيرة التطلع والتشهي.
(٤) تنزع: تميل.
(٥) مري: كالدواء المر.
(٦) أصله وبيء، أي: وخيم يورث الأوبئة.

وقال الشاعر:

إذا ما رأيت المرءَ يقتادُهُ الهَوَى ... فَقَدْ ثَكِلَتْه عندَ ذاكَ ثَواكِلُهْ
وقَدْ أَشْمَتَ الأعْداءَ جَهْلاً بنفسِه ... وقَدْ وَجَدَتْ فيه مَقالاً عواذِلُهْ
وما يردعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ عن الهَوَى ... مِنَ النَّاسِ إلاّ حازمُ الرَّأْي كامِلُهْ

ولما كان الهوى غالبًا، وإلى سبيل المهالك مُوردًا، جُعِلَ العقلُ عليه رقيبًا مجاهدًا، يلاحظُ عَثْرَةَ غفلته، ويدفَعُ بادرةَ سطوته، ويوضحُ خداعَ حيلته؛ لأنَّ سلطان الهَوَى قويٌّ، ومَدخَلَ مكره خفيٌّ، ومن هذين الوجهين يُؤتَى العاقلُ، حتَّى تنفُذَ أحكامُ الهَوى عليه، أعني بأحد الوجهين: قوَّةَ سلطانه، وبالآخر: خَفَاء مكره.

**فأمَّا الوجهُ الأوَّل:** فهو أن يَقْوى سلطانُ الهَوَى بكثرة دَوَاعيه، حتَّى تستوليَ عليه مغالبةُ الشَّهوات، فيكلَّ العقلُ عن دفعها، ويضعفَ عن منعها، مع وضُوحِ قُبْحها في العقل المقهور بها، وهذا يكون في الأحداث أكثر، وعلى الشباب أغلبَ، لقوة شهواتهم وكثرة دواعي الهوى المتسلِّط عليهم، وأنَّهم ربما جَعلوا الشَّبابَ عذرًا لهم، كما قال محمد بن بشير:

كُلٌّ يَرَى أنَّ الشَّبابَ لَهُ ... في كُلِّ مُبْلغِ لَذَّةٍ عُذْرُ

ولذلك قال بعضُ الحكماء: الهوى مَلِكٌ غَشُومٌ، ومتسلِّط ظَلُومٌ، وقال بعضُ الأدباء: الهَوَى عَسُوفٌ[1]، والعَدْلُ مألوفٌ. وقال بعضُ الشعراء:

يا عاقِلاً أَرْدَى الهَوَى عَقْلَهُ ... ما لَكَ قَدْ سُدَّتْ عليكَ الأُمُورُ
أَتَجْعَلُ العَقْلَ أسيرَ الهَوَى ... وإنَّما العَقْلُ عليهِ أميرُ

وحَسْمُ ذلك: أنْ يستعين العقلُ بالنَّفْس النَّفُور، فيُشعرها ما في عواقب الهوى من شدَّة الضَّرر، وقُبْح الأَثَر، وكثرة الإجرام، وتراكُم الآثام. فقد قال النبي ﷺ: «**حُفَّتِ الجنَّةُ بالمكاره، وحُفَّت النَّارُ بالشَّهوات**»[2]. أخبر أن الطريق إلى الجنة احتمال المكاره، والطريق إلى النار اتباع الشهوات.

---

(١) عسوف: ظلوم جائر.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٢٢).

قال علـيّ بن أبي طالب ﷺ: إياكم وتحكيمَ الشَّهـوات على أنفسـكم؛ فإنَّ عاجلَها ذميـمٌ، وآجلَها وخيمٌ، فإنْ لم ترها تنقـادُ بالتخويف والإرهاب، فسـوِّفْها بالتَّأميل والإرغاب، فإنَّ الرَّغْبَةَ والرَّهْبَة إذا اجتمعا على النَّفْسِ ذَلَّتْ لهما وانْقَادَتْ.

وقد قال ابن السـمَّاك: كن لهَواكَ مُسوِّفًـا، ولعقلك مُسعفًـا، وانْظُرْ ما تسُوء عاقـبتُه فوطِّنْ نفـسَكَ على مجانبَـته؛ فإنَّ تَرْكَ النَّفْسِ وما تَهْـوَى داؤها، وتَرْكَ ما تَهوى دواؤها؛ فاصبِرْ على الدَّواء كما تخافُ من الدَّاء.

**وقال الشاعر:**

| | |
|---|---|
| صَـبَـرْتُ على الأيَّام حـتَّى تولَّتِ | وأَلْزَمْتُ نفسي صَبْرَها فاسْتَمَرَّتِ |
| وما النَّفْسُ إلاَّ حيثُ يجعلُها الفتَى | فإنْ أُطْمِعتْ تاقَت وإلاَّ تَسَلَّتِ |

فإذا انقادَت النَّفْسُ للعقل بما قد أُشعِرَت من عواقبِ الهوى، لم يلبَث الهَوَى أن يَصيرَ بالعقلِ مَدْحُورًا، وبالنَّفْس مَقْهُورًا، ثم له الحظُّ الأَوْفى في ثواب الخالق، وثناء المخلوقين، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات: ٤٠-٤١).

وقال الحسنُ البصري: أفضلُ الجهـاد جهادُ الهَوَى. وقال بعضُ الحكماء: أعزُّ العِزَّة الامتناعُ مِن تملُّك الهَوَى. وقال بعضُ البلغـاء: خيرُ النَّاس مَن أخرج الشَّهْوَةَ مِنَ قلبه، وعَصَى هواهُ في طاعة ربِّه.

وقال بعضُ الأدباء: من أمات شهوته، فقد أحيا مُروءته.

وقال بعضُ العلماء: ركَّب الله الملائكة من عَقْلٍ بلا شَهْوَة، وركَّب البَهَائمَ منْ شهْوَة بلا عَقْل، وركَّب ابن آدم من كليـهما، فَمَنْ غَلَبَ عقلُه شهوتَه، فـهو خَيْرٌ مِنَ الملائكة، ومَنْ غَلَبَتْ شهوتُه عقلَه، فهو شرٌّ منَ البهائم. وقيل لبعض الحكماء: مَنْ أشْجَعُ النَّاس وأحراهم بالظَّفَر في مجاهدته؟ قَال: مَنْ جاهَدَ الهَوَى طاعةً لربِّه، واحْتَرَسَ في مجاهدته مِن ورودِ خواطرِ الهَوَى على قلبه. وقال بعضُ الشعراء:

| | |
|---|---|
| قـد يدركُ الحـازمُ ذو الرأي المُنَى | بطاعَةِ الحَزمِ وعِصْيَانِ الهوَى |

وأما الوجْهُ الثاني: فهو أن يُخْفيَ الهوى مكرَه، حتى تُمَوَّه أفعالُه على العقل، فيتصور القبيحَ حسنًا، والضَّرَرَ نَفْعًا؛ وهذا يدعو إليه أحدُ شيئين:

إمَّا أنْ يكونَ للنَّفس مَيْلٌ إلى ذلك الشيء، فَيَخْفَى عليها القبيحُ بحسن ظنِّها، وتتصوَّره حَسنًا لشدَّة ميلها إليه، ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «**حُبُّك الشيءَ يُعمي ويُصِمُ**»[1]: أي يُعْمِي عن الرُّشد، ويُصِمُّ عن الموعظة. وقال عليٌّ رضي الله عنه: الهَوَى عمى. قال الشاعر:

**حَسَنٌ في كُلِّ عَيْنٍ مَنْ تَوَدّ**

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه:

**ولستُ بِراءٍ عَيْبَ ذي الوُدِّ كلَّه ... ولا بَعْضَ ما فيهِ إذا كنتُ راضيَا**
**فعينُ الرِّضَا عن كُلِّ عَيْبٍ كَليلةٌ ... ولكنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تبدِي المساويَا**

وأما السبب الثاني: فهو استثقالُ الفكر في تمييز ما اشتبه، وطلبُ الرَّاحة في اتباع ما يسهُل، حتى يظنَّ أنَّ ذلك أوفقُ أمرَيْه، وأحمدُ حالَيْه، اغترارًا بأنَّ الأَسْهَلَ محمودٌ، والأعْسرَ مَذْمُومٌ، فلن يعدَمَ أن يتورَّطَ بخُدَعِ الهَوَى وزينة المَكْرِ في كُلِّ مَخُوف حَذِر، ومكروه عَسِر؛ ولذلك قال عامر بن الظَّرِب: الهوى يقظان، والعقلُ راقد، فمنَ ثَمَّ غُلبَ. وقالَ سليمان بن وَهْب: الهوى أمتع، والرأي أنفع. وقيل في المثل: العقل وَزيرٌ ناصِح، والهَوَى وكيلٌ فاضِح. وقال الشاعر:

**إذا المرءُ أعطَى نَفْسَهُ كُلَّ ما اشْتَهَتْ ... ولم يَنْهَهَا تاقَتْ إلى كُلِّ باطلِ**
**وساقَتْ إليه الإثمَ والعَارَ بالَّذي ... دَعَتْه إليهِ مِن حَلاوةٍ عاجلِ**

**وحَسْم السَّببِ الأول**: أن يجعلَ فكرَ قلبه حكَمًا على نَظَرِ عينه، فإنَّ العَيْنَ رائدُ الشَّهوة، والشهوة من دواعي الهَوَى، والقلْب رائدُ الحقِّ، والحقّ من دواعي العقل، وقد قال بعضُ الحكماء: نظَرُ الجاهلِ بعينه وناظره، ونظَرُ العاقلِ بقلبه وخاطره، ثم يتهم نفسه في صواب ما أحبَّتْ، وتحسين ما اشْتَهَتْ، ليصحَّ له الصوابُ، ويستبينَ له الحقّ، فإنَّ الحقَّ أثقلُ مَحملاً، وأصعَبُ مَركبًا، فإنْ أشكل عليه أمران، اجتنَبَ أحبَّهما إليه، وتركَ أسهلَهما عليه، فإنَّ النَّفْسَ عن الحقِّ أنفَر، وللهوى آثَر.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥١٣٠).

وقد قال العبَّاس بن عبد المطلب: إذا اشتبه عليك أمران، فدَعْ أحبَّهما إليك، وخُذْ أثقلَهما عليك. وعلَّةُ هذا القولُ: هو أنَّ الثقيل تبطئ النَّفْسُ عن التسرُّع إليه، فيصحُّ مع الإبطاءِ وتطاولِ الزمان، صوابُ ما استعجَم، وظهورُ ما استبهَم[١].

وقد قال عليّ بنُ أبي طالب ﷺ: مَنْ تَفكَّرَ أَبْصَرَ. والمحبوبُ السهْل تسرعُ النَّفس إليه، وتَعْجل بالإقدام عليه، فيقصرُ الزَّمانُ عن تَصفُّحه، ويفوتُ استدراكُه، لتقصير فعله، فلا ينفعهم التصفُّحُ بعد العملِ، والاستدراكُ بعدَ الفَوْت. وقد قال بعضُ الحكماء: ما كان عنك مُعرِضًا، فلا تكن له متعرِّضًا. وقال الشاعر:

أليسَ طِلابُ ما قد فاتَ جهْلا ... وذِكْرُ المرءِ ما لا يستطيعُ

ولقد وصَفَ بعضُ البلغاء حالَ الهَوَى، وما يقارنُه من محَن الدُّنيا، فقال: الهَوَى مَطيَّةُ الفتنة، والدُّنيا دارُ المحْنَة، فاترُك الهَوَى تَسْلَمْ، وأَعْرِض عن الدُّنيا تَغْنَمْ، ولا يغرنَّكَ هوَاك بطيب المَلاهي، ولا تَفتننَّكَ دُنياك بحُسْنِ العواري[٢]، فمدَّة اللهو تنقطع، وعاريَّةُ الدَّهْرِ تُرْتَجَع، ويبقَى عليك ما ترتكبهُ مِنَ المحارم، وتكتسبُه من المآثم. وقال عليُّ بنُ عبد الله الجَعفريّ: سمعتني امرأة في الطواف وأنا أنشدُ:

أهوَى هَوَى الدِّين واللَّذاتُ تُعجبني ... فكيفَ لي بهَوَى اللَّذاتِ والدِّين

فقالت: هما ضَرَّتان، فذَرْ أيَّتَهُما شئتَ وخُذ الأخرى.

فأمَّا فرق ما بين الهَوَى والشَّهْوة مع اجتماعهما في العلَّة والمعلول، واتفاقهما في الدَّلالة والمدلول، فهو أنَّ الهَوَى مختصٌّ بالآراء، والاعتقادات، والشَّهْوَةَ مختصَّةٌ بنيْلِ المستلذَّات، فصارَت الشَّهْوةُ من نتائج الهَوَى، وهي أخصُّ، والهَوَى أصْلٌ وهو أعمّ. ونحن نسأل الله تعالى أن يكفينا دواعيَ الهَوَى، ويصْرفَ عنَّا سُبُلَ الرَّدَى، ويجعَلَ التوفيقَ لنا قائدًا، والعَقْل لنا مُرْشدًا؛ فقد روي أنَّ اللهَ تعالى أوحَى إلى عيسى ابن مريم ـ عليه السَّلام ـ: عِظْ نفسَكَ، فإن اتعظَتْ فعظِ النَّاسَ، وإلاَّ فاستحْيِ منِّي. وقال محمد بن كناسة:

(١) **استعجم واستبهم**: غمُض فلم يتضح.

(٢) **العواري**: جمع عارية وهي ما يستعار إلى أجل، يريدُ متاع الدنيا.

مَــا مَنْ رَوَى أدَبًا ولم يَعْــمَلْ بِهِ ... ويكُفَّ عن زَيغ الهَــوَى بأديبِ
حــتَّى يكُونَ بما تَعَلَّمَ عــامِـلاً ... مِن صالِحٍ فيكونَ غَيْرَ مَعِيبِ
ولقلَّمــا تُغْنِي إصــابةُ قــائلٍ ... أفعــالُه أفعــالُ غيرِ مُصِيبِ

وقال آخر:

يا أيُّهــا الرَّجُلُ المُعَلِّمُ غَـيْـرَهُ ... هَلاَّ لِنَفْسِكَ كانَ ذَا التَّعْلِيمُ
تَصِفُ الدَّواءَ لِذِي السَّقامِ وَذِي الضَّنَى ... كيما يَصِحَّ بِهِ وأَنْتَ سَقِيمُ
ابْدأْ بِنَفْسِكَ فانْهَهَا عَن غَيِّها ... فَإذا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأنْتَ حَكِيمُ
فهناكَ تُعْذَرُ إنْ وَعَظْتَ ويُقْتَدَى ... بالقولِ منكَ ويُقْبَلُ التَّعليمُ
لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وتأتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عليكَ إذا فَعَلْتَ عَظِيمُ

حكى أبو فَرْوَة أنَّ طارقًا صاحبَ شُرْطَة خالد بن عبد الله القَسْرِيّ، مرَّ بابن شُبْرُمَة وطارقٌ في مَوْكِبه، فقال ابن شُبْرُمَة:

أراها وإنْ كانَتْ تُحَبُّ كأنَّها ... سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَرِيبٍ تَقَشَّعُ

اللهم لي ديني، ولهم دنياهم، فاستُعْمِلَ ابن شُبْرُمَة بعدَ ذلك على القضاء، فقال له ابنه أبو بكر: أتذكُرُ قولَكَ يومَ كذا إذْ مَرَّ بِكَ طارقٌ في مَوْكِبِه؟ فقال: يا بُنيَّ، إنَّهم يجدون مثلَ أبيك، ولا يجدُ أبوكَ مثلَهم؛ إنَّ أباكَ أكَلَ من حَلْوائهم، فحُطَّ في أهوائهم.

أمَا تَرَى هذا الدَّيِّنَ الفاضِلَ كيفَ عُوجِلَ بالتقريع، وقُوبِلَ بالتَّوْبيخ، من أخصِّ ذويه، ولعله من أبرِّ بنيه! فكيف بنا ونحن أطلق منه عنانًا، وأقلق منه جَنانًا، إذا رَمَقتنا أعينُ المتتبعين، وتناولتنا ألسنُ المتعنِّتين، هل نجدُ غيرَ توفيق الله تعالى مَلاذًا، وسوى عصْمته مَعاذًا؟

☐☐ ★★ ☐☐

## الباب الثاني

## في أدب العلم

اعلم أنَّ العلم أشرفُ ما رَغبَ فيه الراغب، وأفضلُ ما طُلب وجَدَّ فيه الطالب، وأنفعُ ما كسَبَهُ واقتناه الكاسبُ؛ لأنَّ شرفه ينُمّ على صاحبه، وفضله يَنْمي[1] عند طالبه؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩)، فمنَعَ سبحانه المساواة بين العالم والجاهل، لما قد خُصَّ به العالمُ من فضيلة العلم، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٣)، فنفى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمرًا، أو يفهم عنه زجْرًا.

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: **«وأوْحَى اللهُ إلى إبراهيمَ - عليه السلام -: إنني عليمٌ أحبُّ كلَّ عليم»**[2].

وروى أبو أمامةَ قال: سُئلَ رسولُ الله ﷺ عن رجلين: أحدُهما عالمٌ، والآخرُ عابدٌ أيهما أفضل؟ فقال ﷺ: **«فَضْلُ العالمِ على العابد، كفضلي على أدناكم رجُلاً»**[3].

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: النَّاسُ أبناءُ ما يُحْسنون، وقال مُصْعب بنُ الزُّبير لابنه: تعلَّم العلْمَ؛ فإنْ يكن لكَ مالٌ كان لكَ جمالاً، وإن لم يكن لك مالٌ كان لك مالاً. وقالَ عبد الملك بنُ مروان لبنيه: يا بَنيَّ! تعلَّموا العلْمَ؛ فإنْ كنتُم سادةً فُقْتُمْ، وإنْ كنتُم وسَطًا سُدتُمْ، وإنْ كنتُمْ سُوقَةً[4] عشتُم. وقال بعض الحكماء: العلمُ شرَفُ مَنْ لا قَدْرَ له، والأدبُ مالٌ لا خوف عليه. وقال بعضُ الأدباء: العلمُ أفضَلُ خَلَف، والعمَلُ به أكملُ شرَف. وقال بعضُ البلغاء: تعلَّم العلْمَ؛ فإنَّه يقوِّمُكَ ويسدِّدُكَ صغيرًا، ويقدِّمك ويسوِّدُك كبيرًا، ويُصْلحُ زَيْغك وفاسدَك، ويَرغِمُ عدوَّك وحاسدَك، ويقوِّمُ عوَجَكَ ومَيلك، ويصحِّحُ همَّتَكَ وأملَك.

---

(١) ينمي: يكثر.

(٢) لم أجده، كذلك أورده الغزالي في «الإحياء» من غير إسناد (١/ ٥).

(٣) الدارمي (٣٥٢/ ٣٢) باب في فضل العلم والعالم.

(٤) السوقة: هم مَنْ سوى أهل الحكم، يريد الطبقة الدنيا من الناس.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: قيمة كُلِّ امرئٍ ما يُحسِن. فأخذَهُ الخليل، فنظَمه شعرًا، فقال:

لا يكُونُ العليُّ مِثْلَ الدَّنيِّ ... لا ولا ذُو الذكَاءِ مِثْلُ الغَبِي

قِيمَةُ المَرْءِ قَدْرُ ما يُحْسِنُ المرْء ... قَضَاءٌ مِنَ الإمامِ علي

وليس يجهلُ فَضْلَ العلْم إلاَّ أهلُ الجهل؛ لأنَّ فضلَ العلْم إنَّما يُعرفُ بالعلم، وهذا أبلَغُ في فضله، لأن فَضله لا يُعلَم إلاَّ به، فلمَّا عَدمَ الجُهَّالُ العلْمَ الذي به يتوصَّلُون إلى فَضْلِ العلْم، جَهلُوا فَضْله، واسترذلُوا أهلَه، وتوهَّمُوا أنَّ ما تميلُ إليه نفوسُهُم من الأموال المقتناة، والطُّرَف المشتهاة، أَوْلَى أن يكونَ إقبالُهم عليها، وأَحْرَى أن يكونَ اشتغالُهم بها. وقد قال ابنُ المعتزّ في منثور الحكَم: العالم يعرفُ الجاهلَ؛ لأنَّه كان جاهلاً، والجاهلُ لا يعرفُ العالمَ؛ لأنَّه لم يكن عالمًا، وهذا صحيحٌ، ولأجله انصرَفُوا عن العلم وأهله انصرافَ الزَّاهدين، وانحرفوا عنه وعنهم انحرافَ المعاندين؛ لأنَّ مَنْ جَهلَ شيئًا عاداهُ. وأنشدني ابن لَنْكَكَ لأبي بكر ابن دُريد:

جَهلْتَ فعادَيْتَ العُلُومَ وأَهْلَها ... كذاكَ يُعادي العلْمَ مَن هُوَ جاهلُهْ

ومَن كان يَهْوَى أنْ يُرَى متصَدِّرًا ... ويكرَهُ «لا أدري» أُصِيبَتْ مقاتِلُهْ

وقيل لبُزُرجُمُهر: العلْمُ أفضَلُ أم المالُ؟ فقال: بل العلْمُ؛ قيل: فما بالُنا نَرَى العلماءَ على أبواب الأغنياء، ولا نكادُ نَرَى الأغنياءَ على أبواب العلماء؟ فقال: ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال، وجهلِ الأغنياء بفضلِ العلم، وقيلَ لبعض الحكماء: لِمَ لا يجتمع العلمُ والمالُ؟ فقال: لعزِّ الكمال.

وأُنشِدْتُ لبعض أهل هذا العصر:

وفي الجَهلِ قَبْلَ الموتِ مَوْتٌ لأهلِهِ ... فأجسامُهُمْ قَبْلَ القُبُورِ قُبُورُ

وإنَّ امْرأً لم يَحْيَ بالعِلْمِ ميتٌ ... فليسَ له حتَّى النُّشُورِ نُشُورُ

ووقف بعضُ المتعلِّمين بباب عالم، ثم نادَى: تصدَّقوا علينا بما لا يُتعبُ ضرسًا، ولا يُسْقِمُ نفسًا، فأُخْرِجَ له طعامٌ ونفقةٌ، فقال: فَاقتِيْ إلى كلامكم أشدُّ

من حاجتي إلى طعامكم؛ إنِّي طالبُ هُدًى لا سائل ندىً[1]، فأذن له العالمُ، وأفادَه من كُلِّ ما سألَ عنه، فخَرَجَ جَذْلان[2] فرِحًا، وهو يقولُ: عِلمٌ أَوْضَحَ لَبْسًا[3]، خيرٌ من مالٍ أغنَى نَفْسًا.

واعلم أنَّ كُلَّ العُلوم شريفةٌ، ولكُلِّ علْمٍ منها فَضيلةٌ، والإحاطة بجميعها محالٌ. قيل لبعض الحكماء: من يعرف كُلَّ العُلوم؟ فقال: كلُّ الناس. ورُوِي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: **«مَنْ ظَنَّ أنَّ للعِلْم غايةً، فقد بَخَسَهُ حقَّه، ووضَعَهُ في غير منزلته التي وصفه الله بها، حيثُ يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٥)»**[4]
وقال بعضُ العلماء: لو كنَّا نطلبُ العلْمَ لنبلغَ غايتَه، كنَّا قد بدأنا العلْمَ بالنقيصة، ولكنَّا نطلبُه لننقُص في كُلِّ يومٍ من الجَهل، ونزداد في كُلِّ يومٍ من العَلم.

وقال بعضُ العلماء: المتعمِّق في العلم كالسَّابح في البَحر؛ ليس يَرى أرضًا، ولا يعرِفُ طولاً ولا عَرَضًا، وقيل لحمَّاد الرَّاوية: أَمَا تشبَعُ من هذه العلوم؟ فقال: استفرغنا فيها المجهودَ، فلم نبلُغْ منها المحدودَ، فنحنُ كما قال الشاعر:

**إذا قطعْنا عَلَمًا بَدَا عَلَم**

وأنشد الرشيد عن المهديِّ بيتين، وقال: أظنهما له، وهما:

**يا نَفْسُ خوضِي بُحورَ العِلْمِ أوْ غُوصِي ... فالنَّاسُ ما بينَ مَعْمُومٍ ومَخْصُوصِ**
**لا شيءَ في هذه الدُّنيا نُحيطُ به ... إلاَّ إحَاطَةَ مَنْقُوصٍ بمنقُوصِ**

وإذا لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل، وجَبَ صرفُ الاهتمام إلى معرفة أهمها، والعناية بأولاها وأفضلها. وأَولَى العلوم وأفضلُها علْم الدِّين؛ لأنَّ الناس بمعرفته يرْشُدون، وبجهله يَضلُّون؛ إذ لا يصحّ أداءُ عبادة جَهِلَ فاعلُها صفات أدائها، ولم يعلَمْ شروطَ إجزائها، ولذلك قال رسولُ الله ﷺ: **«فَضْلُ العِلْمِ خَيْرٌ مِن فَضْلِ العِبَادَة»**[5]، وإنَّما كان كذلك؛ لأنَّ العلم يبعثُ على فضل

---

(١) الندى: العطاء. (٢) جذلان: مسرور.
(٣) لَبْسًا: أي أمرًا مشكلاً غامضًا. (٤) لم أصل إليه.
(٥) أخرجه الحاكم (١/ ١٧١) في «المستدرك»، والطبراني في «الأوسط» (٣٩٦٠)، عن الأعمش عن مطرف بن الشخير عن حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ.

العبـادة، والعبادة مع خلـوِّ فاعلها من العلم بهـا، قد لا تكون عـبادةً؛ فلزم علْمُ الدِّين كلَّ مكلَّف.

وقد قال النبيّ ﷺ: **«طَلَبُ العلْم فَريضَةٌ على كُلِّ مُسْلِم»**[١]. وفيه تأويلان: أحدهمـا: علْمُ ما لا يسعُ جهلُه من العـبادات، والثاني: جـملة العلم إذا لم يَقُمْ بطلبه من فيـه كفاية؛ وإذا كان علم الدِّين قد أوجَبَ الله تعالى فَـرض بعضه على الأعيان، ولا على الكـافة، كان أولى ممَّا لم يجب فرضه عـلى الأعيان، ولا على الكافة، قال الله تعالى: ﴿**فَلَوْلا نَفَرَ من كُلِّ فرْقَة مِّنْهُمْ طَائفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾ (التوبة: ١٢٢).

وروى عبد الله بن عُـمر ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ دَخَلَ المسجـدَ، فإذا هو بمجلسين: أحدهما يذكرون الله تعالى، والآخر يتفقهون، فقال رسولُ الله ﷺ: **«كلا المجلسَيْن على خيرٍ، وأحدُهمـا أَحَبُّ إليَّ مِن صاحبـه؛ أمَّا هؤلاء فيذكرون الله تعالى ويسألونَه، فإنْ شاءَ أعطاهم، وإنْ شاءَ منَعَهُم، وأمَّا المجلسُ الآخَرُ فيتعلَّمُون الفقه، ويعلِّمُون الجاهلَ، وإنَّما بُعثْتُ معلِّمًا، وجلَسَ إلى أهل الفقْه»**[٢].

وَرَوَى مَرْوان بن جناح، عن يـونُس بن مَيْسَـرة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: **«الخَيْرُ عادَةٌ، والشَّرُّ لجاجَةٌ، ومَن يُردُ الله به خيرًا يفقِّهْهُ في الدِّين»**[٣].

وَرُوِي عن النبي ﷺ أنه قـال: **«خِيـارُ أمـتي علمـاؤها، وخِيـارُ علمـائها فقهاؤها»**[٤]. وروى مُعاذ بن رفـاعة، عن إبراهيم بن عبد الرحـمن العُذري، عن رسـول الله ﷺ، أنـه قـال: **«ليَحْمِلْ هذا العلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عدُولُه، يَنْفُونَ عنه تحريفَ الغـالين[٥]، وانتحـالَ المُبْطِلين[٦]، وتأويلَ الجـاهلين»**. وروي عـن

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤)، والطبراني في «الأوسط» (٩)، وأبو يعلى في «معجمه» (٣٢٠).

(٢) أخرجه البزار (٢٤٥٨)، والبيهقي في «المدخل» (٤٦٢).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٢١)، وابن حبان (٣١٠)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٣٨٥).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٨٨)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٢٧٥).

(٥) الغالين: المتشددين.

(٦) انتحال المبطلين: ادعاءات أهل الباطل وزورهم.

النبي ﷺ، أنه قال: «**عَليّ بخلفائي**»، قالوا: ومن خلفاؤك؟ قال: «**الَّذين يُحْيُون سنَّتي، يعلِّمونَها عبادَ الله**»[1].

ورَوَى حُميد عن أنس: أن النبيَّ ﷺ قال: «**الفِقْهُ في الدِّين حقٌّ على كُلِّ مسلم، ألاَ فتعلَّمُوا وعلِّموا، وتفقَّهوا، ولا تموتوا جُهَّالاً**»[2].

وروى سليمان بن يسار، عن أبي هُريرة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**ما عُبِدَ الله بشيءٍ أفْضَل مِن فِقْهٍ في الدِّين، ولَفقيهٌ واحدٌ أشَدُّ على الشَّيطانِ من ألفِ عابدٍ، ولِكُلِّ شيءٍ عمادٌ، وعمادُ الدِّين الفِقْهُ**»[3].

وربما مالَ بعض المتهاونين بالدِّين إلى العلوم العقلية، ورأى أنَّها أحقُّ بالفضيلة، وأولى بالتقدمة؛ استثقالاً لما تضمنه الدِّين من التكليف، واسترذالاً لما جاء به الشَّرع من التعبُّدِ والتوقيف، والكلام مع مثلِ هذا في أصل لا يتسع له هذا الفصل، ولن ترى ذلك فيمن سلمت فطْنته، وصحَّتْ رَويَّته؛ لأنَّ العقل يمنع من أن يكون النَّاس هَمَلاً أو سُدىً[4]، يعتمدون على آرائهم المختلفة، وينقادون لأهوائهم المتشعِّبة، لما تؤول إليه أمورهُم من الاختلاف والتنازع، وتُفْضي إليه أحوالهم من التباين والتقاطع، فلم يستغنوا عن دين يتألفون به، ويتفقون عليه، ثم العقل موجب له، أو مانع له، ولو تصوَّر هذا المختلُّ التصوُّر: أنَّ الدِّين ضرورةٌ في العقل، وأنَّ العَقْلَ للدِّين أصْلٌ، لقصَّرَ عن التقصير، وأذعن للحقِّ، ولكن أهمل نفسه فضَلَّ وأضَلَّ.

وقد يتعلَّق بالدِّين علومٌ، وقد بيَّن الشافعي ـ رحمه الله ـ فضيلةَ كُلٍّ واحد منها، فقال: مَنْ تعلَّم القرآن عظمت قيمتُهُ، ومَنْ تعلَّم الفقهَ نَبُلَ مقدارُه، ومنْ كَتَبَ الحديث قويَتْ حُجَّته، ومَنْ تعلَّم الحِسَاب جَزُلَ رأيُه، ومن تعلَّم العربية رقَّ طَبْعُه، ومَن لم يَصُنْ نفسه لم ينفعه علمُه.

---

(١) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٥٢)، والبيهقي في «الزهد» (٢٠٥).

(٢) أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/١٢١)، وعزاه للبزار والطبراني في «الكبير»، وأورده الغزالي في «الإحياء» (١/٥).

(٣) ذكره العجلوني «كشف الخفاء» (٢/١٨٨).

(٤) سدىً: أي مهملين متروكين من غير نظام أو منهاج يحكمهم.

ولَعَمري، إنَّ صيانة النَّفْسِ أَصْلُ الفضائل؛ لأنَّ مَن أهْمَل صيانةَ نفسه، ثقةً بما منحه العلْم من فضيلته، وتوكلاً على ما يلزم الناس من صيانته، سلبوه فضيلة علمه، ووسموه بقبيح تبذُّله[1]، فلم يفِ ما أعطاه العلْمُ، بما سَلَبه التبذُّل؛ لأنَّ القبيح أتمُّ من الجميل، والرذيلة أشهرُ من الفضيلة؛ لأنَّ الناس لَمَّا في طبائعهم من بغضة الحسد ونزاع المنافسة، تنصرفُ عيونُهم عن المحاسن إلى المساوئ، فلا يُنْصِفون محسنًا، ولا يُحابُون مسيئًا، لاسيما مَن كان بالعلم موسومًا، وإليه منسوبًا، فإنَّ زلَّته لا تُقال[2]، وهفوتَه لا تُعذَرُ.

إمَّا لقبحِ أثرها، واغترارِ كثيرٍ من الناس بها؛ فقد قيلَ في منثور الحكم: زَلَّةُ العالِم كالسفينة تغرقُ ويَغرقُ معها خلْقٌ كثير، وقيل لعيسى ابن مريم - عليه السلام -: مَن أَشدُّ النَّاس فتنةً؟ قال: زلَّةُ العالم، إذا زلَّ هلك بزلَّته عالَمٌ كثير، فهذا وجه. وإمَّا لأنَّ الجُهَّال بذمِّه أغرَى، وعلى تنقُّصه أحرَى؛ ليسلبوه فضيلة التقدُّم، ويمنعوه مباينةَ التخصُّص، عنادًا لما جهلُوه، ومقتًا لما باينوه، لأنَّ الجاهل يَرَى العلْم تكلُّفًا ولَوْمًا، كما أنَّ العالِمَ يَرَى الجَهْلَ تخلُّفًا وذمًّا.

وأُنْشِدْتُ عن الربيع للشافعيِّ ﷺ:

| | |
|---|---|
| ومَنزِلَةُ السَّفِيهِ مِنَ الفَقِيهِ | كمنزلةِ الفَقِيهِ مِنَ السَّفِيهِ |
| فهذا زاهِدٌ في قُرْبِ هذا | وهذا فيه أزهَدُ مِنْهُ فيه |
| إذا غَلَبَ الشَّقاءُ على سفيهٍ | تنطع في مخالفة الفَقيهِ |

وقال يحيى بن خالد لابنه: عليك بكلِّ نوع مِنَ العلم فَخذ منه؛ فإنَّ المرءَ عدوُّ ما جهِلَ، وأنا أكرَهُ أنْ تكونَ عدوَّ شيءٍ من العلم، وأنشد:

| | |
|---|---|
| تَفنَّنْ وَخُذْ مِن كُلِّ عِلْمٍ فإنَّما | يَفُوقُ امرؤٌ في كُلِّ فَنٍّ له عِلْمُ |
| فأنْتَ عَدُوٌّ للذي أنتَ جاهِلٌ | بِه ولِعِلْمٍ أنْتَ تُتْقِنه سَلْمُ |

---

(١) تبذله: التبذل هو المهانة وعدم صيانة النفس.
(٢) تقال: من الإقالة وهي العفو والمسامحة.

**فضل العلم وأهله:**

وإذا صان ذو العلم نفسه حقَّ صيانتها، ولازَمَ فعل ما يلزمها، أمن تعيير المُوالي، وتَنَقُّصَ المُعَادي، وجَمَعَ إلى فضَيلة العِلْم جَمالَ الصِّيانة وعِزَّ النَّزاهة، فصار بالمنزلة التي يستحقُّها بفضائله.

وروى أبو الدرداء ﷺ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**العلَماءُ وَرَثَةُ الأنبياء**»؛ لأنَّ الأنبياء لم يورِّثُوا دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما ورَّثوا العِلْمَ[1].

وروى أبو هريرة ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**للأنبياءِ عَلَى العُلماءِ فَضْلُ دَرَجَتَيْنِ، وللعلماء على الشهداء فَضْلُ دَرَجَة**»[2].

وقال بعضُ البلغاء: إنَّ من الشَّريعة أن تُجلَّ أهلَ الشَّريعة، ومنَ الصَّنيعة أن تَرُبَّ[3] حسْنَ الصنيعة، فينبغي لمن استدلَّ بفطرته على استحسان الفضائل واستقباح الرذائل، أن ينفيَ عن نفسه رذائل الجهل بفضائل العلم، وغفلةَ الإهمال باستيقاظ المعاناة، ويرغَبَ في العلم رغبةَ متحقِّق لفضائله، واثقٍ بمنافعه، ولا يلهيه عن طَلَبِه كَثْرَةُ مال وَجِدَة[4]، ولا نفوذُ أمرٍ وعلوِّ منزلة؛ فإنَّ مَنْ نفذَ أمرُه فهو إلى العلم أحوجُ، ومَنْ علَتْ منزلتُه فهو بالعلمِ أحقُّ.

وروى أنس بن مالك ﷺ، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إنَّ الحكمة تزيدُ شرفًا، وترفَعُ العَبْدَ المملوك حتى تُجلسَه مجالسَ الملوك**»[5].

وقال بعض الأدباء: كُلُّ عِزٍّ لا يوطدهُ علم مَذَلَّةٌ، وكُل علْم لا يؤيده عقلٌ مَضلة. وقال بعض علماء السَّلف: إذا أراد الله بالناس خيرًا جَعَلَ العِلم في ملوكهم، والمُلْك في علمائهم.

وقال بعض البلغاء: العلْم عصمة الملوك؛ لأنَّه يمنعهم من الظلم، ويردُّهم إلى الحلم، ويصدُّهم عن الأذيَّة، ويعطفهم على الرَّعية، فمن حقِّهم أن يعرفوا حَقَّه، ويستنبطوا أهله.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٨٨)، وأبوداود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣).

(٢) أورده الديلمي في «الفردوس» (٢٠٩٠).

(٣) أي: ترعى. (٤) الجدة: الغنى.

(٥) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٩٧٨).

**فأمَّا المال فظِل زائلٌ، وعاريةٌ مسترجعة،** وليس في كثرته فضيلةٌ؛ ولو كانت فيه فضيلةٌ لخصَّ الله به من اصطفاه لرسالته، واجتباه لنبوته. وقد كان أكثرُ أنبياء الله تعالى - مع ما خصَّهم الله به من كرامته، وفضَّلهم على سائر خَلْقه - فُقراء لا يجدون بُلْغة[1]، ولا يقدرون على شيء، حتَّى صاروا في الفقر مثلاً؛ فقال البحتريّ:

**فَقْرٌ كَفَقْرِ الأنبياءِ وغُرْبَةٌ ... وصبابةٌ؛ ليسَ البَلاءُ بواحدِ**

ولعدم الفضيلة في المال منحهُ الله الكافر، وحرمه المؤمن. قال الشاعر:

**كم كافرٍ بالله أموالُهُ ... تزدادُ أضعافًا على كُفْرِهِ**

**ومؤمنٍ ليس لهُ درهَمٌ ... يزدادُ إيمانًا على فَقْرِهِ**

**يا لائمَ الدَّهْرِ وأفعالِه ... مشتغلاً يُزْرِي على دَهْرِهِ**

**الدَّهرُ مأمورٌ لهُ آمِرٌ ... ينصَرِفُ الدَّهْرُ على أمْرِهِ**

وقد بيَّن عليّ بن أبي طالب ﷺ فضل ما بين العلْم والمال؟ فقال: العلْمُ خيرٌ منَ المال؛ العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم حَاكِم والمالُ محكومٌ عليه، مات خُزَّانُ الأموال، وبقي خُزَّان العِلم؛ أعيانُهم مفقودة، وأشخاصهم في القلوب موجودة.

وسئل بعض الحكماء: أيُّهما أفضل: المالُ أم العلم؟ فقال: الجوابُ عن هذا: أيهما أفضلُ: المالُ أم العقل؟. وقال صالح بن عبد القدوس:

**لا خَيْرَ فيمَنْ كَانَ خيرُ ثنائِه ... في النَّاسِ قولُهُمُ غنيٌّ واجِدُ**[2]

وربَّما امتنع الإنسان من طلب العلم لكبر سنه، واستحياء من تقصيره في صغره، أن يتعلَّم في كبره، فرضي بالجهل أن يكون موسومًا به، وآثره على العلْم أن يصير مبتدئًا به، وهذا من خُدَعِ الجهلِ، وغُرور الكَسَل؛ لأنَّ العلْمَ إذا كَان فضيلةً، فرغبَةُ ذوي الأسنان فيه أَوْلَى، والابتداء بالفضيلة فضيلةٌ، ولأن يكون شيخًا متعلِّمًا أَوْلى من أن يكون شيخًا جاهلاً.

---

(١) البُلغة: مقدار الكفاية من حاجات المعيشة.

(٢) واجد: كثير المال.

حُكي أنَّ بعض الحكماء رأى شيخًا كبيرًا يحبُّ النَّظر في العلم ويستحي، فقال له: يا هذا، أتستحي أن تكون في آخر عمرك أفضل ممَّا كنْتَ في أوَّله؟!

وذُكر أن إبراهيم بن المهدي دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلَّمون في الفقه، فقال: يا عمّ، ما عندك فيما يقولُ هؤلاء؟ فقال: يا أمير المؤمنين، شغلونا في الصغر، واشتغلنا في الكبر، فقال: لم لا تتعلمه اليوم؟ قال: أَوَيَحْسُنُ بمثلي طلبُ العلم؟ قال: نعم، والله لأنْ تموتَ طالبًا للعلم، خيرٌ من أن تعيش قانعًا بالجهل. قال: وإلى متى يحسُنُ بي طلبُ العلْم؟ قال: ما حَسُنَتْ بك الحياةُ؛ لأنَّ الصغير أَعْذرَ، وإن لم يكن في الجهل عُذْرٌ، لأنه لم تطُلْ به مدَّةُ التفريط، ولا استمرَّت عليه أيَّامُ الإهمال. وقد قيل في منثور الحكم: جَهْلُ الصغير معذورٌ، وعلْمُهُ محقورٌ، فأمَّا الكبيرُ فالجهلُ به أقبحُ، ونَقْصُه عليه أفضَحُ؛ لأنَّ عُلُوَّ السِّنِّ إذا لم يكسبْه فضلاً، ولم يفدْه علمًا، وكانت أيامُه في الجهل ماضيةً، ومن الفضل خاليةً، كان الصغيرُ أفضلَ منه، لأنَّ الرَّجاء له أكثر، والأمل فيه أظهر، وحَسْبُكَ نقصًا في رجلٍ يكونُ الصَّغيرَ المساوي له في الجهل أَفْضَلَ منه.

وأُنشِدْتُ لبعض أهل الأدب:

**إذا لم يكن مَرُّ السِّنينَ مُتَرْجِمًا ... عن الفضل في الإنسان سَمَّيْتَه طفلا**

**وما تَنفَعُ الأعوامُ حينَ تعدُّها ... وما تستفِدْ فيهنَّ علْمًا ولا فَضْلاَ**

**أَرَى الدَّهْرَ مِن سُوء التَّصَرُّفِ مائلاً ... إلى كُلِّ ذي جَهْلٍ، كأنَّ به جَهْلاَ**

وربما امْتنع من طلب العلم لتعذر المادة، وشغله اكتسابُها عن التماس العلم، وهذا وإن كان أعذر من غيره، مع أنه قَلَّما يكون ذلك إلاَّ عند ذي شَرهٍ وعَيْبٍ وشهوة مستعبدة، فينبغي أن يصرف إلى العلم حظًّا من زمانه، فليس كلّ الزمان زمان اكتساب، ولابدَّ للمكتسب من أوقات استراحة، وأيام عطلة، ومن صرف كل نفسه إلى الكسب، حتى لم يترك لها فراغًا إلى غيره، فهو من عبيد الدُّنيا، وأُسراء الحرص، وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«لكُلِّ شيءٍ فَتْرةٌ، فمن كانَتْ فترتُه إلى العلم فقد نَجَا»**[1]. وروي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«كُونُوا علماءَ**

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢١٠)، عن عبد الله بن عمر.

صالحين، فإنْ لم تكونوا علماءَ صالحين، فجالِسُوا العلماءَ، واسمعوا علمًا يدلُّكم على الهُدَى، ويردُّكم عن الرَّدى»[1]. وقال بعضُ العلماء: مَنْ أحبَّ العلم أحاطت به فضائله. وقال بعض الحكماء: مـن صاحب العلماء وُقِّـر، ومن جالس السُّفهاء حُقِّر. وربَّما منعه من طلب العلمِ ما يظنُّه من صُعوبته وبُعـد غايته، ويخشى من قلة ذهنه وبُعْد فطنتـه، وهذا الظنُّ اعتذارُ ذوي النقص، وخفَّـةُ أولي العجز، لأن الإخبار قَبْلَ الاختبار جَهْل، والخشية قَبْلَ الابتلاء عجز، وقد قال الشاعر:

لا تكونَنَّ للأمُـــــورِ هَيـــــوبًا    فـإلى خَـيْـبَـةٍ يَصِيـرُ الهَـيُـوبُ

وقال رجلٌ لأبي هريرة ﷺ: أُريدُ أن أتعلَّم العِلْمَ وأخافُ أن أضيعه. فقال: كَفَى بترك العِلْم إضاعة.

وليس ـ وإن تفاضلَت الأذهانُ، وتفاوتت الفِطَنُ ـ ينبغي لمن قلَّ منها حظُّه أن ييأس من نَيْلِ القليل، وإدراك اليسير، الذي يَخْرُجُ به من حَدِّ الجهالة إلى أدْنَى مراتبِ التخصُّص؛ فـإنَّ الماء مع لينه يؤثِّر في صُمِّ الصُّخور، فكيف لا يؤثِّر العلْمُ الزكيُّ في نَفْس راغبٍ شهيٍّ[2]، وطالب خَليٍّ[3]، لاسيِّما وطالبُ العلْم مُعَان. قَال النبي ﷺ: «إنَّ الملائكة لتضعُ أجنحتَها لطالبِ العلْم، رِضًا بما يطلَب»[4].

وربَّما مَنَعَ ذا السَّفَاهة من طلب العلم أنْ يصوِّرَ في نفسه حرْفة أهله، وتضايق الأمور مع الاشتغـال به، حتَّى يَسِمَهم بالإدبار[5]، ويتوسَّمَهم بالحرمان، فإن رأى مَحْبَرَةً تطيَّرَ منها، وإنْ وجَدَ كتابًا أعْرَضَ عنه، وإنْ رأى متحليًا بالعلم هَرَبَ منه، كأنَّه لم يَرَ عالمًا مقبلاً، وجاهلاً مُـدْبِرًا، ولقد رأيتُ من هذه الطبقة جـماعةً ذوي منازلَ وأحوال، كنتُ أُخـفي عنهم ما يصحَـبُني من مَحْبَـرة أو كتاب، لئـلاَّ أكون عندهم مسـتثقلاً، وإن كان البُـعْدُ منهم مؤنسًا ومـصلحًا، والقربُ منهم مُـوحشًا ومفسـدًا؛ فقد قال بُزُرجُمُهْـر: الجَهْلُ في القلب، كالنَّزِّ[6] في الأرض، يُفْسِدُ ما

---

(١) لم أصل إليه. (٢) أي عنده شهوة وميل للعلم.
(٣) خلي: أي خالي البال من الشواغل.
(٤) صحيح: روى عن غير واحد من الصحابة وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٩٥٦).
(٥) إعراض الدنيا وإدبارها عنهم.
(٦) النز: ما يترشح من الأرض من الماء.

حوله. لكن اتبعت فيهم الحديث المرويَّ عن أبي الأشعث، عن أبي عثمان، عن ثوبان، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«خالطوا النَّاسَ بأخلاقهم، وخالفوهم في أعمالهم»**[1]. ولذلك قال بعضُ البلغاء: رُبَّ جهلٍ وُقيْتَ به علمًا، وسَفَه حَمَيتَ به حلمًا.

وهذه الطبقة ممن لا يُرجى لها صلاح، ولا يُؤَمَّل لها فلاح؛ لأنَّ من اعتَقَد أنَّ العلْم شَيْنٌ، وأنَّ تركه زَيْنٌ، وأنَّ للجهل إقبالاً مُجديًا، وللعلم إدبارًا مُكْديًا[2]، كان ضلالُه مستحكمًا، ورشادُه مستبعدًا، وكان هو الخامس الهالك، الذي قال فيه عليّ بن أبي طالبَ رضي الله عنه: اغدُ عالمًا أو متعلِّمًا، أو مستمعًا أو محبًا، ولا تكن الخامس[3] فتهلك. وقد رواه خالد الحذَّاء، عن عبد الرحمن بن أبي بكْرة، عن النبيِّ ﷺ مُسْنَدًا. وليس لمن هذه حالُه في العَذل[4] نَفْعٌ، ولا في الاستصلاح مَطمَع. وقيل لبُزُرْجمهر: ما لكم لا تعاتبون الجهَّالَ؟ فقال: إنا لا نكلِّفُ العُمْيَ أن يبصروا، ولا الصُّمَّ أن يَسمعوا.

وهذه الطائفة التي تنفرُ منَ العلْم هذا النُّفُور، وتعاندُ أهله هذا العناد، ترى العقل بهذه المثابة، وتنفرُ من العقلاَء هذا النُّفُورَ، وتعتقدُ أنَّ العاقل محَارَف[5]، وأنَّ الأحمقَ محظوظٌ، وناهيك بضلال مَنْ هذا اعتقادُه في العَقْلِ والعِلْم، هل يكونُ لخيرٍ أهلاً، أو لفضيلةٍ موضعًا؟!

وقد قال بعضُ البلغاء: أخبثُ النَّاس المُسَاوي بينَ المحَاسن والمَسَاوي. وعلة هذا: أنَّهم ربَّما رأوا عاقلاً غير محظوظ، وعالمًا غير مرزوق، فظنُّوا أنَّ العلْمَ والعَقْل هما السَّببُ في قلَّة حظِّه ورزقه، وقد انصرفت عيونُهم عن حرمان أكثر النَّوْكَى[6]، وإدبار أكثر الجهَّال؛ لأنَّ في العقلاء والعلماء قلَّةً، وعليهم من فضلهم سِمَة، ولذلك قيل: العلماءُ غرباءُ؛ لكثرة الجهَّال، فإذا ظهرت سِمَةُ فضلِهم،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٦٢٢١).

(٢) مكديًا: مفقرًا مانعًا من سعة الرزق.

(٣) الخامس هو المبغض للعلم وأهله.

(٤) العذل: الملاحّة والعتاب.

(٥) المحارف: قليل الحظ. (٦) النوكى: الحمقى.

وصادَفَ ذلك قلَّة حظٍّ بعضهم، تنوَّهُوا بالتمييز، واشتهروا بالتَّعيين، فصارُوا مقصودين بإشارة المتعنِّتين، ملحوظين بإيماء الشامتين.

والجهَّالُ والحمقَى لَمَّا كثُروا ولم يتخصصوا، انصرفَتْ عنهم النُّفوس، فلم يُلْحظ المحرومُ منهم بطرف شامت، ولا قُصد المَحدود[1] منهم بإشارة عائب؛ فلذلك ظنَّ الجاهلُ المرزوقُ أنَّ الفقْرَ والضيِّق مختصٌّ بالعلم والعقل، دونَ الجهل والحمْق؛ ولو فتشت أحوال العلماء والعقلاء مع قلَّتهم، لوجدْتَ الإقبالَ في أكثرهم، ولو اختبرْتَ أمورَ الجُهَّال والحمقى مع كثرتهم، لوجدت الحرمان في أكثرهم، وإنَّما يصيرُ ذو الحال الواسعة منهم ملحوظًا مشتَهرًا؛ لأنَّ حظَّه عَجَبٌ، وإقباله مستغربٌ، كما أنَّ حرمان العاقل العالم غريبٌ، وإقلاله عجيبٌ. ولم تزل النَّاسُ على سالف الدُّهور في مثل ذلك متعجبين، وبه معتبرين، حتَّى قيل لبُزُرْجُمُهْر: ما أعجبُ الأشياء؟ قال: نُجْحُ الجاهل، وإكداءُ العاقلِ[2]. لكن الرزق بالجدِّ والحظِّ، لا بالعلم والعقل، حكمةً منه تعالى، يدلُّ بها على قدرته، وإجراء الأمور على مشيئته. وقد قالت الحكماء: لو جرَت الأقسامُ على قدر العقولِ، لم تعش البهائمُ؛ فنظمَهُ أبو تمام الطائيّ، فقال:

يَنَالُ الفَتَى مِن عَيْشِهِ وهْوَ جاهِلٌ ... وَيُكْدِي الفَتَى مِنْ دَهْرِهِ وهْوَ عالِمُ
ولو كانَتِ الأرْزاقُ تجري على الحِجَا ... هَلَكْنَ إذن من جَهْلِهِنَّ البهائمُ[3]

وقال كعبُ بنُ زهير بنِ أبي سُلْمَى:

لو كنْتُ أعجَبُ من شيءٍ لأعجَبَني ... سَعْيُ الفَتَى وَهْوَ مَخْبُوءٌ لَهُ القَدَرُ
يَسْعَى الفَتَى لأمُورٍ ليس يُدْرِكُها ... والنَّفْسُ وَاحِدَةٌ وَالهَمُّ مُنْتَشِرُ

على أنَّ العلم والعقل سعادة وإقبالٌ، وإن قلَّ معهما المالُ، وضاقت معهما الحالُ؛ والجهل والحُمْقَ حرمان وإدبارٌ، وإن كثُرَ معهما المالُ، واتَّسَعَتْ معهما الحال؛ لأنَّ السَّعادة ليست بكثرةِ المال، فكم مِن مُكْثِرٍ شقيّ ومُقِلٍّ سعيد، وكيف

---

(١) المحدود: قليل الرزق.
(٢) إكداء العاقل: فقره.
(٣) الحجا: العقل.

يكونُ الجاهل الغنيُّ سـعيدًا والجـهل يضعه؟! أم كـيف يكونُ العالمِ الفقـيرُ شقـيًا والعلم يرفعه؟! وقـد قيل في منثور الحكم: كم من ذليل أعـزَّه علْمُه، ومن عزيزٍ أذلَّه جهله. وقال عبدُ الله بن المعتزّ: نعمة الجاهلِ كروضةٍ على مَزْبَلَةٍ.

وقال بعضُ الحكماء: كلَّما حَسُنَتْ نعمةُ الجاهل ازداد قبحًا.

وقال بعضُ العلمـاء لبنيه: يا بَنِيَّ، تعلَّموا العلْمَ، فـإنْ لم تنالوا به من الدُّنيا حظًا، فلأنْ يُذَمَّ الزمانُ لكم أحبُّ إليَّ من أن يُذَمَّ الزمانُ بكم.

وقال بعضُ الأدباء: من لم يُفِدْ بالعلم مالاً، كـسبَ به جمالاً، وأنشَدَ بعضُ أهل الأدب لابن طباطبا:

حَسُودٌ مَريضُ القَلْبِ يُخْفِي أَنينَهُ ... ويُضْحِي كئيبَ البالِ عندي حزينَهُ
يلُومُ على أنْ رُحْتُ للعلم طالبًا ... أُجَمِّعُ مِن عند الرُّواةِ فُنونَهُ
وأعرِفُ أبكارَ الكلامِ وعُونَه ... وأحفَظُ ممَّا أستَفِيدُ عُيونَهُ[1]
ويزعُمُ أنَّ العِلْمَ لا يجلبُ الغِنَى ... ويُحْسِنُ بالجهلِ الذَّميمِ ظُنُونَه
فيا لائمي دَعْنِي أغالي بقيمتي ... فقيمَةُ كُلِّ النَّاسِ ما يحسِنُونَهُ

وأنا أستعيذُ بالله العظيم من خُدَعِ الجهل المُذلَّة، وبوادر الحمقِ المُضلَّة، وأسأله السَّعادة بعقلٍ رادعٍ يستقيمُ به مَن زلَّ، وعلمٍ نافعٍ يستهدي به من ضلَّ. وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إذا استرذَلَ الله عَبدًا حَظَرَ عليه العلم»[2].

فينبغي لمن زَهِدَ في العِلْم أن يكون فيه راغبًا، ولمن رَغِبَ فيه أن يكون له طالبًا، ولمن طلبه أن يكون منه مستكثرًا، ولمن استكثر منه أن يكون به عاملاً، ولا يطلب لتركه احتجاجًا، ولا للتقصير فيه عُذرًا. وقد قال الشاعر:

فلا تعذِراني في الإساءةِ إنَّه ... شِرارُ الرِّجالِ مَنْ يُسيء فيُعْذَرُ

---

(١) أبكار الكلام: جديده وحَسَنه، وعونه: ما كان مبتذلاً من الكلام لكثرة ترداده على الألسن.

(٢) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» في «المسند» بلفظ قريب (٧٩٥) (٢/ ١٧)، عن أبي هريرة. وأشار القاري في «المصنوع» إلى وضعه.

ولا يسوِّف نفسَه بالمواعيد الكاذبة، ويُمَنِّيها بانقطاع الأشغال المتصلة، فإنَّ لكُلِّ وقتٍ شغلاً، ولكُلِّ زمانٍ عُذرًا. وقال الشاعر:

نَرُوحُ ونَغـــدُو لحـــاجـــاتِنا  وحـــاجَـــةُ مَنْ عـــاشَ لا تَنْقَـضِي
تَمُـــوتُ مَعَ المَرْءِ حـــاجَـــاتُهُ  وتَبْـــقَى لَهُ حَـــاجَـــةٌ مَـــا بَقِي

ويقصدُ طَلَبَ العلْم واثقًا بتيسير الله، قاصدًا وَجهَ الله تعالى، بنيَّة خالصة، وعزيمة صادقة. فقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**مَنْ تَعَلَّم علمًا لغَير الله، أو أراد بهِ غيرَ اللهِ فليتبوأْ مقعدَهُ مِنَ النَّار**»[1]. ورَوَى أبو هريرة ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**تعلَّمُوا العلْمَ قَبْلَ أنْ يُرْفَعَ، وَرَفعُه ذَهَابُ أَهْلِه، فإنَّ أحدَكُم لا يدري متى يُحتاجُ إليه، أو متى يُحتاج إلى ما عندَه**»[2]. ولْيحذر أن يطلبه لمراء أو رياء؛ فإن المماريَ به مهجورٌ لا ينتفعُ، والمرائي به محقورٌ لا يرتفعُ. وروي عنَ النبيِّ ﷺ أنه قال: «**لا تَعَلَّمُوا العلْمَ لِتُماروا به السُّفَهاءَ، ولا تَعَلَّموا العلْم لتجادلوا به العلماءَ؛ فمن فَعَلَ ذلك منكم فالنَّار مَثْوَاهُ**»[3].

وليس المماري به، هو المُناظر فيه، طلبًا للصَّواب منه، ولكنَّه القصدُ لدفع ما يَرِد عليه من فاسد أو صحيح. وفيهم جاءت السُّنَّة عن رسُول الله ﷺ أنه قال: «**لا يجادلُ إلاَّ منافقٌ أو مُرْتَابٌ**»[4]، وقال الأوزاعي: إذا أراد الله بقوم شرًا أعطاهُم الجَدَلَ، ومنعهم العَمَلَ. وأنشد الرِّياشيّ لمصْعَب بن عبد الله:

أجـــادلُ كُلَّ مـــعـــتـــرضٍ ظَنينٍ  وأَجْـــعَـلُ دينَهُ غَـــرَضًـــا لدِيني
وأتركُ مـــا علِمْتُ لرأي غـــيـــري  وليسَ الرَّأيُ كـــالعِلْم اليَـــقينِ
ومـــا أنا والخـــصُـــومـــةَ وَهْيَ شيءٌ  يُصَـرَّفُ في الشِّمـال وفي اليـمين
فـــأمَّـــا مـــا علِمْتُ فَـقَـدْ كـفـاني  وأَمَّـــا مـــا جـــهِلْتُ فـــجَنِّبُـــوني

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٦٥٥) من طريق علي بن المبارك عن أيوب السختياني عن خالد بن دريك عن ابن عمر عن النبي ﷺ، وصححه الألباني.

(٢) **ضعيف**: أخرج شطره الأول حتى «... ذهاب أهله» الدارمي في «السنن» (١٤٢) موقوفًا من قول ابن مسعود، وضعفه الألباني في «المشكاة» (٢٧٩) ولم أصل إلى باقي الحديث.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/١٦١)، وابن حبان في «صحيحه» (١/٢٧٨) عن جابر بن عبد الله، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٣٧٠).

(٤) لم أصل إليه.

**وقد بيَّن ذلك بعضُ العلماء، فقال لصاحبه:** لا يمنعك حذَرُ المراء من حُسْنِ المناظرة، فإنَّ المماريَ هو الذي لا يريدُ أن يتعلَّمَ منه أحدٌ، ولا يرجو أن يتعلَّمَ من أحد.

**واعلم أنَّ لكُلِّ مطلوب باعثًا، والباعث على المطلوب شيئان:** رَغْبة أو رهبة. فليكن طالبُ العِلْم راغبًا راهبًا؛ أمَّا الرَّغبة ففي ثواب الله تعالى لطالبي مَرْضاته، وحافظي مفترضَاته. وأمَّا الرَّهبة فمن عقاب الله تعالى لتاركي أوامره، ومهملي زواجره، فإذا اجتمعت الرَّغبة والرَّهْبة، أدَّتا إلى كُنْه العِلْم وحقيقة الزُّهد؛ لأنَّ الرُّغبة أقوى الباعثين على العلم، والرَّهبة أقوى السببين في الزُّهد.

وقد قالت الحكماء: أصْلُ العلم الرَّغبة، وثمرته السعادة؛ وأصل الزهد الرَّهبة، وثمرته العبادة، فإذا اقترن الزُّهد والعلم فقد تمَّت السَّعادة، وعمَّت الفضيلة، وإن افترقا فيا ويحَ مُفترقين؛ ما أضرَّ افتراقهما، وأقبح انفرادهما!

وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«مَنْ ازْدَادَ في العِلْم رشداً، ولم يَزْدَدْ في الدُّنيا زُهْداً، لم يزدَدْ مِنَ الله إلاَّ بُعْداً»**[(١)].

وقال مالكُ بنُ دينار: مَنْ لم يُؤْتَ من العلم ما يقمعه، فما أوتي من العلم لا ينفعه. وقال بعض الحكماء: الفقيه بغير وَرَعٍ كالسِّراج يضيء البيتَ ويحرِقُ نفسهُ.

## فصل

واعْلم أنَّ للعلوم أوائل تؤدي إلى أواخرها، ومداخل تفضي إلى حقائقها، فليبتدئ طالبُ العلم بأوائلها، لينتهي إلى أواخرها، وبمداخلها ليفضي إلى حقائقها، ولا يطلبُ الآخر قَبْلَ الأوَّل، ولا الحقيقةَ قبلَ المدخل، فلا يدرك الآخر، ولا يعرف الحقيقة؛ لأنَّ البناء على غير أُسٍّ لا يُبْنَى، والثمَر من غير غَرْسٍ لا يجنى. ولذلك أسباب فاسدة، ودواعٍ واهية:

**فمنها أن يكونَ في النفس أغراضٌ تختصُّ بنوعٍ من العلم،** فيدعوه الغرضُ إلى

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢٤٠٢)، قال: رواه الديلمي عن عليٍّ، وسنده ضعيف كما قال العراقي.

قصد ذلك النوع، ويعـدلُ عن مقدماته، كرجل يؤثرُ القضـاء، ويتصدَّى للحكم، فيقصـد من علم الفقه إلَى أدب القاضي، وما يتـعلَّق به من الدَّعوى والبينات. أو يحبُّ الاتِّسام بالشـهادة، فيتعلم كـتابَ الشهادات، لئلاَّ يصـيرَ موسومًـا بجهلِ ما يعاني، فإذا أدرك ذلك ظنَّ أنه قـد حاز من العلم جُمهوره، وأدرَكَ منه مـشهورَه، ولم يَرَ ما بقيَ منه إلا غـامضًا، طَلَبُـهُ عناءٌ، وعويصًا، اسـتخراجُه فَنَاءٌ؛ لقـصور همَّته على ما أدرك، وانصرافها عمَّا تَرَكَ، ولو نَصَحَ نفسَهُ لَعلم أنَّ ما ترك أهمُّ مما أدرك؛ لأنَّ بعض العلم مُـرتَبطٌ ببعض، ولكُلِّ بابٍ منه تعـلُّقٌ بما قبله، فـلا تقوم الأواخرُ إلاَّ بأوائلها؛ وقد يصح قيامُ الأوائلِ بأنفسـها، فيصير طلبُ الأواخر بتَرْكِ الأوائلَ تركًا للأواخر والأوائل؛ فإذًا ليس يَعْرَى من لَوْمٍ، وإن كان تاركُ الكُلِّ ألومَ.

ومنها أن يحبَّ الاشتهار بالعلم، إمَّا لتكسُّب أو لتجمُّلٍ، فيقصد من العلم ما يشتهر به؛ من مـسائل الجدل وطريق النظر، ويتعاطى علم ما اخـتُلف فيه دون ما اتَّفق عليه، ليناظر على الخلافَ، وهو لا يعرفُ الوفاق، ويجادل الخصوم، وهو لا يعرف مذهبًا مخـصوصًا. وقد رأيت من هذه الطبقة عددًا قد تحـقَّقُوا بالعلم تحقُّقَ المتكلِّمين، واشـتهروا به اشـتهارَ المتـبحِّرين؛ إذا أخـذوا في مناظرة الخُصُـوم ظَهَرَ كلامُهم، وإذا سئلوا عن واضح مذهبهم ضلَّتْ أفـهامُهم، حتَّى إنَّهم ليخْبطون في الجواب خَبْطَ عَشْواء، فلا يظهـرُ لهم صوابٌ، ولا يتقرَّرُ لهم جواب، ثم لا يرون ذلك نقصًا، إذا تمَّقوا في المجـالس كلامًا موصوفًا، ولفَّقوا على المخـالف حجاجًا مألوفًا، وقد جهلوا من المذاهب ما يعلَمُه المبتدئ، ويتداولُه الناشئ، فَهُمْ دائمًا في لَغَط[1] مضلٍّ، أو غَلَطٍ مُذلٍّ.

ورأيت قومًـا منهم يَرَوْنَ الاشتغـالَ بالمذهب تكلُّفًا، والاستكثـار منه تخلُّفًا، وحاجَّني بعضُهم عليه، فقـال: لأنَّ علْمَ حافظ المذهب مستورٌ، وعلْمَ المناظر عليه مشهورٌ. فقلت: كيف يكونُ علم حافَظ المذهب مستورًا وهو سريعَ الجواب، كثيرُ الصَّواب؟ فـقال: لأنَّه إنْ لم يُسـألْ سكت فلم يُعْرَف، والمناظر إن لم يُسـأل سأل فعُـرف. فقـلت: أليس إذا سئل الحـافظ فأصـاب بان فضلُه؟ قـال: نعم. قلت: أفليس إذا سُئل المناظرُ فـأخطأ بان نقصه، وقـد قيل: عند الامتـحان يُكرم المرء أو يُهان؟ فأمسك عن جـوابي، لأنَّه إن أنكر كابَرَ المعقول، ولو اعترف لزمـته الحجَّةُ؛

---

(١) **لغط**: ضوضاء وكلام متداخل.

والإمساك إذعانٌ، والسكوتُ رضًا؛ ولأنْ ينقاد إلى الحقّ أولى من أن يستفزَّه الباطل. وهذه طريقةُ من يقولُ: اعرفوني، وهو غيرُ عروفٍ[1] ولا معروفٍ، وبعيدٌ، ممن لا يعرفُ العِلْمَ أن يُعرفَ به. وقد قال زُهير:

**ومهما تكُنْ عند امرئٍ مِن خَليقةٍ وإنْ خَالَها تخفَى على النَّاسِ تُعْلَمِ**

**ومن أسباب التقصير أيضًا:** أن يغفل عن التعلُّم في الصِّغر، ثم يشتغل به في الكبر، فيستحي أن يبتدئ بما يبتدئ به الصغير، ويستنكف عن أن يساويه الحدَثُ الغَرير[2]، فيبدأ بأواخر العلوم وأطرافها، ويهتمّ بحواشيها وأكنافها، ليتقدَّمَ على الصغير المبتدئ، ويساويَ الكبيرَ المنتهي، وهذا ممن رضي بخداع نفسه، وقنعَ بمداهنة حسّه؛ لأنَّ معقولَه إن أحسَّ، ومعقول كُلِّ ذي حِسٍّ، يشهدُ بفساد هذا التصوُّرِ، وينطقُ باختلال هذا التخيُّل؛ لأنه شيء لا يقوم في وَهْم، والجَهلُ ما يبتدئ به المتعلِّمَ أقبَحُ من جَهْلِ ما ينتهي إليه العالمُ، وقد قال الشاعر:

**تَرقَّ إلى صغيرِ الأمرِ حتَّى يُرَقِّيَكَ الصَّغيرُ إلى الكبيرِ**
**فتعرف بالتفكُّرِ في صغيرٍ كبيرًا بعدَ معرفةِ الصَّغيرِ**

ولهذا المعنى وأشباهه كان التعلُّمُ في الصغر أحمَدَ. رَوَى مروان بن سالم، عن إسماعيل، عن أبي الدَّرداء قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«مَثَلُ الذي يتعلَّم في صغره كالنَّقْشِ على الحجر، والذي يتعلَّمُ في كبره كالذي يكتبُ على الماء»**[3]. وقال عليّ بن أبي طالب - كرَّم الله وجهه -: قلبُ الحَدَث كالأراضي الخالية، ما أُلْقِيَ فيها من شيء قبلته. وإنَّما كان كذلك؛ لأنَّ الصغيرَ أفرغُ قلبًا، وأقلُّ شغلاً، وأيسَرُ تبذّلاً[4]، وأكثرُ تواضعًا. وقد قيل في منثور الحكم: المتواضعُ من طلاَّب العلم أكثَرَهُم علمًا، كما أن المكان المنخفضَ أكثرُ البقاع ماءً. فأمَّا أن يكون الصغيرُ أضبطَ من الكبير إذا عَريَ من هذه الموانع، وأوعى منه إذا خَلاَ من هذه القواطع، فلا. حُكي أنَّ الأحْنف بنَ قيسٍ سَمِعَ رجلاً يقولُ: التعلُّمُ في الصغر كالنقش على الحجر. فقال الأحنف: الكبيرُ أكثرُ عقلاً، ولكنَّه أشغَلُ قلبًا.

---

(١) عروف: عارف. (٢) الغرير: الجاهل الغافل.
(٣) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١٧٥٧).
(٤) التبذل: هو عدم صيانة النفس، يريد أقل تكلفًا.

ولعمري لقد فحص الأحنف عن المعنى وبيَّنه، ونبَّه على العلَّة؛ لأنَّ قواطعَ الكبير كثيرة، فمنها ما ذكرنا من الاستحياء. وقد قيل في منثور الحكم: مَنْ رَقَّ وجهُه رقَّ علمُه. وقال الخليلُ بن أحمدَ: يَرْتَعُ الجَهْلُ بين الحياءِ والكِبْرِ في العلم.

**ومنها وفورُ شهواته، وتقسُّمُ أفكاره.** وقد قال الشاعر:

**صَرْفُ الهَوَى عن ذي الهَوَى عَزِيزُ ... إنَّ الهَوى ليسَ لَهُ تَمييزُ**

وقال بعضُ البلغاء: إنَّ القلْبَ إذا عَلِقَ، كالرَّهْن إذا غَلِقَ[1].

**ومنها الطَّوارقُ المزعجةُ، والهمومُ المذهلَةُ؛** وقد قيلَ في منثور الحكم: الهمُّ قَيْدُ الحواسّ. وقال بعضُ البلغاء: مَن بلَغَ أشُدَّه[2]، لاقَى مِنَ العيش أشَدَّه.

**ومنها كثرةُ اشتغاله وترادُفُ أحواله،** حتَّى إنها لتستوعبُ زمانه، وتستنفدُ أيَّامَه، فإذا كان ذا رئاسة ألْهَتْهُ، وإن كان ذا معيشة قَطَعَتْه، ولذلك قيل: تفقَّهوا قَبْلَ أن تُسَوَّدوا[3]. وقالَ بُزرجُمهر: الشغلُ مَجْهدَة[4]، والفراغ مَفْسَدة. فينبغي لطالبِ العلم ألاَّ يني[5] في طلبه، وينتهزَ الفرصة به، فربَّما شحَّ الزَّمانُ بما سَمَح، وضَنَّ بما مَنَحَ، ويبتدئ من العلم بأوَّله، ويأتيه من مُدْخَله، ولا يتشاغَلُ بطلب ما لا يضرّ جهلُه، فيمنعه ذلك من إدراك ما لا يَسعُه جهلُه، فإنَّ لِكُل علمٍ فضولاً مُذْهلة، وشذورًا مُشْغلة، إن صرف إليها نفسَه قطعته عمَّا هو أهمُّ منها.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: العلْمُ أكثرُ من أن يُحْصى، فخذوا مِن كُلِّ شيءٍ أحسنَه. وقال المأمون: ما لم يكن من العلم بارعًا، فبطون الصحف أولى به من قلوب الرجال. وقال بعضُ الحكماء: بتركِ ما لا يعنيك تدرك ما يَعْنيك.

ولا ينبغي أن يَدْعوَه ذلك إلى ترك ما استصعب عليه، إشعارًا لنفسه أنَّ ذلك من فضول علمه، وإعذارًا لها في تَرْكِ الاشتغال به؛ فإنَّ ذلك مَطيَّةُ النَّوْكَى، وعذْرُ

---

(١) **غلق الرهن:** لم يستطع الراهن فكه عند أجله المحدد.
(٢) **بلغ اشده:** بلغ أوج عقله وقوته.
(٣) **تسودوا:** أي تصبحوا سادة.
(٤) **مجهدة:** أي يورث المشقة والتعب.
(٥) **يني:** يتكاسل.

المقصِّرين، ومَنْ أخَذَ من العلم ما تَسهَّلَ، وتَرَكَ منه ما تعذَّرَ، كان كالقنَّاص، إذا امتنَعَ عليه الصَّيْدُ تَرَكَهُ، فلا يرجع إلاَّ خائبًا، إذ ليس يَرى الصيد إلاَّ ممتنعًا، كذلك العلْمُ: طلبُه صعْبٌ على مَنْ جهِلَه، سَهْلٌ على مَن علمه؛ لأنَّ معانيَه التي يتوصَّل إليها مستودَعةٌ في كلام مترجمٍ عنها، وكُلُّ كلامٍ مستعمَلٍ فهو يجمَعُ لفظًا مسموعًا، ومعنىً مفهومًا؛ فاللفظ كلامٌ يُعقَل بالسَّمْع، والمعنى تحتَ اللفظ يُفْهَمُ بالقلب.

وقد قال بعضُ الحكماء: العلومُ مطالعُها من ثلاثة أوجه: قلب مفكِّر، ولسان معبِّر، وبيان مصوِّر؛ فإذا عَقَلَ الكلامَ بسمعه فَهِمَ معانيَه بقلْبه، وإذا فَهِمَ المعاني، سقطت عنه كلفة استخراجها، وبقي عليه معاناةُ حفْظها واستقرارها؛ لأنَّ المعاني شواردُ[١] تَضِلُّ بالإغفال[٢]، والعلوم وحشية[٣] تنفر بالإرسال، فإذا حفظَها بعدَ الفَهْم أنِسَتْ، وإذا ذاكر بها بعد الأنس رَسَتْ. وقد قال بعضُ الحكماء: مَن أكثرَ المذاكَرَةَ بالعلم لم ينسَ ما علِمَ، واستفادَ ما لَمْ يعلمْ. وقال الشاعر:

| | |
|---|---|
| **إذا لَمْ يُذاكِرْ ذو العُلُومِ بعِلْمِهِ** | **ولَمْ يستفِدْ عِلْمًا نسِي ما تَعلَّما** |
| **فكم جامعٍ للكتْب في كلِّ مَذْهَبٍ** | **يَزيدُ مَعَ الأيَّام في جَمْعِهِ عَمى** |

وإن لم يفهَمْ معاني ما سمِعَ، كشف عن السَّبب المانع منها، ليعلَمَ العلَّة في تعذُّر فهمها؛ فإنَّ بمعرفة أسبابِ الأشياء وعللها، يصِلُ إلى تلافي ما شذَّ، وصَلاح ما فَسَدَ. وليس يخلو السَّببُ المانعُ من ذلك من ثلاثة أقسام: إما أن يكونَ لعلَّة في الكلام المترجم عنها. وإمَّا أن يكونَ لعلَّة في المعنى المستودَع فيها. وإمَّا أن يكون لعلّة في السَّامع المستخرِج. فإن كان السَّببُ المانعُ من فهمها لعلّةٍ في الكلام المترجَم عنها، لم يخلُ ذلك من ثلاثة أحوال:

**أحدها** ـ أن يكون لتقصير اللفظ عن المعنى، فيصيرَ تقصيرُ اللفظ عن ذلك المعنى سببًا مانعًا من فهمِ ذلك المعنى، وهذا قد يكون من أحد وجهين: إمَّا من حصَرِ المتكلِّم وعيِّه[٤]، وإمَّا من بلادتِه وقلَّةِ فَهْمِه.

---

(١) **شوارد**: أي تتفرق وتنفر. (٢) **الإغفال**: الإهمال.

(٣) **وحشية**: لا تستأنس أو تألف صاحبها.

(٤) **الحَصَر والعي**: عجز عن الإيضاح والإفصاح في الكلام.

والحال الثانية ـ أن يكون لزيادة اللفظ على المعنى، فتصيرَ الزِّيادةُ علَّةً مانعةً من فهم المقصود منه، وهذا قد يكون من أحد وجهين: إمَّا من هَذَرِ المتكلِّم وإكثاره، وإمَّا لسُوء ظنِّه بفهم سامعه.

والحال الثالثة ـ أن يكونَ لمُواضَعَة[1] يقصدُها المتكلِّمُ بكلامه، فإذا لم يعرفْها السَّامعُ لم يفهمْ معانيها.

فأمَّا تقصيرُ اللفظ وزيادتُه، فمن الأسباب الخاصَّة دون العامَّة؛ لأنَّك لستَ تَجدُ ذلك عامًا في كُلِّ كلامٍ، وإنَّما تجده في بعضه، فإن عدلْتَ عن الكلام المقصِّر إلى الكلام المستوفِي، وعن الزائد إلى الكافي، أرحْت نفسكَ من تكلُّف ما يكدِّرُ خاطِرَكَ، وإن أقمتَ على استخراجه؛ إمَّا لضرورة دعتْكَ إليه عند إعواز غيره، أو لحمِيَّة داخلتك عند تعذُّر فهمه، فانظرْ في سبَب الزِّيادة والتَّقصير، فإن كان التقصيرُ لحصرٍ، والزيادةُ لهذرٍ، سَهُلَ عليك استخراجُ المعنى منه؛ لأنَّ ما له من الكلام محصولٌ، لا يجوزُ أنْ يكون المختلُّ منه أكثر من الصَّحيح، وفي الأكثر على الأقلِّ دليلٌ. وإن كانت زيادةُ اللفظ على المعنى لسوء ظنِّ المتكلِّم بفهم السَّامع، كان استخراجُه أسهل، وإن كان تقصيرُ اللفظ عن المعنى لسوء فهم المتكلِّم، فهو أصعَبُ الأمور حالاً، وأبعدُها استخراجًا؛ لأنَّ ما لم يفهمه مكلِّمُكَ، فأنت من فهمه أبعدُ، إلاَّ أن تكون بفرط ذكائك، وجودة خاطرِكَ، تتنبَّه بإشارته على استنباط ما عجزَ عنه، واستخراج ما قصَّر فيه، فتكون فضيلةُ الاستيفاء لك، وحقُّ التقدُّم له. وأمَّا المواضعة فضربان: عامَّة وخاصَّة.

**فأمَّا العامَّةُ**، فهي مواضعةُ العُلماء فيما جعلوه ألقابًا لمعانٍ لا يستغني المتعلِّم عنها، ولا يقفُ على معنى كلامهم إلاَّ بها، كما جَعَلَ المتكلِّمون الجواهرَ والأعراضَ والأجسامَ ألقابًا تواضعوها لمعان اتفقوا عليها، ولست تجدُ من العلوم علمًا يخلو من هذه المواضعة، وهذه المواضعةُ العامَّة تسمَّى عُرْفًا.

**وأما الخاصَّة**، فمواضعة الواحد، يقصدُ بباطن كلامه غير ظاهره، فإن كانت في الكلام كانت رَمْزًا، وإن كانت في الشعر كانت لُغزًا.

---

(١) المواضعة: اتفاق جماعة على تسميات ومصطلحات لها معنى خاص يعرف بينهم.

**فأما الرَّمْزُ** فلسْتَ تجده في علم معنويٍّ، ولا في كلامٍ لُغوي، وإنما يختصُّ غالبًا بأحد شيئين:

إمَّا بمذهب شنيعٍ يخفيه معتقدهُ، ويجعل الرَّمز به سببًا لتطلُّع النفوس إليه، واحتمال التأويل فيه سببًا لدفع التُّهمة عنه.

وإمَّا لما يدَّعي أربابه أنه علْمٌ مُعوز[1]، وأنَّ إدراكه بديعٌ معجزٌ، كالصَّنْعَة التي وضعها أربابُها اسْمًا لعلْم الكيمياء، فرمزوا بأوصافه، وأخفوا معانيه، ليوهمُوا الشُّحَّ به، والأسفَ عليه، خديعةً للعقول الواهية والآراء الفاسدة. وقد قال الشاعر:

**مُنِعْتُ شيئًا فأكثرْتَ الوَلُوعَ به ... أَحَبُّ شيءٍ إلى الإنسانِ ما مُنِعا**

ثم ليكونوا بُرآءَ من عُهْدَةَ ما قالوه إذا جُرِّب. ولو كان ما تضمَّن هذين النوعين وأشباههما من الرموز معنى صحيحًا، وعلمًا مستفادًا، لخرج من الرَّمْز الخفيِّ إلى العلم الجليِّ، فإنَّ أغراضَ النَّاس مَعَ اخْتِلاف أهوائهم، لا تتفقُ على سِتْرِ سَليمٍ وإخفاء مُفيد. وقد قال زُهير:

**السِّتْرُ دونَ الفَاحِشَاتِ ولا ... يَلْقَاكَ دونَ الخَيْرِ مِن سِتْرِ**

وربَّما اسْتُعْمِلَ الرَّمْزُ من الكلام فيما يُرادُ تفخيمُه من المعاني وتعظيمُه من الألفاظ؛ ليكونَ أحلى في القلوب موقعًا، وأجلَّ في النُّفوس موضعًا، فيصيرَ بالرَّمْزِ سائرًا، وفي الصُّحف مُخلدًا؛ كالذي حُكِي عن فثاغُورسَ في وصاياه المرموزة، أنه قال: احفظ ميزانك من النَّدَى، وأوزانَكَ من الصَّدا. يريدُ بحفظ الميزان من النَّدى: حفظ اللسان من الخَنَا، وبحفظ الأوزان من الصَّدَا حفظَ العَقْل مِنَ الهَوَى، فصارَ بهذا الرَّمْز مستحسنًا ومدونًا، ولَو قاله باللفظ الصَّريح، والمعنى الفصيح، لما سار[2] عنه، ولا استُحسن منه.

وعلَّةُ ذلك أنَّ المحجوبَ عن الأفهام كالمحجوب عن الأبصار، فيما يحصل له في النفوس من التعظيم، وفي القلوب من التفخيم، وما ظهر منها ولم يحتجب هَانَ واستُرْذِل، وهذا إنَّما يصحُّ استحلاؤه فيما قلَّ، وهو باللفظ الصَّريح مستقلّ.

---

(١) معوز: أي غامض مُشكِل. (٢) سار: أي اشتهر وذاع.

فأمـا العلومُ المنتشـرة التي تتطلّع النُّفوس إليهـا، فقد اسْتَغْنَتْ بقـوَّة الباعث عليها، وشدَّة الدَّاعي إليها، عن الاستدعاء إليـها بِرَمْزٍ مُسْتَحْلىً، ولفظ مُستغرب، بل ذلك منفِّر عنها؛ لما في التـشاغل باستخراج رمـوزها، من الإبطاء عن دَرْكها، وتصوُّر معانيها، فهذا حالُ الرَّمز.

**وأمَّا اللُّغْزُ:** فهو تحـدِّي أهل الفراغ، وشُغْلِ ذوي البَطَالة، ليتنافَـسُوا في تباين قرائحهم، ويتفاخَرُوا في سرعة خواطرهم، فيستكدُّوا خواطر[1] قد مُنحوا صحَّتها فيما لا يجـدي نفعًا، ولا يفيدُ علْمًا، فـهم كأهلِ الصِّراع[2]، الذين قد صَرفوا ما مُنحُـوه من صـحَّة أجسـادهم، إلى صراع كَـدُود[3]، يَصْـرَعُ عقـولَهم، ويَهـدُّ أجسامَـهم، ولا يكسِبهم حمدًا، ولا يُجْـدي عليهمْ نفعًا. انظر إلى قـول الشاعر حيث يقول:

**رجلٌ مـــاتَ وخَلَّـى رَجُـــلا ... ابنَ أم ابنِ أبـي أُخْتِ أبيـــه**
**مَـــعَـــهُ أمُّ بَنـي أولادهِ ... وأبَـا أُخْتِ بَنـي عَمِّ أخـيـــه**

أَخْبرني عن هـذين البيتين وقد روَّعك صـعوبةُ ما تضمَّنَهـما من السؤال، إذا استكدَّيتَ الفكر في استخراجه، فعلمت أنه أراد: ميتًا خَلَّف أبًا وزوجة وعَمًّا، ما الذي أفـادك من العلم، ونَفَى عنكَ مِنَ الجـهل؟ ألسْتَ بعدَ علْمـه تجهَلُ مـا كنت جاهلاً من قـبله، ولو أنَّ السائل قلبَ لَكَ السؤال، فـأخَّرَ ما قدَّم وقـدَّم ما أخَّر، لكنْتَ في الجـهل به قبل اسْـتخْراجـه، كمـا كنْتَ في الجهل الأوَّل، وقـد كَدَدْت فكرك، وأتعبْتَ خاطرَكَ، ثم لا تَعدَم أن يَرِدَ عليكَ مثلُ هذا ممَّا تجهلُه، فتكون فيه كما كنْتَ فيما قبله.

فاصْرِفْ نفْـسَكَ - تولَّى الله رُشْدَكَ - عن علوم النَّوْكى[4]، وتكلُّف البطَّالين؛ فقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«مِن حُسْنِ إسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنيه»**[5]. ثم

---

(١) **فيستكدوا خواطر:** يتعبون فكرهم مع شدة البحث والتقصي.
(٢) **أهل الصراع:** لعله يريد المصارعين وأشباههم من أصحاب الرياضات الجسدية العنيفة.
(٣) **كدود:** متعب مرهق. (٤) **النوكى:** الحمقى.
(٥) أخرجه أحمد (١/٢٠١)، عن علي بن حسين عن أبيه.

اجعل ما مَنَّ الله به عليك من صحةَّ القَريحـة، وسُرْعَة الخاطر، مصروفًا إلى عِلْم ما يكونُ إنفاقُ خاطرك فيه مذخورًا، وكدُّ فكرك فيه مشكورًا.

وقد رَوَى سعيد بن أبي هند، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**نعْمَتان مَغْبونٌ فيهما كثيرٌ من النَّاس: الصِّحَّة والفَرَاغُ**»[1]. ونحن نستعيذ بالله من أن نَغْبِنَ فَضْلَ نعـمته علينا، ونجهَلَ نَفْعَ إحسانه إلينا، وقـد قيل في منثور الحكم: منَ الفراغ تكون الصَّـبْوَةُ[2]. وقال بعـضُ البلغاء: مَنْ أَمْـضَى يومَهُ في غـير حقٍّ قَضَاه، أو فَرْضٍ أدَّاه، أو مَجْد أثَّلَه[3]، أو حَمْد حَصَّلَهُ، أو خَـيْرٍ أَسَّسه، أو عِلْمٍ اقتبسه، فقد عَقَّ يومه، وظلم نَفْسه. وقال بعضُ الشعراء:

**لَقَـدْ هَاجَ الفَـرَاغُ عليكَ شُـغْـلاً     وأسـبـابُ البَـلاءِ مِن الفَـرَاغِ**

فهذا تعليلُ ما في الكلام من الأسباب المانعـة من فهم معانيه، حتَّى خَرَجَ بنا الاسْتِيفاءُ إلى الإطالة، والكشفُ إلى الإغماض.

**وأما القسم الثاني**، وهو أن يكونَ السَّببُ المانعُ من فَهْمِ السَّامع لعلَّة في المعنى المستودَع، فلا يخلُو حـالُ المعنى من ثلاثة أقسام: إما أن يكون مستـقلاً بنفسه، أو يكون مقدمةً لغيره، أو يكون نتيجةً من غيره.

**فأما المستقلُ بنفسه فضربان**: جَلِيٌّ وَخَفِيٌّ.

**فأمَّا الجليُّ**: فهو يسبقُ إلى فهم متصوِّره من أوَّلِ وهلة، وليس هو من أقسام ما يُشكل على من تصوَّره.

**وأما الخفيّ**: فيحتاجُ في إدراكه إلى زيادة تأمل، وفـضل معاناة، لينجلي عمَّا أُخـفي، وينكشف عمَّـا أُغـمض، وباستـعمـال الفكر فـيه يكون الارتيـاض به، وبالارتياض به يسهُلُ منه ما استصعَـبَ، ويقربُ منه ما بعُد، فإنَّ للرياضة جراءةً، وللدِّراية تأثيرًا. وأمَّا ما كان مقدِّمة لغيره فضربان:

**أحدهما** - أن تقوم المقدِّمَةُ بنفـسها، وإن تعدَّتْ إلى غيرها، فـتكون كالمستقلِّ بنفسه، في تصوُّره وفهمه، وإن كان مستدعيًا لنتيجته.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٤). (٢) الصبوة: جهلة الشباب. (٣) أثله: قواه ودعم أسسه.

والثاني - أن يكون مفتقرًا إلى نتيجته، فيتعذَّر فهم المقدمة إلاَّ بما يتبعها من النتيجة؛ لأنَّها تكونُ بعضًا منه، وتبعيضُ المعنى أشكل[1] له، وبعضه لا يغني عن كُلِّه.

**وأمَّا ما كان نتيجةً لغيره،** فهو لا يُدْرك إلاَّ بأوَّله، ولا يُتصوَّر على حقيقته إلا بمقدِّمته، والاشتغالُ به قبل المقدّمة عناءٌ، وإتعابُ الفكْرِ في استنْباطه قبلَ قاعدته أذى، فهذا يوضِّح تعليلَ ما في المعاني من الأسباب المانعة من فهمها.

**وأما القسم الثالث،** وهو أن يكونَ السَّببُ المانعُ لعلَّة في المستمع، فذلك ضربان: أحدهما من ذاته، والثاني من طارئ طرأ عليه؛ فأمَّا ما كان من ذاته فيتنوَّع نوعين: أحدهما: ما كان مانعًا من تصوُّر المعنى وفهمه؛ والثاني: ما كان مانعًا من حفْظه بعدَ تصوُّره وفهمه؛ فأمَّا المانعُ من تصوُّر المعنى وفهمه، فهو البَلادَةُ، وقلَّةُ الفطْنة، وهو الدَّاء العَيَاء. وقد قالت الحكماء: إذا فقد العالم الذِّهنَ، قلَّ على الأضداد احتجاجُه، وكثُرَ إلى الكتب احتياجُه، وليس لمن بُلي به إلاَّ الصَّبرُ والإقلالُ، لأنَّه على القليل أقدرُ، وبالصبر أحرى أن يَنالَ ويَظفرَ.

وقد قال بعضُ الحكماء: قدِّمْ لحاجتك بعضَ لجَاجَتك[2]؛ وليس يقدر على الصَّبر مَنْ هذه حالُه، إلاَّ أن يكونَ غالبَ الشَّهوة، بعيدَ الهمة، فيُشْعر قلبَه الصبر، لقوَّة شهوته؛ ويكلِّف جسدَه احتمَالَ التَّعب؛ لبُعد همَّته؛ فإذا لاحَ له المعنَى بمساعدة الشَّهوة، أعقبَهُ ذلك إلحَاحَ الآملين، ونَشَاطَ المدركين، فقلَّ عندَه كُلُّ كثير، وسهُلَ عليه كُلُّ عسير. وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إنَّكم لا تَنَالُونَ ما تحبُّون إلاَّ بالصَّبْرِ على ما تَكْرَهُون، ولا تبلُغون ما تهْوَوْن إلاَّ بتَرْكِ ما تشتهون**»[3]. وقيل في منثور الحكم: أتعِب قَدَمَكَ، فكم مِن تَعَب قدَّمَكَ.

وقال بعضُ البلغاء: إذا اشتدَّ الكَلَفُ، هانت الكُلَفُ[4]. وأنشد بعضُ أهل الأدب، ما ذكر أنَّه لعليِّ بن أبي طالب - عليه السلام -:

---

(١) اشكل: أغمض. (٢) اللجاجة: الإصرار.

(٣) أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» (٢/١٦٧) (٣٨٤)، عن عيسى المرادي عن عيسى ابن مريم وليس عن النبي ﷺ.

(٤) الكلف: بالفتح المحبة، والكُلف: بالضم جمع كلفة وهي المشقة.

**لا تَعْجَزَنَّ ولا تَدْخُلْكَ مَضْجَرَةٌ      فالنُّجْحُ يَهلِكُ بينَ العَجْزِ والضَّجَرِ**

**وأمَّا المانعُ مِن حفظه بعد تصوُّره وفهمه،** فهو النسيانُ الحادثُ عن غفْلة التقصير، وإهمال التَّواني، فينبغي لمن بُلي به أن يستدركَ تقصيرَهُ بكثرة الدرس، ويوقظَ غَفْلَتَه بإدامة النَّظَر. فقد قيلَ: لن يُدْرِكَ العلمَ مَن لا يُطيلُ دَرْسَه، ويَكُدُّ نفسَه؛ وكثرة الدَّرْسِ كدودٌ[1]، لا يصبرُ عليه إلاَّ مَن يرَى العلْمَ مَغْنمًا، والجَهَالَةَ مَغْرَمًا، فيحتملُ تَعَبَ الدَّرْسِ؛ ليدركَ راحَةَ العلْمِ، وينفيَ عنه مَعَرَّةَ الجَهْلِ، فإنَّ نيلَ العظيم بأمرٍ عظيم، وعلى قدرِ الرغبة يكونُ الطَّلبُ، وبحسَبِ الرَّاحة يكونُ التَّعَبُ، وقد قيل: طلبُ الراحة قلَّةُ الاستراحة. وقال بعض الحكماء: أكمَلُ الرَّاحة ما كانَتْ عن كدِّ التَّعَب، وأعَزُّ العلْمِ ما كان عن ذُلِّ الطَّلَب. وربما استثقلَ المتعلِّمُ الدَّرْسَ والحفْظَ، واتَّكَلَ بعدَ فَهْمِ المعاني على الرُّجوعِ إلى الكُتُب والمطالعة فيها عندَ الحاجة، فلا يكونُ إلاَّ كمن أطلَقَ ما صَادَهُ، ثقةً بالقُدْرة عليه بعدَ الامتناع منه، فلا تُعْقِبُه الثِّقةُ إلاَّ خجلاً، والتفريطُ إلاَّ نَدَمًا.

وهذه حالٌ قد يدعُو إليها أحدُ ثلاثة أشياء: إمَّا الضَّجَرُ من معاناة الحفظ ومراعاته، أو طُولُ الأمل في التوفُّر[2] عليه عندَ نشاطه، أو فسادُ الرَّأْي في عزيمته، وليس يعلمُ أنَّ الضَّجُورَ خائب، وأنَّ الطَّويلَ الأمَلِ مغرورٌ، وأنَّ الفاسدَ الرأي مُصَابٌ؛ والعربُ تقولُ في أمثالها: حَرْفٌ في قلبك خيرٌ من ألفٍ في كتبك. وقالوا: لا خَيْرَ في علْمٍ لا يعبُرُ معكَ الوادي، ولا يَعمُرُ بك النادي.

وأُنشدت عن الرَّبيع، للإمام الشافعي - رحمه الله ورضي عنه -:

**علْمِي مَعِي حيثُما يَمَّمْتُ يَتبعُنِي      قلبي وعاءٌ لَهُ لا بطنُ صُنْدُوقِ**
**إنْ كنْتُ في البَيْتِ كانَ العلْمُ فيه مَعِي      أو كنْتُ في السُّوقِ كانَ العلْمُ في السوقِ**

وربُّما عُنِي المتعلِّم بالحفظ، من غير تصوُّرٍ ولا فَهْمٍ، حتَّى يصيرَ حافظًا لألفاظ المعاني، قيِّمًا[3] بتلاوتها وهو لا يتصوَّرُها، ولا يفهَمُ ما تضمنته، يَرْوِي بغير رَوِيَّةٍ، ويخبِرُ عن غيرِ خِبرةٍ، فهو كالكتاب الذي لا يَدْفَعُ شُبْهةً، ولا يؤيِّدُ حُجَّةً.

---

(١) كدود: متعب.      (٢) التوفر على الشيء: رعايته.
(٣) قيمًا: قائمًا على شؤونه مراعيًا له.

وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**همَّةُ السُّفهاءِ الرِّوايةُ، وهمَّةُ العلماءِ الرِّعايةُ**»[1]. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كُونوا للعلْم رُعاةً، ولا تكونُوا لَهُ رُواةً، فقد يَرْعَوي[2] من لا يَروي، ويَروي مَنْ لا يَرْعَوي. وحدَّث الحسَنُ البصريُّ بحديث، فقالَ له رجلٌ: يا أبَا سعيد، عمن؟ قال: ما تصنعُ بعمَّن؟ أمَّا أنتَ فقد نالتْكَ عظَتُه، وقامتْ عليك حُجَّتُه.

وربَّما اعتمد على حفْظه وتصوُّره، وأغفَلَ تقييدَ العلْم في كتبه، ثقةً بما استقرَّ في ذهنه، وهذا خطأٌ منه؛ لأنَّ الشكَ معترضٌ، والنسيانَ طارئٌ. وقد روَى أنس ابن مالك عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**قيِّدُوا العلمَ بالكتاب**»[3]. ورُوي أنَّ رجلاً شكا إلى النبيِّ ﷺ النسيان، فقال له: «**استعملْ يَدَكَ**»[4]. أي اكتُبْ، حتَّى ترجعَ إذا نسيتَ إلى ما كتبْتَ. وقال الخليلُ بن أحمد: اجعَلْ ما في الكتب رأسَ المال، وما في القلب النَّفَقَةَ. وقال مَهْبود: لولا ما عَقَدَتْه الكتبُ من تجارب الأوَّلين، لانحلَّ مع النسيان عقودُ الآخرين. وقال بعضُ البلغاء: إن هذه الآدابَ نَوَافرُ[5]، تندُّ عن عُقُل[6] الأذهان، فاجعَلُوا الكتُبَ عنه حُماةً، والأقلامَ لها رُعاةً.

وأما الطارئ[7] فنوعان:

أحدهما - شُبْهةٌ تعترِضُ المعنَى فتمنع من تصوُّره، وتدفَعُ عن إدراكِ حقيقته. فينبغي أن يزيل تلك الشُّبهة عن نفسه بالسؤال والنظر، ليصلَ إلى تصوُّر المعنَى، وإدراك حقيقته. ولذلك قال بعضُ العلماء: لا تُخْلِ قلبَكَ من المذاكرة، فيعودَ عقيمًا، ولا تُعْفِ طبعَكَ من المناظرة، فيصيرَ سقيمًا؛ وقال بشار بن بُرد:

| | |
|---|---|
| **شِفَاءُ العَمَى طولُ السُّؤالِ وإنَّما** | **دوامُ العَمَى طُولُ السُّكوت على الجهلِ** |
| **فكُنْ سائلاً عمَّا عَنَاكَ فإنَّما** | **دُعيتَ أخا عَقْلٍ لتبحَثَ بالعقْل** |

---

(١) أخرجه ابن عساكر عن الحسن مرسلاً كما في «كنز العمال» (٢٩٣٣٧).

(٢) أي ينزجر.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٨٨) والدارمي (٤٩٧) موقوفًا عن عمر وأنس رضي الله عنهما. أما الحديث النبوي فهو ما أخرجه الحاكم (١/ ١٨٨)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ قال رسول الله ﷺ: «قيدوا العلم»، قلت: وما تقييده؟ قال: «كتابته».

(٤) لم أصل إليه. (٥) نوافر: أي شوارد.

(٦) تند: أي تنفرد وتشردُ، والعُقُل: جمع عقال وهو القيد.

(٧) يريد أن المانع من تصور المعنى العلة في المستمع: إما من ذاته وهي البلادة، أو لطارئ.

والثاني ـ أفكارٌ تُعارضُ الخاطرَ؛ فيـذْهَلُ عن تصورُّ المعنَى. وهذا سببٌ قلَّما يَعْرَى منه أحدٌ، لاسيما فيمن انبسطت آمالُه، واتَّسَعَتْ أمانيه، وقد يقلُّ فيمن لم يكُنْ له في غيـر العلْم أرَبٌ، ولا فيمـا سواه همَّةٌ، فـإنْ طرأَتْ على الإنسان، لم يقدرْ علـى مكابرة نفسه علـى الفهم، وغلبة قـلبه على التصـورُّ؛ لأنَّ القلبَ مع الإكراه أشدُّ نفورًا، وأبعَدُ قبولاً. وقد جاء الأثَرُ، بأنَّ القلبَ إذا أُكْرِه عمِي، ولكن يعمَلُ في دَفْـع ما طرأ عليه من همٍّ مـذهلٍ، أو فكرٍ قاطعٍ، ليـستجـيبَ له القلبُ مُطيعًا، وقد قال الشاعر:

ولـيـس بمـغْـنٍ في المودَّة شــــافِـعٌ    إذا لم يكُنْ بين الضُّلوع شَــفــيـعُ

وقـال بعضُ الحكمـاء: إنَّ لهذه القلـوب تنافرًا كـتنافـر الوحش، فـتألَّفـوها بالاقتصاد في التعليم، والتوسُّط في التقديم، لتحسنَ طاعتُها، ويدُومَ نشاطُها.

فهذا تعليل ما في المستمع من الأسباب المانعة من فهم المعاني.

**وها هنا قسم رابع يمنع من معرفة الكلام، وفهم معانيه،** ولكنه قد يَعرَى من بعض الكلام، فلذلك لم نُدْخلْ في جـملة أقسامه ولـم نَستجزْ الإخـلال بذكْره، وهو الخطُّ؛ لأنَّ من الكلام ما كان مـسموعًا، لا يُحتاجُ في فـهمه إلى تأمُّل الخَطّ به، والمانعُ من فهمه هو على ما ذكرناه من أقسامه؛ ومنه ما كان مُستَوْدعًا بالخطِّ، محفوظًا بالكتابة، مأخوذًا بالاستخراج، فكان الخطُّ حافظًا له، ومعبِّرًا عنه.

وقـد رُوي عـن ابن عـبَّــاس ﷺ في قـوله تعـــالى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ (الأحقاف: ٤). قال: يعني الخطَّ.

ورُوي عن مجاهد في قـوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾، قال: الخطّ، ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩): يعني الخطَّ. والعربُ تقول: الخطُّ أحدُ الـلسانين، وحُـسْنُه أحدُ الفَـصَاحتـين. وقال جعـفر بن يحـيى: الخطُّ سمْطُ[1] الحكْمَة، به يُفَـصَّل شُذورُها، ويُنْظَم منثورُها. وقال ابنُ المقـفَّع: اللسان مقصورٌ على القريب الحاضـر، والقَلَمُ على الشَّاهد والغائب، وهو للغابر الكائن، مثْلُـه للقائم الرَّاهن. وقـالَ حكيمُ الرُّوم: الخطُّ هَندسَةٌ روحـانية، وإنْ ظَهَـرَ بآلة جُسمانية. وقال حكيمُ العرب: الخطُّ أصل في الرُّوح، وإنْ ظَهَرَ بحواسِّ الجسَد.

(١) السمط: الخيط الذي تضم فيه الأحجار الكريمة.

واختُلفَ في أوَّل مَن كـتَبَ الخَطَّ، فذكَرَ كعبُ الأحـبار أنَّ أوَّلَ مَنْ كَتَبَ آدمُ عليه السـلام؛ كَتَبَ سائرَ الكُتُب قبلَ مـوته بثلاث مئة سنة في طين، ثـمَّ طبخَه، فلمَّا غـرقَت الأرضُ في زمنِ نوحٍ عليه السَّلام، بقَـيَت الكِتابةُ، فأصَـابَ كلُّ قومٍ كتابَهم، وبقي الكتابُ العربيُّ، إلى أن خصَّ الله تعـالى به إسماعيل عليه السلام، فأصابه وتعلَّمها.

وحكَى ابنُ قُتَيبة: أن أوَّلَ مَن كتَبَ إدريس عليه السلام، وكانت العرب تعظِّم قدرَ الخـطِّ، وتَعُدُّه من أجَلِّ المنافع؛ حـتَّى قال عكْرِمـة: بلغ فداء أهل بدر أربـعة آلاف، حتى إنَّ الرجلَ ليفادَى على أنه يُعَلِّمُ الخطَّ؛ لما هو مسـتقرٌّ في نفوسهم من عظَم خطَره، وجلالة قدره، وظهور نَفْعـه وأثره. وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ اقْـرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْـرَمُ (٣) الَّذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإنسَـانَ مَـا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: ٣-٥)، فوصَفَ نفـسَه بأنَّه علَّم بالقَلَم، كـما وصَفَ نفسَـه بالكرم؛ وعدَّ ذلك من نعَـمه العظام، ومن آياته الجسام، حتَّى أقسَمَ به في كتابه العـزيز، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (القلم: ١)؛ فأقسَم بالقلم، كما أقسَمَ بما يُخَطُّ بالقَلَم.

واختُلف في أوَّل من كَتَب بالعربية، فذكر كَعْبُ الأحبار أنَّ أوَّلَ مَنْ كَتَبَ بها آدمُ عليه السَلام، ثم وجدَها بعدَ الطُّوفان إسماعيلُ عليه السلام.

وحكى ابنُ عباس - رضي الله تعالى عنهمـا - أنَّ أوَّلَ مَنْ كتب بها ووضعها، إسماعيلُ عليه السلام، على لفظه ومنطقه. وحكَى عُرْوةُ بنُ الزُّبير رضي الله تعالى عنه، أنَّ أوَّلَ مَنْ كتَبَ بهـا قومٌ من الأوائل، أسمـاؤهم: أبجد، وهوَّز، وحُطِّي، وكلَمُن، وسعَفَص، وقَرَشَت، وثخـذ، وضظغ، وكانوا ملوكَ مَدْين. وحكى ابن قُتيـبة في «المعارف»: أنَّ أوَّل من كـتب بالعربي مُرامر بن مُـرَّة، من أهل الأنبار، ومن الأنبار انتشرت.

وحكى المَدائنيُّ: أنَّ أوَّلَ مَنْ كَتَب بها مُرَامر بن مُرَّة، وأسلمُ بنُ سدْرة، وعامرُ ابن جَدْرة؛ فمرامَر وضَعَ الصُّوَرَ، وأسْلَمُ فصَلَ ووصَلَ، وعامرُ وضَعَ الإعجام[1].

ولَمَّا كان الخطُّ بهذه الحال، وجَـبَ على مَنْ أرادَ حفْظَ العلم أن يُعْنَى بأمرين؛ أحدهما: تقويم الحروف على أشكالها الموضوعة لها، والثاني: ضبطُ ما اشتُبه منها

---

(١) الإعجام: تنقيط الحروف.

بالنَّقْطِ والأشكال المميزة لها، ثم ما زاد على هذين من تحسين الخطِّ، ومَلاَحَة نَظْمِه، فإنَّما هو زيادة حذْق بصنعته، وليس بشرطٍ في صحته. وقد قال عليُّ بن عُبيدَة: حُسْنُ الخطِّ لسانُ اليَدِ، وبهجةُ الضمير.

وقال أبو العبَّاس المبرّد: رداءَةُ الخطِّ زمانةُ[1] الأدَب. وقال عبدُ الحميد: البيان في اللسان والبنان. وأنشدني بعضُ أهل الأدب لأحد شُعراء البَصرة:

اعْذرْ أخاكَ على رَدَاءةِ خَطِّهِ ... واغْفِرْ نَذَالَتَهُ لجُودَةِ ضَبْطِهِ
واعْلَمْ بأنَّ الخطَّ ليسَ يُرادُ من ... تركيبه إلاَّ تبيُّن سِمْطِهِ
فإذا أبانَ عن المعاني لم يكُنْ ... تحسينُه إلاَّ زيادَةَ شَرْطِهِ

ومحلُّ ما زادَ على الخطِّ المفهوم؛ من تصحيح الحروف، وحُسْنِ الصُّورة، مَحَلُّ ما زادَ على الكلام المفهوم؛ من فصاحَةِ الألفاظ، وصحةِّ الإعراب، ولذلك قالت العرب: حُسْنُ الخطِّ إحدى الفَصَاحَتَيْن؛ وكما أنَّه لا يُعْذَرُ مَنْ أرادَ التقدُّمَ في الكلام أن يطرحَ الفصاحَةَ والإعرابَ، وإنْ فُهِمَ وأَفْهَمَ؛ كذلك لا يُعْذَرُ مَنْ أرادَ التقدُّمَ في الخَطِّ، أن يَطْرَحَ تصحيحَ الحروف، وتحسينَ الصُّوَر، وإن فُهِمَ وأفهَمَ.

وربَّما تقدَّم بالخطِّ مَنْ كان الخطُّ أجلَّ فضائله، وأشرفَ خصائله، حتَّى صار عَلَمًا مشهورًا، وسيدًا مذكورًا، غير أنَّ العلماء اطَّرَحُوا صَرْفَ الهِمَّة إلى تحسين الخطِّ؛ لأنَّه يشغَلُهم عن العلم، ويقطَعُهم عن التوفُّر عليه، ولذلك تجدُ خطوطَ العلماء في الأغلب رديئةً لا تُلحَظ إلاَّ مَن أسعدَه القَضاء. وقد قال الفضلُ بنُ سهل: مِن سعادة المرء أن يكون رديءَ الخطِّ؛ ليكون الزمانُ الذي يفنيه بالكتابة يشغلُه بالحفظ والنَّظَر، وليستْ رداءةُ الخطِّ هي السعادة، وإنَّما السَّعادةُ ألاَّ يكونَ له صارفٌ عن العلم. وعادة ذي الخطِّ الحسَنِ أن يتشاغَلَ بتحسين خطِّه عن العلم، فمن هذا الوجه صار برداءة خطِّه سعيدًا، وإن لم تكنْ رداءَةُ الخطِّ سعادة.

وإذا كان ذلك كذلك، فقد يعرِضُ للخطِّ أسبابٌ تمنَعُ من قراءته ومعرفته، كما يعرِضُ للكلام أسبابٌ تمنَعُ من فهمه وصحته.

**والأسباب المانعة من قراءة الخطِّ،** وفهم ما تضمَّنَه، قد تكون من ثمانية أوجه:

---

(١) زمانة: عاهة.

أحدها - **إسقاط ألفاظ من أثناء الكلام**: يصيرُ الباقي منهـا مبتورًا، لا يُعرَفُ استخراجُه، ولا يُفهَم معناه؛ وهذا يكونُ إمَّا من سهو الكاتب، أو من فساد نقله، وهذا يَسْهُل استنباطُه على من كان مرتاضًـا بذلك النَّوْع، فيستدلُّ بحواشي الكلام وما سَلِمَ منه، على ما سَقَطَ أو فَسَدَ، لاسيما إذا قلَّ؛ لأنَّ الكلمةَ تستدعي ما يليها، ومعرفةَ المعنى توضحُ عن الكلام المترجـم عنه. فأمَّا من كان قليلَ الارتياضِ بذلك النَّوع، فإنَّه يصعُبُ عليه استنباطُ المعنى منه، لاسيما إذا كان كثيرًا؛ لأنَّه يحتاجُ في فهم المعاني، إلى الفكْر والرَّوِيَّة فيما قد اسـتَخْرَجَه بالكتابة، فإذا هو لم يعرفْ تمام الكلام المترجِم عن المعنى، قصَّر فهمُه عن إدراكه، وضلَّ فكْرُه عن استنباطه.

والوجه الثاني - **زيادةُ ألفاظ في أثناء الكلام**: يُشْكِلُ بها معرفـةُ الصحيح غيرِ الزَّائد، من معرفة السَّقيم الزائد، فيصيرُ الكلُّ مشكلاً، وهذا لا يكادُ يوجَدُ كثيرًا، إلاَّ أن يقصدَ الكـاتبُ تَعْميةَ كلامـه، فيُدْخلُ في أثنائه ما يمنَعُ من فَـهْمِه، فيـصيرُ ذلك رمزًا يُعْرَفُ بالمواضـعَة. فأمَّا وقوعُـهُ سهوًا، فقد يكونُ بالكـلمة والكلمتين، وذلك لا يمنَعُ من فَهْمه على المرتاض وغيره.

والوجه الثالث - **إسقاطُ حروفٍ من أثناء الكلمة**: تمنَعُ من استخْـراجها على الصِّحَّة؛ وقد يكونُ هذه تارةً من السَّهو، فيقلُّ، وتارَةً من ضعفِ الهجاء، فيكثُر؛ والقولُ فيه كالقَوْلِ في الوَجْه الأوَّل.

والوجه الرابع - **زيادةُ حروفٍ في أثناء الكلمة**: يشكِلِ بها معـرفةُ الصحيح من حـروفهـا، وهذا يكونُ تارةً من سَهْـو الكاتب، فـيقلُّ، ولا يمنَعُ من اسْـتخـراج الصَّحيح؛ ويكون تارةً لتعمية ومواضَعَة، يقصدُ بها الكاتبُ إخفاءَ غَرَضِه، فيكثُرُ، كالتراجم، ويكونُ القَوْلُ فيه كالقول في الوجه الثاني.

والوجه الخامس - **وَصْلُ الحروفِ المفصولة، وفَصْلُ الحروفِ الموصولة**: فيدعو ذلك إلى الإشكال؛ لأنَّ الكلمـة ينبِّـه عليهـا وَصْلُ حروفـهـا، ويمنَعُ فصلُهـا من مشاركة غيرِها، فإنْ كان ذلك من سهوٍ، قَلَّ فسَهُلَ استْخراجُه؛ وإنْ كان ذلك من قلَّةِ معرفة بـالخطِّ، أو مَشْقًا[1] تسبِقُ به اليدُ، كـثُر فصَعُبَ استـخراجُه، إلاَّ على

(١) المشق: هو الكتابة بسرعة بحيث لا تتضح صورة الحرف.

المرتاض به؛ ولذلك قال عُمَرُ بن الخطَّاب ﷺ: شَرُّ الكتابة المَشْقُ، كما أنَّ شرَّ القراءة الهَذْرَمَة[١]؛ وإن كان للتعمية والرَّمْز، لم يُعْرَفْ إلاَّ بالمواضعة.

**والوجه السادس. تغييرُ الحروفِ عن أشكالها، وإبدالُها بأغيارها:** حتّى يكتبَ الحاء على شكل الباء، والصاد على شكل الراء، وهذا يكون في رموز التراجم، ولا يوقَفُ عليه إلاَّ بالمواضعة، إلاَّ لمن قد زاد فيه الذكاءُ، فيقدرُ على استخراج المُعَمَّى.

**والوجه السابع. ضعفُ الخطِّ عن تقويم الحروف على الأشكال الصحيحة:** وإثباتها على الأوصاف الحقيقية، حتَّى لا تكاد الحروفُ تمتاز عن أغيارها، حتى تصيرَ العينُ الموصولةُ كالفاء، والمفصولَةُ كالحاء؛ وهذا يكونُ من رداءة الخطِّ، وضعف اليد، واستخراجُ ذلك ممكنٌ بفضل المعاناة، وشدَّة التأمل، وإن كان ربما أضجرَ قارئه، وأوْهَى معانيه، ولذلك قيل: إن الخطَّ الحسن لَيَزيدُ الحقَّ وضوحًا.

**والوجه الثامن. إغفال النَّقْطِ والأشكال التي تتميز بها الحروفُ المشتبهة:** وهذا أيسَرُ أمرًا، وأخفُّ حالاً؛ لأنَّ مَنْ كان متميزًا بصحَّة الاستخراج، ومعرفة الخطِّ، لم تخفَ عليه معرفَةُ الخطِّ، وفَهْمُ ما تضمَّنه، مع إغفالِ النَّقْط والأشكال.

بل قد استقبح الكُتَّاب ذلك في المكاتبات، ورأوه من تقصير الكاتب، أو سوء ظنه بفهم المكاتَب، وكان استقباحُهم له في مكاتبة الرؤساء أكثر. وقد حكى قُدامَةُ ابن جعفر: أنَّ بعضَ كتَّاب الدواوين حاسَبَ عاملاً، فشكا العاملُ منه إلى عُبيد الله بن سليمان، وكتب رقعةً يذكر فيها احتجاجًا لصحة دعواه، ووضوح شكواه، فوقَّع فيها عُبيد الله بن سليمان: هذا هذا، فأخذها العامل وقرأها، فظنَّ أنَّ عُبيد الله أراد بهذا هذا، إثباتًا لصحة دعواه، وصدق قوله، كما يقال في إثبات الشيء: هو هو. فحملَ الرقعةَ إلى كاتبِ الديوان، وأراه خطَّ عُبيد الله، وقال له: إنَّ عُبيد الله قد صدَّق قولي، وصحَّحَ ما ذكرْتُ؛ فخفي على الكاتب ذلك، وأُطيفَ به على كُتَّاب الدواوين، فلم يقفوا على مراد عُبيد الله، وردَّ إليه ليُسألَ عن مراده به فشدَّد عُبيد الله الكلمة الثانية[٢]، وكتب تحتها: والله المستعان، استعظامًا منه لتقصيرهم في استِخْراج مرادِه، حتَّى احتاجَ إلى إبانته بالشكل.

---

(١) الهذرمة: التلاوة السريعة التي تضيع فيها بعض الحروف والكلمات.

(٢) لعل مراد عبيد الله: هذا هذَّاء أي رجل كثير الهذيان فلا يُسمع لما يقول.

فهذه حال الكُتَّاب في استقباحهم إعجامَ المكاتبات بالنَّقْط والأشكال. فأمَّا غير المكاتبات من سائر العلوم، فلم يروه قبيحًا، بل استحسنوه، لاسيما في كتب الأدب، التي يقصد بها معرفةُ صيغة الألفاظ، وكيفية مخارجها، مثل كتب النَّحو واللغة والشعر والغريب؛ فإنَّ الحاجَة إلى ضبطها بالشَّكل والإعجام أكثر، وهي فيما سواه من العلوم أيسر، وقد قال الثَّوْريُّ: الخطوطُ المعجَمَةُ، كالبُرود المعلَمة[1]. وقال بعضُ البلغاء: إعجامُ الخَطِّ يمنَعُ من استعجامه، وشكلُه يمنَعُ من إشكاله. وقال بعضُ الأدباء: رُبَّ علمٍ لم تُعْجَم فصولُه، فاستعجم محصولُه.

وكما استقبَحَ الكُتَّابُ الشَّكْلَ والإعجامَ في المكاتبات، وإن كان في كتب العلوم مستحسنًا، فكذلك استحسنوا مَشْقَ الخطِّ في المكاتبات، وإن كان في كُتُبِ العلوم مستقبحًا. وسببُ ذلك أنَّهم لفرط إدلالهم بالصنعة، وتقدُّمهم في الكتابة، يكتفون بالإشارة، ويقتصرُون على التلويح، ويرون الحَاجَةَ إلى استيفاء شروطِ الإبانة تقصيرًا. ولفضلِ ما يعتقدونه من التقدُّم بهذا الحال، رأوا ما نَبَّه عليه من سَواد المداد أثرًا جميلاً، وعلى الفَضْل والتخصيص دليلاً.

حُكِي أنَّ عُبيد الله بنَ سليمان رأى على بعض ثيابه أثرَ صُفْرة، فأخذ من مداد الدَّواة فطَلاه به، ثم قال: المدادُ بنا أحسَنُ من الزَّعفران، وأنشد:

إنَّما الزَّعْفَرانُ عِطْرُ العَذَارَى ... ومِدادُ الدُّوِيِّ عِطْرُ الرِّجالِ[2]

فهذه جملةٌ كافيةٌ في الإبانة عن الأسباب المانعة من فهم الكلام، ومعرفة معانيه، لفظًا كان أو خطًّا، والله وليُّ التوفيق.

فينبغي لطالب العلم أن يكشفَ عن الأسباب المانعة إنْ تعذَّرَ عليه فهمُ المعنى؛ ليسهلَ عليه الوصولُ إليه، ثم يكون من بعد ذلك سائسًا لنفسه، مدبرًا لها في حال تعلُّمه؛ فإنَّ للنفس نفورًا يُفْضي إلى تقصير، ووفورًا يؤول إلى سَرَف، وقيادها عَسِر. ولها أحوالٌ ثلاث: فحالُ عَدْلٍ وإنصافٌ، وحالُ غلوٍّ وإسرافٌ، وحالُ تقصيرٍ وإجحاف.

---

(١) البرود المعلمة: الثياب التي عليها نقش وما شابهه، فتبدو أجمل.

(٢) الدُّوِيّ: جمع دواة.

**فأمَّا حالُ العَدْل والإنصاف:** فهي أن تختلف قُوى النَّفْس من جهتين متقابلتين: طاعة مسعدة، وشفقة كافَّة؛ فطاعتها تمنع من التقصير، وشفقتها تردُّ عن السَّرَف والتبذير؛ وهذه أحمدُ الأحوال؛ لأن ما مَنَعَ من التقصير نامٍ، وما صدَّ عن السَّرَف مستديم، والنموُّ إذا استدامَ فأخلقْ به أن يُسْتكمل. وقالَ بعض الحكماء: إياكَ ومفارقةَ الاعتدال، فإنَّ المسرفَ مثلُ المقصِّر في الخروج عن الحدِّ.

**وأمَّا حالُ الغُلوِّ والإسراف:** فهي أن تختصَّ النفسُ بقوى الطاعة، وتعدَمَ قُوى الشفقة، فيبعثها اختصاصُ الطَّاعة على إفراغ الجهد، ويفضي بها إفراغُ الجَهْد إلى عجز الكَلال[1]، فيؤدِّيها عجزُ الكَلال إلى التَّرك والإهمال، فتصير الزيادة نقصانًا، والربح خسرانًا. وقد قالت الحكماءُ: طالبُ العلْم وعاملُ البرّ كآكل الطَّعام، إن أخَذَ منه قوتًا عَصَمَه، وإن أسرَفَ فيه أبشَمه[2]، وربَّما كان فيه منيَّته، كآخذ الأدوية التي القصد فيها شفاء، ومجاوزة الحدّ فيها السمّ المميت.

**وأمَّا حالُ التقصير والإجحاف:** فهي أن تختصَّ النفس بقوى الشَّفَقَة، وتعدَمَ قوى الطَّاعة، فيدعوها الإشفاقُ إلى المعصية، وتمنَعُها المعصيةُ من الإجابة، فلا تطلبُ شاردًا، ولا تقبَل عائدًا، ولا تحفَظُ مستودَعًا؛ ومَنْ لم يطلب الشَّارد، ويقبل العائد، ويحفظ المستودَع، فَقَدَ الموجودَ، ولم يجد المفقودَ؛ ومَنْ فقدَ ما وجَدَ فهو مصابٌ محزون، ومَنْ لم يجدْ ما فقَدَ، فهو خائبٌ مغبون، وقد قال بعضُ الحكماء: العَجْزُ مع الواني[3]، والفَوْتُ مع التواني.

وقد يكون للنفس مع الأحوال الثلاث حالتان مشتركتان بغلبة إحدى القوَّتين، فيكون للنفس طاعةٌ وإشفاق، وأحدهما أغلبُ من الآخَر، فإن كانت الطاعة أغلب، كانت إلى الوفور المجاوز أمْيَلَ، وإن كان الإشفاقُ أغلبَ، كانت إلى التقصير المقصر به أقربَ؛ فإذا عَرَفَ منْ نفسه قدر طاعتها، وخَبَرَ منها كُنْهَ إشفاقها، راضَ نفسَه، ليثبت على أحْمَدَ حالاتها، وقد أشار إلى ما وصفناه من حال النفس الفَرَزْدَقُ في قوله:

| | |
|---|---|
| لكل امرئ نفسان: نفسٌ كريمةٌ | وأُخْرَى يُعَاصيها الفَتَى ويُطيعُها |
| ونفسُكَ من نفسَيْكَ تشفَعُ للنَّدَى | إذا قَلَّ مِن أحرارهِنَّ شَفيعُها |

---

(١) الكلال: الضعف. (٢) ابشمه: أتخمه. (٣) الواني: الضعيف المتكاسل.

فإنْ أهملَ سياستَها، وأغفلَ رياضتَها، ورامَ أن يأخذَها بالعُنْف، ويقهرها بالعَسْفَ، استشاطت نافرةً، ولجَّتْ معاندةً، فلم تنقدْ إلى طاعةٍ، ولم تنكفَّ عن معصيةٍ. وقال سابقٌ البربريّ:

**إذا زَجَرْتَ لجوجًا زدْتَه علقًا ... ولجَّت النَّفْسُ منه في تماديها**

**فعُدْ عليه إذا ما نفسُهُ جمَحَتْ ... باللِّين منكَ فإنَّ اللِّينَ يَثْنِيها**

فإذا استصعب عليه قيادُ نفسه، ودام منه نفورُ قلبه، مع سياستها ومعاناة رياضتها، تركها تركَ راحة، ثم عاودها بعد الاستراحة؛ فإنَّ إجابتَها تُسرع، وطاعتَها تَرجع. وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إن القلبَ يموتُ ويحيا، ولو بعد حين**»[1]. وقال ابن مسعود - رضي الله تعالى عنه -: للقلوب شهوةٌ وإقبالٌ، وفترةٌ وإدبارٌ، فأتوها من قِبَل شهوتها، ولا تأتوها من قِبَل فَتْرتها. وقد قال الشاعر:

**وما سُمِّيَ الإنسانَ إلاَّ لأنْسِه ... ولا القلبَ إلاَّ أنَّهُ يَتَقَلَّبُ**

وأمّا الشروط التي يتوفَّر بها علم الطالب، وينتهي معها كمالُ الرَّاغب، مع ما يلاحظ به من التوفيق، ويُمَدُّ به من المعونة، فتسعة شروط:

**أحدها** - العقلُ الذي به تدرَك حقائقُ الأمور.

**والثاني** - الفطنةُ التي يتصور بها غوامضُ العلوم.

**والثالث** - الذَّكاءُ الذي يَستقِرُّ به حفظُ ما تصوَّره، وفهمُ ما علمه.

**والرابع** - الشهوةُ التي يدوم بها الطلب، ولا يسرعُ إليها المَلَل.

**والخامس** - الاكتفاءُ بمادة تغنيه عن كُلَف الطَّلَب.

**والسادس** - الفراغُ الذي يَكونُ مع التوفُّر[2]، ويحصلُ به الاستكثار.

**والسابع** - عدمُ القواطع المذهلة؛ من هموم، وأشغال، وأمراض.

**والثامن** - طولُ العُمر، واتِّساع المدَّة؛ لينتهي بالاستكثار، إلى مراتب الكمال.

**والتاسع** - الظفَرُ بعالم سَمْحٍ بعلمه، متأنٍّ في تعليمه.

فإذا استكمل هذه الشروطَ التسعةَ، فهو أسعَدُ طالبٍ، وأنجَحُ متعلِّم.

---

(١) لم أصل إليه.

(٢) **التوفر على الشيء**: رعايته وصرف الهمة إليه.

وقد قال الإسكندر: يحتاجُ طالبُ العلْم إلى أربع: مدةٍ، وَجِدَةٍ[1]، وقريحةٍ، وشهوةٍ[2]، وتمامُها في الخامسة: معلِّم ناصح.

## فصـل

وسأذكر طَرَفًا ممَّا يتأدَّبُ به المتعـلِّم، ويكون عليه العالم: اعلَمْ أنَّ للمتعلِّم في زمانِ تعلُّمـه تملُّقًا[3] وتذَلُّلاً، إن استـعملَهمـا غَنم، وإنْ تَركَهُمـا ندم وحُرِم؛ لأنَّ التملُّقَ للعالِم يُظهِرُ مكنونَ علمه، والتذلُّلَ له سَببٌ لإدامة صبره؛ وبإظهار مكنونه تكونُ الفائدَةُ، وباستدامةِ صَبْره يكونُ الإكثارُ. وقد روى مُعاذٌ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**ليس من أخلاق المؤمن المَلَقُ إلاَّ في طلبِ العلْم**»[4].

وقال عبـدُ الله بنُ عبَّاس ـ رضي الله تعـالى عنهما ـ: ذَللتُ طالبًا، فـعززتُ مطلوبًا. وقال بعضُ الحكماء: من لم يحتملْ ذُلَّ التعلُّم ساعةً، بقِيَ في ذُلِّ الجَهْلِ أبدًا. وقال بعض حكمـاء الفرس: إذا قعدْتَ وأنت صـغيرٌ حيث تُحبُّ، قـعدتَ وأنتَ كبيرٌ حيث لا تحبُّ. ثم ليعرفْ له فَضْلَ علْمه، ولْيشكرْ له جميلَ فعْله. فقد رَوَت عائشـة ـ رضي الله تعالى عنهـا ـ، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**مَنْ وَقَّرَ عـالمًا فقد وَقَّرَ ربَّه**»[5].

وقـال عليٌّ بن أبي طالب ـ رضـي الله تعـالى عنه ـ: لا يعـرفُ فَـضْلَ أَهْلِ العلم، إلا أهل الفَضْلِ. وقال بعضُ الشعراء:

**إنَّ المعلِّمَ والطَّبـيـبَ كـلاهُمـا … لا يَنْصـحـانِ إذا هُمـا لم يُكْرَمَـا**

**فـاصْبِـر لِدائِك إن أهنْتَ طبـيـبَـه … واصْبِرْ لجهلِكَ إنْ جَـفَـوْتَ مـعلِّما**

ولا يمنعـه من ذلك علوٌّ منزلته إن كـانتْ له، وإن كان العـالم خامـلاً، فإنَّ العلمـاء بعلمهم قـد استحـقُّوا التـعظيمَ، لا بالقدرة والمال. وأنشـدني بعضُ أهل الأدب لأبي بكر ابن دُريد:

---

(١) أي مال يغنيه عن طلب التكسب.
(٢) أي رغبة في العلم.
(٣) تملقًا: توددًا وتلطفًا.
(٤) ذكره ابن عدي في «الكامل» (٤٤٦).
(٥) أورده الديلمي في «الفردوس» (٥٦٢٧).

لا تَحـقِـرَنْ عـالمًا وإنْ خَلُقَتْ ... أثوابُه في عيونِ رامقِهِ
وانظُرْ إليهِ بعينِ ذي أدبٍ ... مُهَذَّبِ الرأيِ في طرائقِهِ
فالمِسْكُ بينا تراهُ ممتهنًا ... بفِهْرِ عطَّارِه وساحقِهِ[1]
حتَّى تراه في عارضَيْ مَلِكٍ ... أو موضعِ التَّاجِ مِن مَفارِقِهِ[2]

ولْيكُنْ مقتديًا بهم في رَضيِّ أخلاقهم، متشبِّهًا بهم في جميع أفعالهم، ليصيرَ لهم آلفًا، وعليهم ناشئًا، ولِمَا خالَفَها مجانبًا. فقد قال النبيُّ ﷺ: «خِيارُ شبَّانِكُم المتشبِّهون بشيوخِكُم، وشِرَارُ شيوخِكُم المتشبِّهونَ بشُبَّانكم»[3]. وروى ابنُ عمر - رضي الله تعالى عنهما -: أنَّ النبي ﷺ قال: «من تشبَّه بقومٍ فهو منهم»[4].
وأنشدني بعضُ أهل الأدب، لأبي بكر ابن دُرَيد:

العالمُ العاقلُ ابنُ نَفْسِهِ ... أغناهُ جِنْسُ علمِهِ عَنْ جِنْسِهِ
كُن ابنَ مَنْ شِئْتَ وكُنْ مؤدَّبًا ... فإنَّما المرْءُ بفضْلِ كَيْسِهِ
وليسَ مَنْ تَكرِمُهُ لِغَيْرِهِ ... مثلَ الذي تَكرِمُهُ لنفسِهِ

وليحذر المتعلِّم التبسُّط[5] على من يعلِّمه وإن آنسَهُ، والإدلالَ عليه وإن تقدَّمَت صحبتُهُ؛ فقد قيل لبعض الحكماء: مَنْ أذل النَّاس؟ فقال: عالِمٌ يجري عليه حكمُ جاهلٍ. وكلَّمتْ رسول الله ﷺ جاريةٌ من السَّبي، فقال لها: «من أنتِ»؟ فقالت: بنتُ الرَّجُلِ الجواد حاتم، فقال ﷺ: «ارْحَموا عَزيزَ قَوْمٍ ذَلَّ، ارْحَمُوا غنيًا افتقر، ارْحَموا عالمًا ضاعَ بين الجهَّال»[6]. ولا يُظْهِر له الاستكفاء منه، والاستغناءَ عنه؛ فإنَّ في ذلك كفرًا لنعمته، واستخفافًا بحقِّه، وربَّما وجَدَ بعضُ المتعلمين قوةً في نفسه؛ لجودة ذكائه، وحِدَّة خاطره، فقصد مَنْ يعلِّمه بالإعنات[7] له، والاعتراض عليه، ازدراءً به، وتبكيتًا[8] له، فيكون كمن تقدم فيه المثل السائر لأبي البطحاء:

(١) الفهر: حجر يملأ الكف يدق به الجوز وأشباهه.
(٢) العارض: صفحتا الخد.
(٣) لم أصل إليه.
(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠)، وأبو داود (٤٠٣١)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢١٢).
(٥) التبسط: رفع الكلفة.
(٦) ضعيف: أخرجه ابن حبان في «الضعفاء» كما في «كنز العمال» (٤٣٢٩٩)، وعزاه للسيوطي في «الجامع الكبير» (٢٩٥١٧١)، وقال الحديث عن أنس، وفيه عيسى بن طهمان.
(٧) الإعنات: الإيقاع في المشقة.
(٨) التبكيت: تقريع المرء وإسكاته بالحجة.

أعلِّمُــــهُ الرِّمَـــــايَةَ كُلَّ يَـوْمٍ فلمــا اسْـتَـدَّ ساعِـدُهُ رمـاني[١]

وهذه من مصائب العلماء، وانعكاس حظوظهم، أن يصيروا عندَ مَن علَّمُوه مستجهَلين، وعندَ من قدَّمُوه مسترذَلين. وقال صالح بن عبد القدوس:

وإنَّ عَنـاءً أن تُعَلِّم جــــاهِلاً فـيـحـسِبَ جـهـلاً أنَّه منكَ أعلَمُ
مـتَى يبلُغ البُنْيـان يومًـا تمامَـهُ إذا كنْتَ تبنيـهِ وغـيـرُكَ يَهْـدِمُ؟
مـتَى ينتـهي عن سـيئٍ مَنْ أتَى بِهِ إذا لـم يكُـنْ مـنـهُ علـيــه تَنَدُّمُ؟

وقد رجَّحَ كـثيرٌ من الحكمـاء حق العالم، على حقِّ الوالد، حـتى قال بعض الشعراء:

يا فــاخــراً للسُّـفـاهِ بالسَّلَفِ وتاركًــا للعَـــلاء والشَّــرَفِ
آباءُ أجــســادِنا هُمُ سَــبَبٌ لأنْ جُــعِلْنَا عَــوَارِضَ التَّلَفِ
من علَّم النـاس كـان خَـيـرَ أبٍ ذاكَ أبـو الـرُّوحِ لا أبـو النُّطَـفِ

ولا ينبغي أن يبعثه معرفة الحق له، على قبول الشبهة منه، ولا يدعوه تركُ الإعنات[٢] له، على التقليد فيما أخذ عنه، فإنَّه ربَّما غَلاَ بعضُ الأتباع في عالمهم، حتى يروا أنَّ قوله دليلٌ وإن لم يستدلّ، وأنَّ اعتقادَه حُجَّةٌ وإن لم يحتجّ، فيفضي بهم الأمر إلى التسليم له فيما أخذوا عنه، ويؤول بهم ذلك إلى التقصير فيما يصدُر منه؛ لأنَّه يجتهدُ بحسب اجتهاد مَن يأخذ عنه، فلا يبعد أن تبطلَ تلك المقالة إن انفردت، أو يخرجَ أهلُها من عداد العلماء فيما شاركت؛ لأنه قد لا يرَى لهم مَن يأخذُ عنهم ما كانوا يرونه[٣] لمن أخذُوا عنه، فيطالبهم بما قصَّروا فيه[٤]. فيضعفوا عن إبانته، ويعجزوا عن نُصْرته، فيذهبوا ضائعين، ويصيروا عجزةً مضعوفين.

ولقد رأيتُ من هذه الطبقة رجلاً يناظر في مجلس حَفْل، وقد استدل الخصمُ

---

(١) استد: بالسين من السداد، يريد سداد الرمي وإصابة الهدف، ويروى اشتد بالشين.

(٢) الإعنات: الإيقاع في الحرج والمشقة.

(٣) أي ما كانوا يرونه مع شيوخهم من قبول القول بلا حجة.

(٤) يريد ما قصروا فيه من طلب الدليل والحجة ممن قلدوه.

عليه بدلالة صحيحة، فكان جوابه عنها أن قال: إن هذه دلالة فاسدةٌ، ووجه فسادها أن شيخي لم يذكرها، وما لم يذكُرْه الشيخ فلا خيرَ فيه؛ فأمسك عنه المستدلُّ تعجبًا، ولأنَّ شيخه كان محتشمًا[١]؛ وقد حضرت طائفة يرون فيه مثل رأي هذا الجاهل، ثم أقبل المستدلُّ عَلَيَّ وقال لي: والله لقد أفحمني بجهله، وصار سائر الناس المبرَّئين من هذه الجهالة، من بين مستهزئ أو متعجب، أو مستعيذ بالله من جَهل مُغْرب، فهل رأيتَ كذلك عالمًا أوغَلَ في الجهل، وأدَلَّ على قلَّة العقل. وإذا كان المتعلِّم معتدل الرأي فيمن يأخذُ عنه، متوسِّط الاعتقاد فيمن يتعلَّم منه، حتى لا يحملَهُ الإعناتُ على اعتراض المُبكِّتين، ولا يبعثه الغلوُّ على تسليم المقلدين، برئ المتعلِّمُ من المَذَمَّتَيْن[٢]، وسلِمَ العالمُ من الجهتين[٣]، وليس كثرةُ السؤال فيما التبس إعناتًا، ولا قبولُ ما صحَّ في النفس تقليدًا.

وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**العلمُ خزائنُ، ومفتاحُه المسألة، فاسألوا رحمكم الله، فإنَّما يُؤْجَرُ في العلم ثلاثةٌ: القائلُ، والمستمِعُ، والآخذُ**»[٤].

وقال - عليه الصلاة والسلام -: «**هلاَّ سألُوا إذا لم يعلَموا فإنَّما شِفاءُ العِيِّ السؤال**»[٥]؛ فأمرَ بالسؤال وحثَّ عليه. ونهى آخرين عن السؤال، وزجَرَ عنه، فقال ﷺ: «**أنهاكم عن قيل وقال، وكثرةِ السُّؤال، وإضاعةِ المال**»[٦]. وقال - عليه الصلاة والسلام -: «**إياكم وكَثْرَةَ السُّؤالِ، فإنَّما هَلَكَ من قَبْلكم بِكَثْرَةِ السُّؤال**»[٧]. وليس هذا مخالفًا للأوَّل، وإنَّما أَمَرَ بالسُّؤال مَنْ قَصَدَ به علْمَ ما جَهِلَ، ونَهى عنه من قَصَدَ به إعناتَ ما سمع، وإذا كان السؤالُ في موضعه، أزالَ الشكوكَ، ونَفَى الشبهة.

وقد قيل لابن عبَّاس - رضي الله تعالى عنهما -: بمَ نِلْتَ هذا العِلْمَ؟ قال:

---

(١) يريد أنه كان ذا حَشَم وأشياع يغضبون لغضبه.
(٢) المذمتان: مذمة التقليد الأعمى، ومذمة إعنات الشيخ.
(٣) الجهتان: بطلان مقالته إن انفردت، وخروج أهلها من عداد العلماء فيما شاركت.
(٤) أورده بلفظه الديلمي في «الفردوس» (٣/٦٨) (٤١٩٢)، وبلفظ قريب أخرجه الدارمي (١/١٤٧) (٥٤٩)، والنسائي في «المدخل» (٤٢٩) عن عليّ.
(٥) أبوداود (٣٣٦)، عن جابر.
(٦) أخرجه البخاري (١٣٨٣)، ومسلم (٣٢٣٨) عن المغيرة بن شعبة.
(٧) أخرجه البخاري (٦٧٤٤)، ومسلم (٢٣٨٠).

بلسان سؤول، وقلب عقول. وروى نافع عن ابن عمر - رضي الله تعالى عنهما -، أنَّ النبي ﷺ قال: «حُسْنُ السؤالِ نِصفُ العلم»[1]. وأنشد المبردُ عن أبي سليمان الغَنَوِيّ:

فَسَلِ الفَقيهَ تَكُنْ فقيهًا مِثْلَهُ ... لا خَيْرَ في عِلْمٍ بِغَيْرِ تَدَبُّرِ
وإذا تَعَسَّرَتِ الأمورُ فَأَرْجِهَا ... وعليكَ بالأمرِ الذي لم يَعْسُرِ[2]

وليأخذِ المتعلِّمُ حَظَّه ممن وجدَ طَلِبتَه عندَه؛ من نبيه وخامل، ولا يطلب الصيت وبُعْدَ الذِّكر، باتباع أهل المنازل من العلماء إذا كان النَّفعُ بغيرهم أعمَّ، إلاَّ أن يستويَ النفعان، فيكون الأخذُ عمَّن اشتهر ذكرُه، وارتفع قدره أولى؛ لأنَّ الانتساب إليه أجملُ، والأخذ عنه أشهرُ، وقد قال الشاعر:

إذا أنتَ لم يَشْهرْكَ عِلْمُك لم تجِدْ ... لِعِلْمِكَ مخلوقًا من النَّاس يَقْبلُهْ
وإن صانَك العِلْمُ الذي قَدْ حملْتَه ... أتاكَ لهُ من يجتنيه ويَحْمِلُهْ

وإذا قرب منك العلم، فلا تطلب ما بعد، وإذا سهل عليك من وجه، فلا تطلب ما صعب، وإذا حمدت من خبرته، فلا تطلب من لم تختبره؛ فإنَّ العدول عن القريب إلى البعيد عناءٌ، وترك الأسهل بالأصعب بلاءٌ، والانتقال من المخبور إلى غيره خطرٌ، وقد قال عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: عُقْبى الأخرق مضرة، والمتعسِّفُ لا تدومُ له مسرة، وقال بعض الحكماء: القَصد[3] أسهلُ من التعسف، والكفّ أودع[4] من التكلف، وربما تَتَبعتْ نفسُ الإنسان مَنْ بَعُدَ عنه، استهانةً بمن قَرُبَ منه، وطلَبَ ما صعُبَ، احتقارًا لما سهُلَ عليه، وانتَقل إلى من لم يخبُره، مَلَلاً لمن خَبَرَه، فلا يدركُ محبوبًا، ولا يظفرُ بطائل؛ وقد قالت العرب في أمثالها: العالِم كالكَعْبة، يأتيها البُعَداءُ، ويزهَدُ فيها القُرَباء. وأنشدني بعضُ شيوخنا لمسيح بن حاتم:

لا تَرى عالمًا يحِلُّ بِقَوْمٍ ... فيُحِلُّوهُ غَيْرَ دارِ الهَوَانِ
قلَّما توجَدُ السَّلامَةُ والصِّحَّةُ ... مجموعتينِ في إنسانِ

---

(1) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (1/ 55) (103) من طريق حفص بن عمر قال: أخبرني إبراهيم بن عبد الله عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ.

(2) أي أخِّرها.

(3) التوسط والاعتدال.

(4) اودع: أسكن للنفس وأهدأ.

| | |
|---|---|
| فـإذا حلَّتـا مكانًا سحيقًا | فهُمَا في النفوسِ معشوقتانِ |
| هذه مكّةُ المَنيعةُ بَيْتُ الله | يَسْعَى لحَجِّها الثَّقلانِ |
| وتَرى أزهَدَ البَرِيَّةِ في الحَجِّ | لَهَا أهلَهَا لِقُرْبِ المَكَانِ |

## فصل

فأمَّا ما يجبُ أن يكونَ عليه العلماءُ من الأخلاق التي هي بهم أليقُ، ولهم ألزَمُ، فالتواضُعُ، ومجانَبَةُ العُجْب، لأنَّ التَّوَاضُعَ عَطُوف، والعُجْبَ مُنفِّرٌ، وهو بكُلِّ أحد قبيحٌ، وبالعلماء أقبحُ؛ لأنَّ النَّاس بهم يقتدون، وكثيرًا ما يداخلُهم الإعجابُ؛ لتوحُّدهم بفضيلة العِلْم، ولو أنهم نظروا حقَّ النَّظَر، وعملُوا بموجَب العِلْم، لكان التواضعُ بهم أَوْلَى، ومجانبَة العُجْب بهم أحْرى؛ لأنَّ العُجْب نقصٌ ينافي الفضل، لاسيما مع قول النبيِّ ﷺ : **«إن العُجْبَ ليأكُلُ الحَسَنات كما تأكُلُ النَّارُ الحَطَب»**[1]، فلا يفي ما أدركُوه من فضيلة العِلْم، بما لحِقَهم من نقصِ العُجْب. وقد روى عبدُ الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ : **«قليلُ العِلْمِ خيرٌ من كثير العِبَادة»**[2].

وكَفَى بالمرءِ عِلْمًا إذا عَبَدَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وكفي بالمرء جَهْلاً إذا أُعْجِب برأيه، وقال عُمَرُ بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «تعلَّمُوا العِلْمَ، وتعلَّموا للعِلْم السكينة والحلمَ، وتواضَعُوا لمن تَعَلَّمون منه، ولْيَتَواضَعْ لكُم مَنْ تُعلِّمُونه، ولا تكونُوا من جبابرة العُلَماء، فلا يقوم عِلْمكم بجهلكم». وقال بعضُ السلف: «من تكَبَّر بعلمه وترفَّعَ وضعَه الله به، ومن تواضعَ بعلمه رفَعه الله به».

وعلَّةُ إعجابهم انْصِرافُ نظرِهم إلى كثرة من دونَهم من الجهال، وانصراف نظرِهم عَمَّن فوقهم من العلماء؛ فإنَّه ليس متناه في العلم إلاَّ وسيجد من هو أعلم منه بشيء؛ إذ العلم أكثرُ من أن يحيط به بشرٌ. قال الله تعالى: ﴿ نرفَعُ درَجات مَن نَشَاءُ ﴾، يعني في العلم، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف:٧٦). قال أهلُ

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢٤٨)، من حديث يحيى بن معاذ.

(٢) أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٧٧).

التأويـل: فوق كُلِّ ذي علم من هو أعلم منه، حـتَّى ينتهي ذلك إلى الله تـعالى. وقيل لبعض الحكـماء: من يعرف كل العلم؟ قال: «كلُّ الناس». وقـال الشَعبي: «ما رأيت مثلي، وما أشاء أن ألقى رجلاً أعلم مني إلاَّ لقـيته». ولم يذكر الشعبيُّ هذا القول تفضيلاً لنفسه فيـستقبح منه؛ وإنما ذكره تعظيمًا للعلم عن أن يُحاط به. فينبغي لمن عَلِم، أن ينظر إلـى نفسه، بتقصيـر ما قصَّر فيه، ليـسلمَ من عُجْب ما أدرك منه. وقد قيل في منثور الحكم: إذا علـمت فلا تفكِّرْ في كثرة من دونك من الجهَّال، ولكن انظر إلى من فوقك من العلماء. وأُنشدت لابن العميد:

مَنْ شَـاءَ عَـيْـشًـا هنيـئًـا ... في دينِه ثُمَّ في دُنيـاه إقـبـالاً
فـليـنظـرنَّ إلى مَنْ فـوقَـهُ أدبًا ... ولـيـنظُـرَنَّ إلى مَنْ دُونَه مـالاً

وقلَّما تجـدُ بالعلم مُعْـجبًا، وبما أدركـه منه مفتـخرًا، إلاَّ مَن كـان فيه مُـقلاً ومقصِّرًا؛ لأنَّه يجهلُ قدره، ويحسب أنه قد نال بالدخـول فيه أكثره، فأمَّا من كان فيه متوجِّـهًا، ومنه مستكثرًا، فهو يعلم من بُعْد غايتـه، والعجز عن إدراك نهايته، ما يصدُّه عن العُجْب به. وقد قال الشعـبيُّ: العَلم ثلاثةُ أشبار، فمن نال منه شبرًا شمخَ بأنفه، وظنَّ أنه ناله؛ ومن نال الشِّبْرَ الثاني صغُرتْ إليه نفسُه، وعلم أنه لم ينله؛ وأما الشِّبْرُ الثالثُ فهيهات، لا ينالُه أحدٌ أبدًا.

ومما أُنذرك به من حالي أنني صنَّفتُ في البيوع كتابًا، جمعت فيه ما اسْتطعت من كتب الناس، وأجـهدْتُ فيـه نفسي، وكددت فـيه خاطري، حـتى إذا تهذَّب واسـتُكمِلَ، وكِـدْت أُعْجب به، وتـصوَّرْتُ أنني أشـدُّ النَّاس اضطلاعـًا بعلمـه، حضـرني وأنا في مجلـسي أعرابيان، فـسألاني عن بيع عـقداه في البـادية، على شروط تضـمَّنت أربع مسائل، لم أعـرف لواحدة منهن جوابًا؛ فـأطرقت مفكِّرًا، وبحالي وحالهما مـعتبرًا؛ فقالا: أما عندك فيمـا سألناك جواب، وأنت زعيم هذه الجماعة؟ قلت: لا. فقالا: واهًا لك، وانصرفا، ثم أتيا من يتقدَّمُهُ في العلم كثيرٌ من أصحـابي، فسألاه، فأجـابهما مـسرعًا بما أقنعهـما، وانصرفـا عنه راضيين بجوابه، ومادحين لعلمه، فبقيت مرتبكًا، وبحالهما وحالي معتبرًا. وإني لعلى ما

كنْتُ عليـه في تلك المسائل إلى وقـتي، فكان ذلك زاجرَ نصـيحـة، ونذيرَ عظَة، تَذَلَّلَ بهمـا قيادُ النَّفْسِ، وانخفضَ لـهما جَناحُ العُجْبِ، توفـيقًا مُنحتُـه، ورُشْدًا أوتيـتُه. وحُقَّ على منَ تـرك العُجْب بما يُحْـسِن، أن يَدع التكلُّفَ لما لا يُحْـسِن، فقديمًا نُهي الناس عنهما، واستعاذوا بالله منهما.

ومن أوضح ذلك بيانًا، استْعاذَة الجاحظ في كتاب البيان، حيث يقول: اللهم إنا نعوذُ بك من فتنة القول، كماَ نعوذُ بكَ من فتنة العمل، ونعوذُ بك من التكلُّف لما لا نُحسن، كمـا نعوذُ بكَ من العجب بما نحسنُ، ونعـوذُ بك من شَرِّ السَّلاطة والهذَرَ[١]، كما نعوذُ بكَ من شرِّ العيِّ والحَصَر[٢].

ونحن نستعيذُ بالله تعالى مثل مـا استعاذ، فليس لمن تكلَّف ما لا يُحسنُ غايةٌ ينتهي إليها، ولا حدٌّ يقفُ عندَه، ومَنْ كان تكلُّفُه غيرَ محدود، فأخلقْ به أن يَضِلَّ ويُضِلَّ. وقد رُوي عنِ النبيِّ ﷺ أنه قال: **«من سُئل فأفتى بغير علم، فَقَدْ ضَلَّ وأضلَّ»**[٣]. وقال بعضُ الحكمـاء: «منَ العلْم أن لا تتكلَّمَ فيـما لا تعلَمُ بكلام مَنْ يعلَمُ، فحسبُكَ جهلاً مـن عقلك أنْ تنطقَ بما لا تفهم». ولقد أحسنَ زِيَادَةُ بنُ زيد حيثُ يقول:

| | |
|---|---|
| **إذا مـا انتـهى علْمِي تناهَيْتُ عندَهُ** | **أطالَ فـأمْلَى، أو تناهَى فـأقـصَـرا** |
| **ويُخْـبِـرني عن غـائبِ المَرْءِ فِـعْلُهُ** | **كَفَى الفِعْلُ عَمَّا غَيَّبَ المرءَ مُخْبِرَا** |

وإذا لم يكن إلى الإحاطة بالعلم سـبيلٌ، فلا عَارَ أن يجـهلَ بعضَه، وإذا لم يكن في جهل بعضه عارٌ، لم يقبُحْ به أن يقولَ: لا أعلَمُ، فيما ليس يعلَمُ.

وقد رُوي أنَّ رجـلاً قال: يا رسول الله، أيُّ البِـقَاع خـيرٌ، وأيُّ البِقَـاعِ شرٌّ؟ فقال: **«لا أدري حتى أسألَ جبريل»**[٤]. وقال عليُّ بنُ أبي طالب - رضيَ الله تعالى

---

(١) **السلاطة:** حدة اللسان وبذاءته، **والهذر:** كثرة الكلام من غير فائدة.

(٢) **الحصر والعي:** العجز عن إيضاح الكلام وبيانه.

(٣) ذكره في «خـلاصة البدر المنيـر» رقم (٢٨٤٥)، وقال: متـفق عليه بلفظ: **«إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤساء جهالاً فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا».**

(٤) ابن حبان (١٥٩٩)، عن عبد الله بن عمر.

عنه ـ: «وما أبردَها على القلب! إذا سُئِل أحدكم عمَّا لا يعلَمُ، أن يقول: الله أعلم، فإن العالمَ مَنْ عرَفَ أنَّ ما يعلَمُ فيما لا يعلَمُ قليلٌ». وقال عبدُ الله بن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما: «إذا ترك العالمُ قَوْلَ لا أدري، أصيبَتْ مقاتله». وقال بعضُ العلماء: «هلَك مَنْ تَرَكَ لا أدري». وقال بعضُ الحكماء: «ليس لي من فضيلة العلْم إلاَّ علمي بأني لستُ أعلمُ». وقال بعض البلغاء: «مَنْ قال لا أدري عُلِّم فَدَرَى، ومن انْتَحَلَ ما لا يدري أُهمِلَ فهَوى. ولا ينبغي للرجل وإنْ صار في طَبَقة العلماء الأفاضلِ، أنْ يستنكفَ مَنْ تعلُّم ما ليس عنده، ليسلم من التكلُّف له؛ فقد قال عيسى ابنِ مريم ـ عليه السلام ـ: «يا صاحبَ العلْم؛ تعلَّمْ من العلم ما جَهِلْتَ، وعلِّم الجهَّال ما علمْتَ».

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: «خمسٌ خذوهن عنِّي، فلو ركبتُم فيهنَّ الفُلْكَ ما وجدتموهُنَّ إلاَّ عندي: ألا لا يرجونَّ أحدٌ إلاَّ ربَّه، ولا يخافَنَّ إلاَّ ذنْبه، ولا يستنكف العالمُ أن يتعلَّمَ ما ليس عنده، وإذا سُئِل أحَدُكُم عمَّا لا يعلَمُ، فليقُلْ لا أَعْلَمُ، ومنزلَة الصَّبْر من الإيمان بمنزلة الرأسِ من الجسد».

وقال عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما: «لو كان أحدٌ مكتفيًا من العلم، لاكتفى منه موسى عليه السلام، لما قال: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ (الكهف: ٦٦)». وقيل للخليل بن أحمد: بمَ أدركْتَ هذا العِلْمَ؟ قالَ: «كنْتُ إذا لقيت عالمًا أخذْتُ منه وأعطيته».

وقال بُزُرْجمهْرُ: «منَ العلْمِ ألاَّ تحقرَ شيئًا من العلْم، ومن العلْم تفضيلُ جميع العلْم». وقال المنصور لشريك: أنَّى لك هذا العلَم؟ قال: «لمَ أرغَبْ عن قليلِ أستفيده، ولم أبخَلْ بكثيرِ أُفيدُه، على أنَّ العلم يقتضي ما بقي منه، ويستدعي ما تأخَّر عنه، وليس للراغب فيه قناعةٌ ببعضه». وروى عون بن عبد الله، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ، أنَّه قال: «مَنْهومان لا يَشْبَعان: طالبُ علم، وطالبُ دُنيا، أمَّا طالبُ العلْم فإنَّه يزدادُ للرحمن قربًا، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر: ٢٨). وأمَّا طالبُ الدنيا، فإنَّه يزداد طغيانًا، ثم قرأ: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ (العلق: ٦-٧)». وليكن مستقلاً للفضيلة منه، ليزداد منها، ومستكثرًا للنقيصة فيه، لينتهيَ عنها، ولا يقنَع من العلم بما أدرك منه؛ لأنَّ القناعة فيه زهدٌ والزهدُ فيه تَرْكٌ، والتَّرْك له جهلٌ.

وقد قال بعض الحكماء: «عليكَ بالعلْم وبالإكثار منه؛ فإنَّ قليله أشبَهُ شيء بقليل الخير، وكثيرَه أشبَهُ شيء بكثيره، ولَن يعيبَ الخيرَ إلاَّ القلة، فأمَّا كَثْرَتُه فإنها أمنية». وقال بعضُ البلغاء: «من فَضْلِ علمك استقلالُكَ لعلْمَكَ، ومن كمال عَقْلك استظهارُكَ على عقلك. ولا ينبغي أن يَجهلَ من نفسه مَبلَغَ علمها، ولا أنْ يتجاوزَ بها قدرَ حقِّها، ولأن يكونَ بها مقصِّرًا فيذعنَ بالانقيَاد، أَولَى من أن يكونَ بها مجاوزًا فيكفَّ عن الازدياد؛ لأنَّ من جَهِلَ حالَ نفسه كان لغيرها أجهل».

وقد قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: يا رسول الله، متى يعرفُ الإنسانُ ربَّه؟ قال: «إذا عَرَفَ نفسَهُ»[1]. وقد قسم الخليلُ بن أحمدَ أحوالَ النَّاس فيما عَلموه أو جهلُوه أربعةَ أقسامٍ متقابلة، لا يخلو حالُ الإنسان منها، فقال:

**الرجال أربعة** - رجلٌ يدري ويدري أنه يدري، فذلك عالمٌ فاسألوه؛ ورجلٌ يدري ولا يدري أنَّه يدري، فذلك ناسٍ فذكِّروه؛ ورجل لا يدري ويدري أنه يدري، فذلك مسترشدٌ فأرشدوه؛ ورجلٌ لا يدري أنه لا يدري، فذلك جاهلٌ فارفضُوه.

وأنشد أبو القاسم الآمديُّ:

| | |
|---|---|
| **إذا كنْتَ لا تدري ولَم تكُ بالذي** | **يسائلُ من يدري فكيفَ إذنْ تدري؟** |
| **جهلْتَ ولم تَعْلَمْ بأنَّكَ جاهلٌ** | **فمن لي بأن تدري بأنَّكَ لا تدري؟** |
| **إذا جئْتَ في كُلِّ الأمور بغُمَّة** | **فكُنْ هكذا أرضًا يَطَأْكَ الذي يَدْري** |
| **ومِنْ أعجَبِ الأشياء أنَّكَ لا تدري** | **وأنك لا تدري بأنك لا تدري** |

وليكن من شيمته العملُ بعلمه، وحثُّ النفس على أن تأتمرَ بما يأمر به، ولا يكن ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ (الجمعة:٥). وقد قال قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ (يوسف:٦٨). يعني: أنَّهُ لَعَاملٌ بما علم. ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**ويلٌ لأقْماع القول، ويلٌ للمُصِرِّين**»[2]. يريد - والله أعلم - الذين يستمعون القول ولا

(١) أورده العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/٣٤٣)، وقال ابن تيمية: موضوع. وقال النووي: ليس بثابت.
وقال ابن الغرس: «لكن كتب الصوفية مشحونة به يسقونه مساق الحديث كالشيخ محيي الدين بن عربي وغيره».

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٢/١٦٥) عن ابن عمرو، وصححه الألباني، وانظر «صحيح الجامع» (٨٩٧)، والأقماع: جع قمع.

يعملون به. وروَى عبد الله بن وهب، عن سفيان: أنَّ الخَضرَ قال لموسى - عليه السلام -: «يا بن عمران! تعلَّم العِلْمَ لتعمل به، ولا تتعلَّمه لتحدث به، فيكونَ عليك بُورُه[1]، ولغيرك نورُه».

وقال عليّ بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه -: «إنَّما زهد الناس في طلب العلم؛ لما يَرون من قلَّة انتفاع مَن عَلِمَ بما عَلِم». وقال أبو الدَّرداء: «أخوفُ ما أخافُ إذا وقفتُ بين يدي الله تعالى، أن يقول: قد عَلِمْتَ فماذا عَمِلت إذ علمتَ»؟

وكان يقال: «خيرٌ مِنَ القَوْلِ فاعلُه، وخيرٌ من الصَّوابِ قائلُه، وخيرٌ مِنَ العلْمِ حاملُه». قيل في منثور الحكم: «لم ينتفعْ بعلْمه، من تَرَكَ العَمَلَ به». وقال بعضُ العلماء: «ثَمرةُ العلْم والعمل به، وثمرةُ العَمَلِ أن يُؤجَرَ عليه». وقال بعضُ الصلحاء: «العلْمُ يهتفُ بالعمل، فإن أجابه وإلاَّ ارتحَلَ». وقال بعضُ الحكماء: «خَيْرُ العلْم ما نَفَع، وخيرُ القَوْل ما رَدَع». وقال بعضُ الأدباء: «ثمرةُ العلومِ العَمَلُ بالمعلوم». وقال بعضُ البلغاء: «من تمام العلْم استعمالُه، ومن تمام العمل استقلالُه، فمن استَعملَ علْمَه لم يَخْلُ مِن رَشادٍ، ومَن استقلَّ عملَه لم يُقصِّر عن مُرادٍ». وقال أبو تمام الطائي:

ولم يَحْمَدوا مِنْ عالِمٍ غَيْرِ عامِلٍ ... خِلافًا ولا مِنْ عامِلٍ غيرِ عالمِ
رأوا طُرُقاتِ المَجْدِ عُوجًا فظيعةً ... واقطَعُ عَجْزٍ عندَهم عَجْزُ حازمِ

ولأنَّه لما كان علمه حُجَّةً على من أخذه عنه، واقتبسَه منه، حتى يلزمَه العملُ به، والمصيرُ إليه، كان عليه أحجَّ، وله ألزمَ؛ لأنَّ مرتبة العمل قبلَ مرتبةِ القَوْلِ، كما أنَّ مرتبةَ العِلْم قبلَ مرتبةِ العَمَلِ، وقد قال أبو العتاهية:

اسْمَعْ إلى الأحكام تحملُها ... الرُّواةُ إليكَ عَنْكا
واعْلَمْ هُديتَ بأنَّها ... حُجَجٌ تَكُونُ عليكَ مِنْكا

ثم ليجتنب أن يقولَ ما لا يفعَلُ، وأن يأمُرَ بما لا يأتمِرُ، وأن يُسِرَّ غيرَ ما يُظْهِرُ، ولا يجعل قولَ الشاعر هذا:

اعْمَلْ بقولي وإنْ قَصَّرْتُ في عَمَلي ... ينفعْكَ قَوْلي ولا يَضْرُرْكَ تَقْصيري

---

(١) بوره: فساده وهلاكه.

عذرًا له في تقصير يضرُّه، وإن لم يضرَّ غيرَه، فإنَّ إعْذارَ النَّفْس يُغريها، ويحسِّن لها مساويها، وإنَّ من قال ما لا يفعل، فقد مكَرَ، ومَن أَمَرَ بما لا يأتمرُ فقد خدَعَ، ومن أسرَّ غيرَ ما يُظهرُ فقد نافَقَ. وقد رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**المَكْرُ والخَديعَةُ وصاحباهما في النَّار**»[1]. على أن أمرَهُ بما لا يأتمرُ مُطَّرَحٌ، وإنكارَهُ لما لا ينكرُه من نفسه مستقبَحٌ. بل ربَّما كان ذلك سببًا لإغراء المأمور بتَرْك ما أُمِرَ به عنادًا، وارتكاب ما نُهي عنه كيادًا. وحُكِي أن أعرابيًا أتَى ابنَ أبي ذئب، فسأله عن مسألة طلاق، فأفتاه بطلاق امرأته، فقال: انظر حسنًا، قال: قد نظرْتُ وقد بانَتْ منكَ، فولَّى الأعرابيُّ وهو يقول:

**أتَيْتُ ابن ذئب أبتغي الفِقْهَ عندَه ... فطلَّق حتى البَتَّ تَبَّتْ أناملُهْ**

**أُطلِّقُ في فَتْوى ابنِ ذئبٍ حليلتِي ... وعند ابن ذئبٍ أهلُه وحَلائلُهْ؟!**

فظنَّ بجهله، أنَّه لا يلزمُه الطلاقُ بقول مَنْ لم يلتزم الطَّلاقَ؛ فما ظنُّك بقول يجب اشتراكُ الآمرِ والمأمور فيه، كيفَ يكونُ مقبولاً منه، وهو غيرُ عاملٍ به، ولاَ قابلٍ له؟ كَلاَّ. وقد قال أحمدُ بن يوسُف:

**وعاملٍ بالفُجُورِ يأمُرُ بالبِرِّ ... كهادٍ يخوضُ في الظُّلَمِ**

**أو كطبيبٍ قد شَفَّه سَقَمٌ ... وَهْوَ يُداوَى مِن ذلك السَّقَمِ**

**يا واعظَ النَّاسِ غيرَ مُتَّعِظٍ ... ثَوْبَك طَهِّر أوْ لا فلا تَلُمِ**

وقال آخر:

**عَوِّدْ لسانَكَ قِلَّةَ اللفْظِ ... واحفظ كلامَكَ أيَّما حِفْظِ**

**إياكَ أن تعِظَ الرِّجالَ وقد ... أصبحْتَ محتاجًا إلى الوَعْظِ**

وأما الانقطاعُ عن العلْم إلى العَمَلِ، والانقطاع عن العمل إلى العلم، إذا عملَ بموجَب العلم، فقد حُكِيَ عن الزُّهْرِيِّ فيه ما يُغني عن تكلُّف غيره، وهو أنه قال: العِلْمُ أفضَلُ مِنَ العَمَلِ به لمن جَهِلَ، والعَمَلُ أفضَلُ من العِلْم لمن عَلِمَ.

---

(١) أخرجه ابن عساكر «تاريخ دمشق» (٤٩/ ٤٢٣)، دون لفظ: «وصاحباهما».

فأمَّا فَضْلُ ما بين العلْم والعبادة، إذا لم يُخلَّ بواجب، ولم يقصِّر في فرض؛ فقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«يُبعَث العالِمُ والعابِدُ، فيقال للعابد: ادخُلِ الجنَّةَ، ويقال للعالم: اتئد حتَّى تشفَعَ للناس»**[1].

ومن آداب العلماء: ألاَّ يبخلُوا بتعليم ما يحسنُون، ولا يمتنعوا من إفادة ما يعلمون؛ فإنَّ البُخل به لؤمٌ وظُلْمٌ، والمَنْعُ منه حَسَدٌ وإثمٌ. وكيف يسوغُ لهم البخلُ بما مُنحوه من غير بُخْلٍ، وأوتوه عفوًا من غير بَذْل؟ أم كيف يجوز لهم الشحُّ بما إن بَذَلُوه زاد ونما، وإن كتموه تناقَصَ ووَهَى. ولَو استنَّ بذلك من تقدَّمَهُم، لما وَصَلَ العلم إليهم، ولانقرَضَ عنهم بانقراضهم، ولَصارُوا على مرور الأيام جهَّالاً، وبتقلُّب الأحوال وتناقصها أرذالاً، وقد قال الله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾ (آل عمران: ١٨٧). ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«لا تمنعوا العلْمَ أهلَه، فإنَّ في ذلك فساد دينكم والتباس بصائركم»**[2]، ثم قرأ: ﴿إنَّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ (البقرة: ١٥٩). ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«مَنْ كَتَم علمًا يُحسنه، ألجَمه الله يَوْمَ القيامة بلجام من نار»**[3].

ورُوي عن عليِّ بن أبي طالب ـ كرَّم الله وجهه ـ أنه قال: «ما أَخَذَ الله العَهْدَ على أهلِ الجهل أن يتعلَّموا، حتى أَخَذَ العَهْدَ على أهلِ العلم أن يعلِّموا»، وقال بعضُ الحكماء: «إذا كانَ من قواعد الحكمة بَذْلُ ما يُنقصه البذْلُ، فأَحْرَى أن يكونَ من قواعدها بَذْلُ ما يزيدهُ البَذْلُ». وقَال بعضُ العلماء: «كما أنَّ الاستفادة نافلةٌ للمتعلِّم، كذلك الإفادة فريضةٌ على المعلم». وقد قيل في منثور الحكم: «من كَتَم علْمًا فكأنَّه جاهل». وقال خالد بن صفوان: «إنِّي لأفرح بإفادتي المتعلِّمَ، أكثَرَ من فَرحي باستفادتي من المُعلم.

**ثم له بالتعليم نفعان:**

---

(١) **موضوع**: أورده المنذري في «الترغيب» وحكم الشيخ الألباني عليه بالوضع.

(٢) لم أصل إليه.

(٣) **صحيح مرفوعًا**: من حديث أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، والحديثان صححهما الألباني في صحيح «الترغيب والترهيب» (١٢١) والثاني في كتاب «العلم».

أحدهما - **ما يرجوه من ثواب الله تعالى:** فقد جعل النبي ﷺ التعليم صدقة، فقال ﷺ: «**تصدَّقوا على أخيكم بعلم يُرشِدُهُ، ورأي يسدِّدُهُ**»[1]. وروى ابن مسعود - رضي الله تعالى عنه -، عن النبيّ ﷺ، أنه قال: «**تعلَّموا وعلِّموا؛ فإنَّ أَجْرَ العالِمِ والمتعلِّم سواء. قيل: وما أجرُهما؟ قال: مئة مغفرةٍ، ومئة درجةٍ في الجنَّة**»[2].

والنفع الثاني - **زيادة العلم، وإتقان الحِفْظ:** فقد قال الخليلُ بن أحمد: «اجعَلْ تعليمَكَ دراسةً لعلمك، واجعل مناظرةَ المتعلِّم تنبيهًا على ما ليس عندك». وقال ابنُ المعتزّ في منثور الحكم: «النَّار لا ينقصُها ما أُخذَ منها، ولكن يُخمدها أن لا تجدَ حطبًا. كذلك العلم لا يفنيه الاقتباسُ، ولكن فقدُ الحاملين له سبب عُدمه، فإياك والبخلَ بما تعلم». وقال بعضُ العلماء: «علِّمْ علمَكَ، وتعلَّم علْمَ غيرك، فإذا أنتَ قد علِمْتَ ما جهلْتَ، وحفظْتَ ما علِمْتَ».

**واعلَمْ أنَّ المتعلمين ضَرْبان: مُسْتَدعى وطالب.**

**فأمَّا المستدعَى إلى العلم:** فهو مَن استَدْعاهُ العالم إلى التعليم، لما ظَهَرَ له من جَودة ذكائه، وبان له من قوَّة خاطره، فإذا وافَقَ استدعاءُ العالم شهوةَ المتعلِّم، كانت نتيجتهما دَرْكَ النُّجَباء، وظَفَرَ السُّعَداء؛ لأنّ العالم باستدعائه متوفِّر، والمتعلِّم بشهوته وذكائه مستكثر. **وأمَّا طالب العلم** لداعٍ يدعوه، وباعث يحدُوه: فإن كان الداعي دينيًا، وكان المتعلِّم فطنًا ذكيًا، وَجَبَ على العالم أن يكونَ عليه مُقْبلاً، وعلى تعليمه متوفِّرًا، لا يخفي عليه مكنونًا، ولا يَطْوي عنه مَخزونًا، وإن كان بليدًا بعيدَ الفطنَة؛ فينبغي ألاَّ يُمنَعَ من اليسير فيُحرَم، ولا يُحمَلَ عليه بالكثير فيُظْلَمَ؛ ولا يَجعلَ بلادَته ذريعةً لحرمانه؛ فإنَّ الشهوة باعثةٌ، والصَّبرَ مؤثِّرٌ.

وقد رُوي عن النبيّ ﷺ، أنه قال: «**لا تمنعوا العلْمَ أهلَه، فتَظْلِموا، ولا تَضَعُوه في غَيْرِ أَهْلِهِ، فتأثَموا**»[3]. وقال بعضُ الحكماء: «لا تمنعوا العلم أحدًا؛ فإنَّ العلمَ أمنَعُ لجانبه». فأمَّا إن لم يكن الدَّاعي دينيًا نُظرَ فيه؛ فإن كان مباحًا، كرجلٍ دعاه إلى طلب العلم حبُّ النَّباهة، وطلبُ الرياسة؛ فالقولُ فيه يقاربُ القَوْلَ الأوَّلَ

---

(١، ٢) لم أصل إليه.

(٣) أخرجه الدارمي (٣٧٨)، بلفظ: «ولا تمنع العلم أهله فتأثم ولا تضعه في غير أهله فتجهل» عن كثير بن قرة موقوفاً.

في تعليم مَنْ قَبله، لأنَّ العلْمَ يعطفُه إلى الدِّين في ثاني الحال، وإن لم يكن مبتدئًا به في أوّل حال. وقد حُكي عن سفيان الثوريّ أنه قال: «تعلّمْنا العلْمَ لغير الله تعالى، فأبَى أن يكونَ إلاَّ لله». وقال عبد الله بن المبارك: «طلبنا العِلْمَ للدنيا، فدلَّنا على ترك الدنيا».

وإن كان الداعي محظورًا، كرجل دعاه إلى طلب العلْم شرٌّ كامنٌ، ومكْرٌ باطن، يريدُ أن يستعملَهما في شُبَه دينية، وحيَلٍ فقهية، لا يجدُ أهلُ السَّلامة منهما مَخْلَصًا، ولا عنهما مَدْفعًا، كما قال النبي ﷺ: **«أَهْلَكَ أُمَّتي رجلان: عالِمٌ فاجِرٌ، وجاهِلٌ متعبِّدٌ.** فقيل: يا رسول الله، أيُّ النَّاس شر؟ قال: **العلماءُ إذا فَسَدُوا»**[1]. فينبغي للعالم إذا رأى مَنْ هذه حاله، أن يمنعه من طَلَبَته، ويصرفه عن بُغيته، ولا يعينه على إمضاء مكْره، وإعمال شرِّه، فقد رَوَى أنس بن مالك - رضي الله تعالى عنه -، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«واضعُ العلْم في غَيْرِ أهلِه، كمقلِّدِ الخنَازيرَ اللؤلؤ والجَوْهَرَ والذَّهَبَ»**[2]. وقال عيسى ابنُ مريم - على نبينا وعليه السلام -: «لا تُلْقوا الجَوْهَرَ للخنزير؛ فالعِلْمُ أفْضَلُ من اللؤلؤ، ومن لا يستحقُّه شرٌّ من الخنزير».

وحُكي أن تلميذًا سأل عالمًا عن بعض العلوم، فلم يُفدْه، فقيلَ له: لمَ منعْتَه؟ فقال: «لكُلِّ تُربة غَرْسٌ، ولكلِّ بناء أُسٌّ». وقال بعضُ البلغاء: «لكُلِّ ثَوْبٍ لابسٌ»، ولكُلِّ علْمٍ قابسٌ. وقال بعضُ الأدباء: «ارْث لروضة توسَّطَها خنزيرٌ، وابْك لعلم حَوَاهَ شرِّير». وينبغي أن يكون للعالم فراسةٌ يتوسَّمُ بها المتعلم، ليعرفَ مبلغَ طاقته، وقدرَ استحْقاقه؛ ليعطيَه ما يتحمَّلُه بذكائه، أو يضعف عنه ببلادته؛ فإنَّه أروَحُ[3] للعالم، وأنجحُ للمتعلم. وقد رَوَى ثابت عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن لله عباداً يعرفُون النَّاسَ بالتوسُّم»**[4]. وقال عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه -: «إذا أنا لم أعلَمْ ما لم أرَ، فلا علمتُ ما رأيتُ». وقال عبد الله بن الزبير: «لا عاشَ بخيرٍ مَن لم يَرَ برأيه، ما لم يَرَ بعينيه». وقال ابنُ الروميّ:

---

(١) أورده الديلمي في «الفردوس» (٤/ ٢٦٨)، وأشار بوضعه في «الموضوع» (٣٨٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤). (٣) أروح: أكثر راحة.

(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣/ ٢٠٧) (٢٩٣٥)، والحكيم الترمذي في «النوادر» (٣/ ٨٧).

أَلمعيٌّ يرى بأوَّل رأي آخرَ الأمرِ من وراءِ المغيبِ
لَوْذَعيٌّ له فؤادٌ ذكيٌّ ما لَهُ في ذكائه من ضَريبِ[1]
لا يُرَوِّي ولا يقلِّبُ طَرْفًا وأكفُّ الرِّجالِ في تقليبِ[2]

وإذا كان العالم في توسُّم المتعلّمين بهذه الصفة، وكان بقدر استحقاقهم خبيرًا، لم يَضعْ له عَناءٌ، ولم يَخبْ على يديه صاحبٌ؛ وإن لم يتوسَّمْهم، وخفيَتْ عليه أحوالُهم ومَبْلَغُ استحقاقهم، كانوا وإياه في عناء مُكْدٍ[3]، وتعبٍ غير مُجْدٍ؛ لأنَّه لا يعدَمُ أن يكون فيهم ذكيٌّ محتاج إلى الزيادة، وبليدٌ يحتاجُ إلى التقليل، فيضجَر الذكيّ منه، ويعجز البليد عنه، ومن يردد أصحابَه بين عجزٍ وضَجَرٍ ملُّوه وملَّهم.

وقد روى عبدُ الله بن وَهْب، أن سفيان بن عبد الله قال: قال الخضر لموسى - عليهما السلام -: «يا طالبَ العلْم، إنَّ القائلَ أقلُّ مَلالةً من المستمع، فلا تُمِلَّ جلساءَك إذا حدَّثتهم، يا موسى! اعلَمْ أنَّ قلبك وِعاء، فانظر ما تحشو في وِعائك».

وقال بعضُ الحكماء: «خيرُ العلماء من لا يُقِلُّ ولا يُمِلُّ». وقال بعض العلماء: «كُلُّ علْمٍ كَثُر على المستمع، ولم يطاوعْه الفَهم، ازداد به القلبُ عمًى، وإنَّما ينفع سمعُ الآذان، إذا قوي فَهمُ القلوبِ في الأبدان».

وربما كان لبعض السلاطين رغبةٌ في العلم، لفضيلة نفسه، وكرم طبعه، فلا يجعل ذلك ذريعةً في الانبساط عنده، والإدلال عليه، بل يعطيه ما يستحقُّه بسلطانه، وعلوِّ يده، فإنَّ للسلطان حقَّ الطاعة والإعظام، وللعالم حقَّ القَبُول والإكرام. ثم لا ينبغي أن يبتدئه إلاَّ بعد الاستدعاء، ولا يزيدَه علَى قدر الاكتفاء، فربما أحبَّ بعضُ العلماء إظهارَ علْمه للسلطان فأكثر، فصار ذلك ذريعةً إلى مَلَله، ومفضيًا إلى بُعْده؛ لأنَّ السلطانَ مُتَقَسَّمُ الأفكار، مُستوعَبُ الزَّمان، فليس له في العلم فراغُ المنقطعين إليه، ولا صَبْرُ المنفردين به.

---

(١) لوذعي: ذكي ظريف. ضريب: شبيه.
(٢) لا يروِّي: سريع البديهة لا يطيل التفكير. في تقليب: من حيرتهم وجهلهم.
(٣) مكد: متعب من غير فائدة.

وقد حُكي عن الأصمعيّ ـ رحمه الله ـ، قال: قال لي الرشيد: «يا عبدَالملك، أنتَ أعلَمُ منَّا، ونحن أعقَلُ منك، لا تعلِّمْنا في مَلأ، ولا تسرعْ إلى تذكيرنا في خَلاَء، واتركْنا حتى نبتدئك بالسؤال، فإذا بلغت منْ الجواب قَدْر الاستحقاق فلاَ تزدْ، إلاَّ أن نستدْعيَ ذلك منك. انظر إلى مَا هو ألطفُ في التأديب، وأنصَفُ في التعليم، وبلِّغْ بأوجزِ لفظ غايةَ التقويم. ولْيُخرج تعليمَه مخرج المذاكَرة والمحاضَرة، لا مخرجَ التعليم والإفادة؛ لأنَّ لتأخير التعليم خَجْلَةَ تقصير، يُجَلُّ السلطان عنها، فإنْ ظَهَرَ منه خطأ أو زَلَل، في قول أو عمل لم يجاهرْه بالردِّ، وعرَّض باستدراك زَلَله، وإصلاح خَلَله»، وحُكي أنَّ عَبد الملك بن مروان قال للشعبيّ: كم عطاءَك؟ قال: ألفين، قال: لحَنْتَ، قال: لَمَّا تَرَكَ أميرُ المؤمنين الإعرابَ، كرِهْتُ أن أُعرِبَ كلامي عليه.

ثم لْيحذر اتِّباعَه فيما يجانب الدِّين، ويضادُّ الحقَّ، موافقةً لرأيه، ومتابعةً لهواه، فربَّما زلَّتْ أقدامُ العلماء في ذلك، رغبةً أو رهبةً، فضلُّوا وأضلُّوا، مع سوء العاقبة، وقُبْحِ الآثار. وقد رَوى الحسنُ البصري ـ رحمه الله ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تزالُ هذه الأمة بخير تحتَ يد الله وفي كَنَفِه، ما لم يمالِ قرّاؤها أمراءَها، ولم يُزكِّ صلحاؤها فجّارَها، ولم يمار أخيارُها أشرارَها؛ فإذا فعلُوا ذلك، رَفَعَ عنهم يَدَه، ثم سلَّط عليهم جبابرتَهم، فساموهم سوءَ العذاب، وضربَهم بالفاقة والفقر، وملأ قلوبَهم رُعْبًا»**[1]. ومن آدابهم نزاهةُ النَّفْس عن شُبَه المكاسب، والقناعةُ بالميسور عن كَدِّ المطالب، فإنَّ شُبَه المكسب إثمٌ، وكَدَّ الطَّلَبِ ذلٌّ، والأَجْرُ أجدَرُ به من الإثم، والعزُّ أليقُ به من الذلِّ.

وأنشدني بعضُ أهل الأدب لعليٍّ بن عبد العزيز القاضي الجُرْجاني:

**يقولونَ لي فيكَ انقباضٌ وإنَّما ... رأَوْا رَجُلاً عن موقفِ الذُّلِّ أحْجَما**

**أرى الناسَ مَنْ داناهُمُ هان عندَهُمْ ... وَمَنْ أكرمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا**

**وما زِلْتُ منحازًا بعرضيَ جانبًا ... من الذمِّ أَعْتَدُّ الصِّيانةَ مَغْنَما**

**ولم أقضِ حَقَّ العِلْمِ إن كان كلَّما ... بدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُه لِيَ سُلَّمَا**

---

(١) أورده ابن المبارك في «الزهد» (٨٢١).

| | |
|---|---|
| ومــا كلُّ بَرْقٍ لاحَ لي يَسْـتَـفِـزُّني | ولا كلُّ مَن لاقـيتُ أرضـاه مُنعِـمـا |
| إذا قــيلَ هذا مَنهلٌ قلتُ قــد أرى | ولكنَّ نَفْسَ الحُـرِّ تحـتـمِل الظَّمـا |
| أُنَهْنِهـهـا عن بعضِ مـا لا يَشينهـا | مـخـافَـةَ أقـوالِ العِـدَا فـيمَ أو لِمَا[1] ؟ |
| ولم أبتذِلْ في خدمة العلْم مُهْجَتي | لأخْـدُمَ مَنْ لاقَـيْتُ، لكنْ لأُخْـدَمـا |
| أأشــقَى به غَــرْسًـا وأجنيــه ذِلَّةً | إذن فـاتِّبَـاعُ الجَـهْلِ قَدْ كـان أحْـزَمـا |
| ولو أنَّ أهْلَ العِلْمِ صـانُوهُ صـانَهُمْ | ولو عظَّمُـوه في النُّفُـوس لَعظَّمـا |
| ولـكن أهـانُوه فَــهَــانَ، ودَنَّسُـــوا | مُـحَـيَّـاهُ بالأطمـاع حـتَّى تجَـهَّـمـا |

على أنَّ العلْم عِوضٌ من كُلِّ لَذَّة، ومغنٍ عن كُلِّ شَهْوة، ومن كان صادقَ النِّيَّةَ فيه، لم يكن له همةٌ فيمـا يجد بدًا منه. وقال بعض الحكماء: «من تفرَّد بالعلم لم تُوحشه خَلوةٌ، ومن تَسَلَّى بالكتب لم تفتْه سَلْوةٌ، ومن آنسَهُ قراءةُ القرآن لم توحشه مفارَقَةُ الإخوان». وقال بعض الحكماء: «لا سميرَ كالعلم، ولا ظهيرَ كالحلم».

ومن آدابهم أن يقـصدوا وجْـهَ الله تعـالى بتعليم من عـلَّموا، ويطلبـوا ثوابه بإرشاد من أرشدوا، من غير أن يعتاضوا عليه عوَضًا، ولا يلتمسوا عليه رزقًا؛ فقد قال الله تعـالى: ﴿ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ (البقرة: ٤١). قال أبو العـالية: لا تأخـذوا عليـه أجرًا، وهـو مكتوب عـندهم في الكتـاب الأول: يا بن آدم، علِّم مجانًـا، كما عُلِّمْتَ مجـَّانًا. وروي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**أجرُ المعلِّم كأجْرِ الصَّائم القائم**»[2]. وحسبُ من هذا أجرُه أن يلتمس عليه أجرًا.

**ومن آدابهم**: نُصْحُ مَن علَّموا، والرفقُ بهم، وتـسهيلُ السَّـبيل عليهم، وبذْلُ المجهود في رِفْدهم ومَعُونتـهم؛ فإنَّ ذلك أعظَمُ لأجرهم، وأسنَى لذكرهم، وأنشرُ لعلومهم، وأرسَخُ لعلومهم وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال لعليِّ بن أبي طالب رضي الله تعـالى عنه: «**يا عليّ، لأنْ يَهـديَ الله بكَ رجـلاً، خَـيْـرٌ ممَّا طَلَعتْ عليك الشَّمْس**»[3].

---

(١) انهنهها: أمنعها.

(٢) لم أصل إليه.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣/ ١٠٨٦)، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد.

**ومن آدابهم:** أن لا يعنِّفوا متعلِّمًا، ولا يُحقِّروا ناشئًا، ولا يستصغروا مبتدئًا؛ فإنَّ ذلك أدعى إليهم، وأعطفُ عليهم، وأحثُّ على الرغبة فيما لديهم. ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«علِّموا ولا تُعَنِّفوا؛ فإنَّ المعلِّم خَيْرٌ من المعنِّف»**[1].

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«وقِّروا من تتعلمون منه، ووقِّروا من تُعلِّمُونَه»**[2].

ومن آدابهم ألاَّ يمنعوا طالبًا، ولا ينفِّروا راغبًا، ولا يُؤْيِسُوا متعلِّمًا؛ لما في ذلك من قطع الرغبة فيهم، والزُّهد فيما لديهم، واستمرار ذلك مُفْضٍ إلى انقراض العلم بانقراضهم. فقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«ألا أنبِّئكُم بالفقيه كُلَّ الفقيه؟ قالوا: بلى يا رسول الله ﷺ، قال: من لم يُقْنِط النَّاسَ مِنْ رحمة الله تعالى، ولا يُؤْيِسْهُم من رَوح الله، ولا يدَع القرآن رغبةً إلى ما سواه، ألاَ لا خيرَ في عبادة ليس فيها تفقُّه، وعلمٍ ليس فيه تفهُّم، وقراءةٍ ليس فيها تدبُّر»**[3].

**فهذه جملة كافية، والله ولي التوفيق.**

★★

---

(١) الطيالسي في «مسنده» (٢٥٣٦)، عن أبي هريرة.

(٢) ذكره في «الفردوس» (٧١٢٥) عن ابن عمر.

(٣) أوره الديلمي في «الفردوس» عن علي (٤٧٤)، والذهبي في «التذكرة» (١/ ١٣).

## الباب الثالث

# في أدب الدين

**اعلم** أن الله - سبحانه وتعالى - إنَّما كلَّف خَلْقَه مُتَعَبَّداته، وألزمهم مُفترضاته، وبعث إليهم رُسُلَه، وشرَعَ لهم دينه، لغير حاجة دعته إلى تكليفهم، ولا من ضرورة قادته إلى تعبُّدهم، وإنَّما قصدَ نفعَهم، تفضُّلاً منه عليهم، كما تفضَّل بما لا يحصى عداً من نعمه، بل النعمة فيما تعبَّدهم به أعظَمُ؛ لأنَّ نَفْعَ ما سوى المتعبَّدات مختصٌّ بالدنيا العاجلة، ونفْعَ المتعبَّدات يشتملُ على نَفْعِ الدنيا والآخرة، وما جَمَعَ نَفْعَيْ الدنيا والآخرة كان أعظمَ نعمةً، وأكثرَ تفضُّلاً.

وجعلَ ما تعبدهم به سبحانه مأخوذًا من عقل متبوع، وشَرْعٍ مسموع؛ العقلُ متبوع فيما لا يمنَعُ منه الشرْعُ، والشرع مسموع فيما لا يمنع منه العقل؛ لأنَّ الشرعَ لا يَرِدُ بما يمنع منه العقل، والعقل لا يُتَّبَع فيما يمنَعُ منه الشرع؛ فلذلك توجه التكليفُ إلى من كَمُلَ عقلُه.

فأرسَل ﴿رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٣). فبلَّغهم رسالَته، وألزَمهم حُجَّتَه، وبيَّن لهم شريعَته، وتلا عليهم كتابَه؛ فيما أحلَّهُ وحرَّمه، وأباحَه وحَظَرَه، واستحبَّه وكرِهَه، وأمر به ونَهى عنه، وما وَعَدَ به من الثَّواب لمن أطاعه، وأَوْعَدَ به من العقاب لمن عَصَاه، فكان وَعْدُهُ ترغيبًا، ووعيدُه ترهيبًا؛ لأنَّ الرَّغبةَ تبعثُ على الطَّاعة، والرَّهبة تكفُّ عن المعصية، والتكليفَ يجمعُ أمرًا بطاعة ونهيًا عن معصية؛ ولذلك كان التكليفُ مقرونًا بالرَّغبة والرَّهبة، وكان ما تخلَّلَ كتابَه من قصص الأنبياء السالفة، وأخبار القرون الخالية، عظةً واعتبارًا، تقوَى معهما الرَّغبةُ، وتزدادُ بهما الرَّهبةُ، وكان ذلك من لُطْفه بنا وتفضُّله علينا، فالحمدُ لله الذي نعمُه لا تُحْصَى، وشُكْرُه لا يُؤدَّى.

ثم جَعلَ إلى رسوله ﷺ بيانَ ما كان مجملاً، وتفسيرَ ما كان مشكلاً، وتحقيقَ ما كان محتملاً؛ ليكونَ له مع تبليغ الرسالة ظهورُ الاختصاص به، ومنزلةُ

التفويض إليه. قال الله تعالى: ﴿وأنزلنا إليكَ الذكرَ لتُبيِّنَ للنَّاسِ ما نُزِّلَ إليهِمْ ولعلَّهُمْ يتفكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤).

ثم جعلَ إلى العلماء ـ بعد رسوله ﷺ ـ استنباطَ ما نبَّه على معانيه، وأشار إلى أصوله؛ ليتوصَّلُوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد به، فيمتازوا بذلك عن غيرهم، ويختصُّوا بثواب اجتهادهم، قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا منكُمْ والَّذينَ أُوتُوا العِلْمَ درَجَاتٍ﴾ (المجادلة: ١١)، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ (آل عمران: ٧).

**فصار الكتابُ أصلاً، والسُّنَّة فرعًا، واستنباطُ العلماء إيضاحًا وكشفًا**، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**القرآنُ أصلُ علمِ الشريعة**»، نصُّه ودليلُه، والحكمةُ بيانُ رسول الله ﷺ، والأمَّةُ المجتمعةُ حُجَّةٌ على مَن شذَّ عنها.

وكان من رأفته بخلْقه، وتفضُّله على عباده، أن أقْدَرَهم على ما كلَّفهم، ورفَع الحرَجَ عنهم فيما تعبَّدَهم؛ ليكونوا مع ما قد أعدَّه لهم، ناهضين بفعْل الطَّاعات، ومجانبة المعاصي؛ قال الله تعالى: ﴿لا يُكلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلاَّ وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦). وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨).

**«وجَعَلَ ما كلَّفَهم ثلاثةَ أقسام: قسمًا أمرَهم باعتقاده، وقسمًا أمرَهم بفعله، وقسمًا أمرَهم بالكفِّ عنه»**؛ ليكونَ اختلافُ جهاتِ التكليف أبعثَ على قبوله، وأعونَ على فعله، حكمةً منه ولطفًا.

وجَعَلَ ما أمرهم باعتقاده قسمين: قسمًا إثباتًا، وقسمًا نفيًا. فأمَّا الإثبات فإثباتُ توحيده وصفاته، وبعثه رسلَه، وتصديق محمَّد ﷺ فيما جاء به. وأمَّا النفي فنفي الصاحبة والولد والحاجة والقبائح أجمع. وهذان القسمان هما أول ما كُلِّفه العاقل.

وجَعَلَ ما أمرَهم بفعله ثلاثةَ أقسام: قسمًا على أبدانهم، كالصَّلاة والصِّيام، وقسمًا في أموالهم، كالزكاة والكفارات؛ وقسمًا على أبدانهم وفي أموالهم، كالحجِّ والجهاد؛ ليسهلَ عليهم فعلُه، ويخفَّ عنهم أداؤه، نظرًا منه تعالى لهم، وتفضلاً منه عليهم.

وجَعَلَ ما أَمَرَهم بالكفِّ عنه ثلاثةَ أقسام: قسمًا لإحياء نفوسهم، وصلاح أبدانهم، كنهيه سبحانه عن القتْل، وأكْلِ الخبائث والسُّموم، وشرب الخمور المؤدية إلى فساد العقول وزوالها؛ وقسمًا لائتلافهم وإصلاح ذات بينهم، كنهيه عن الغَضَبِ والغَلَبَة والظُّلم، والسَّرَف المفضي إلى القطيعة، والبغضاء؛ وقسمًا لحفظ أنسابِهم، وتعظيم محارِمهم، كنهيه عن الزِّنا، ونكاح ذواتِ المحارم.

فكانت نعمتُه فيما حظره علينا، كنعمته فيما أباحه لنا، وتفضُّله فيما كفَّنا عنه، كتفضُّله فيما أمرنا به. فهل يجدُ العاقلُ في رويته[1] مساغًا أن يقصِّر فيما أُمِرَ به، وهو نعمة عليه، أو يرى فسحةً في ارتكاب ما نُهِي عنه وهو تفضُّلٌ عليه؟ وهل يكونُ من أنعم عليه بنعمة فأهملَها مع شدَّة فاقته إليها، إلاَّ مذمومًا في العقل، مع ما جاء من وعيد الشرع؟

ثم من لطفه بخلقه، وتفضُّله على عباده، أن جَعَلَ لهم من جنس كُلِّ فريضة نَفْلاً، وجَعَلَ لها من الثواب قسْطًا، ونَدَبهم إليه نَدْبًا، وجَعَلَ لهم بالحسنة عَشْرًا، ليضاعفَ ثوابَ فاعله، ويضَعَ العقابَ عن تاركه.

ومن لطيف حكمته، أن جعَلَ لكُلِّ عبادة حالتين: حالة كمال وحالة جواز، رفقًا منه بخلْقه، لما سَبَقَ في علمه، أنَّ فيهم العَجِلَ المُبَادِر، والبطيء المتثاقل، ومَنْ لا صبر له على أداء الأكمل؛ ليكون ما أخلَّ به من هيئات عبادته، غيرَ قادحٍ في فرضٍ، ولا مانعٍ من أجر، فكان ذلك من نعمه علينا، وحسن نظره إلينا.

وكان أوَّلَ ما فَرَضَ بعدَ تصديق نبيِّه ﷺ عبادات الأبدان، وقد قدَّمها على ما يتعلَّق بالأموال؛ لأنَّ النفوس على الأموال أشحُّ، وبما يتعلَّق بالأبدان أسمحُ، وذلك الصَّلاة والصيام، فقدَّم فرض الصَّلاة على الصِّيام، لأنَّ الصَّلاة أسهَلُ فعلاً، وأيسَرُ عملاً، وجَعَلَها مشتملةً على خضوعٍ له، وابتهال إليه، فالخضُوعُ له رهبةً منه، والابتهالُ إليه رغبةً فيه، ولذلك قال النبيّ ﷺ: **«إذا قامَ أحدُكم إلى صلاته، فإنَّما يناجِي ربَّه، فلينظُر أحدكم بمَ يناجيه؟»**[2]. ورُوي عن عليّ بن أبي

(١) رويته: فكره وتأمله.

(٢) أخرجه البخاري بلفظ قريب (١/ ١٦٠)، عن أنس بن مالك (٤٠٣).

طالب ـ رضي الله تعالى ـ عنه أنه كان كلَّما دخلَ عليه وقتُ الصَّلاة اصفرَّ مرةً واحْمَرَّ أخرى، فقيلَ له في ذلك؟ فقال: أتتني الأمانَةُ التي عُرِضَت على السموات والأرض والجبال، فأَبَيْنَ أن يحملْنَها، وأشفَقْنَ منها، وحملتُها أنا، ولا أدري: أُسيءُ فيها أم أُحسِنُ.

ثم جَعَلَ لها شروطًا لازمةً؛ من رَفْعِ حَدَثٍ، وإزالة نَجَسٍ؛ ليستديم النظافة للقاء ربِّه، والطهارة لأداء فرضه، ثم ضمَّنها تلاوةَ كتابه المنزل؛ ليتدبَّر ما فيه، من أوامره ونواهيه، ويعتبر إعجاز ألفاظه ومعانيه، ثم علَّقها بأوقات راتبة، وأزمان مترادفة؛ ليكون ترادُفُ أزمانها وتتابُعُ أوقاتها، سببًا لاستدامة الخضوع له والابتهالَ إليه؛ فلا تنقطع الرَّهبةُ منه، ولا الرَّغبةُ فيه، وإذا لم تنقطع الرَّغبة والرَّهبة، استدام صلاحُ الخَلْق، وبحسَب قوَّة الرَّغبة والرَّهبة، يكونُ استيفاؤها على الكمال والتقصير فيها على حال الجواز، وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: **«الصَّلاةُ مِكْيالٌ، فَمَنْ وفَّى وُفِّي له،ومن طَفَّفَ فقد علمتم ما قال الله في المطَفِّفين»**[1]. ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«من هانَتْ عليه صلاتُه، كان على الله عزَّ وجلَّ أَهْوَنَ»**[2].

وأُنْشِدْتُ لبعض الفصحاء في ذلك:

**أَقْبِلْ عَلَى صلواتِكَ الخَمْسِ ... كَمْ مُصْبِحٍ وَعَسَاهُ لا يُمْسِي**

**واستقبِل اليومَ الجديدَ بتوبةٍ ... تَمْحُ ذُنُوبَ صحيفةِ الأمسِ**

**فَلَيَفْعلنَّ بوجهِكَ الغَضِّ البِلَى ... فِعْلَ الظَّلام بِصُورَةِ الشَّمْسِ**

ثم فَرَضَ الله تعالى الصِّيام، وقدَّمه على زكاة الأموال، لتعلُّق الصِّيام بالأبدان، وكان في إيجابه حثٌّ على رحمة الفقراء وإطعامهم، وسَدِّ جَوْعاتهم، لما قد عانَوه من شدة المجاعة في صومهم. وقد قيل ليوسُفَ عليه السلام: أتجوعَ وأنتَ على خزائنِ الأرض؟ فقال: «إني أخافُ أن أشبَعَ فأنسَى الجائع». ثمَّ لما في الصَّوم من قَهرِ النَّفْس وإذلالها، وكَسْرِ الشَّهوَةِ المستولية عليها، وإشعارِ النفس ما هي عليه من الحاجة إلى يسير الطعام والشراب، والمحتاجُ إلى الشيء ذليلٌ به،

---

(١) **موقوف**: أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٢/٢٩١)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٣٧٥٠)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٩٧٩) عن سالم بن أبي الجعد عن سلمان الفارسي موقوفًا.

(٢) لم أصل إليه.

وبهذا احتجَّ الله تعالى على من اتخذ عيسى ابن مريم وأمَّه إلهين من دونه، فقال تعالى: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾ (المائدة: ٧٥). فجعل حاجتهما إلى الطعام نقصًا فيهما عن أن يكونا إلهين.

وقد وصف الحسنُ البصريُّ ـ رحمه الله ـ في قصصه نقصَ الإنسان بالطعام وغيره، فقال: مسكينٌ ابنُ آدَمَ؛ محتومُ الأجل، مكتومُ الأمل، مستورُ العلل، يتكلَّم بلحم، وينظر بشحم، ويسمَعُ بعظم، أسير جَوْعة، صريع شَبْعَة، تؤذيه البقَّةُ، وتُنتنُه العرَقة، وتقتلُه الشَّرْقَة، لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا».

فانظرْ إلى لُطفه بنا، فيما أوجبه من الصيام علينا، كيفَ أيقظَ العقولَ له، وقد كانت عنه غافلةً أو متغافلةً، ونفعَ النفوسَ به، ولم تكن لولاه منتفعةً ولا نافعةً.

ثم فَرَض زكاة الأموال، وقدَّمها على فرض الحجّ؛ لأن في الحجِّ مع إنفاق المال سفرًا شاقًا، فكانت النفس إلى الزكاة أسرَعَ إجابةً منها إلى الحج؛ فكان في إيجابها مواساةٌ للفقراء، ومعونةٌ لذوي الحاجات، تكفُّهم عن البغضاء، وتمنعُهم من التقاطع، وتبعثُهم على التواصُل؛ لأنَّ الآملَ وَصُولٌ، والراجي هائبٌ، وإذا زالَ الأملُ، وانقطَعَ الرَّجاءُ، واشتدَّت الحاجة، وقعت البغضاءُ، واشتدَّ الحَسَدُ، فحدَثَ التقاطعُ بين أرباب الأموالِ والفقراء، ووقعت العداوة بين ذوي الحاجات والأغنياء، حتى تُفضيَ إلى التغالُب على الأموال والتغرير بالنفوس. هذا مع ما في أداء الزكاة من تمرين النفس على السَّماحة المحمودة، ومجانبة الشحّ المذموم؛ لأنَّ السَّماحة تبعَثُ على أداء الحقوق، والشحَّ يصدُّ عنها، وما يبعث على أداء الحقوق فأجدرْ به حمدًا، وما صَدَّ عنها فأخلقْ به ذمًّا.

وقد رَوى أبو هريرة ـ رضي الله تعالى ـ عنه أن النبي ﷺ قال: «**شَرُّ ما أُعْطِيَ العَبْدُ شُحٌّ هالِعٌ، وجُبْنٌ خالِعٌ**»[1]. فسبحان من دبَّرنا بلطيف حكمته، وأخفى

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٥١١) وصححه الألباني، وفي الحديث ذم للبخل الذي يصل إليه حد الخوف من الإنفاق، والجبن الذي يخلع النفس من الجسد، والحديث أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٢)، وأبوداود (٣/ ١٢) (٢٥١١)، وابن حبان (٨/ ٤٢) (٣٢٥٠)، وابن أبي شيبة (٥/ ٣٣٢)، و(٩/ ٢٦٦٠).

عن فطنتنا جزيلَ نعمتـه، حتى استوجَب من الشكر بإخفائها، أعظَمَ مما استـوجبه بإبدائها.

ثم فَرَضَ الحج، فكان آخر فـروضه؛ لأنَّه يجمع عمـلاً على بَدَن، وحقًا في مـال، فجَـعَلَ فرضَـه بعد استـقرار فـروض الأبدان، وفروضِ الأمـوال؛ ليكون استئناسُهم بكُلِّ واحدٍ من النوعين، ذريعـةً إلى تسهيل ما جمع بين النوعين، فكان في إيجابه تذكيـرٌ ليومِ الحَشْر، في مفارقة المال والأهل، وخـضوع العزيز والذليل في الوقـوف بين يديه، واجتـماع المطيع والعـاصي في الرهبة منـه والرغبة إلـيه، وإقلاع أهل المعاصي عـمَّا اجترحوه، ونَدَم المذنبين على مـا أسلفوه، فقلَّ من حَجَّ إلاَّ وأحدَثَ توبةً من ذنب، وإقـلاعًا من معصيـة، ولذلك قال النبيُّ ﷺ: **«من علامة الحَجَّةِ المبرورة أن يكونَ صاحبُها بعدَها خيرًا منه قبلَها»**. وهذا صحيح؛ لأنَّ النَّدَمَ على الذنوب مانعٌ من الإقدام عليها، والتوبة منها مكفرةٌ لما سلف منها، فإذا كفَّ عمَّـا كان يُقْدِم عليه، أنبأ عن صحَّـة توبته، وصحَّةُ التوبة تقتـضي قبول حجَته. ثم نبَّه بما يعاني فيه من مشاقّ السفر المؤدِّي إليه على موضع النعمة برفاهية الإقامة، وأَنَسَةِ الأوطان، ليحنوَ على من سُلِب هذه النعمة من أبناء السبيل.

ثم أَعْلَمَ بمشاهـدة حَرَمه الذي أنشـأ منه دينه، وبَعثَ فيـه رسوله ﷺ، ثم بمشاهدة دار الهجرة، التي أعزَّ الله بها أهلَ طاعته، وأذلَّ بنصرة نبيِّه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أهلَ معصيته، حتَّى خَضَعَ له عظماءُ المتجبِّرين، وتذلَّلَ له زعماءُ المتكبِّرين، أنه لـم ينتشر عن ذلك المكان المنقطـع، ولا قَوِي بعد الضـعف البيِّن، حتى طَبَّق الأرضَ شرقًا وغربًا، إلاَّ بمعجزةٍ ظاهرة، ونصرٍ عزيز.

فاعـتبرْ ـ ألهمك الله الشكـر، ووفقك للتقوى ـ إنعـامَهُ عليك فيـما كلَّفك، وإحسانَه إليك فيما تَعَبَّدك، فقد وكلتُك إلى فطنتك، وأحلتُك على بصيرتك، بعد أن كنْتُ لك رائدًا صدوقًا، وناصحًا شفيـقًا، هل تحْسن نهوضًا بشكره، إذا فعلْتَ ما أمرَكَ، وتقبَّلْتَ ما كلَّفك؟ كـلاَّ، إنه لا يُوليك نعمةً توجبُ الشُكرَ، إلاَّ وَصَلَها قبل شكرِ ما سَلَف، بنعمةٍ توجِبُ الشُكْرَ في المؤتَنف[1].

---

(١) المؤتنف: الجديد.

ولذلك قال الحسن بن عليٍّ - رضي الله تعالى عنهما -: «نعَمُ الله أكثرُ من أن تُشكرَ، إلاَّ ما أعانَ عليه، وذُنُوبُ ابنِ آدمَ أكثرُ من أن تغفرَ، إلاَّ ما عفا عنه».

وأُنشدْت لمنصور بن إسماعيل الفقيه المصريِّ - رحمه الله تعالى -:

شُكْرُ الإلهِ نِعْمَةٌ مُوجبةٌ لشكره
فكيفَ شُكْري بِرَّهُ وشُكْرُهُ مِنْ بِرِّهِ

وإذا كنتَ عن شُكْرِ نعَمه عاجزًا، فكيفَ بكَ إذا قصَّرتَ فيما أمرك، أو فرَّطْتَ فيما كلَّفك، ونفعُه أعودُ عليك لو فعلته، هل تكون لسوابغ نعَمه إلاَّ كَفُورًا، وببدائه العُقول إلاَّ مزجورًا، وقد قال الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ (النحل: ٨٣). قال مجاهد: أي يعرفون ما عدَّدَ الله عليهم من نِعَمه، وينكرونها بقولهم: إنهم ورثوها عن آبائهم، واكتسبوها بأفعالهم.

ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: **«يقول الله تعالى: يا بْنَ آدم، ما أنصفتني، أتحبَّبُ إليكَ بالنعم، وتتمقَّتُ إليَّ بالمعاصي، خيري إليكَ نازلٌ، وشرُّكَ إليَّ صاعدٌ، كَمْ مِن مَلَكٍ كريم يصْعَدُ إليَّ منك بعملٍ قَبيحٍ»**[1].

وقال بعضُ صلحاء السَّلَف: «قد أصبح بنا من نعَم الله تعالى ما لا نُحصيه، مع كثرة ما نَعْصيه، فلا ندري أيَّهما نشكرُ؛ أجميلَ ما ينشُرُ، أم قبيحَ ما يَسْتُرُ»؟.

فحقٌّ على من عرف موقع النعمة أن يقبلَها ممتثلاً لما كُلِّف منها، وقَبولُها يكون بأدائها، ثم بشكر الله تعالى على ما أنعم به من إسدائها، فإنَّ بنا من الحاجة إلى نعَمه أكثرَ مما كلَّفنا من شكر نعمه؛ فإن نحن أدَّينا حقَّ النعم في التكليف، تفضَّل بإسداء النعمة من غير جهة التكليف، فلزمت النعمتان، ومن لزمتْهُ النعمتان، فقد أوتي حظَّ الدنيا والآخرة، وهذا هو السعيد على الإطلاق؛ وإن قصَّرنا في أداء ما كُلِّفنا من شكره، قَصَّر عنا ما لا تكليفَ فيه من نعمه، فنفرت النعمتان، ومن نفرَتْ عنه النعمتان، فقد سُلِبَ حظَّ الدنيا والآخرة، فلم يكن له في الحياة حظٌّ، ولا في الموت راحةٌ، وهذا هو الشقيُّ بالاستحقاق، وليس يختارُ الشِّقوةَ على

---

(١) ذكره في «الفردوس» (٨٠٤٧).

السَّعادة ذو لُبٍّ صحيح، ولا عقل سليم. وقد قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (النساء: ١٢٣).

روى الأعمش عن مسلمٍ قال: قال أبو بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه -: يا رسولَ الله، ما أشدَّ هذه الآية: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾. فقال ﷺ: «يا أبا بكر، إنَّ المصيبةَ في الدُّنيا جَزاء»[1].

واختلف المفسرون في تأويل قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ (التوبة: ١٠١)، فقال بعضهم: «أحدُ العذابين: الفضيحةُ في الدنيا، والثاني: عذابُ القَبْر». وقال عبد الرحمن بن زيد: «أحدُ العذابين: مصائبُهم في الدنيا في أموالهم وأولادهم، والثاني: عذابُ الآخرة في النار».

وليس وإن نالَ أهلُ المعاصي لَذَّةً من عيشٍ، أو أدركوا أمنيةً من دنيا، كانت عليهم نعمةً، بل قد يكونُ ذلك استدراجًا ونقمةً. وروى ابنُ لَهيعَة، عن عقبة بن مسلم، عن عقبة بن عامر: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيْتَ الله تعالى يعطي العِبَاد ما يشاؤون على معاصيهم إيَّاهُ، فإنَّما ذلك استدْراجٌ منه لهم، ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ (الأنعام: ٤٤)»[2].

فأما سائر المحرَّمات التي يمنَعُ الشرْعُ منها، واستقرَّ التَّكليفُ عقلاً أو شرعًا بالنهي عنها، فتنقسم قسمين: منها ما تكون النفوسُ داعيةً إليها، والشهواتُ باعثةً عليها؛ كالسِّفاح، وشُرْب الخمرِ، فقد زجر الله تعالى عنها؛ لقوَّة الباعث عليها، وشدَّة الميل إليها، بنوعين من الزَّجْر: أحدهما: حدٌّ عاجلٌ يرتدعُ به الجريّ، والثاني: وَعيد آجل يزدجر به التقيّ. ومنها ما تكون النفوس نافرةً منها، والشهواتُ مصروفةً عنها؛ كأكل الخبائث والمستقذرات، وشرب السُّموم المتلفات، فاقتصر الله سبحانه في الزجر عنها بالوعيد وحدَه دون الحدِّ؛ لأنَّ النفوس مُسْعَدةٌ[3] في الزجر عنها، والشهوات مصروفةٌ عن ركوب المحظور منها.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٢٩٥)، «سنن سعيد بن منصور» (٧٠٠).
(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٤٥).
(٣) مسعَدة: معانة.

ثم أكَّد الله زواجـرَه بإنكار المنكرين لها فأوجَبَ الأمْـرَ بالمعروف، والنَّهيَ عن المنكر؛ ليكونَ الأمْرُ بالمعـروف تأكيدًا لأوامره، والنَّهيُ عن المنكر تـأييدًا لزواجره؛ لأنَّ النفوس الأشرة قد ألهتها الصَّبوة عن اتباع الأوامر، وأذهلتها الشهوة عن تذكار الزواجر، فكان إنكارُ المجـانسين أزجرَ لها، وتـوبيخُ المخالطين أبلَغَ فيـها، ولذلك قال النبيّ ﷺ : **«ما أقرَّ قَومٌ المنكرَ بين أظهرهم إلاَّ عَمَّهم الله بعذابٍ محتضرٍ»**[1].

وإذا كان ذلك كذلك، فلا يخلو حال فاعلي المنكر من أحد أمرين:

**أحدهما ـ أن يكونوا أحادًا متفرِّقين، وأفرادًا متبدِّدين:** لم يتحزبوا فيه، ولم يتضافَروا عليه، وهم رَعِيَّةٌ مقهـورون، وأشذاذٌ مستضعفون، فلا خلافَ بين الناس أنَّ أمرهم بالمعروف، ونَهيَهم عن المنكر، مع المُكْنَة[2] وظهور القدرة، واجبٌ على من شاهد ذلك من فاعليـه، أو سمعه من قائليه؛ وإنَّما اخـتلفوا في وجوب ذلك على منكريه، هل وَجَبَ عليـهم بالعَـقْل أو بالشرع، فـذهَبَ بعضُ المتكلِّمين إلى وجـوب ذلك بالعقـل؛ لأنَّه لَمَّا وجَبَ بالعقـل أن يمتنع من القـبيح، وجب أيضًـا بالعقل أن يمنَعَ غيرَه منه؛ لأنَّ ذلك أدعى إلى مجانبته، وأبلغ في مفارقته.

وقد رَوَى عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله ـ، قال رسول الله ﷺ : **«إنَّ قَوْمًا ركِبُوا سفينةً في البحر، فاقتَسمُوا، فأخَذَ كُلُّ واحدٍ منهم موضعًا، فنقر رَجُلٌ منهم موضعَه بفأسٍ، فقالوا: ما تصنَعُ؟ قال: هو مكاني أصنع فيه ما شئْتُ. فلم يأخذوا على يديه؛ فهلَكَ وهلَكُوا»**[3]. وذهَبَ آخرون إلى وجوب ذلك بالشرع دون العقل؛ لأنَّ العقلَ لو أوجَبَ النهيَ عن المنكـر، ومنَعَ غيرَه من القبـيح، لوجَبَ مثله على الله تعـالى، ولَمَا جاز ورودُ الشـرْع بإقـرار أهل الذِّمة على الـكفر، وترك النَّكيـر عليهم؛ لأنَّ واجـبات العقـول لا يجوز إبطالها بالشـرع، وفي ورود الشرع بذلك دليلٌ على أنَّ العقل غير موجبٍ لإنكاره.

فأمَّا إذا كـان في ترك إنكاره مَضَرَّةٌ لاحقـةٌ بمنكرِه، وجَبَ إنكاره بالعقل على القولين مـعًا؛ وأما إنْ لحِقَ المنكرَ مَـضَرَّةٌ من إنكاره، ولم تلحقـه مضرةٌ من كـفِّه وإقراره، لم يجبْ عليه الإنكار لا بالعقل ولا بالشرع.

---

(١) صحيح: صحـحه الألبانـي في «صحيح الجـامع» (١٩٧٤) بلفظ: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك أن يعمهم الله بعقابه».

(٢) المكنة: الاستطاعة.

(٣) أخرجـه الطبراني في «الأوسط» (٣/ ١٤٩) (٢٧٦٢) وفي «مـسند أحمـد» (٤/ ٢٦٩) من حديث النعمان بن بشير.

أما العقل فلأنه يمنَعُ من اجْتلابِ المضارِّ التي لا يوازيها نفعٌ.

وأما الشرعُ فقد روى أبو سعيد الخدري - رضي الله تعالى عنه -، عن النبيِّ ﷺ، أنه قال: **«انكرِ المُنكرَ بيدِك، فإنْ لم تستطعْ فبلسانِكَ، فإن لم تستطعْ فبقلبِكَ، وذلك أضعفُ الإيمانِ»**[1].

فإن أراد الإقدام على الإنكار مع لحوق المضرَّة به، نَظَر؛ فإن لم يكن إظهارُ النكير ممَّا يتعلَّق بإعزاز دينِ الله، ولا إظهار كلمة الحقِّ، لم يجبْ عليه النكير، إذا خشي بغالب الظن تلفًا أو ضررًا، ولم يَحْسُن منه النكير أيضًا؛ وإن كان في إظهار النكير إعزازُ دينِ الله تعالى، وإظهارُ كلمة الحق، حَسُنَ منه النكير، مع خشية الإضرار والتَّلَف؛ وإن لم يجب عليه إذا كان الغرضُ قد يحصُل له بالنَّكير وإن استضرَّ أو قُتِلَ. وعلى هذا الوجه قال النبيّ ﷺ: **«إن أفضلَ الأعمالِ كلمةُ حقٍّ عند سلطان جائر»**[2].

فأمَّا إن كان يُقْتَل قبلَ حُصُولِ الغَرَضِ، قَبُحَ في العقل أن يتعرَّضَ لإنكاره، وكذلك إن كان الإنكار يزيدُ المنهيَّ إغراءً بفعل المنكر، ولجَاجًا في الاستكثار منه، قَبُحَ في العقل إنكاره.

**والحالة الثانية - أن يكون فعلُ المنكر من جماعة قد تضافرت عليه**، وعُصْبَة قد تحزَّبَتْ ودعَتْ إليه، فقد اختَلَف الناس في وجوب إنكاره على مذاهبَ شتَّى:

فقالت طائفة من أصحاب الحديث وأهل الآثار: لا يجب إنكاره، والأولى بالإنسان أن يكون كافًا مُمْسِكًا، وملازمًا لبيته وادعًا، غير منكر ولا مستفزّ.

وقالت طائفة أخرى ممن يقولُ بظهور المنتظر[3]: لا يجبُ إنكارُه، ولا التعرُّض لإزالته، إلا أن يظهرَ المنتظَرُ، فيتولَّى إنكارَه بنفسه، ويكونوا حينئذ أعوانَه.

وقالت طائفة أخرى، منهم الأصمُّ: لا يجوز للناس إنكارُه، إلاَّ أن يجتمعوا على إمامٍ عَدْلٍ، فيجبُ عليهم الإنكارُ معه.

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٦٩) (٤٩).
(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤١٥)، عن طارق بن شهاب.
(٣) يعني الإمام المهدي أحد علامات الساعة الكبرى.

وقال جمهور المتكلمين: إنكارُ ذلك واجب، والدفعُ عنه لازم على شروطه، في وجود أعوان يصلحون له، فأمَّا مع فقد الأعوان، فعلى الإنسان الكفُّ؛ لأنَّ الواحد قد يُقتَل قبل بلوغ الغرض فيه، وذلك قبيحٌ في العقل أن يُتعرَّض له.

فهذا حكم ما أكَّد الله تعالى به أوامره، وأيَّدَ به زواجره؛ من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وما يختلف من أحوال الآمرين به، والناهين عنه. ثم ليس يخلو حالُ النَّاس فيما أُمروا به ونُهوا عنه، من فِعْل الطَّاعات، واجتناب المعاصي، من أربعة أحوال:

**١ - فمنهم من يستجيب إلى فعل الطَّاعات، ويكفُّ عن ارْتِكاب المعاصي:** وهذا أكملُ أحوال أهل الدين، وأفضلُ صفات المتقين، فهذا يستحقُّ جزاءَ العاملين، وثوابَ المطيعين. رَوى محمد بن عبد الملك المدائنيّ، عن نافع، عن ابن عُمَرَ - رضي الله تعالى عنهما -، قال: قال رسول الله ﷺ: **«الذنب لا يُنْسَى، والبِرُّ لا يَبْلَى، والدَّيَّان[1] لا يموت، فكن كما شئت، فكما تَدِين تُدَان»**[2]. وقديمًا قيل: كلٌّ يحصُد ما يزرَعُ، ويُجْزى بما يصنع. بل قالوا: زَرْع يومِكَ حَصَادُ غَدِكَ.

**٢ - ومنهم من يمتنعُ من فِعل الطَّاعات، ويُقْدِم على ارتكاب المعاصي:** وهي أخبثُ أحوال المكلَّفين، وشرُّ صفات المتعبِّدين، فهذا يستحق عذابَ اللاهي عن فعْل ما أُمِرَ به من طاعته، وعذابَ المجترئ على ما أقدَم عليه من معاصيه، وقد قَال ابن شُبْرُمة: «عجبت لمن يحتمي من الطيبات مخافَةَ الدَّاء، كيفَ لا يحتمي من المعاصي مخافةَ النار»؟ فأخَذَ ذلك بعضُ الشعراء، فقال:

**جِسْمُكَ قَدْ أفنيتَه بالحِمَى ... دهرًا من البارد والحار**
**وكان أولى بكَ أن تحتمي ... مِنَ المعاصي حَذَرَ النَّار**

وقال ابن ضُبَارَة: «إنا نظرنا فوجدنا الصَّبْرَ على طاعة الله تعالى أهونَ من الصَّبْر على عذاب الله تعالى». وقال آخر: «اصبِرُوا عبادَ الله عَلَى عَمَلٍ لا غِنَى بكم عن ثوابه، واصبِرُوا عن عَمَلٍ لا صبْرَ لكم على عقابه». وقيل للفُضَيل بن عياض: رضي الله عنك. فقال: «كيف يرضَى عنِّي ولم أُرْضِه».

---

(١) الديان: أي المحاسب، وهو الله تعالى.
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٧٩).

**٣ ـ ومنهم من يستجيب إلى فعل الطاعات، ويُقْدِمُ على ارتكاب المعاصي:** فهذا يستحقُّ عذابَ المجترئ؛ لأنَّه تورَّط بغلبة الشهوة على الإقدام على المعصية، وإن سلم من التقصير في فعل الطاعة. وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**أقلِعُوا عن المعاصي قبل أن يأخُذكُم الله، فيدَعَكُم هتًا بتًا**»[1] ـ الهَتُّ: الكسر، والبَتّ: القطع ـ ولذلك قال بعض العلماء: «أفضلُ الناس من لم تفسِد الشهوةُ دينَه، ولم تُزِل الشبْهَةُ يقينَه».

وقال حمَّاد بن زيد: «عجبْتُ لمن يحتمي من الأطعمة لمضَرَّاتها، كيف لا يحتمي من الذنوب لمَعرَّاتها»؟! وقال بعضُ الصلحاء: «أهلُ الذُّنوب مرضَى القلوب». وقيل للفُضَيل بن عياض ـ رحمه الله ـ: ما أعجبُ الأشياء؟ فقال: «قلبٌ عَرَفَ الله عزَّ وجلَّ ثمَّ عصاه». وقال بعضُ الألبَّاء: «يُدلُّ بالطاعة العاصي، وينسى عظَم المعاصي». وقال رجلٌ لابن عبَّاس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ: أيُّهما أَحبُّ إليك: رجلٌ قليلُ الذنوب قليلُ العَمَل، أو رَجُلٌ كثيرُ الذنوبِ كثيرُ العمل؟ فقال ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ: «لا أعدِلُ بالسَّلامَة شيئًا».

وقيل لبعض الزُّهَّاد: ما تقولُ في صلاة الليل؟ فقال: «خف الله بالنهار، ونَمْ بالليل». وسمع بعضُ الزُّهَّاد رجلاً يقول لقوم: أهلككُم النَّوَمُ. فقال: «بل أهلكتكم اليقظة». وقيل لأبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ: ما التقوى؟ فقال: أجُزْتَ في أرض فيها شَوك؟ فقال: نعم، فقال: كيف كنتَ تصنع؟ فقال: كنْتُ أتوقَّى، قال: فتوقَّ الخطايا. وقال عبد الله بن المبارك:

| | |
|---|---|
| أيضمَنُ لي فتىً تَرْكَ المعاصي | وأرْهَنُهُ الكفالَةَ بالخلاصِ |
| أطاعَ اللهَ قومٌ فاسْتَراحُوا | ولم يتجرَّعُوا غُصَصَ المعاصي |

**٤ ـ ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات، ويكفُّ عن ارْتِكاب المعاصي:** فهذا يستحقُّ عقابَ اللاهي عن دينه، المنذَر بقلَّة يقينه، روى أبو إدريسَ الخَوْلانيّ، عن أبي ذَرّ الغِفَاريّ ـ رضي الله تعالى عنه ـ، عن النبيّ ﷺ، أنه قال: «**كانت صُحُف**

(١) لم أصل إليه.

موسى ـ عليه السلام ـ كلها عِبَرًا: عجبْتُ لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك، وعجبْتُ لمن أيقن بالقَدَر ثم يتعب، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلُّبَها بأهلها، ثم يطمئن إليها، وعجبت لمن أيقن بالموت ثم يفرح، وعجبت لمن أيقن بالحساب غدًا ثم لا يعمل»[(١)].

ورُوي عن النبيِّ ﷺ، أنه قال: «اجتهدوا في العمل، فإنْ قَصَّرَ بكم ضَعْفٌ فكُفُّوا عن المعاصي». وهذا واضح المعنى؛ لأنَّ الكفَّ عن المعاصي تَرْكٌ، وهو أسهلُ، وعَمَلُ الطَّاعات فعلٌ، وهو أثقَلُ؛ ولذلك لم يُبِحْ الله تعالى ارتكابَ المعصية بعذْر، ولا بغير عذَر؛ لأنَّه تَرْكٌ، والتَّرْكُ لا يعجز المعذور عنه، وإنما أباح تَرْكَ الأعمالَ بالأعذار؛ لأنَّ العَمَل قد يَعجَز المعذور عنه.

وقال بكر بن عبد الله: «رحم الله امرءًا كان قويًا فأعمَلَ قوَّته في طاعة الله تعالى، أو كان ضعيفًا فكفَّ عن معصية الله تعالى».

وقال عبد الأعلى بن عبد الله الشاميّ ـ رحمه الله تعالى ـ:

العُمْرُ ينقصُ والذُّنُوبُ تَزِيدُ ... وتُقالُ عثراتُ الفتى فيَعُودُ
هل يستطيعُ جحودَ ذَنْبٍ واحدٍ ... رجُلٌ جوارحُه عليه شُهودُ
والمَرْءُ يُسألُ عن سِنِيه فيشتهي ... تقليلَها وعن المماتِ يَحِيدُ

واعلَم: أنَّ لأعمال الطَّاعات ومجانبةِ المعاصي آفتين: إحداهما تكسِبُ الوِزْر، والأخرى توهن الأجر.

فأما المكسبة للوِزْر: فالإعجابُ بما أسْلَف من عمله وقدَّم من طاعته؛ لأنَّ الإعجابَ به يفضي إلى حالتين مذمومتين:

إحداهما ـ أن المُعْجَب بعمله مُمتنٌّ به، والممتنُّ على الله تعالى جاحدٌ لنعمه.

قال ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ: أوحى الله تعالى إلى نبيٍّ من أنبيائه: أمَّا زهدُكَ في الدنيا، فقد استعجلتَ به الراحة؛ وأما انقطاعُكَ إليَّ فهو عزٌّ لك؛ فهذان لك، وبقيت أنا.

والثانية ـ أنَّ المعجَبَ بعمله مُدلٌّ به، والمُدلُّ بعمله مجترئٌ، والمجترئ على الله عاصٍ. وقال مورِّق العجليّ: «خيرٌ من العُجْب بالطاعة، ألا تأتي

(١) أورده المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ١٣١).

بطاعة». وقال بعضُ السلف: «ضاحكٌ معترفٌ بذنبه خيرٌ من باكٍ مدلٍّ على ربِّه، وباكٍ نادمٌ على ذنْبه خيرٌ من ضاحكٍ مغتر بلهوه».

**وأمَّا الموهِنَةُ للأجر:** فالثِّقة بما أسلَفَ، والرّكونُ إلى ما قدَّم؛ لأنَّ الثِّقَة تؤول إلى أمرين سيئين:

**أحدهما** - يحدث اتكالاً على ما مضَى، وتقصيرًا فيما يستقبل، ومن قصَّر واتَّكل لم يرجُ أجرًا، ولم يؤدِّ شكرًا.

**والثاني** - أنَّ الواثق آمن، والآمن من الله تعالى غير خائف، ومن لم يَخَف الله تعالى هانَتْ عليه أوامره، وسهُلَتْ عليه زواجره. وقد قال الفُضيل بنُ عياض: «رَهْبَةُ المَرْء من الله تعالى على قَدْرِ علْمه بالله تعالى». وقال مؤرّق العجليّ: «لأنْ أبيتَ نائمًا، وأصبحَ نادمًا، أحبُّ إليَّ من أن أبيتَ قائمًا، وأصبح ناعمًا». وقال بعض الحكماء: «ما بينَك وبينَ ألاَّ يكونَ فيك خيرٌ إلا أن ترى أنَّ فيك خيرًا».

وقيل لرابعة العدوية - يرحمها الله -: هل عملْت عملاً قَطُّ تَريْن أنَّهُ يُقبَلُ منك؟ قالت: «إن كان شيءٌ فخوفي من أن يُرَدَّ عليَّ عملي».

وقال ابن السَّمّاك - رحمة الله عليه -: «إنا لله فيما مضى ما أعظمَ فيه الخطر! وإنا لله فيما بقى ما أقلّ منه الحذر»!، وحُكي أنَّ بعضَ الزُّهَّاد وقفَ على جمعٍ، فنادى بأعلى صوته: «يا معشر الأغنياء! لكم أقولُ: استكثروا من الحَسَنات؛ فإنَّ ذنوبكم كثيرةٌ، ويا معشَرَ الفقراء! لكم أقولُ: أقِلّوا من الذنوب؛ فإنَّ حسناتكم قليلة».

فينبغي - أحسَنَ الله لك التوفيق - ألاَّ تضيعَ صحَّة جسْمك، وفرَاغَ وقتك، بالتقصير في طاعة ربِّك، والثقة بسالف عملك، فاجعل الاجتهادَ غنيمةَ صحَّتك، والعَمَل فرْصَةَ فراغكَ؛ فليس كل زمان مُسعدَك، ولا ما فاتَ مستدركًا، وللفراغ زَيْغٌ أو نَدمٌ، وللخَلْوة ميلٌ أو أسَفٌ.

وقال عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه -: «الراحة للرجال غَفْلَة، وللنساء غُلْمة»[1]. وقال بُزُرْجُمُهر: «إن يكن الشغلُ مَجْهَدة، فالفراغُ مَفْسدةٌ».

---

(١) شهوة الجماع.

وقال بعض الحكماء: «إياكم والخَلَوات، فإنَّها تفسدُ العقولَ، وتعقدُ المحلول».

وقال بعضُ البلغاء: «لا تمضِ يومَك في غير منفعة، ولا تضعْ مالك في غير صنيعة، فالعمرُ أقصرُ من أن ينفَدَ في غير المنافع، والمال أقلُّ من أن يُصْرَفَ في غير الصنائع، والعاقلُ أجلُّ من أن يفنيَ أيامَه فيما لا يعود عليه نفعُه وخيرُه، وينفق أموالَه فيما لا يحصلُ له ثوابُه وأجره».

وأبلَغُ من ذلك قولُ عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ: «البِرُّ ثلاثة: المنطقُ والنَّظَر والصَّمْتُ؛ فمن كان منطقُه في غير ذكرٍ فقد لَغَا، ومن كان نظرُه في غير اعتبار فقد سها، ومن كان صمتُه في غير فكرٍ فقد لَها».

واعلَمْ أنَّ للإنسان فيما كُلِّف من عباداته ثلاثة أحوال: إحداها ـ أن يستوفيها من غير تقصير فيها، ولا زيادة عليها. والثانية ـ أن يقصِّر فيها. والثالثة ـ أن يزيدَ عليها.

**فأمَّا الحال الأولى** ـ فهي أن يأتي بها على حال الكمال من غير تقصيرٍ فيها، ولا زيادة تطوُّع على راتبتها، فهي أوسَطُ الأحوال وأعدلُها؛ لأنه لم يكن منه تقصيرٌ فيذَمَّ، ولا تكثيرٌ فيعجزَ. وقد روَى سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ: أن النبي ﷺ قال: **«سدِّدوا، وقاربُوا، وأبشِرُوا، واستَعِينُوا بالغُدْوَةِ والرَّوْحة وشيء من الدُّلْجَة»**[1].

وقال الشاعر:

**عليكَ بأوسَاطِ الأمورِ فإنَّها ... نَجاةٌ ولا تركَبْ ذَلولاً ولا صَعْبَا**

**وأما الحال الثانية**: وهو أن يقصِّر فيها، فلا يخلُو حالُ تقصيره من أربعة أحوال:

**إحداها** ـ أن يكون تقصيره لعذرٍ أعجزَه عنه، أو مرضٍ أضعَفه عن أداء ما كُلِّف به، فهذا حكم يَخرج عن حكم المقصِّرين، ويلحَقُ بأحوال العاملين، لاستقرار الشرْع على سقوط ما دخل تحت العجز. وقد جاء الحديث عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«ما من عاملٍ كان يعمَلُ عملاً فيقطعه عنه مرضٌ، إلاَّ وكَّل الله به من يكتُبُ له ثوابَ عَمَلِه»**[2].

---

(١) أصله في البخاري (٢٠٩٨)، ومسلم (٢٨١٨).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٩١)، وقال: صحيح على شرط البخاري، عن أبي موسى الأشعري.

**والحال الثانية** ـ أن يكون تقصيرُه فيه اغترارًا بالمسامحة فيه، ورجاء العفو عنه، فهذا مخدوعُ العَقْلِ، مغرورٌ بالجهل، فقد جعل الظنَّ ذُخْرًا، والرَّجاء عُدَّةً، فهو كمَنْ قطع سفرًا بعيدًا بغير زاد، ظنًا بأنه سيجده في المفاوز الجدبة، فيفضي به الظنُّ إلى الهَلَكة، وهلاَّ كان الحذَرُ أغلبَ عليه، وقد ندب الله تعالى إليه.

حُكي أن إسرائيل بن محمد القاضي، قال: لقيني مجنون كان يكون في الخربات، فقال: «يا إسرائيل، خَفِ الله خوفًا يشغلُك عن الرَّجاء؛ فإنَّ الرَّجاء يشغَلُك عن الخوف، وفرَّ إلى الله تَعالى، ولا تَفرَّ منه». وقيل لمحمد بن واسع ـ رحمه الله ـ: ألا تبكي؟ فقال: تلك حِليةُ الآمنين.

وحُكي أن أبا حازم الأعرج أخبر سليمان بنَ عبد الملك بوَعيد الله للمذنبين، فقال سليمان: فأين رحمة الله؟ قال: قريبٌ من المحسنين.

وقال عبد الله بن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ: «ما انتفعْتُ ولا اتعظْتُ بعدَ رسول الله ﷺ بمثل كتابٍ كتبَه إليّ عليّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه:

أما بعدُ، فإنَّ الإنسان يسرُّه دَرْكُ ما لم يكن ليفوتَه، ويسوؤه فَوْتُ ما لم يكن ليدركَه، فلا تكن بما نلتَهُ من دنياك فرِحًا، ولا لما فاتَكَ منها تَرِحًا، ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عملٍ، ويؤخِّرُ التَّوبةَ بطول أملٍ، وكأن قد[1]. والسلام».

وقال محمود الوراق:

| | |
|---|---|
| أخافُ علَى المحسِنِ المتَّقي | وأرجو لذي الهَفَواتِ المُسِي |
| فذلك خوفي على مُحْسِنٍ | فكيفَ على الظالم المعتدي؟ |
| على أنَّ ذا الزيغ قد يستفيق | ويستأنفُ الزَّيغُ قَلْبَ التَّقي |

**والحال الثالثة** ـ أن يكون تقصيرُه فيه، ليستوفي[2] ما أخل به من بعد، فيبدأ بالسيئة في التقصير قبلَ الحسنة في الاستيفاء، اغترارًا بالأمل في إمهاله، ورجاء لتلافي ما أسلَفَ من تقصيره وإخلاله، فلا ينتهي به الأملُ إلى غايةٍ، ولا يُفْضِي

---

(١) أي: وكأنك قد اتعظت بما وعظتك به.

(٢) اللام هنا لبيان العاقبة لا للتعليل، فهذا قد قصَّر في البداية آملاً أن يحسن في النهاية اغترارًا بطول الأمل.

به إلى نهـاية؛ لأنَّ الأملَ هو في ثاني حال، كـهو في أوَّل حـالٍ. وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قـال: «**من يُؤَمِّل أن يعـيشَ غـداً؛ فـإنَّه يؤمِّل أن يعـيشَ أبداً**»[1].

ولَعمْري، إن هذا صـحيحٌ؛ لأنَّ لكل يوم غداً، فإذَنْ يُفـضي به الأمل إلى الفَوْت من غير دَرْك، ويؤديه الـرَّجاء إلى الإهمال من غير تَلاف، فـيصير الأملُ خـيبةً، والرجاء إياسًا. وقـد رَوَى عمرو بن شعيب عن أبـيه، عن جدِّه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**أوَّلُ صلاحِ هذه الأمة باليقين والزُّهد، وفسادها بالبخل والأمل**»[2].

وقال الحسَنُ البصريّ ـ رحمـه الله ـ: «ما أطالَ عبدٌ الأمَلَ، إلاَّ ساءَ العمَل». وقال رجلٌ لبعض الزُّهاد بالبـصرة: ألك حاجة ببغـداد؟ قال: «ما أحبُّ أن أبسطَ أملي إلى أن تذهب إلى بغداد وتجيء». وقال بعضُ الحكماء: «الجاهلُ يعتمدُ على أمله، والعاقل يعتمد على عملـه». وقال بعضُ البلغاء: «الأمَلُ كالسَّراب، غُرَّ من رآه، وخاب من رجاه».

وقال محمد بن يَزْدَاد: دخلْتُ على المأمون، وكنت يومئذ وزيره، فرأيته قائمًا وبيده رقعة، فقـال: يا محمد، أقرأتَ ما فيهـا؟ فقلت: هي في يد أمير المؤمنين، قال: فرمى بها إليّ، فإذا فيها مكتوبٌ:

**إنَّك في دارٍ لهـــــا مُـــــدَّةٌ ... يُقْـبَلُ فـيـهـا عَـمَلُ العـامِلِ**
**أمَـا تَرَى الموْتَ مـحـيطًا بهـا ... يَقطَعُ فـيـهـا أمَلَ الآمِلِ**
**تَعْـجَلُ بالذنب لما تشتـهي ... وتأمَلُ التـوبةَ من قـابلِ**
**والموتُ يأتي بعـدَ ذا بغـتةً ... مـا ذاك فـعل الحـازم العـاقلِ**

فلما قرأتُها، قال المأمون: هذا من أحكم شعرٍ قرأته.

وقال أبو حازم الأعرج: «نحن لا نريد أن نموت حتَّى نتوب، ونحن لا نتوب حتَّى نموت». وقال بعضُ البلغاء: «الإمهالُ رائدُ الإهمال».

**والحال الرابعة ـ أن يكون تقصيرُه فيه استـثـقالاً للاستيفاء، وزهدًا في التمام، واقتصارًا على ما سَنَح، وقلَّةَ اكتراثٍ فيما بقي؛ فهذا على ثلاثة أضرب:**

---

(١) ذكره في «فيض القدير» (٤/ ٤٣٢)، وقال فيه: «قال الماوردي: ولعمري إنه صحيح».
(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ٤٢٧) (١٠٨٤٤).

أحدها ـ أن يكونَ ما أخلَّ به، وقصَّرَ فيه، غيرَ قادحٍ في فرضٍ، ولا مانعٍ من عبادة، كمن اقتصر في العبادة على فعلِ واجباتها، وعملِ مفترضاتها، وأخلَّ بمسنوناتها وهيئاتها، فهذا مسيء فيما ترك إساءةَ مَن لا يستحقُّ وعيدًا، ولا يستوجبُ عقابًا؛ لأنّ أداء الواجب يسقطُ عنه العقابَ، وإخلالَه بالمسنون يمنَعُ من إكمال الثواب. وقد قال بعض الحكماء: «مَن تهاونَ بالدِّين هان، ومَن غالب الحقَّ لان». وقال الشاعر:

ويصونُ تَوْبَتَه ويتركُ غيرَ ذلك لا يَصونُهْ
وأحَقُّ ما صَانَ الفَتَى ورَعَى أمانتُهُ ودينُهْ

والضرب الثاني ـ أن يكون ما أخلَّ به من مفروض عباداته، لكن لا يقدَحُ تَرْكُ ما بقي فيما مضى، كمن أكمل عبادة، وأخلَّ بغيرها، فهذا أسوأ حالاً ممن تقدَّمه، لما استحقَّه من الوعيد، واستوجَبَه من العقاب.

والضرب الثالث ـ أن يكون ما أخلَّ به من مفروض عباداته، وهو قادحٌ فيما عمل منها، كالعبادة التي يرتبط بعضُها ببعض، فيكون المقصِّر في بعضها تاركًا لجميعها، فلا يحتسب له ما عمل؛ لإخلاله بما بقي، فهذا أسوأ أحوال المقصِّرين، وحالُه لاحقةٌ بأحوال التاركين، بل قد تكلَّف ما لا يُسقط فرضًا، ولا يؤدي حقًا، فقد ساوَى التاركين في استحقاق الوعيد، وزاد عليهم في تكلُّف ما لا يفيدُ، فصار من الأخسرين أعمالاً الذينَ ضَلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ثمَّ لعلَّه لا يفطُن لشأنه، ولا يشعر بخسرانه، وقد خسرَ الدنيا والآخرة، ويفطُن لليسير من ماله إن وَهَى واختلّ. وأنشدني بعضُ أهل العلم:

أبنيَّ إنَّ مِنَ الرِّجالِ بَهيمةً في صورةِ الرَّجُلِ السَّميعِ المبصِرِ
فَطِنٌ بكُلِّ مُصيبةٍ في مالِهِ فإذا أُصيبَ بدينِهِ لم يشعُرِ

وأما الحال الثالثة ـ وهو أن يزيدَ فيما كُلِّفَ، فهذا على ثلاثة أقسام:

أحدها ـ أن تكونَ الزِّيادة رياءً للناظرين، وتصنُّعًا للمخلوقين، حتى يستعطف به القلوبَ النافرةَ، ويخدَعَ به العقولَ الواهيةَ، فيتَبهرج بالصُّلَحاء وليس منهم، ويتدلَّس في الأخيار وهو ضدُّهم؛ وقد ضرب رسول الله ﷺ للمرائي بعمله

مثلاً، فقال: «**المتشبِّع بما لا يملكُ كلابس ثوْبي زُور**»[1]، يريدُ بالمتشبِّع بما لا يملك: المتزيِّنَ بما ليس فيه؛ وقوله: كلابس ثوبَي زُور: هو الذي يلبَسُ ثيابَ الصُّلحاء، ويفعل أفعال الطُّلَحَاء، فهو بريائه محرومُ الأجر، مذمومُ الذِّكر؛ لأنَّه لم يقصدْ به وجهَ الله تعالى، فيؤجَرَ عليه، ولا يخفَى رياؤه على الناس فيحمَدَ به. قال الله تعالى: ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ (الكهف: ١١٠). قال جميعُ أهلِ التأويل: معنى قوله: ﴿ **وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾: أي لا يرائي بعمَله أحدًا، فجعل الرِّياء شركًا؛ لأنَّه جَعَلَ ما يُقْصَدُ به وَجْهُ الله تعالى، مقصودًا به غير الله تعالى.

وقال الحسن البصريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ، في قوله تعالى: ﴿ **وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا** ﴾ (الإسراء: ١١٠). قال: لا تجهرْ بها رياءً، ولا تخافتْ بها حَيَاءً.

وكان سفيان بن عُيَيْنة ـ رحمه الله ـ يتأوَّل قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ** ﴾ (النحل: ٩٠). أنَّ العَدْلَ استواءُ السَّريرة والعلانية في العمل لله تعالى؛ والإحسان: أن تكونَ سريرتُه أحسنَ من علانيته؛ والفحشاء والمنكر: أن تكونَ علانيتُه أحسنَ من سريرته.

وكان غيرُه يقول: «العدلُ: شهادةُ أن لا إله إلا الله، والإحسان: الصَّبْر على أمره ونهيه، وطاعةُ الله في سرِّه وجهره؛ وإيتاء ذي القُرْبَى: صلة الأرحام، ويَنْهَى عن الفحشاء: يعني الزِّنا؛ والمُنْكَر: القبائح؛ والبَغْي: الكِبْر والظلْم». وليس يخرج الرِّياءُ بالأعمال من هذا التأويل أيضًا؛ لأنَّه من جملة القَبائح.

وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**أَخْوَفُ ما أَخَافُ على أمتي الرِّياءُ الظَّاهِرُ، والشهوةُ الخفيَّةُ**»[2]. ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**أشدُّ النَّاس عذابًا يوْمَ القيامة، من يَرَى أنَّ فيه خيرًا ولا خَيْرَ فيه**»[3]. وقال عليُّ بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ: «لا تعْمَل شيئًا من الخير رياءً، ولا تتركْه حياءً». وقال بعضُ العلماء: «كُلُّ حسنةٍ لم يُرَدْ بها وجهُ الله تعالى، فعلَّتها قُبْحُ الرِّياء، وثمرتُها سُوء الجَزَاء.

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٢٩) عن عائشة، (٢١٣٠) عن أسماء بنت أبي بكر.
(٢، ٣) لم أصل إليه

وقد يُفضي الرِّياءُ بصاحبه إلى استهزاء الناس به، كما حُكي أنَّ طاهر بن الحسين قال لأبي عبد الله المَرْوَزيّ: منذ كم صِرْتَ إلى العراق يا أبا عبد الله؟ قال: دخلْتُ العراق منذ عشرين سنة، وأنا منذ ثلاثين سنة صائم. فقال: يا أبا عبد الله، سألتك عن مسألة، فأجبْتَ عن مسألتين! وحكى الأصمعيُّ: أنَّ أعرابيًا صلَّى فأطال، وإلى جانبه قَومٌ، فقالوا: ما أحسَنَ صَلاتَكَ! فقال: وأنا مع ذلك صائم، فقال أعرابيٌّ كان فيهم:

صلَّى فأعجبني، وصَامَ فرابني ... نَحِّ القَلُوصَ عن المصلِّي الصائم[1]

فانظر إلى هذا الرِّياء مع قبحه، ما أدلَّه على سخفِ عَقْل صاحبه.

وربَّما ساعد النَّاس لظهور ريائه، على الاستهزاء بنفسه، كالذي حُكي أن زاهدًا نظر إلى رجل في وجهه سَجَّادة[2] كبيرة، واقفًا على باب السلطان، فقال: مثل هذا الدرهم بين عينيك وأنتَ واقف هاهنا! فقال: إنَّه ضَرْبٌ على غير السكَّة. وهذا من أجوبة الخلاعة، التي يُدْفع بها تهجين المَذَمَّة. ولقد استحسن الناس من الأشعث بن قيس قولَه ـ وقد خَفَّف صلاته مرة ـ فقال له بعضُ أهل المسجد: خَفَّفتَ صلاتَك جدًا؟ فقال: إنه لم يخالطها رياء. فخلَصَ من تنقُّصهم، وسلم من تعنُّتهم، فنفى الرِّياء عن نفسه، ورَفَعَ التصنُّع في صلاته، وقد كان الإنكارُ لولا ذلك متوجِّهًا عليه، واللومُ لاحقًا به.

ومرَّ أبو أمامة ببعض المساجد، فإذا رجلٌ يصلِّي وهو يبكي، فقال له: أنتَ أنتَ لو كان هذا في بيتك؛ فلم يرَ ذلك منه حسنًا، لأنه اتَّهمه بالرِّياء، ولعلَّه كان بريئًا منه، فكيف بمن صار الرِّياءُ أغلَبَ صفاته، وأشهرَ سماته، مع أنه آثمٌ فيما عملَ وأَثَمٌ من هُبوب النسيم بما حَمَل؛ ولذلك قال عبد الله بن المبارك: «أفضلُ الزّهْد إخفاءُ الزُّهْد». وربما أحسَّ ذو الفضل من نفسه ميلاً إلى المراءاة، فبعثه الفَضْلُ على هَتْكِ ما نازعته النفس من المراءاة به، فكان ذلك أبلغَ في فضله.

---

(١) فرابني: من الريب وهو الشك، القلوص: هي الناقة الشابة.

(٢) سجادة: أثر السجود.

كالذي حُكِي عن عمرَ بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ، أنه أحسَّ على المنبر بريح خرجت منه، فقال: أيُّها الناس، إني قد مُيِّلْتُ بين أن أخافكم في الله تعالى، وبين أن أخافَ الله فيكم، فكان أن أخافَ الله تعالى فيكم أحبَّ إليَّ، ألا وإنِّي قد فَسَوْتُ وها أنا ذا نازل لأعيدَ الوضوءَ، فكان ذلك منه زَجْرًا لنفسه، لتكفَّ عن نزاعها إلى مثله. وقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظي: عِظْني. فقال: «لا أرضَى نفسي لك واعظًا؛ لأني أجلس بين الفقير والغني، فأميل على الفقير، وأوسعُ للغنيِّ، ولأنَّ طاعة الله تعالى في العملِ لوجهه لا لغيره».

وحُكِي أنَّ قومًا أرادوا سفرًا، فحادوا عن الطريق فانتهوا إلى راهب، فقالوا: قد ضَلَلنا، فكيفَ الطريقُ؟ فقال: هاهنا، وأومأ بيده إلى السماء.

**والقسم الثاني** ـ أن يفعل الزيادة اقتداءً بغيره، وهذا قد تُثَمِّره مجالسةُ الأخيار الأفاضل، وتحدثه مكاثرة الأتقياء الأماثل. ولذلك قال النبي ﷺ: «**المرءُ على دِين خليله، فلينْظُرْ أحدُكُم من يُخالِل**»[1]، فإذا كاثَرَهم المجالس، وطاولَهم المؤانس، أحبَّ أن يقتديَ بهم في أفعالهم، ويتأسَّى بهم في أعمالهم، ولا يرضَى لنفسه أن يقصِّر عنهم، ولا أن يكونَ في الخير دونهم، فتبعثه المنافسة على مساواتهم، وربَّما دعتْه الحَميَّة إلى الزِّيادة عليهم، والمكاثرة لهم، فيصيرون سببًا لسعادته، وباعثًا على استزادته، والعربُ تقولُ: «لولا الوِئام لهلَكَ الأنام»، أي لولا أنَّ الناس يَرَى بعضُهم بعضًا، فيُقتَدى بهم في الخير، لهلكوا. ولذلك قال بعضُ البلغاء: «من خير الاختيار صحبةُ الأخيار، ومن شرِّ الاختيار مودَّة الأشرار»، وهذا صحيح؛ لأنَّ للمصاحبة تأثيرًا في اكتساب الأخلاق، فتصلُح أخلاقُ المرء بمصاحبة أهل الصلاح، وتفسدُ بمصاحبة أهل الفساد. ولذلك قال الشاعر:

**رأيتُ صَلاحَ المَرْءِ يُصْلِحُ أهلَهُ ... ويُعْدِيهم داءُ الفسادِ إذا فَسَدْ**
**يُعَظَّم في الدنيا بفضْلِ صلاحِه ... ويُحْفَظُ بعدَ الموتِ في الأهْلِ والولَدْ**

وأنشدني بعضُ أهل الأدب، لأبي بكر الخوارزميّ:

**لا تصحَبِ الكسلانَ في حالاتِه ... كم صالحٍ بفسادِ آخَرَ يَفْسُدُ**

(1) «المستدرك» (٧٣١٩).

**عَدْوَى البَلِيدِ إلى الجليدِ سريعةٌ والجمرُ يُوضَعُ في الرَّمادِ فيَخْمُدُ**

**والقسم الثالث** ـ أن يفعل الزِّيادة ابتداءً من نفسه، التماسًا لثوابها، ورغبةً في الزُّلْفة بها، فهذا من نتائج النفس الزاكية، ودواعي الرَّغبة الوافية، الدالّين على خلوص الدِّين، وصحّة اليقين، وذلك أفضلُ أحوالِ العاملين، وأعلَى منازلِ العابدين، وقد قيل: «الناس في الخير أربعة: منهم من يفعله ابتداءً، ومنهم من يفعله اقتداءً، ومنهم من يتركه استحسانًا، ومنهم من يتركه حرمانًا، فمن فعلَه ابتداءً فهو كريمٌ، ومن فعلَه اقتداءً فهو حكيم، ومَنْ تركه استحسانًا فهو رديء، ومن تركه حرمانًا فهو شقيّ». ثم لما يفعله من الزيادة حالتان:

**إحداهما** ـ أن يكون مقتصدًا فيها، وقادرًا على الدَّوام عليها، فهي أفضلُ الحالتين، وأعلَى المنزلتين، عليها انقرض أخيار السَّلف، وتَتَبعهم فيها فُضَلاءُ الخَلَف، وقد روت عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ: أنَّ النبيَّ ﷺ، قال: **«أيُها الناس! اكْلَفُوا من الأعمال ما تُطيقون؛ فإنَّ الله لا يَمَلُّ من الثواب، حتَّى تملُّوا من العَمَل؛ وخيرُ الأعمال ما ديم عليه»**[1].

والعرب تقول: «القصدَ والدوامَ، وأنتَ السابقُ الجواد»؛ ولأنَّ من كان صحيحَ الرَّغبة في ثواب الله تعالى، لم تكن له مسرَّة إلاَّ في طاعته. وقال **عبد الله** ابن المبارك: قلْتُ لراهب: متى عيدُكم؟ قال: كلُّ يومٍ لا أعصِي الله فيه فهو يومُ عيد؛ انْظر إلى هذا القولِ منه، وإن لم يكن من مقاصدِ الطاعة، ما أبلَغَه في حُبِّ الطاعة، وأحثَّه على بَذْلِ الاستطاعة! وخرج بعضُ الزُّهَّاد في يوم عيدٍ في هيئة رثَّة، فقيل له: أتخرجُ في مثل هذا اليوم في مثل هذه الهيئة، والناسُ متزينون؟ فقال: ما يُتزيَّن لله تعالى بمثل طاعته.

**والحال الثانية** ـ أن يستكثر منها استكثارَ مَن لا ينهَضُ بدوامها، ولا يقدرُ على اتصالها، فهذا ربَّما كان بالمقصِّر أشبه؛ لأنَّ الاستكثارَ من الزيادة: إمَّا أن يمَنَعَ

---

(١) أصله في البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٥) من حديث عائشة، وأخرجه الحميدي في «مسنده» (١٨٣).

من أداء اللازم، فلا يكون إلاَّ تقصيرًا؛ لأنه تطوَّعَ بزيادة أحدثتْ نقصًا، وبنَفْلٍ منَعَ فرضًا؛ وإمَّا أن يعجزَ عن استدامـة الزِّيادة، ويُمنع من ملازمة الاستكثار؛ من غير إخلال بلازم، ولا تقصير في فرض، فهي إذن قصيرةُ المَدَى، قليلَةُ اللُّبْث؛ ولَقليلُ العَمَلِ في طَويل الزمان، أفـضَلُ عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من كثير العمل فـي قصير الزمان؛ لأن المستكثر من العمل في الزمان القصير، قد يعمل زمانًا، ويَترك زمانًا، فربما صـار في زمان تَرْكـه لاهيًا أو ساهيًـا؛ والمقلِّل في الزمان الطويل مـستـيقظُ الأفكار، مستديمُ التَّذْكار. وقد رَوَى أبو صالح، عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إنَّ للإسلام شِرَّةً، وللشِرَّةِ فَتْرةً، فمن سدَّد وقاربَ فارجُوه، ومن أشير إليه بالأصابع فلا تعدُّوه**»[1]. فجعل للإسلام شرَّة، وهي الإيغال في الإكثار، وجعل للشِّرة فَتْـرة، وهي الإهمال بعد الاستكثار، فلم يَخْلُ بما أثبتَ لك من أن تكونَ هذه الزِّيادة تقصيرًا أو إخلالاً، ولا خيرَ في واحدٍ منهما.

**واعلم** ـ جعـل الله العلمَ حاكـمًا لك وعليك، والحقَّ قـائدًا لك وإليك ـ أنَّ الدنيا إذا وَصَلت فـتبعاتٌ مُوبِـقة، وإذا فارقت فَفَجَـعات مُحْرِقـة، وليس لوصلها دوامٌ، ولا من فراقها بدٌّ، فَرُضْ[2] نفسك على قَطيعتها؛ لتسلَمَ من تَبعاتها، وعلى فراقها؛ لتأمَنَ فَجَعَاتها؛ فقـد قيل: المرء مقترضٌ من عمره المنقرض، مع أنَّ العمر وإن طال قصيرٌ، والفراغَ وإن تمَّ يسير. وأُنشِدت لعليِّ بن محمد:

**إذا كَـمَلَتْ للمـرء سـتـونَ حـجَّـةً ... فلم يحظَ من سـتينَ إلا بسُـدْسـهـا**
**ألـم تَرَ أنَّ النِّصفَ بالليل حـاصلٌ ... وتذهَـبُ أوقـاتُ المَقـيل بخُـمـسـهـا**
**فـتـأخـذُ أوقـاتُ الهُـمـوم بحـصَّـةٍ ... وأوقـاتُ أوجـاعٍ تُمـيتُ بمسّـهـا**
**فحـاصِلُ مـا يبـقى له سُدْس عُـمره ... إذا صَدَقَته النفس عن علم حَدْسها**

ورياضة نفـسكَ لذلك تترتَّـبُ على أحوالٍ ثلاثة، وكُلُّ حـالٍ منها تتـشعَّب، وهي لتسهيل ما يلَيها سبَب:

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٢٤٥٣)، وحسنه الألباني، وانظر «الصحيحة» (٢٨٥٠).

(٢) أي روِّض نفسك وعوِّدها.

**فالحال الأولى** ـ أن تصرفَ حُبَّ الدنيا عن قلبك، فإنَّها تُلْهيك عن آخرتك، ولا تجعل سعيك لها، فتمنعك حظَّك منها، وتَوَقَّ الركون إليها، ولا تكن آمنًا لها، فقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«من أُشرب قلبُه حُبَّ الدُّنيا، وركَن إليها، التاطَ**[1] **منها بشغلٍ لا يفرُغ عناه**[2] **، وأملٍ لا يبلُغ مُنتهاه، وحرصٍ لا يُدرك مَداه»**[3] .

وقال عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ: «الدُّنيا لإبليسَ مَزْرَعَةٌ، وأهلُها له حُرَّاثٌ».

وقال عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ: «مَثَلُ الدنيا مَثَلُ الحيَّة: لَيِّنٌ مَسُّها، قاتلٌ سُمُّها؛ فأعرضْ عمَّا أعجبَك منها؛ لقلة ما يَصحبُك منها، وضَعْ عنكَ همومَها؛ لما أيقنْتَ من فراقها، وكُنْ أحْذَرَ ما تكونُ لها، وأنت آنَسُ ما تكون بها؛ فإنَّ صاحبها كلَّما اطمأنَّ منها إلى سرورٍ، أشخصَهُ عنها مكروه، فإنْ سكَنَ منها إلى إيناسٍ، أزالَه عنها إيحاشٌ».

وقال بعضُ البُلغاء: «إنَّ الدنيا لا تصفو لشارب، ولا تبقى لصاحب، ولا تخلو من فتنة، ولا تُخْلي من محنة، فأعرض عنها قبلَ أن تُعرضَ عنك، واستبدلْ بها قبلَ أن تَستبدلَ بك؛ فإنَّ نعيمَها يتنقل، وأحوالَها تتبدَّل، ولذَّاتها تفنَى، وتَبِعاتها تبقَى». وقال بعضُ الحكماء: «انظر إلى الدنيا نظرَ الزَّاهد المفارقَ لها، ولا تتأمَّلْها تأمُّلَ العاشق الوامق[4] بها». وقال بعضُ الشعراء:

| | |
|---|---|
| ألا إنَّما الدُّنيا كأحلام نائم | وما خيرُ عيشٍ لا يكونُ بدائم |
| تأمَّلْ إذا ما نِلْتَ بالأمْسِ لَذَّةً | فأفنيتَها هَلْ أنْتَ إلاَّ كحالمِ |
| فكم غافلٍ عنهُ وليس بغافلٍ | وكم نائم عنهُ وليس بنائم |

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«من هَوان الدنيا على الله تعالى ألا يُعصى إلاَّ فيها، ولا يُنال ما عندَه إلاَّ بتركها»**[5] .

---

(١) التاط: التصق به. (٢) عناه: مشقته.

(٣) ضعيف: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٦٢) عن الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي عبد الرحمن السلمي عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ. وأورده المنذري في «الترغيب» وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (١٨٨٢).

(٤) الوامق: المحب.

(٥) لم أصل إليه.

وروى سفيان: أنَّ الخضرَ - عليه السلام - قال لموسى - عليه السلام -: «يا موسى، أعرِضْ عن الدُّنيا وانبذْها وراءَكَ؛ فإنَّها ليست لك بدارٍ، ولا فيها محلُّ قرارٍ، وإنَّما جُعِلَت الدُّنيا للعُبَّادِ؛ ليتزوَّدوا منها للمعاد».

وقال عيسى ابن مريم - عليه السلام -: «الدنيا قنطرة، فاعْبُرُوها ولا تَعمُرُوها».

وقال عليٌّ - كرَّم الله وجهه - يصفُ الدنيا: «أوَّلُها عَناءٌ، وآخرُها فَناءٌ؛ حلالُها حسابٌ، وحرَامها عقابٌ؛ مَنْ صَحَّ فيها أمِنَ، ومَن مَرِضَ فيها نَدِمَ، ومَن استَغْنَى فيها فُتِنَ، ومن افتقر فيها حَزِنَ، ومن سَاعَاها[1] فاتته، ومن قَعَدَ عنها أتته، ومن نَظَرَ إليها أعمَتْه، ومَنْ نَظَرَ بها[2] بَصَّرته».

وقال بعضُ البلغاء: إنَّ الدنيا تُقْبِلُ إقبالَ الطالب، وتُدْبِرُ إدبارَ الهارب، وتَصِلُ وصالَ المَلُول، وتُفارِقُ فراقَ العَجُول؛ فخيرُها يسيرٌ، وعيشُها قصيرٌ، وإقبالُها خديعة، وإدبارُها فجيعَة، ولذَّاتها فانيةٌ، وتَبِعاتها باقيةٌ، فاغتنِمْ غَفْوة الزمان، وانتهز فُرْصة الإمكان، وخُذْ من نفسك لنفسك، وتزوَّدْ من يومك لغدك».

وقال وَهْب بن منبِّه: «مَثَلُ الدُّنيا والآخرة مَثَل ضرَّتين: إن أرضيْتَ إحداهما أسخطتَ الأخرى». وقال عبد الحميد: «الدُّنيا منازِل؛ فراحلٌ ونازلٌ».

وقال بعضُ الحكماء: «الدنيا إمَّا نقْمة نازلة، وإمَّا نعمة زائلة». وقيل في منثور الحِكَم: «مِنَ الدنيا على الدنيا دليل». وقال الشاعر:

تمتَّعْ من الأيَّام إنْ كنْتَ حازمًا ... فإنَّك منها بَيْنَ ناهٍ وآمرِ
إذا أبْقَت الدُّنيا على المرءِ دينَهُ ... فما فاتَه منها فليس بضائرِ
فلن تعدلَ الدُّنيا جَناحَ بَعُوضةٍ ... ولا وزْنَ ذَرٍّ من جَناحٍ لطائرِ
فما رضِيَ الدنيا ثوابًا لمؤمنٍ ... ولا رضِيَ الدنيا جزاءً لكافرِ

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**الدُّنيا يومان: يومُ فَرَحٍ، ويومُ همٍّ، وكلاهما زائلٌ عنك، فدعوا ما يزُولُ، وأتعِبوا أنفسَكم في العمل لما لا يزول**»[3].

---

(1) سعى إليها.

(2) اعتبر بمن سبقه فيها. (3) لم أصل إليه.

وقال عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ: «لا تُنازعُوا أهْلَ الدنيا في دنياهم، فيُنازعوكم في دينكم؛ فلا دُنياهم أصبتُمْ، ولا دينكم أبقيتم».

وقال عليّ بن أبي طالب: «لا تكُنْ ممَّن يقول في الدنيا بقول الزَّاهدين، ويعمَلُ فيها عَمَلَ الرَّاغبين، فإن أُعطي منها لم يشبَعْ، وإن مُنِعَ منها لم يقنَعْ، يعجزُ عن شُكْرِ ما أُوتي، ويبتغي الزِّيادة فيما بقي، وينهَى النَّاس ولا ينتهي، ويأمُرُ بما لا يأتي، يحبُّ الصالحين ولا يعمَلُ بعملهم، ويُبغضُ الطالحين وهو منهم».

وقال الحسن البصريّ: «الدنيا كلُّها غَمٌّ، فما كان منها من سرورٍ فهو رِبْحٌ».
وقال بعضُ البلغاء: «إن الدُّنيا كثيرةُ التَّغيير، سَريعةُ التنكير، شديدةُ المَكْر، دائمةُ الغدْر؛ فاقْطَع أسبابَ الأهواء عن قلبك، واجعَلْ أبعَدَ أمَلكَ بقيَّةَ يومك، وكُنْ كأنَّكَ تَرَى ثوابَ عملك». وقال بعض الحكماء: «الدنيا إمَّا مصيبةٌ مُوجِعةٌ، وإمَّا منيَّة مُفْجِعة». وقال الشاعر:

خَلِّ دُنياكَ إنَّها ... يَعْقُبُ الخَيرَ شَرُّها
هيَ أمٌّ تَعُقُّ مِنْ ... نَسْلِها مَن يَبَرُّها
كلُّ نفْسٍ فإنَّها ... تَبْتَغي ما يسرُّها
والمنايا تسُوقُها ... والأماني تَغُرُّها
فإذا اسْتَحْلَتِ الجَنى ... أعقَبَ الحلوَ مُرُّها[1]
يستوي في ضريحِهِ ... عَبْدُ أرضٍ وحُرُّها

فإذا رُضْتَ نفسَك من هذه الحالة بما وصفت، اعتضْتَ منها بثلاث خلال:
**إحداهنَّ** ـ أن تُكْفَى إشفاقَ المُحبَ، وحَذَرَ الوامِقِ[2]، فليس لمشفِقٍ ثِقةٌ، ولا لحاذرٍ راحةٌ.

**والثانية** ـ أن تأمَنَ الاغترارَ بملاهيها، فتسلَمَ من عاديَة دواهيها؛ فإنَّ اللاهيَ بها مغرورٌ، والمغرورَ فيها مدهورٌ[3].

(١) **الجنى**: ما يقطف من الثمار الناضجة.
(٢) **الوامق**: المحب. (٣) **مدهور**: أصابته نوائب الدهر.

والثالثة ـ أن تستريحَ من تعب السعي لها، ووَصَب الكدِّ فيها؛ فإنَّ من أحَبَّ شيئًا طلبَه، ومَن طلبَ شيئًا كَدَّ له، والمكدودُ فيها شقيٌّ إن ظفرَ، ومحرومٌ إن خابَ. ورُوِي عن النبيّ ﷺ أنه قال لكعب: «يا كَعْبُ، النَّاسُ غاديان، فَمُبْتاعٌ نفسَهُ فَمُعْتِقُها، وبائعٌ نفسَهُ فَمُوبِقُها[1]»[2].

وقال عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ: «تعملُون للدنيا وأنتم تُرْزَقُون فيها بغير عَمَلٍ، ولا تعملون للآخرة، وأنتم لا تُرْزَقُون فيها إلاَّ بعمل». وقال بعضُ البلغاء: «منْ نَكَد الدنيا ألاّ تبقَى على حالة، ولا تخلو من استحالة، تُصْلِح جانبًا بإفساد جَانب، وتسرّ صاحبًا بمَساءَة صاحب؛ فالرّكون إليها خَطَرٌ، والثقة بها غَرَر».

وقال بعض الحكماء: «الدنيا مُرْتَجَعَة الهِبة، والدهْرُ حسودٌ؛ لا يأتي على شيء إلاَّ غيَّره؛ ولمن عاشَ حاجةٌ لا تنقضي».

ولما بلغ مَزْدَك من الدنيا أفضَلَ ما سمَتْ إليه نفسُه نبذَها، وقال: «هذا سرورٌ، لولا أنه غُرور؛ ونعيمٌ لولا أنَّه عديم؛ ومُلْكٌ لولا أنه هُلْك، وغَناء لولا أنه فناء؛ وجسيمٌ لولا أنَّه ذميم؛ ومحمودٌ لولا أنَّه مفقود؛ وغنىً لولا أنَّه مُنىً؛ وارتفاعٌ لولا أنَّه اتضاع؛ وعَلاءٌ لولا أنَّه بلاء؛ وحَسَنٌ لولا أنه حَزَن؛ وهو يوم لو وُثِقَ له بغَد». وقال بعض الحكماء: «قد ملك الدنيا غيرُ واحد؛ من راغب وزاهد، فلا الرَّاغب فيها استبقَتْ، ولا عن الزَّاهد فيها كفَّتْ». وقال أبو العتاهية:

| | |
|---|---|
| هيَ الدَّارُ دارُ الأذى والقَذَى | ودارُ الفَناءِ ودارُ الغِيَرْ |
| فلَوْ نِلْتَها بحذافيرها | لَمُتَّ ولم تقضِ منها الوَطَرْ |
| أيا مَنْ يُؤَمِّلُ طُولَ الخُلودِ | وطُولُ الخلودِ عليه ضَرَرْ |
| إذا ما كَبِرْتَ وبانَ الشَّبابُ | فلا خَيرَ في العيش بعدَ الكِبَرْ |

ورُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «اللهم إنّي أعوذُ بك من علم لا يَنْفَعُ، ونفْسٍ لا تشبَعُ، وقلْبٍ لا يخشَعُ، وعَيْنٍ لا تدمَعُ. هل يتوقَّعُ أحدُكم إلاَّ غِنىً مُطغيًا، أو فقرًا

(١) موبقها: مهلكها.
(٢) صحيح ابن حبان (١٠/ ٣٧٢) (٤٥١٤).

**مُنْسِيًا، أو مَرَضًا مُفْسِدًا؛ أو هَرَمًا مُفْنِدًا، أو الدَّجَّالَ؛ فهو شَرُّ غائبٍ يُنْتَظَر؛ أو الساعةَ، والساعةُ أَدْهَى وأَمَرُّ»**[1].

وحُكِيَ أن الله تعالى أوحى إلى عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ: «أنْ هبْ لي من قلبك الخشوعَ، ومن بَدنِك الخُضُوع، ومن عينكَ الدُّموعَ، وادعُني فإنِّي قريبٌ مجيب». وقال عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ: «أوحى الله تعالى إلى الدنيا: مَنْ خدمَني فاخدُميه، ومن خدَمَك فاستخدميه».

وقال بعض البلغاء: «زدْ من طول أملكَ، في قصير عملك؛ فإنَّ الدنيا ظلُّ الغَمام، وحُلْم النِّيام، فمن عَرَفها ثم طلبها، فقد أخطأ الطريقَ، وحُرِمَ التوفيق».

وقال بعضُ الحكماء: «لا يؤمِنَنَّك إقبالُ الدنيا عليك، من إدبارها عنك، ولا دَوْلةٌ لك، من إدالة منك».

وقال آخر: «ما مضى من الدنيا كأن لم يكن، وما بقيَ منها كما قد مَضَى».

وقيل لزاهد: قد خَلَعْتَ الدنيا، فكيف سَخَتْ نفسُك عنها؟ فقال: «أيقنت أني أخرج منها كارهًا، فرأيت أن أدعَها طائعًا». وقيل لحُرْقةَ بنت النُّعمان: «ما لك تبكين؟ فقالت: «رأيتُ لأهلي غَضَارةً[2]، ولم تمتلئ دارٌ فرحًا، إلاَّ امتلأت تَرَحًا».

وقال ابن السَّمَّاك: «من جرَّعته الدنيا حَلاوتها بميله إليها، جَرَّعته الآخرة مَرَارتها لتجافيه عنها». وقال صاحبُ كليلة ودمنة: «طالبُ الدنيا كشارب ماء البحر، كلَّما ازداد شُرْبًا ازداد عطشًا». وكان عمر بن عبد العزيز يتمثَّل بهذه الأبيات:

| | |
|---|---|
| **نهارُك يا مغرورُ سَهْوٌ وغَفْلةٌ** | **وليلُك نومٌ والأسى لك لازمُ** |
| **تُسَرُّ بما يفنَى وتفرَحُ بالمُنَى** | **كما سُرَّ باللَّذات في النَّوم حالِمُ** |
| **وتُشْغَلُ فيما سوفَ تكرهُ غِبَّهُ** | **كذلك في الدنيا تعيشُ البهائمُ**[3] |

وسمع رجلٌ رجلاً يقول لصاحبه: لا أراك الله مكروهًا! فقال: «كأنَّك دعوت

---

(1) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٣٠٦)، والحاكم (٤/ ٣٥٦) وصححه، وأبو يعلى (٦٥٤٢)، والطبراني في «الأوسط» (٤/ ١٩٢)، وانظر «الضعيفة» للألباني (١٦٦٦).

(٢) عيشًا رغيدًا.

(٣) غبه: أي عاقبته.

على صاحبك بالموت؛ إن صاحبك ما صاحبَ الدنيا[1] فلابد أن يرى مكروهًا».
وقال أبو العتاهية:

إنَّ الزمانَ وإن لانَ ... لأهله لَمُخاشِنُ
خَطواتُه المتحركاتُ ... كأنَّهنَّ سواكِنُ

ثم الحال الثانية ـ من أحوال رياضتك لها ـ أن تصدِّقَ نفسك فيما مَنحتْكَ من رغائبها، وأنالتْكَ من غرائبها، فتعلَمَ أنَّ العطيَّةَ فيها مرتَجعةٌ، والمنحَةَ فيها مستردَّةٌ، بعد أن تُبقيَ عليكَ ما احتقبْتَ[2] من أوزار وصولها إليك، وخسران خروجها عنك؛ فقد رُوِي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا تزول قدما ابن آدم حتى يُسألَ عن ثلاث: شبابِه فيم أبلاه؟ وعُمرِه فيم أفنَاه؟ ومالِه من أين اكتسبَه؟ وفيمَ أنفقَهُ؟»[3].

ورُوي عن عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ، أنه قال: «في المال ثلاثُ خصالٍ. قالوا: وما هُنَّ يا روحَ الله؟ قال: يكسبُه من غير حلِّه. قالوا: فإنْ كَسَبَه من حلِّه؟ قال: يضعه في غير حَقِّه. قالوا: فإنْ وَضعه في حقِّه؟ قال: يشغَلُه عن عبادة ربِّه».

ودخل أبو حازم على بشْر بن مروان فقال: يا أبا حازمٍ؛ ما المَخْرج مما نحن فيه؟ قال: «تنظر ما عندَك، فلا تضعه إلاَّ في حقِّه، وما ليس عندك فلا تأخذْه إلا بحقِّه». قال: «ومَن يطيق هذا يا أبا حازم؟ قال: فمن أجل ذلك مُلئت جهنَّم من الجنَّة والناس أجمعين».

وعَيَّرت اليهودُ عيسى ابن مريم عليه السلام بالفقر، فقال: «مِن الغِنى دُهِيتُم».

ودخل قوم منزلَ عابد، فلم يجدوا شيئًا يقعدون عليه، فقال لهم: «لو كانت الدنيا دارَ مُقام لاتخذنا لهَا أثاثًا». وقيل لبعض الزُّهَّاد: ألا توصي؟ قال: «بماذا أُوصي؟ والله ما لنا شيء، ولا لنا عند أحدٍ شيء، ولا لأحدٍ عندنا شيء».

انظر إلى هذه الراحة كيف تعجَّلها، وإلى السلامة كيف صار إليها؟! ولذلك قيل: «الفقرُ مُلْكٌ ليس فيه منازعة ولا محاسبة». وقيل لعيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ: ألا تتزوَّج؟ فقال: إنَّما نُحب التكاثر في دار البقاء. وقيل له: لو دعوْتَ

(١) أي ما دام مصاحبًا الدنيا. (٢) أي احتملت.
(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٧١٠) عن أبي الدرداء.

الله تعالى أن يرزقكَ حمَارًا؟ فقال: أنا أكرَمُ على الله من أن يجعلني خادمَ حمار.
وقيل لأبي حازم: ما مَالُكَ؟ قال: شيئان؛ الرضا عن الله، والغنى عن الناس.
وقيل له: إنك لَمسكين. فقال: كيف أكونُ مسكينًا ومولاي له ما في السموات وما في الأرض وما بينَهما وما تحتَ الثَّرى؟!

وقال بعضُ الحكماء: «رُبَّ مَغْبوط بمسرَّة هي داؤه، ومرحوم من سَقَم هو شفاؤه». وقال بعضُ الأدباء: «الناس أشتاتٌ، ولكل جمع شَتات». وقال بعضُ البلغاء: «الزُّهد بصحَّة اليقين، وصحَّةُ اليقين بنور الدِّين؛ فمن صَحَّ يقينُه زهدَ في الثَّراء، ومن قوي دينُه أيقن بالجزاء، فلا تغرنك صحَّة نفسك، وسلامَةُ أمسك، فمدَّة العمر قليلة، وصحَّة النفس مستحيلة». وقال بعضُ الشعراء:

رُبَّ مغْروسٍ يُعَاشُ بهِ عَدِمَتْهُ عَيْنُ مُغْتَرِسِهْ
وَكذاكَ الدَّهْرُ مَأتَمُهُ اقْرَبُ الأشياءِ مِنْ عُرَسِهْ

فإذا رُضْتَ نفسَك من هذه الحال بما وصفت، اعتضْتَ منها ثلاثَ خِلال:

**إحداهنَّ** - نصح نفسك وقد استسلمتْ إليك، والنظر لها، وقد اعتمدَتْ عليك، فإنَّ غاشَّ نفسه مغبون، والمنحرف عنها مأفون.

**والثانية** - الزُّهْد فيما ليس لك، لِتُكْفَى تكلُّفَ طَلَبِه، وتسلَمَ من تَبِعات كَسْبه.

**والثالثة** - انتهازُ الفرصة في مالك أن تضعَه في حقِّه، وأن تُؤْتِيَه لمستحقِّه؛ ليكون لك ذُخْرًا، ولا يكون عليك وزرًا، فقد رُوي أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، إنِّي أكرَهُ الموت. قال: «**أوَ لَكَ مالٌ؟**» قال: نعم. قال: «**قدِّمْ مالك؛ فإنَّ قلْبَ المؤمن عندَ ماله**»[1].

وقالت عائشة - رضي الله تعالى عنها -: ذَبَحنا شاةً فتصدَّقنا بها، فقلتُ: يا رسولَ الله، ما بقي إلاَّ كَتفُها. قال: «**كلُّها بَقيَ إلا كَتِفَها**»[2].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٦٣٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٥٩)، وبلفظ قريب أبو داود (٦٣ . ٤) (٤/ ٥٩).

(٢) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢٦١٩).

حُكِيَ أنَّ عبد الله بن عبيد الله بن عُتْبة بن مسعود، باع دارًا بثمانين ألفَ درهم، فقيل له: اتخذْ لولدك من هذا المال ذخرًا. فقال: أنا أجعلُ هذا المالَ ذخرًا لي عند الله - عزَّ وجلَّ -، وأجعَلُ الله ذُخرًا لولدي، وتصدَّق بها. وعُوتب سهل ابن عبد الله المَرْوَزِيّ في كثرة الصَّدقة، فقال: لو أنَّ رجلاً أراد أن ينتقلَ من دارٍ إلى دارٍ، هل كان يُبْقِي في الأولى شيئًا؟

وقال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم: ما لنا نكرهُ الموت؟ قال: «لأنكم أخربتم آخرتكم وعمَّرْتُم دنياكم؛ فكرهتم أن تنتقلوا من العُمْران إلى الخراب». وقيل لعبد الله بن عُمر - رضي الله تعالى عنهما -: تَرَكَ زيدُ بن خارجة مئة ألف درهم. فقال: لكنَّها لا تتركه.

وقال الحسن البصريّ - رحمه الله -: ما أنعمَ الله على عبد نعمةً إلاَّ وعليه فيها تبعة، إلاَّ سليمان بن داود عليهما السلام فإنَّ الله تعالى قال له: ﴿**هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ (ص: ٣٩)».

وقال أبو حازم: «إنْ عوفينا من شرِّ ما أُعطينا لم يَضرنْا فَقْدُ ما زُوِي عنا».

وقال بعضُ السلف: «قدِّموا كُلاً ليكونَ لكم، ولا تخلِّفوا كَلاً فيكون عليكم». وقال إبراهيم بن أدهم: «نعم القومُ السُّؤَّال؛ يدُقُّون أبوابكم، يقولون: أتوجِّهون للآخرة شيئًا». وقال سعيد بن المسيب: مرَّ بي صِلَةُ بن أَشْيَم، فما تمالكْتُ أن نهضْتُ إليه، فقلت: يا أبا الصَّهباء، ادعُ لي. فقال: «رَغَّبَكَ الله فيما يبقَى، وزهَّدَك فيما يَفْنَى، ووهَبَ لك اليقينَ الذي لا تسكن النفوس إلاَّ إليه، ولا يُعَوَّل في الدِّين إلاَّ عليه». ولما ثقل عبدُ الملك بن مروان في مرضه رأى غَسَّالاً يلْوي بيده ثوبًا، فقال: وددْتُ أنِّي كنتُ غسالاً لا أعيش إلاَّ بما أكتسبُه يومًا فيومًا، فبلَغَ ذلك أبا حازم، فقال: «الحمدُ لله الذي جعلهم يَتَمنَّوْن عندَ الموت ما نحن فيه، ولا نتمنى نحن عندَه ما هم فيه».

ورُوِي عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«يقولُ ابنُ آدم: مالي، مالي، وهل لكَ يا بْنَ آدم من مالك إلاَّ ما أكلْتَ فأفنيْتَ، أو لَبِسْتَ فأبليْتَ، أو أعطيْتَ فأمضيْتَ»**[1].

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٨)، والترمذي (٣٣٥٤) عن مطرف بن الشخير عن أبيه.

وقال خالدُ بن صَفوان: «بتُّ ليلتي أتمنَّى، فكَسَبْتُ البحر الأخضر، والذهب الأحمر، فإذا الذي يكفيني من ذلك رَغيفان وكُوزان وطِمْران»[1].

وقال مورِّق العجْليّ: «يا بْنَ آدم، في كُلِّ يومٍ تؤتى رزقك وأنتَ تحزَنُ، ويَنْقصُ عُمرُك وأنتَ لا تحزَنُ، تطلبُ ما يُطغيك وعندك ما يكفيك»! وقال أبو حازم: إنما بيني وبين الملوك يومٌ واحدٌ، أمَّا أمس فقد مضى، فلا يجدون لذَّته، وأنا وَهُم من غدٍ على وَجَلٍ، وإنَّما هو اليومُ، فما عسى أن يكون؟

وقال بعضُ السلف: «تَعزَّ[2] عن الشيء إذا مُنعْتَه، لقلَّة ما يَصْحَبُكَ إذا أُعطيتَه». وقال بعضُ الحكماء: «من تَرَكَ نصيبَه من الدنيا، استوفَى حظَّه من الآخرة». وقال آخر: «ترك التَّلبُّس بالدنيا قبل التشبُّث بها، أهونُ من رَفْضِها بعدَ ملابستها». وقال آخر: «ليكن طلبُكَ للدنيا اضطرارًا، وتذكُّرك في الأمور اعتبارًا، وسعيُكَ لَمعادك ابتدارًا»[3]. وقال آخر: «الزَّاهد من لا يَطلُبُ المفقودَ، حتى يفقد الموجود». وقال آخر: «من آمنَ بالآخرة، لم يَحْرِصْ على الدنيا، ومن أيقن بالمجازاة، لم يُؤثِرْ على الحُسنى». وقال آخر: «من حاسَبَ نفسَه ربح، ومَن غَفَل عنها خسر». وقال أبو العتاهية:

أَرَى الدُّنيا لِمَنْ هِيَ في يَدَيْهِ ... عَذابًا كُلَّما كَثُرَتْ لَدَيْهِ
تُهينُ المُكْرِمينَ لها بِصُغْرٍ ... وتُكْرِمُ كُلَّ مَنْ هانَتْ عَلَيْهِ
إذا استَغنَيْتَ عن شيءٍ فَدَعْهُ ... وَخُذْ ما أنتَ مُحتاجٌ إليهِ

وحكى الأصمعيّ - رحمه الله -، قال: دخلتُ على الرشيد - رحمة الله - عليه يومًا وهو ينظر في كتاب، ودُموعُه تسيلُ على خدِّه، فلمَّا أبصرني قال: أرأيتَ ما كان مني؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: أمَا إنه لو كان لأمر الدنيا ما رأيتَ هذا[4]، ثم رمى إليّ بالقرطاس، فإذا فيه شعرُ أبي العتاهية:

هلْ أنتَ معتَبِرٌ بمَنْ خَرِبَتْ ... منهُ غَداةَ قَضَى دَساكِرُهُ

(١) كوزان: إناءان للطعام والشراب، طمران: ثوبان خفيفان.
(٢) تسلّ عنه كأن لم يكن.
(٣) أي مسارعة. (٤) يعني من بكائه.

| | |
|---|---|
| وبمن أذلَّ الدَّهْرُ مَصْرَعَه | فتبرأَتْ منهُ عساكرُهُ |
| وبمَنْ خَلَتْ منهُ أسِرَّتُه | وتعَطَّلَتْ منه منابِرُهُ |
| أينَ الملوكُ وأينَ غيرُهُمُ | صَاروا مصيراً أنْتَ صائرُهُ |
| يا مؤثِرَ الدُّنيا للَذَّتِه | والمستعدَّ لمن يُفاخِرُهُ |
| نَلْ ما بدا لكَ أن تنالَ من الدُّنْيا | فإنَّ الموتَ آخِرُهُ |

فقال الرشيد ـ رحمة الله عليه ـ: والله لكأنِّي أخاطَبُ بهذا الشعر دونَ الناس، فلم يلبث بعد ذلك إلاَّ يسيرًا حتَّى مات ـ رحمه الله ـ.

ثم الحال الثالثة ـ من أحوال رياضتك لها: أن تكشفَ لنفسك حالَ أجَلك، وتصرفَها عن غرور أمَلك، حتَّى لا يطيلَ لك الأملُ أجلاً قصيرًا، ولا يُنسيك موتًا ولا نشورًا. ورُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال في بعض خطبه: **«أيُّها الناس، إنَّ الأيام تُطوى، والأعمارَ تفنَى، والأبدان في الثرى تَبْلَى، وإنَّ الليلَ والنَّهارَ يتراكضان كتراكض البريد[1]، يقرِّبان كُلَّ بعيد، ويَخْلِقان كُلَّ جديد، وفي ذلك عبادَ الله ما ألهى عن الشَّهوات، ورغَّبَ في الباقيات الصالحات»**[2].

وقال مسْعَر: كم من مستقبل يومًا وليس يستكملُه؟! ومنتظر غدًا وليس من أجله؟! ولوَ رأيتم الأَجَلَ ومسيرَه، لأبغضتم الأمَلَ وغرورَه. وقال رجلٌ من الأنصار للنبيّ ﷺ: مَنْ أكيَسُ الناس[3]؟ قال: **«أكثرُهم ذكرًا للموت، وأشدُّهم استعدادًا له، أولئك الأكياسُ، ذهبوا بشرفِ الدُّنيا وكرامة الآخرة»**. وقال عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ: «كما تنامون، كذلك تموتون؛ وكما تستيقظون، كذلك تبعثون».

وقال عليّ بن أبي طالب ـ كرَّم الله وجهه ـ: «أيُّها الناس، اتقوا الله الذي إنْ قلْتُم سمع، وإنْ أضمرْتُم عَلمَ، وبادروا الموت الذي إن هَرَبتم أدرككم، وإن أقمتم أخذكم». وقال العلاء بن المسيِّب: «ليس قبل الموت شيء إلا والموتُ أشدُّ منه، وليس بعد الموت شيء إلا والموت أيسرُ منه».

---

(١) أي الدواب السريعة التي كانت تنقل البريد.

(٢) لم أصل إليه.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٤١٧)، وفي «الصغير» (٢/ ١٨٩)، عن مجاهد عن ابن عمر عن النبي ﷺ.

وقال بعضُ الحكماء: «إن للباقي بالماضي معتَبَرًا، وللآخر بالأوَّل مُزْدَجرًا، والسعيدُ لا يركنُ إلى الخُدَع، ولا يغترُّ بالطَمع». وقال بعضُ الصلحاء: «إنَّ بقاءَك إلى فناء، وفناءَك إلى بقاء، فخُذْ من فَنائك الذي لا يبقى، لبقائك الذي لا يفنى». وقال بعضُ العلماء: «أيُّ عيشٍ يطيب وليس للموت طبيب»؟

وقال بعضُ البلغاء: «كل امرئ يجري من عمره إلى غاية تنتهي إليها مدَّةُ أجله، وتنطوي عليها صحيفةُ عمله، فَخُذْ من نفسك لنفسك، وقسْ يومَك بأمسك، وكُفَّ عن سيئاتك، وزدْ في حسناتك، قبلَ أن تستوفيَ مدَّةَ الأجل، وتُقَصِّرَ عن الزيادة في السعي والعمل». وقيل في منثور الحكم: من لم يتعرَّض للنوائب تعرَّضَتْ له. وقال أبو العتاهية:

| | |
|---|---|
| ما للمقابر لا تُجيبُ | إذا دَعاهُنَّ الكَئيبُ |
| حَفرٌ مُسَقَّفَةٌ عليهِنَّ | الجَنادلُ والكثيبُ[1] |
| فيهنَّ وِلْدانٌ وأَطْفالٌ | وشُبَّانٌ وَشِيبُ |
| كم من حَبيبٍ لم تكُنْ | نَفْسي بفُرْقَتِه تطيبُ |
| غادَرْتُهُ في بعضِهِنَّ | مجندلاً وهو الحبيبُ |
| وسلَوْتُ عنه وإنَّما | عَهْدي برؤيته قريبُ |

وَوعظ النبيُّ ﷺ رجلاً، فقال له: «أقللْ من الدنيا تعشْ حُرًا، وأقللْ من الذُّنوب يَهُنْ عليك الموتُ، وانْظُرْ حيثُ تضَعُ ولَدَكَ، فإنَّ العِرْقَ دَسَّاس»[2].

وقال الرشيد لابن السَّمَّاك ـ رحمهما الله تعالى ـ: عظني وأوجزْ. فقال: «اعلَم أنَّك أوَّلُ خليفة يموت». وعزَّى أعرابيٌ رجلاً عن ابنٍ له صغير، فقال: «الحمدُ لله الذي نجَّاه ممَّا هاهنا من الكدَر، وخلَّصه ممَّا بين يديه من الخطر». وقال بعضُ السلف: «مَن عَمِل للآخرة أحرزَها والدنيا، ومَن آثرَ الدنيا حُرِمَها والآخرة». وقال بعضُ الصلحاء: «اغتنمْ تَنَفُّسَ الأجل، وإمكانَ العمل، واقطع ذِكْرَ المعاذِير والعِلل؛ فإنَّك في أجلٍ محدود، ونَفَسٍ معدودٍ، وعُمرٍ غيرِ ممدود».

---

(١) الجنادل: الحجارة، الكثيب: التراب ونحوه.

(٢) أورده ابن الجوزي في «العلل المتناهية» بسنده، وذكر أنَّ له طرقًا (٢/ ٦١٣) (١٠٠٧).

وقال بعضُ الحكماء: «الطبيبُ معذورٌ إذا لم يقدِر على دفع المحذور». وقال بعض البلغاء: «اعمَلْ عَمَلَ المرتحل؛ فإن حاديَ الموت يحدوك ليومٍ ليس يَعْدُوك. وروي عن عليّ بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - أنه قال بعد موت رسول الله ﷺ:

| | |
|---|---|
| **غَرَّ جَهولاً أَمَلُهْ** | **يموتُ مَنْ جا أَجَلُهْ** |
| **وَمَن دنا مِنْ حَتْفِهِ** | **لم تُغْنِ عنه حِيَلُهْ** |
| **وما بقاءُ آخِرٍ** | **قد غابَ عنه أوّلُهْ؟** |
| **والمرءُ لا يصحَبُه** | **في القبرِ إلاَّ عَمَلُهْ** |

وقال أبو العتاهية:

| | |
|---|---|
| **لا تأمن الموت في لحظٍ ولا نَفَسٍ** | **وإن تمنعتَ بالحُجَّاب والحرسِ** |
| **واعلَم بأنَّ سِهامَ المَوْتِ قاصِدَةٌ** | **لِكلِّ مُدَّرِعٍ منها ومُتَّرسِ** |
| **ترجُو النَّجاةَ ولم تَسْلُكْ مسالِكَها** | **إنَّ السَّفينة لا تجري على اليَبَسِ** |

فإذا رُضْتَ نفسك من هذه الحالة بما وصفتُ، اعتَضْتَ منها ثلاثَ خلال:

**إحداها** - أن تُكْفَى تسويفَ أملٍ يُرْديك، وتَسْويلَ مُحالٍ يؤذيك؛ فإنَّ تسويفَ الأَمَل غَرَّارٌ، وتسويلَ المحال ضَرَّار.

**والثانية** - أن تستيقظَ لعلمِ آخرتك، وتغتنمَ بقيَّةَ أجلك بخير عملك؛ فإنَّ من قصَّر أملَه، واستقلَّ أجلَه، حَسُنَ عملُه.

**والثالثة** - أن يَهُونَ عليك نزولُ ما ليس عنه محيص، ويسهُلَ عليك حلولُ ما ليس إلى دفعه سبيل؛ فإنَّ من تحقَّقَ أمرًا توطَّأ لحلوله، فهان عليه عند نزوله. ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال لأبي ذَرٍّ رضي الله تعالى عنه: **«نبِّه بالتفكُّر قلبَكَ، وجافِ عن النَّوم جَنبك، واتَّقِ الله ربك»**.

وقال عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - لأبي ذر رضي الله عنه: عِظْني، فقال: «ارضَ بالقُوت، وخَفْ من الفَوْت، واجعل صَوْمَكَ الدنيا، وفطرَكَ الموت». وقال عمر بن عبد العزيز - رضي الله تعالى عنه -: «ما رأيتُ يقينًا لاشكَّ فيه، أشبَه بشكٍّ لا يقينَ فيه، من يقينٍ نحن فيه؛ فلئن كنَّا مُقرِّين، إنا لحمقى، ولئن كنّا جاحِدين، إنَّا لَهَلْكَى».

وقال الحسن البصري ـ رحمة الله عليه ـ: «نهارُكَ ضيفُكَ، فأحسنْ إليه، فإنَّك إنْ أحسنتَ إليه ارتَحلَ بحمدِك، وإنْ أسأتَ إليه ارتَحل بذمِّك، وكذلكَ ليلُك».

وقال الجاحظ في كتاب «البيان»: وُجد مكتوبًا في حجَر: يا بْنَ آدم، لو رأيتَ يسيرَ ما بقي من أجلِك لزهدْتَ في طويل ما ترجو من أمَلك، ولرغبْتَ في الزِّيادة من عملك، ولقصَّرتْ من حرصك وحيَلك؛ وإنَّما يلقاك غدًا ندمك، لو قد زلَّت بك قدمُك، وأسلمَكَ أهلُكَ وحَشَمُكَ، وتبرَّأ منك القريبُ، وانصرَفَ عنك الحبيب. ولما حضَر بِشْرَ بن منصور الموتُ فرِحَ، فقيل له: أتفرح بالموت؟ فقال: أتجعلون قدومي على خالقٍ أرجوه، كمُقامي مع مخلوقٍ أخافُه.

وقيل لأبي بكرٍ الصدِّيق ـ رضي الله تعالى عنه ـ في مرضه الذي مات فيه: لو أرسلْتَ إلى الطبيب؟ فقال: قد رآني، قالوا: فما قال لك؟ قال: قال: إني فعَّالٌ لما أريد. وقيل للرَّبيع بن خُثَيْم وقد اعْتَلَّ: ندعو لكَ بالطبيب؟ قال: قد أردْتُ ذلك، فذكرتُ عادًا وثمود وأصحابَ الرَّسِّ، وقرونًا بين ذلك كثيرًا، وعلمت أنَّه كان فيهم الدَّاءُ والمداوي، فهلكوا جميعًا. وسُئل أنو شرْوان: متى يكوَن عيش الدنيا ألذ؟ قال: إذا كانَ الذي ينبغي أن يعمله في حياته معمولاً.

وقال بعضُ الحكماء: «من ذَكَرَ المنيَّةَ، نَسِيَ الأُمْنِيَّة». وقال بعضُ الأدباء: «عن الموت تَنْسَلُّ، وهو كريشة تُسَلُّ». وقال بعضُ البلغاء: الأَمَلُ حجاب الأجل.

وأنشد بعضُ أهل الأدب ما ذُكر أنه لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ:

فلو كُنَّا إذا مُتْنا تُركْنا ... لكان الموتُ راحةَ كلِّ حَيّ
ولكنَّا إذا مُتنا بُعِثْنا ... ونُسْألُ كلُّنا عن كلِّ شَيّ

وقال بعضُ الشعراء:

ألاَ إنَّما الدُّنيا مَقِيلٌ لراكبٍ ... قضَى وطرًا من مَنزلٍ ثم هجَّرا
فَراحَ ولا يدْري علامَ قُدومه ... ألاَ كُلُّ ما قَدَّمْتَ يَبْقَى مُوَقَّرَا

رَوَى سعيدُ بن مسعود: أنَّ أبا الدَّرداء ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: يا رسول الله، أوصني؛ فقال ﷺ: «اكسبْ طَيِّبًا، واعْمَلْ صالحًا، واسألِ الله تعالى رِزْقَ يوم بيوم، واعْدُدْ نفسَكَ مِن الموتى»[1].

(١) لم أصل إليه.

وكتبَ الـرَّبيعُ بن خُثَـيم إلى أخٍ له: قدِّم جَـهازك[1]، وافرُغْ من زَادك، وكنْ وَصِيَّ نفسك، والسلام، وقال بعضُ السَّلف: أصـاب الدنيا من حَذرِها، وأصابت الدنيا من أمنها. ومرَّ محمد بن واسع ـ رحمة الله عليه ـ بقومٍ، فقيل: هؤلاء زُهَّاد، فقال: وما قَدْرُ الدنيا حتى يُحمَدَ من زَهِدَ فـيها؟ وقال بعضُ الحُكماء: السعيد من اعتبر بأمسه، واستَظْهَر لنفسـه، والشقيّ من جمع لغيره، وبَخِل على نفسه. وقال بعض البلغاء: لا تَبِتْ مـن غيرِ وَصيَّـة، وإن كنتَ من جسمك في صـحَّة، ومن عُمرك في فُسْحة؛ فإنَّ الدهر خائن، وكُلُّ ما هو كائنْ كائن. وقال بعضُ الشعراء:

مـن كـانَ يَعْلَمُ أنَّ المَوتَ مُـدْرِكُـهُ ... والقَبْـرَ مَـسْكَنُهُ والبَعْثَ مَـخْـرجـه
وأنَّهُ بينَ جنَّاتٍ سَـتُـبْـهِـجُـهُ ... يومَ القـيـامـةِ أوْ نـارٍ ستُنْضِـجُـهُ
فكلُّ شيءٍ سِـوى التَّـقْـوى به سَـمِجٌ ... ومـا أقـام علـيـهِ منهُ أَسـمَـجُـهُ[2]
تَـرى الَّذي اتَّـخَـذَ الدنيـا لـهُ وَطَنًا ... لم يَدْرِ أنَّ المنايا سَـوْفَ تُزْعِـجُـهُ

ورَوَى جعـفر بن محمـد بن علي: عن جابر بن عبـد الله ـ رضي الله تعالى عنهمـا ـ، عن النبيّ ﷺ أنه قال في بعـض خطبه: **«أيُّهـا الناسُ إنَّ لكم نهـايةً، فانتهوا إلى نهايتِكُم، وإنَّ لكم معالمَ، فانتهُوا إلى مَعالمِكُم، وإنَّ المؤمن بين مخافتين: أجَلٍ قد مضَى لا يدري ما الله صانعٌ فيه، وأجلٍ قد بَقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه، فليتزوَّدِ العبدُ من نفسه لنفسه، ومن دُنياه لآخرته، ومن الحياة قَبْلَ الموت؛ فإنَّ الدنيا خُلِقَتْ لكم، وانتم خُلِقْتُم للآخرة، فوالذي نفسُ محمَّدٍ بيده؛ ما بعدَ الموت من مُسْتَعْتَبٍ، ولا بَعْدَ الدنيا دارٌ، إلا الجنَّةَ أو النار»**[3].

وقال الحسن البصريُّ ـ رحمـة الله عليه ـ: أمسِ أجَلٌ، واليومَ عَـمَلٌ، وغداً أَمَلٌ. فأخَذَ أبو العتاهية هذا المعنى، فنظمه شعراً، فقال:

ليس فـيمـا مضى ولا في الذي لم ... يـأتِ من لذَّةٍ لمُسْـتَـحْلِيـهـا
إنَّمـا انت طُولَ عُـمْرِكَ مـا عُـمِّرْتَ ... في السَّـاعـةِ التي انتَ فـيـهـا
علِّل النَّفْس بالكَفـافِ وَإلاَّ ... طَلَبَتْ منكَ فَـوْقَ مـا يَكْفـيـهـا

---

(١) الجَهاز: متاع المسافر، يريد سفر الآخرة.

(٢) أي قبيح مسترذل. (٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ٣٦٠).

وقيل لزاهد: ما لك تمشي على العصا، ولست بكبير ولا مريض؟ فقال: إني أعلم أنِّي مسافر، وأنَّها دار بُلْغة، وأن العصا من آلة السفر. فأخذه بعض الشعراء، فقال:

حَمَلْتُ العصا لا الضَّعفُ أوجبَ حملَها ... عَلَيَّ ولا أَنِّي تَحنَّيْتُ من كِبَرِ
ولكنَّني ألزَمْتُ نفسِيَ حَمْلَها ... لأُعْلِمَها أنِّي مُقِيمٌ عَلَى سَفَرِ

وقال بعض المتصوِّفة: الدنيا ساعة، فاجعلْها طاعة، وقال ذو القرنين ـ عليه السلام ـ: رَتَعْنا في الدنيا جاهلين، وعِشْنا فيها غافلين، وأُخْرِجْنا منها كارهين. وقال عبد الحميد: المرءُ أسيرُ عُمْرٍ يسير.

وقيل في بعض المواعظ: عَجَبًا لمن يخافُ العقابَ، كيف لا يكفُّ عن المعاصي؟! وعجبًا لمن يرجو الثوابَ كيفَ لا يعمل؟! وقال بعضُ الحكماء: المسيءُ ميِّتٌ وإنْ كان في دار الحياة، والمحسنُ حيٌّ وإن كان في دار الأموات، وكُلٌّ بالأثرِ يومه أو غده. وقال بعضُ السلفِ: الله المستعانُ على ألسنة تَصف، وقلوبَ تَعْرفُ، وأعمالٍ تُخالفُ. وقال آخر: إن الليل والنهار يعملانِ فيكَ، فاعْمَلْ فيهما. وقال آخر: اعْمَلُوا لآخرتكم في هذه الأيام التي تسير كأنَّها تطير. وقال آخر: الموت قُصاراك، فَخُذْ من دنياك لأخراك. وقال آخر: عبادَ الله الحذَرَ الحذَرَ، فوالله لقد ستَر، حتى كأنه قد غَفَرَ، ولقد أَمْهَلَ، حتى كأنه قد أهمَلَ. وقال آخر: الأيَّامُ صحائفُ أعمالكم، فجلِّدوها أجملَ أفعالكم. وقيل في منثور الحكم: اقْبَلْ نُصْح المَشيب وإن عجل. وقيل: ما طَلَعت شمس إلاَّ وَعَظَتْ بأمْس.

وقال محمد بن بشير ـ رحمه الله ـ:

مَضَى أَمْسُكَ الأدنى شهيداً معدَّلاً ... ويومُكَ هذا بالفِعالِ شهيدُ
فإن تكُ بالأمْسِ اقْتَرَفْتَ إساءَةً ... فثَنِّ بإحْسَانٍ وأنتَ حَميدُ
ولا تُرجِ فِعْلَ الخيرِ منكَ إلى غَدٍ ... لَعَلَّ غداً يأتي وأنتَ فَقيدُ

رَوَى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «ما رأيْتُ مثْلَ الجنَّة نامَ طالبها! وما رأيْتُ مثْلَ النَّار نام هاربُها!»[1].

---

(١) الترمذي (٤/ ٧١٥) (٢٦٠١).

وقال عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس:٦٢). الذين نَظَروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، وإلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها، فأماتوا منها ما خَشَوا أن يُميتَ قلوبَهم، وتركوا منها ما علمُوا أنَّه سيتركُهم.

وقال عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-: الناس طالبان يَطْلُبان؛ فطالبٌ يطلُب الدنيا، فارْفُضُوها في نَحْرِه، فإنَّه ربَّما أدرك الذي يطلُبه منها، فهلك بما أصاب منها، وطالب يطلُب الآخرة، فإذا رأيتم طالبَ الآخرة فنافسوه فيها.

ودخل أبو الدَّرداء -رضي الله تعالى عنه- الشَّام، فقال: يا أَهْلَ الشام، اسمعُوا قَوْلَ أخٍ ناصحٍ، فاجتَمَعوا عليه، فقال: ما لي أراكم تَبْنُون ما لا تسكُنون، وتجمَعُون ما لا تأكلون؟ إنَّ الذين كانوا قبلكم بنَوا مَشيدًا وأمَّلُوا بعيدًا، وجمعوا كثيرًا، فأصبحَ أملُهم غرُورًا، وجَمْعُهم ثُبورًا، ومساكنُهم قبورًا.

وقال أبو حازم: إنَّ الدنيا غَرَّت أقوامًا، فعملوا فيها بغير الحقِّ، ففاجأهم الموت، فخلَّفوا مالَهم لمن لا يحمَدُهم، وصاروا لمن لا يعذرهم، وقد خُلقنا بعدهم؛ فينبغي أن ننظر للذي كرهنا منهم فنجتنبه، والذي غَبَطنَاهُم به فنستعملَه. ومرَّ بعض الزُّهَّاد بباب مَلِك، فقال: بابٌ جديد، ومَوْتٌ عتيد، ونَزْعٌ شديد، وسَفَرٌ بعيد.

ومرَّ بعض الزُّهَّاد برجلٍ قد اجتمَعَ عليه الناس، فقال: ما هذا؟ قالوا: مسكين سَرَقَ منه رَجلٌ جُبَّةً، ومرَّ به آخر فأعطاه جُبَّة، فقال: الحمدُ لله، ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ (الليل:٤). وقال بعض الحكماء: ما أنصفَ من نفسه من أيقن بالحشر والحساب، وزهد في الأجر والثواب. وقال آخر: بطول الأمل تقسو القلوبُ، وبإخلاص النِّيَّة تَقلُّ الذُّنوب. وقال آخر: إياك والمُنَى؛ فإنَّها من بضائع النَّوْكَى[1]، وتُثَبِّط عن الآخرة والأولى. وقال آخر: قَصِّر أَمَلَك؛ فالعمرُ قصيرٌ، وأحسنْ سيرتك، فالبرُّ يَسير. وقال عبد الله بن المعتز:

نَسيرُ إلى الآجالِ في كُلِّ ساعةٍ ... وأيامنا تَطْوَى وَهُنَّ مَراحِلُ
وَلم نرَ مِثلَ الموتِ حقًا كأنَّه ... إذا ما تخَطَّتْهُ الأمانيُّ باطلُ

---

(١) النوكى: الحمقى.

وما أقبحَ التفريطَ في زَمنِ الصِّبا ... فكيفَ به والشَّيبُ في الراس شامل

تَرَحَّلْ عن الدُّنيا بزادٍ من التُّقَى ... فعمرُك أيامٌ تُعَدُّ قلائلُ

وكان عبد الملك بن مروان يتمثل بهذين البيتين:

فاعمَلْ عَلَى مهلٍ فإنَّك ميِّتٌ ... وَاكْدحْ لِنَفسك أيُّها الإنسانُ

فكأنَّ ما قَدْ كان لم يكُ إذ مَضَى ... وكأنَّ ما هُوَ كائنٌ قد كانْ[1]

ونَظَرَ سليمانُ بن عبد الملك يومًا في المرآة فقال: أنا الملك الشابّ، فقالت جارية له:

أنْتَ نِعْمَ المتاعُ لو كنْتَ تبقى ... غيرَ أنْ لا بقاءَ للإنسانِ

ليسَ فيما بدا لنا منكَ عيبٌ ... كانَ في الناسِ غيرَ أنَّكَ فانِ

وروى عبد العزيز بن عبد الصَّمَد، عن أَبَان، عن أنس، قال: خطَبَنا رسول الله ﷺ على ناقته الجَدْعاء، فقال: «أيُّها الناس! كأنَّ الموتَ فيها عَلَى غيرنا كُتِبَ، وكأنَّ الحقَّ فيها على غيرنا وَجَبَ، وكأنَّ الذين نُشَيِّع من الأموات سَفْرٌ عمَّا قليل إلينا راجعون، نبوِّئُهُم أجْداثهم[2]، ونأكلُ تُراثَهم[3]، كأنا مخلَّدون بعدَهم، قد نَسِينا كلَّ واعظةٍ، وأمِنَّا كلَّ جائحةٍ[4]؛ طوبى لمن شَغَلَه عيبُه عن عيب غيره، وأنفقَ من مالٍ كَسَبَه من غير معصيةٍ، ورحِمَ أهلَ الذُّلِّ والمسْكَنة، وخالَطَ أهلَ الفقه والحكمة، طوبَى لمن أدَّبَ نفسه، وحسُنَت خليقتُه، وصلُحَتْ سريرته؛ طُوبَى لمن عمل بعلمه، وأنفقَ الفضلَ من ماله، وأمسكَ الفضل من قوله، ووسعته السُّنَّة، ولم يعدِل عنها إلى البِدْعة»[5].

وروي عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «زُوروا القبور تذكِّركم الآخرة، وغسِّلُوا الموتى؛ فإنها معالجة الأجساد الخاوية وموعظةٌ بليغة»[6]. وحفَرَ الرَّبيع بن خُثَيم في داره قبرًا، فكان إذا وجد في قلبه قسوةً، جاء فاضطجع في القبر، فمكَثَ فيه ما شاء

(١) أصلها: كانَ، لكن ضمت لضرورة القافية. (٢) الأجداث: القبور.
(٣) التراث: ميراث الميت. (٤) الجائحة: الشدة المهلكة.
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٠٣).
(٦) أخرجه الحاكم في «مستدركه» عن أبي ذر، وقال: رواته ثقات، وقال الذهبي: إنه منكر، وانظر «ضعيف الجامع» (٣١٧٠)، وقد أخرجه ابن ماجه ولكن عن أبي هريرة.

الله، ثم يقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ (المؤمنون: ٩٩-١٠٠). ثم يردُّ على نفسه فيقول: قد أرجعتك فجِدَّ. فمكث على ذلك ما شاء الله.

وقال أبو مُحْرز الطُّفاوي: كفتك القبورُ مواعظَ الأمم السالفة.

وقيل لبعض الزهاد: ما أبلغ العظات؟ قال: النظر إلى مَحلَّة الأموات، فأخذه أبو العتاهية فقال:

| | |
|---|---|
| وَعَظَتْكَ أجْداثٌ صُمُتْ | وَنَعَتْكَ أزْمِنَةٌ خُفُتْ |
| وتكلَّمَتْ عَنْ أوجُهٍ | تَبلَى وعن صُوَرٍ سُبُتْ |
| وأرَتْك قَبْرَكَ في الحياةِ | وأنتَ حَيٌّ لَمْ تَمُتْ |
| يا شامِتًا بِمَنِيَّتي | إنَّ المنيَّةَ لم تَفُتْ |
| ولَرُبَّما انقلَبَ الشَّماتُ | فَحلَّ بالقَوْمِ الشُّمُتْ |

وَوُجِد على قبرٍ مكتوبًا: قهرنا من قَهَرْنا، فصرْنا للناظرين عِبْرة. وعلى آخرَ: من أمَّل البقاءَ وقد رأى مَصارِعَنا فهو مغرورٌ.

وقيل في منثور الحكم: ما أكثَرَ مَنْ يعرفُ الحقَّ ولا يطيعه. وقال بعضُ الحكماء: مَنْ لم يَمُتْ لَم يَفُت[1]. وقال بعضُ الصلحاء: لنا من كُلِّ ميِّتٍ عِظَةٌ بحاله، وعبرةٌ بمآله. وقال بعض العلماء: من لم يتعظ بموت ولد، لم يتعظ بقولِ أحد. وقال بعضُ البلغاء: ما نقصَتْ ساعة من أمْسك، إلاَّ ببَضْعَةٍ من نفسِك. فأخذه أبو العتاهية، فقال:

| | |
|---|---|
| إنَّ مع الدَّهْرِ فاعْلَمَنَّ غدًا | فانظُرْ بما ينقضي مجيءُ غَدِهْ |
| ما ارْتَدَّ طرْفُ امرئٍ بلذَّتِه | إلاَّ وشَيءٌ يموتُ من جَسَدِهْ |

ولَّما مات الإسكندر قال بعضُ الحكماء: كان الملك أمسِ أنطقَ منه اليوم، وهو اليوم أوعظُ منه أمسِ، فأخذ أبو العتاهية هذا المعنى، فقال:

| | |
|---|---|
| كَفَى حَزَنًا بدفنِكَ ثم إنّي | نَفَضْتُ تُرابَ قبرِك عنْ يَدَيَّا |
| وكانَتْ في حياتِك لي عِظَاتٌ | وأنتَ اليومَ أوْعَظُ منكَ حَيَّا |

---

(١) أي يفلت من الموت.

وقال بعضُ الحكماء: لـو كان للخطايا ريحٌ لافتضَحَ الناسُ، ولم يتـجالسوا، فأخذ هذا المعنى أبو العتاهية، فقال:

بين عينَيْ كُلِّ حيٍّ علَمُ الموتِ يلوحُ
أحسَنَ اللهُ بنا أنَّ الخطايا لا تفوحُ
فإذا المستورُ منّا بَيْنَ ثوبَيْهِ فُضوحُ

وهذا جميعه مأخوذٌ من قولِ النبيِّ ﷺ: «لو تكاشَفْتُم ما تدافَنْتُم»، وكتب رجل إلى أبي العتاهية رحمه الله:

يا أبا إسحاق إنّي واثقٌ منكَ بوُدِّكْ
فأعِنّي - بأبي أنتَ - على عَيْبي برُشْدِكْ

فأجابه أبو العتاهية بقوله:

أطِعِ اللهَ بجَهْدِكْ راغبًا أو دونَ جُهْدِكْ
أَعْطِ مولاكَ الذي تَطْلُبُ مِن طاعةِ عَبْدِكْ

وقال بعضُ الحكماء: مَن سرَّه بنوه ساءته نفسه. فأخذ هذا المعنى أبو العتاهية، فقال:

ابنُ ذي الابنِ كلَّما زادَ منهُ مَشْرَعٌ زادَ في فَناءِ أبيهِ
ما بقاءُ الأبِ المُلِحِّ عليهِ بدبيبِ البِلَى شَبابُ بَنيهِ

وفي معناه ما حُكِيَ عن زِرِّ بن حُبَيْش أنه عاش مِئة وعشرين سنة، فلما حضرته الوفاة أنشأ يقول:

إذا الرجالُ وَلَدَت أولادُها وارتعشَتْ من كِبَرٍ أجسادُها
وجعلَتْ أسقامُها تعتادُها تلكَ زُروعٌ قَدْ دَنَا حَصادُها

وكَتَبَ رجلٌ إلى صالح بن عبد القدوس:

الموتُ بابٌ وكُلُّ النَّاسِ داخِلُهُ فليْتَ شعري بعدَ البابِ ما الدارُ؟

فأجابه صالح بقوله:

الدارُ جَنة عَدْنٍ إن عَمِلْتَ بما يُرضي الإلهَ وإنْ خالفت فالنَّارُ
هما مَحلانِ ما للناس غيرُهما فانْظُرْ لنفسِكَ ماذا أنتَ تختارُ

## الباب الرابع

# في أدب الدنيا

**اعلم:** أنَّ الله تعالى لنافذ قدرته، وبالغ حكمته، خَلَقَ الخلْقَ بتدبيره، وفطرَهُم بتقديره، فكان من لطيف ما دبَّرَ، وبديع ما قـدَّر، أن خَلَقهم محتاجين، وفَطَرهم عاجزين؛ ليكون بالغنَى منفردًا، وبالقدرة مختصًا، حتى يُشْعِرَنا بقدرته أنَّه خالقٌ، ويُعلِمَنا بغناه أنه رازقٌ، فنُذْعِنَ بطاعته، رغبةً ورهبةً، ونقرَّ بنقصنا عَجْزًا وحاجةً.

ثم جعل الإنسان أكـثرَ حاجةً من جمـيع الحيوان؛ لأنَّ من الحيوان مـا يستقلُّ بنفسه عن جنسـه، والإنسان مطبوعٌ على الافتقـار إلى جنسه، واستعانتـه به صفة لازمة لطبعه، وخِلْقةٌ قائمة في جَوْهره، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٢٨)، يعني ضعيـفًا عن الصبر عـمَّا هو إليه مفـتقرٌ، وعن احتمـال ما هو عنه عاجز. ولَمَّا كان الإنسان أكـثرَ حاجةً من جميع الحـيوان، كان أظهرَ عـجزًا؛ لأن الحاجة إلى الشيء افـتقارٌ إليـه، والمفتقرُ إلى الشيء عـاجز به. وقال بعض الحكماء المتقدمين: استغناؤك عن الشيء، خيرٌ من استغنائك به.

وإنما خَصَّ الله تعالى الإنسـانَ بكثرة الحـاجة، وظهور العـجز، نعمـةً عليه، ولطفًا به؛ ليـكونَ ذُلُّ الحاجة، ومـهانةُ العَجْـز، يمنعانه من طُغيـان الغنَى، وبغْي القُدْرة؛ لأنَّ الطغيان مَـرْكوزَ في طبعه إذا استَغْنَى، والبغْيَ مُسْـتَولٍ عليه إذا قَدَر، وقد أنبأ الله تعـالى بذلك عنه، فقال: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ (العلق: ٦-٧). ثم ليكون أقـوى الأمور شاهدًا على نـقصه، وأوضـحها دلـيلاً على عجزه. وأنشدني بعضُ أهل الأدب لابن الروميِّ:

| | |
|---|---|
| أَعـيَّرتني بالنَّقص والنَّقْصُ شـاملُ | ومن ذا الذي يُعْطَى الكمـالَ فـيَكْمُلُ |
| وأشـهـدُ أني ناقصٌ غـيـرَ أنَّني | إذا قِـيس بي قـومٌ كـثـيـرٌ تقلَّلُوا |
| تفـاضَلَ هذا الخَلْقُ بالفَضْل والحِجَا | فـفـي أيِّمـا هذين أنتَ مـفـضَّلُ[(١)] |
| ولـو منـحَ الله الـكمـالَ ابنَ آدم | لخلَّدَه، والله مـا شـاءَ يَفْـعَلُ |

---

(١) الحجا: العقل.

ولما خلَق الله تعالى الإنسانَ مـاسَّ الحاجَة، ظاهرَ العَجْزِ، جَعَلَ لنيـل حاجته أسبابًا، ولدفع عجزه حيلةً، دلَّه عليها بالعقل، وأرشدَه إليها بالفطنة.

قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ (الأعلى:٣)؛ قال مجـاهد: قدَّر أحوالَ خَلْقه، فهدَى إلى سبيل الخير والشرِّ. وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد: ١٠) يعني الطريقين: طريقَ الخير، وطريقَ الشرِّ.

ثم لما كان العـقلُ دالاً على أسبـاب ما تدعو الحـاجة إليه، جـعل الله تعالى الإدراكَ والظَّفَـر موقـوفًا على مـا قَسَـم وقدَّر، كـيلا يعـتمـدوا في الأرزاق على عقـولهم، وفي العجز على فطنهم، لتـدوم له الرَّغبة والرَّهبـة، ويظهر منه الغنَى والقُدْرة، وربما عَزَب[1] هذا المعنى على من ساء ظنُّه بخالقه سبحانه وتعالى، حتى صار سببًا لضلاله، كما قال الشاعر:

سُبْـحَـانَ مَن أنـزَلَ الأيامَ منـزلَهـا ... وَصيـَّر الناسَ مـرفـوضًا ومَـرْمُـوقَـا
فـعــاقلٌ فطِنٌ أعْـيَـتْ مَـذاهبُــهُ ... وَجـاهِـلٌ خَـرِقٌ تلقـاه مَـرْزُوقَـا
هـذا الـذي تَـرَكَ الألبــابَ حــائرةً ... وَصَـيَّـر العـاقلَ النِّحْـريرَ زِنْديقَـا

ولو حَسُن ظنُّ العاقـل في صحة نظره، لعلِمَ من عِلَل المصالح، مـا صار بها صدِّيقًا لا زنديقًا؛ لأنَّ منْ علل المصالح ما هو ظاهر، ومنها ما هو غامض، ومنها ما هو مُغَيَّب، حكمةٌ استأثر بها سبحانه وتعالى. ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «**حُسْنُ الظنِّ بالله من عبادةِ الله**»[2].

ثم إن الله تعالى جَعَلَ أسباب حاجاته، وحِـيَلَ عجزه، في الدنيا التي جعلها دارَ تكليف وعـمل، كمـا جعل الآخرةَ دارَ قـرار وجزاء، فلزم لذلـك أن يصرفَ الإنسانُ إلى دنياه حظًا من عنايته؛ لأنـه لا غنى به عن التزوُّد منها لآخرته، ولا له بُدّ من سدِّ الخُلَّة فيـها عند حاجته، وليس في هذا القـول نقضٌ لما ذكرنا قبلُ؛ من ترك فضـولها، وزجـر النفس عن الرَّغبة فـيهـا؛ بل الراغبُ فيهـا ملوم، وطالبُ فضولها مذموم، والرَّغبةُ إنَّما تخـتصُّ بما جاوز قَدْرَ الحاجة، والفضولُ إنَّما ينطلق

---

(١) أي خفي. (٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٦٩)، وأحمد بلفظ قريب (٢/ ٣٥٩).

على ما زاد على قدر الكفاية. وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الشرح: ٧، ٨). قال أهل التأويل: يعني فإذا فرغتَ من أمور دنياك، فانْصَبْ في عبادة ربِّكَ؛ وليس هذا القولُ منه ترغيبًا لنبيه ﷺ فيها، ولكن نَدَبَه إلى أخذ البُلْغة منها. وعلى هذا المعنى قال ﷺ: «**ليس خيرُكُم مَنْ تركَ الدُّنيا للآخرة، ولا الآخرةَ للدنيا، ولكن خيرُكم مَن أخذَ من هذه وهذه**»[1].
ورُوِي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**نِعْمَ المطيَّةُ الدُّنيا، فارْتحِلُوها تُبلِّغْكُم الآخرةَ**»[2].

وذمَّ رجلٌ الدنيا عند عليّ بن أبي طالب - كرّم الله وجهه -، فقال علي - رضي الله تعالى عنه -: الدنيا دارُ صدقٍ لمن صَدَقَها، ودارُ نجاةٍ لمن فهِمَ عنها، ودارُ غنىً لمن تزوّد منها. وحكى مُقاتلَ: أن إبراهيم الخليل - عليهِ السلام - قال: يا ربِّ حتّى متى أتردَّد في طلب الدّنيا؟ فقيلَ له: أمْسِكْ عن هذا، فليس طلبُ المعاش من طلب الدنيا.

وقال سفيان الثوريّ - رحمة الله عليه -: مكتوبٌ في التوراة: إذا كان في البيت بُرٌّ فتعبَّدْ، وإذا لم يكنْ فاطلُبْ، يا بْنَ آدم! حرِّكْ يدَكَ، يُسبِّب لك رزقك. وقال بعضُ الحكماء: ليس من الرَّغبة في الدنيا اكتسَابُ ما يصُونُ العِرْضَ فيها. وقال بعضُ الأدباء: ليس من الحِرْص اجتلابُ ما يقوت البدنَ وقال محمود الورّاق:

| | |
|---|---|
| **لا تُتْبِعِ الدُّنيا وأيّامَها** | **ذمًّا وإن دارَتْ بكَ الدائرهْ** |
| **مِنْ شَرَفِ الدُّنيا ومِن فَضْلِها** | **أنَّ بها تُسْتَدرَكُ الآخِرَهْ** |

فإذَنْ قد لزم بما بيَّنَّاه النظرُ في أمور الدنيا، فواجبٌ سَبْرُ أحوالها، والكَشْفُ عن جهة انتظَامِهَا واختلالها، ليعلم أسبَابَ صلاحِها وفسادها، وموادَّ عُمْرانها وخَرَابها، لتنتفيَ عن أهلها شُبَهُ الحَيرة، وتَنْجَلي لهم أسبابُ الخِيَرة، فيَقْصدُوا الأمورَ من أبوابها، ويعتمدُوا الصلاح من قواعدها وأسبابها.

**واعلم:** أنَّ صلاح الدنيا مُعْتَبرٌ من وجهين: **أولُهما:** ما ينتظم به أمور جملتها. **والثاني:** ما يصلُح به حال كُلِّ واحدٍ من أهلها.

---

(١) انظر: «كنز العمال» (٨٦٠٥).
(٢) أخرجه الديلمي وابن النجار عن ابن مسعود موقوفًا كما في «كنز العمال» (٦٣٤٣).

فهما شيئان لا صلاحَ لأحدهما إلاَّ بصاحبه؛ لأنَّ من صَلَحَتْ حالُه مع فساد الدنيا واختلال أمورها، لن يعدَمَ أن يتعدَّى إليه فسادُها؛ ويقدَحَ فيه اختلالها، لأنَّ منها يستمِدُّ، ولها يستعِدُّ، ومن فسَدَت حالُه مع صلاح الدنيا وانتظام أمورها، لم يجدْ لصلاحها لذَّةً، ولا لاستقامتها أثرًا؛ لأنَّ الإنسان دُنيا نفسه، فليس يرى الصَّلاحَ إلاَّ إذا صَلَحَتْ له، ولا يجد الفسَادَ إلاَّ إذا فَسَدَت عليه؛ لأنَّ نفسه أخصُّ، وحاله أمسُّ، فصار نظرُه إلى ما يخصُّه مصروفًا، وفكرُه على ما يَمَسُّه موقوفًا.

**واعلَم:** أنَّ الدنيا لم تكنْ قطُّ لجميع أهلها مُسعدةً، ولا عن كافة ذويها مُعرِضةً؛ لأنَّ إعراضها عن جميعهم عَطَبٌ، وإسعادَها لكافتهم فسادٌ؛ لائتلافهم بالاختلاف والتباين، واتفاقهم بالمساعدة والتعاون، فإذا تساوى حينئذ جميعُهم، لم يجدْ أحدُهم إلى الاستعانة بغيره سبيلاً، وبهم من الحاجة والعجز ما وصفنا، فيذهبوا حينئذ ضَيعةً، ويهلكوا عجزًا. وإذا تباينوا واختلفوا، صاروا مُؤتَلفين بالمعونة، متواصلين بالحاجة؛ لأنَّ ذا الحاجة وَصُولٌ، والمحتاج إليه موصول. وقد قال الله تعالى: ﴿**وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾ (هود: 118-119).

قال الحسن البصريّ: مختلفين في الرزق؛ فهذا غنيٌّ وهذا فقير، ولذلك خلَقهم، يعني للاختلاف بالغنَى والفقر.

وقال الله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ**﴾ (النحل: 71). غيرَ أنَّ الدنيا إذا صَلَحَتْ كان إسعادُها موفورًا، وإعراضُها ميسورًا؛ لأنَّها إذا مَنَحت هنئت وأَودَعت، وإذا استردَّتْ رَفَقَتْ وأبقَتْ، وإذا فَسَدت الدنيا كان إسْعادُها مكرًا، وإعراضُها غَدْرًا؛ لأنَّها إذا مَنَحت كَدَّت وأتعَبَتْ، وإذا استردَّت استأصلتْ وأجحَفَتْ، ومع هذا فصلاحُ الدنيا مُصلحٌ لسائر أهلها؛ لوفور أماناتهم وظهور دياناتهم، وفسادُها مفسدٌ لسائر أهلها؛ لقلَّة أماناتهم وضَعف دياناتهم، وقد وُجد ذلك في مَشَاهد الحال: تَجربةً وعُرفًا، كما يقتضيه دليلُ الحال تعليلاً وكَشْفًا، فلا شيءَ أنفعَ من صلاحها، كما أنَّه لا شيء أضرَّ من فسادها؛ لأنَّ ما تقوى به ديانات الناس، وتتوفَّر أماناتُهم، فلا شيء أحقّ به نفعًا؛ كما أنَّ ما به تضعفُ دياناتهم، وتذهَبُ أماناتهم، فلا شيء أجدر به ضَرَرًا. وأُنْشدْتُ لأبي بكر ابن دُرَيد:

النَّاسُ مِثْلُ زمانهمْ ... قَدَّ الحذاءِ على مِثَالِهْ

ورجالُ دهرِكَ مِثْلُ دهْرِكَ ... في تقلُّبهِ وحَالِهْ

وكـذا إذا فـسـد الـزمـانُ　　جـرى الفـسـادُ عَلَى رجـالِهْ

وإذْ قد بلغَ بنا القـولُ إلى ذلك، فسنبـدأ بذكر ما تصلُح به الدنـيا، ثم نتلوه بوصف ما يصلح به حال الإنسان فيها. **اعلَمْ**: أن ما به تصلح الدنيا، حتَّى تصيرَ أحوالُها منتظمةً، وأمورُها ملتئمـةً، ستةُ أشياء، هي قواعدها وإن تفرعت، وهي: دينٌ مُتَّبع، وسُلْطانٌ قاهر، وعَدْلٌ شامل، وأمنٌ عامٌّ، وخِصْبٌ دارٌّ؛ وأملٌ فسيح.

**فأما القاعدة الأولى ـ وهي الدِّين المتَّبع**: فلأنَّه يصرفُ النفـوس عن شهواتها، ويَعْطفُ القلوب عن إراداتها، حتَّى يصيـرَ قاهرًا للسرائر، زاجرًا للضمـائر، رقيبًا علىَ النفوس في خلواتها، نَصـوحًا لها في مُلمَّاتها. وهذه الأمـور لا يُوصَل بغير الدِّين إليها، ولا يَصْلُحَ الناس إلاَّ عليها، فكانَ الدِّين أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقـامتها، وأجـدى الأمور نفعًا في انتظامـها وسلامتـها، ولذلك لم يُخْلِ الله تعالى خَلْقَـه ـ مُذْ فَطَرَهم عُـقلاءَ ـ من تكليف شَرْعي، واعـتقـادٍ ديني، ينقادون لحكمه؛ فلا تختلفُ بهم الآراء، ويستسلمون لأمره؛ فلا تتصرف بهم الأهواء.

وإنما اختلف العلـماءُ في العَقْل والشَّـرْع: هل جاءا مجـيئًا واحـدًا، أم سبق العقلُ، ثم تعقَّبه الشَّرْعُ؟

فقـالت طائفة: جـاء العقلُ والشرْعُ مـعًا مجـيئًا واحـدًا، لم يسبقْ أحـدُهما صاحبَه. وقالت طائفة أخرى: بل سبق العقلُ، ثم تعقَّبه الشرع؛ لأنَّ بكمال العقل يُستَدَلُّ على صحة الـشرع. وقد قال الله تعالى: ﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى** ﴾ (القيامة: ٣٦). وذلك لا يوجد منه إلاَّ عند كمال عقله.

فثـبت أن الدِّين من أقوى القواعـد في صلاح الدنيا، وهو الفَـرْدُ الأوحدُ في صلاح الآخرة، ومـا كان به صلاح الدنيـا والآخرة، فحقـيقٌ بالعاقل أن يكون به متمسكًا، وعليه محافظًا. وقال بعضُ الحكماء: الأدب أدبان: أدبُ شريعة، وأدبُ سياسة؛ فأدبُ الشريعة ما أدَّى الفـرضَ، وأدبُ السياسة ما عمَرَ الأرضَ؛ وكلاهما يرجعُ إلى العدل الذي به سلامة السلـطان، وعمارة البُلْدان؛ لأنَّ مَن ترك الفرض فقد ظلم نفسه، ومن خرَّبَ الأرضَ فقد ظلم غيرَه. وقال سعيد بن حُميد:

مـا صِـحَّـةٌ أبدًا بنافـعـةٍ　　حـتَّى يـصحَّ الـدِّينُ والخـلُقُ

**وأما القاعدة الثانية - وهي سلطان قاهر:** تأتلف برهبته الأهواءُ المختلفة، وتجتمع بهيبته القلوبُ المتفرِّقة، وتَنْكَفُّ بسَطْوَته الأيدي المتغالبة، وتَنْقمعُ من خوفه النفوسُ المعاندة، لأن في طباعِ الناس من حُبِّ المغالبة والمنافسة على ما آثروه، والقَهْرِ لمن عاندوه، ما لا يَنْكَفُّون عنه إلا بمانعٍ قويّ، ورادع مَلِيّ[1]، وقد أفصحَ المتنبي بذلك حيث يقول:

**لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفيعُ من الأذَى ... حتَّى يُراقَ على جَوانبه الدَّمُ**

**والظُّلْمُ مِن شيمِ النفوسِ فإن تجدْ ... ذا عِفَّةٍ فلعلَّةٍ لا يَظْلِمُ**

وهذه العلَّة المانعة من الظلم لا تخلو من أحد أربعة أشياء: إمَّا عقلٍ زاجر، أو دين حاجز، أو سلطان رادع، أو عجزٍ صادّ؛ فإذا تأملتها لم تجدْ خامسًا يقترنُ بها، ورهبةُ السلطان أبلغها؛ لأنَّ العقلَ والدين ربما كانا مضعوفين، أو بدواعي الهوَى مغلوبين فتكون رهبةُ السلطان أشدَّ زَجْرًا، وأقوى رَدْعًا. وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: **«السلطانُ ظلُّ الله في الأرض، يأوِي إليه كُلُّ مظلوم»**[2].

وروي عنه ﷺ أنه قال: **«إنَّ الله ليزَعُ بالسُّلْطان، أكثرَ مما يَزَعُ بالقرآن»**[3].

ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«إن لله حراسًا في السماء، وحُرَّاسًا في الأرض، فحُرَّاسُه في السماء الملائكة، وحُرَّاسُه في الأرض الذين يقبضون أرزاقهم، ويذُبُّون عن الناس»**[4]. ورُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«الإمام الجائر خيرٌ من الفتنة، وكلٌّ لا خيرَ فيه، وفي بعضِ الشرِّ خيارٌ»**[5].

وقال عبد الله بن مسعود: السلطان يَفْسُد، وما يُصْلح الله به أكثر، فإن عدل فله الأجر، وعليكم الشكرُ، وإنْ جار وفي الوِزْر، وعليكم الصبر.

وقال أبو هريرة - رضي الله تعالى عنه -: سُبَّت العجمُ بين يدي رسول الله ﷺ، فنهَى عن ذلك، وقال: **«لا تسبُّوها، فإنَّها عَمَرت بلادَ الله تعالى، فعاشَ فيها عبادُ الله تعالى»**[6].

---

(١) أي مستمر.

(٢) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ٢٠١) (٣٠٤)، عن سعيد بن سنان في كنز العمال: «ورواه البزار وفيه سعيد بن سنان أبو مهدي وهو متروك».

(٣) انظر: «كنز العمال» (١٤٢٨٤).

(٤، ٥، ٦) لم أصل إليه.

وقال بعضُ البلغاء: السلطان في نفسه إمام متبوع، وفي سيرته دين مشروع، فإنْ ظلم لم يعدلْ أحدٌ في حُكْم، وإنْ عَدَلَ لم يجسرْ أحدٌ على ظلم. وقال بعض الأدباء: إنَّ أقربَ الدعوات من الإجابة دعوةُ السلطان الصالح؛ وأولى الحسنات بالأجر والثواب أمرُه ونهيُه في وجوه المصالح.

فهذه آثار السلطان في أحوال الدنيا، وما ينتظم به أمورها، ثم لِمَا في السلطان من حراسة الدِّين والذَّبِّ عنه، ودَفْع الأهواء منه، وحراسة التبديل فيه، وزَجْرِ مَن شذَّ عنه بارتداد، أو بغَى فيه بعناد، أو سعَى فيه بفساد. وهذه أمور إن لم تَنْحَسِم عن الدِّين بسلطَان قويٍّ. ورعايةٍ وافية، أسرَعَ فيه تبديلُ ذوي الأهواء، وتحريفُ ذوي الآراء، فليس دين زالَ سلطَانُه، إلاَّ بُدِّلت أحكامه، وطُمست أعلامُه، وكان لكلِّ زعيم فيه بدعة، لكُلِّ عصرٍ فيه وَهايةٌ[1] أثر، كما أنَّ السلطان إن لم يكن عن دين تجتمع به القلوبُ، حتى يرى أهلُه الطَّاعةَ فيه فرضًا، والتناصرَ عليه حتمًا، لم يكن للسلطان لُبْث، ولا لأيامه صفو، وكان سلطانَ قَهْرٍ، ومفسدَ دَهْرٍ، ومن هذين الوجهين وجب إقامة إمام يكون سلطان الوقت وزعيم الأمة؛ ليكونَ الدِّين محروسًا بسلطانه، والسلطان جاريًا على سنن الدِّين وأحكامه. وقد قال عبد الله ابن المعتز:

المُلكُ بالدِّين يبقَى والدِّينُ بالمُلك يَقْوَى

واختلف الناس: هل وجَبَ ذلك بالعقل أو بالشرع؟ فقالت طائفة: وجَبَ بالعقل؛ لأنه معلوم من حال العقلاء على اختلافهم، الفزع إلى زعيم مندوب، للنظر في مصالحهم. وذهب آخرون إلى وجوبه بالشرع؛ لأنَّ المقصود بالإمام القيام بأمور شرعية، كإقامة الحدود، واستيفاء الحقوق، وقد كان يجوز الاستغناء عنها، بأن لا يراد التعبُّد بها، فبأن يجوز الاستغناء عما لا يراد إلاَّ لها أولى. وعلى هذا اختلفوا في وجوب بعثة الأنبياء؛ فمَنْ قال بوجوب ذلك بالعقل قال بوجوب بعثة الأنبياء، ومَنْ قال بوجوب ذلك بالشرع منع وجوب بعثة الأنبياء؛ لأنه إذا كان المقصود ببعثتهم تعريف المصالح الشرعية، وكان يجوز من المكلَّفين أن لا تكون هذه الأمور مصلحة لهم، لم يجب بعثة الأنبياء إليهم.

---

(١) أي بقية من هذه البدعة.

فأمَّا إقامةُ إمامين أو ثلاثة في عصرٍ واحد، وبلد واحد، فلا يجوز إجماعًا، فأما في بُلْدان شتى، وأمصارٍ متباعدة، فقد ذهبَتْ طائفةٌ شاذة إلى جواز ذلك، لأنَّ الإمام مندوب للمصالح. وإذا كانا اثنين في بلدين أو ناحيتين، كان كُلُّ واحد منهما أقومَ بما في يديه، وأضبطَ لما يليه، ولأنَّه لَمَّا جاز بعثةَ نبيين في عصرٍ واحد، ولم يؤدِّ ذلك إلى إبطال النبوَّة، كانت الإمامة أولى، ولا يؤدِّي ذلك إلى إبطال الإمامة.

وذهب الجمهور إلى أن إقامة إمامين في عصرٍ واحد لا يجوزُ شرعًا، لما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«إذا بويع أميران فاقتلوا أحدهما»**[1].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: **«إذا ولَّيتم أبا بكر تجدُوه قويًا في دين الله، ضعيفًا في بدنه. وإذا ولَّيتُم عُمَر تجدوه قويًا في دِين الله، قويًا في بدنه. وإن ولَّيتم عليًا تجدوه هاديًا مهديًا»**[2]. فبيَّن بظاهرِ هذا الكلام أن إقامة جميعهم في وقت واحدٍ لا يصحّ؛ ولو صحَّ لأشار إليه، ونبَّه عليه.

والذي يلزم سلطانَ الأمة من أمورها سبعةُ أشياء:

**أحدها** - حفظُ الدِّين من تبديلٍ فيه، والحثُّ على العمل به، من غير إهمال له.

**والثاني** - حراسةُ البَيضة، والذبُّ عن الأمة، من عدوٍّ في الدين، أو باغي نفسٍ أو مال.

**والثالث** - عمارةُ البلدان باعتماد مصالحها، وتهذيب سُبُلها ومسالكها.

**والرابع** - تقديرُ ما يتولاَّه من الأموال بسنن الدِّين، من غير تحريف في أخذها وإعطائها.

**والخامس** - معاناةُ المظالم والأحكام، بالتسوية بين أهلها، واعتماد النَّصَفة في فصلها.

**والسادس** - إقامةُ الحدود على مستحقّها، من غير تجاوز فيها، ولا تقصير عنها.

**والسابع** - اختيارُ خلفائه في الأمور أن يكونوا من أهل الكفاية فيها، والأمانة عليها.

---

(١) أخرجه مسلم بلفظ «خليفتين» (١٨٥٣) (٣/ ١٤٨٠)، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٩/ ٣١٤).
(٢) انظر: «كنز العمال» (١٤٤١٩).

فإذا فعل من أفضى إليه سلطان الأمة ما ذكرنا من هذه الأشياء السبعة، كان مؤدِّيًا لحقّ الله تعالى فيهم، مستوجبًا لطاعتهم ومناصحتهم، مستحقًّا لصدق ميلهم ومحبتهم؛ وإن قصَّرَ عنها ولم يقم بحقِّها وواجبها، كان بها مُؤاخَذًا، وعليها معاقبًا، ثم هو من الرَّعية على استبطان معصية ومقت، يتربَّصون الفُرصَ بإظهارهما، ويتوقَّعون الدوائر لإعلانهما. وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ (الأنعام: ٦٥).

وفي قوله تعالى: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ تأويلان:

أحدهما - أنَّ العذابَ الذي هو من فوقهم: أمراءُ السوء، والذي من تحت أرجلهم: عبيد السوء. وهذا قولُ ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما -.

والثاني - أنَّ العذاب الذي هو من فوقهم: الرَّجْم، والذي من تحت أرجلهم: الخَسْفَ. وهذا قولُ مجاهد وسعيد بن جبير.

وفي قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ تأويلان:

أحدهما - أنَّه الأهواء المختلفة، وهذا قولُ ابن عبَّاس - رضي الله تعالى عنهما -.

والثاني - أنَّه الفتن والاختلاطُ، وهذا قولُ مجاهد.

وروي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ما من أمير على عشرة إلاَّ وهو يجيء يوم القيامة مَغْلولةً يداه إلى عُنُقه، حتى يكونَ عمله هو الذي يطلقه أو يُوبِقُه»[1].

ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «خيرُ أئمتكم الذين تُحبُّونهم ويحبُّونكم، وشَرُّ أئمتكم الذين تُبْغِضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»[2].

وهذا صحيح؛ لأنه إذا كان ذا خير أحبَّهم وأحبُّوه، وإذا كان ذا شرٍّ أبغضهم وأبغضوه. وقد كتب عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - إلى سعد بن أبي وقَّاص - رضي الله تعالى عنه -: إن الله تعالى إذا أحبَّ عبدًا حبَّبه إلى خَلْقه، فاعرفْ منزلتَكَ من الله تعالى بمنزلتك من الناس، واعْلَمْ أنَّ ما لك عند الله مثل ما لله عندك. فكان هذا موضِحًا لمعنى ما ذكرنا.

(١) أورده الديلمي في «الفردوس» (٦١٢٥)، عن أبي هريرة، وأخرجه أحمد في «مسنده» بلفظ قريب (٥/ ٢٩٧).

(٢) أخرجه أبو عوانة في «مسنده» (٤/ ٤٢٥) (٧١٨٥)، عن عوف بن مالك الأشجعي.

وأصلُ هذا أنَّ خشية الله تبعَثُ على طاعته في خلقه، وطاعته في خلقه تبعثهم على محبته؛ فلذلك كانت محبَّتُهم دليلاً على خيره وخشيته، وبغضُهم دليلاً على شرِّه، وقلَّة مراقبته. وقد قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ لبعض خلفائه: أوصيك أن تخشى الله في الناس، ولا تخشى الناس في الله. وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه: إنِّي أخاف الله فيما تقلَّدْت. فقال له: لسْتُ أخافُ عليك أن تخافَ الله، وإنَّما أخافُ عليكَ ألاَّ تخافَ الله. وهذا واضحٌ؛ لأنَّ الخائفَ من الله تعالى مأمونُ الحَيْف، كالذي رُوي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ، أنه قال لأبي مَرْيَم السَّلُوليّ، وكان هو الذي قتل أخاه زيد بن الخطاب: والله إني لا أُحبك حتى تحبَّ الأرضُ الدَّمَ. قال: أفيمنعُني ذلك حقًا؟ قال: لا، قال: فلا ضَيْرَ، إنما يأسَى[1] على الحبِّ النساء.

ورَوى عبد الرحمن بن محمد، قال: أصدَقَ طلحةُ بن عُبيد الله أمَّ كلثوم بنت أبي بكر مئة ألف درهم، وهو أوَّلُ من أصدَقَ هذا القدر، فمرَّ بالمال على عمر ابن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ، فقال: ما هذا؟ قالوا: صَدَاقُ أمِّ كلثوم بنت أبي بكر. فقال: أدخلوه بيت المال. فأُخْبِر بذلك طلحة، وقيل له: كلِّمْه في ذلك، فقال: ما أنا بفاعل، لئن كان عمرُ يَرَى له فيه حقًا لا يردُّه لكلامي، وإنْ كان لا يرى فيه حقًا ليردَّنَّه. قال: فلما أصبح عمر، أمر بالمال فدُفعَ إلى أُمِّ كلثوم.

وحُكي أنَّ الرشيد حبس أبا العتاهية، فكتب على حائط الحبس:

**أمَا والله إنَّ الظُّلْمَ لُوْمُ ... ومَا زالَ المُسيءُ هُوَ الظَّلُومُ**

**إلى دَيَّانِ يومِ الدِّين نَمْضي ... وعندَ الله تجتَمعُ الخُصُومُ**

**ستَعلَمُ في المَعَادِ إذا التَقَيْنا ... غداً عند المَليكِ مَنِ الظلُومُ**

**فأخبر الرشيد بذلك، فبكى بكاءً شديدًا، ودعا أبا العتاهية فاستحلَّه، ووهَبَ له ألف دينار، وأطلقه.**

**وأما القاعدة الثالثة ـ فهي عَدْلٌ شاملٌ:** يدعو إلى الألفة، ويبعَثُ على الطاعة، وتُعمَر به الأرض، وتُثمَّر به الأموال، ويكثر معه النسل، ويأمن به

(١) يأسى: يحزن.

السلطان؛ فقد قال المَرْزُبان لعمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ حين رآه وقد نام مُتَبذِّلاً[1]: عَدَلْتَ فأمِنْتَ فنِمْتَ.

وليس شيءٌ أسرَع في خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق، من الجَوْر؛ لأنَّه ليس يقف على حدٍّ، ولا ينتهي إلى غاية، ولكل جزء منه قسطٌ من الفساد حتى يستكمل. وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«بئسَ الزَّاد إلى المعاد العُدْوانُ على العباد»**[2].

وقال ﷺ: **«ثلاثٌ مُنْجِياتٌ، وثلاثٌ مُهْلِكاتٌ؛ فأمَّا المنجياتُ فالعَدْلُ في الغضب والرِّضا، وخشيةُ الله في السرِّ والعلانية، والقَصْدُ في الغِنَى والفقر. وأمَّا المهلكات: فشُحٌّ مُطاعٌ، وهَوىً مُتَّبع، وإعجابُ المرءِ بنفسه»**[3].

وحكي أنَّ الإسكندر قال لحكماء الهند، وقد رأى قلَّة الشرائع بها: لِمَ صارت سُنَن بلادكم قليلة؟ قالوا: لإعطائنا الحقَّ من أنفسنا، ولعَدْل ملوكنا فينا. فقال لهم: أيُّما أفضل؟ العَدْلُ أم الشجاعة؟ قالوا: إذا استُعمل العَدْلُ أغنَى عن الشجاعة.

وقال بعضُ الحكماء: بالعدل والإنصاف تكون مدَّة الائتلاف. وقال بعضُ البلغاء: إنَّ العَدْلَ ميزانُ الله الذي وَضَعَه للخلْق، ونصبَه للحقِّ، فلا تخالفْه في ميزانه، ولا تعارضْه في سلطانه، واستعنْ على العَدْل بخُلَّتين: قلَّة الطَّمَع، وكثرة الورَع. وإذا كانَ العَدْلُ من إحدى قواعَد الدنيا، التي لا انتظام لها إلاَّ به، ولاَ صلاحَ فيها إلاَّ معه، وجَبَ أن يُبْدأ بعدْل الإنسان في نفسه، ثم بعدله في غيره.

**فأمَّا عَدْلُه في نفسه:** فيكون بحملها على المصالح، وكفِّها عن القبائح، ثم بالوقوف في أحوالها على أعدل الأمرين، من تجاوز أو تقصير؛ فإنَّ التجاوز فيها جورٌ، والتقصيرَ فيها ظلمٌ، ومَنْ ظَلَمَ نفسَه فهو لغيره أظلم، ومَن جار عليها فهو على غيره أجوَرُ. وقد قال بعضُ الحكماء: من توانى في نفسه ضاع.

**وأمَّا عَدْلُه في غيره:** فقد ينقسم حالُ الإنسان مع غيره على ثلاثة أقسام:

---

(١) أي من غير حراسة ولا صيانة.

(٢) هذا ليس عن النبي ﷺ، وإنما عن الشافعي، ذكره في «سير الأعلام» (١٠/ ٤١).

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥/ ٤٥٢) (٧٢٥٢) عن أبي هريرة، والطبراني في «الأوسط» (٦/ ٤٧) (٥٧٥٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٤٣).

**فالقسم الأوَّل** ـ عَدْلُ الإنسان فيمن دونه، كالسلطان مع رعيته، والرئيس مع صحابته، فعدلُه فيهم يكون بأربعة أشياء: باتباع الميسور، وحَذْف المعسور، وتَرْك التسلُّط بالقوَّة، وابتغاء الحقِّ في السِّيرة؛ فإنَّ اتباع الميسور أدْوَم، وحَذْفَ المعسور أسلَمُ، وتَرْكَ التسلُّط أعطَفُ على المحبة، وابتغاءَ الحقِّ أبعَثُ على النُّصْرة.

وهذه أمور إن لم تسلم للزعيم المدبِّر، كان الفسادُ بنظره أكثر، والاختلاف بتدبيره أظهر. وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**أشدُّ النَّاس عذابًا يومَ القيامة من أشركَه الله في سلطانه، فجارَ في حكمه**»[1].

وقال بعضُ الحكماء: المُلْكُ يبقَى على الكفر، ولا يبقَى على الظلم. وقال بعضُ الأدباء: ليس للجائر جار، ولا تَعْمُر له دار. وقال بعضُ البلغاء: أقربُ الأشياء صَرعةُ الظَّلُوم، وأنفذُ السِّهام دَعْوةُ المظلوم. وقال بعضُ حكماء الملوك: العجَبُ من مَلك استفسد رعيته وهو يعلم أن عزَّه بطاعتهم. وقال أرْدَشير بن بابَك: إذا رغبَ الملك عن العَدْل، رغبت الرَّعية عن الطاعة، وعُوتب أنو شرْوان على ترك عقاب المذنبين، فقال: هم المرضَى، ونحنُ الأطباء، فإذا لم نداوهم بالعفو فمن لهم؟

**والقسم الثاني** ـ عَدْلُ الإنسان مع من فوقَه؛ كالرَّعية مع سلطانها، والصحابة مع رئيسها؛ فقد يكون بثلاثة أشياء: بإخلاص الطاعة، وبَذْل النُّصْرة، وصِدْق الولاء؛ فإن إخلاصَ الطاعة أجمعُ للشمل، وبَذْلَ النُّصْرة أدفَعُ للوهن، وصِدْقَ الولاء أنفَى لسوء الظن. وهذه أمور إن لم تجتمع في المرء تسلَّطَ عليه مَنْ كان يَدفَعُ عنه، واضطرَّ إلى اتِّقاء من كان يقي عنه، كما قال البُحتُريّ:

**مَتَى احْوَجْتَ ذَا كَرَم تَخَطَّى  إليكَ ببعضِ افعالِ اللِّئام**

وفي استمرار هذا حَلُّ نظام جامع، وفسادُ صلاحٍ شاملٍ. وقال أبرويز: أَطعْ مَن فوقَكَ يُطِعْكَ مَن دُونكَ. وقال بعضُ الحكماء: الظلم مسلبة النِّعَم، والبغي مجلبة النقَم. وقال بعضُ الحكماء: إن الله تعالى لا يرضى عن خَلْقه إلاَّ بتأدية حقِّه، وحقُّه شُكْرُ النِّعمة، ونُصْحُ الأمَّة، وحُسْنُ الصَّنيعة، ولزوم الشريعة.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٥).

**والقسم الثالث** ـ عَدْلُ الإنسان مع أكفائه، ويكون بثلاثة أشياء: بترك الاستطالة، ومجانبة الإدلال[1]، وكفِّ الأذى؛ لأنَّ تركَ الاستطالة آلفُ، ومجانبةَ الإدلال أعطَفُ، وكَفَّ الأذى أنصَفُ. وهذه أمور إن لم تخلص في الأكفاء، أسرَعَ فيهم تقاطُعُ الأعداء، ففسدوا وأفسدوا.

وقد رُوِي عن عمر بن عبد العزيز، عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أنبئكم بشرارِ النَّاس»**؟ قالوا: بَلى يا رسول الله، قال: **«مَن أكل وحده، ومنع رفده، وجلد عبده»**. ثم قال: **«أفلا أنبئكم بشرٍّ من ذلك؟»**، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **«مَنْ لا يُرجى خيرُه، ولا يؤمَنُ شرُّه»**، ثم قال: **«ألا أنبئكم بشرَ من ذلك»**؟ قالوا: بَلَى يا رسول الله، قال: **«من يبغض النَّاسَ ويبغضُونه»**[2].

ورُوِي أن عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ قام خطيبًا في بني إسرائيل، فقال: يا بني إسرائيل، لا تتكلموا بالحكمة عند الجهَّال فتظلموها، ولا تمنعُوها أهلَها فتظلموهم، ولا تكافئوا ظالمًا فيبطلِ فضلكم. يا بني إسرائيل، الأمور ثلاثة: أمرٌ تبيَّن رشدُه فاتبعوه، وأمرٌ تبيَّن غيُّه فاجتنبوه، وأمرٌ اختلفتم فيه فردُّوه إلى الله تعالى. وهذا الحديث جامعٌ لآداب العَدْل في الأحوال كلها. وقال بعضُ الحكماء: كُلُّ عقلٍ لا يُدَارى به الكُلُّ فليس بعقل تَام. وقال بعض الشعراء:

**ما دُمْتَ حيًا فَدَارِ الناسَ كُلَّهُمُ ... فإنَّما أنْتَ في دارِ المُدَاراةِ**
**مَن يَدْرِ دَارى ومَن لم يَدْرِ سوف يُرَى ... عمَّا قليلٍ نديمًا للنَّدامات**

وقد يتعلَّق بهذه الطبقات أمور خاصة، يكونُ عَدْلُهم فيها بالتوسط في حالتي التقصير والسرف؛ لأنَّ العدلَ مأخوذٌ من الاعتدال، فما جاوز الاعتدالَ فهو خروج عن العَدْل. وقد قالت الحكماء: الفضائل هيئاتٌ متوسطة بين خلتين ناقصتين. وأفعال الخير تتوسَّط بين رذيلتين؛ فالحكمة: واسطة بين الشرِّ والجهالة؛ والشجاعة: واسطة بين التقحُّم والجبن؛ والعفَّة: واسطةٌ بين الشَّرَه وضعف الشهوة؛ والسَّكينة: واسطةٌ بين السَّخط وضعفَ الغضب؛ والغَيرة: واسطة بينَ

---

(١) أي الإفراط في الانبساط.
(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/٣١٨) (١٠٧٧٥).

الحسد وسوء العادة؛ والظُّرف: واسطة بين الخلاعة والفَدَامة، والتواضع: واسطة بين الكبر ودناءة النفس؛ والسَّخاء: واسطة بين التقتير والتبذير؛ والحلم: واسطة بين إفراط الغَضَب وعدمه؛ والمودَّة: واسطة بين الخلابة وحسن الخلق، والحياء: واسطة بين القِحَة والحصَر[1]؛ والوقار: واسطة بين العَزَّة والسخافة.

وإذا كان ما خرج عن الاعتدال إلى ما ليس باعتدال، خروجًا عن العَدْل، إلى ما ليس بعدْل، كان ما خرج عن الأَوْلى إلى ما ليس بأَوْلى، خروجًا عن العدل إلى ما ليس بعدل. وقد قال بعض البلغاء: سلطانُ السَّوء يخيف البريء، ويصطنع الدنيء؛ والبلدُ السَّوء يجمع السِّفل، ويورث العِلَل؛ والولدُ السَّوء يَشين السلَف، ويَهدمُ الشَّرَف؛ والجارُ السَّوء يفشي السرَّ، ويهتكُ السِّتْرَ؛ فجعَلَ هذه الأشياءَ بخروجها عن الأَوْلَى إلى ما ليس بأَوْلى، خروجًا عن العَدْل، إلى ما ليس بعَدْل. ولستَ تجد فسادًا إلاَّ وسببُ نتيجته الخروجُ فيه عن حال العَدْل، إلى ما ليس بعَدْل من حالتي الزيادة والنقصان؛ فإذن لا شيءَ أنفَعُ من العدْل، كما أنَّه لا شيءَ أضرُّ مما ليس بعَدْل.

**وأما القاعدة الرابعة ـ فهي أمنٌ عامّ:** تطمئنُّ إليه النفوس، وتنتشر فيه الهمم، ويسكن فيه البريء، ويأنس به الضعيف؛ فليس لخائف راحةٌ ولا لحاذر طمأنينةٌ. وقد قال بعضُ الحكماء: الأمن أهنأُ عيشٍ، والعَدْلُ أقوى جيشٍ؛ لأنَّ الخَوْفَ يقبضُ الناس عن مصالحهم، ويحجُزُهم عن تصرُّفهم، ويكفُّهم عن أسباب الموادِّ التي بها قِوامُ أوَدهم[2]، وانتظامُ جملتهم؛ ولئن كان الأَمنُ من نتائج العَدْل، والجوْرُ من نتائج ما ليس بعَدْل، فقد يكون الجَوْرُ تارةً بمقاصد الآدميين الخارجة عن العَدْل، وتارة يكون بأسباب حادثة عن غير مقاصد الآدميين؛ فلا تكون خارجةً عن حال العَدْل؛ فمن أجل ذلك لم يكن ما سبق من حال العَدْل، مقنعًا عن أن يكون الأمن في انتظام الدنيا قاعدة كالعدل، فإذا كان ذلك كذلك، فالأمنُ المطلَق ما عمَّ؛ والخوفُ قد يتنوَّعُ تارةً ويعمُّ، فتنوُّعه بأن يكون تارةً على النفس، وتارةً على الأهل، وتارةً على المال؛ وعمومُه: أن يستوعِبَ جميعَ الأحوال، ولكُلِّ واحدٍ من أنواعه حظٌّ من الوَهْن، ونصيبٌ من الحزن.

---

(١) الحصر: العجز عن البيان والإفصاح.

(٢) الأود: المعوج، وقوام أودهم: أي يستقيم به ما اعوج من أمورهم.

وقد يختلف باختلاف أسبابه، ويتفاضَلُ بتبايـن جهاته، ويكونُ بحسب اختلاف الرَّغبة فيما خيف عليه؛ فمن أجل ذلك لم يجُز أن يتصف حالُ كُلٍّ واحدٍ من أنواعه بمقدارٍ من الوهْن، ونصيبٍ من الحزن، لاسيما والخائفُ على الشيءِ مختصّ الهمِّ به، منصرفُ الفكر عنْ غيره، فهو يظن أن لا خوف له إلاَّ إياه، فيغفلُ عن قدر النِّعمة بالأمن فيما سواه، فصار كالمريض الذي هو بمرضه متشاغل، وعمَّا سواه غافلٌ، ولعلَّ ما صُرِفَ عنه أعظمُ مما ابتُلي به.

**عَلَى أنَّها تعفُو الكلومُ وإنَّما يُوَكَّلُ بالأدنَى وإن جَلَّ ما يَمْضِي**[1]

وحكي أنَّ رجلاً قال ـ وأعرابيٌّ حاضر ـ: ما أشدَّ وجَعَ الضِّرْس! فقال الأعرابي: كلُّ داء أشدُّ داءً. كذلك من عمَّه الأمنُ كمن استولَت عليه العافية، فهو لا يعرفُ قَدْرَ النعمة بأمنه حتى يخافَ، كما لا يَعرِفُ المُعافَى قَدْرَ النِّعمة بعافيته حتى يُصابَ. وقال بعضُ الحكماء: إنَّما يُعْرف قدرُ النعمة بمقاساة ضدِّها، فأخذ ذلك أبو تمام الطائيّ، فقال:

**والحادثاتُ وإنْ أصابَك بؤسُها فَهُوَ الذي أنبأكَ كيفَ نَعيمُها**

فالأَوْلى بالعاقل أن يتذكَّر عند مرضه وخوفه، قدْرَ النعمة سوى ذلك؛ من عافيته وأمنه، وما انصرف عنه، مما هو أشدُّ من مرضه وخوفه، فيستبدل بالشكوى شكرًا، وبالجزَع صبرًا، فيكون مرحًا مسرورًا. حُكي أن يعقوب قال ليوسُفَ ـ عليهما السلام ـ حين لقيَه: أيَّ شيء كان خبرك بعدي؟ قال: لا تسألْ عمَّا فعلَه بي إخوتي، سلني عمَّا صنعه بي ربِّي. وقال الشاعر:

**لا تنسَ في الصحَّة أيامَ السَّقَمْ فإنَّ عُقْبَى تاركِ الحَزْمِ نَدَمْ**

**وأما القاعدة الخامسة ـ فهي خِصْبٌ دارٌ:** تتسع النفوس به في الأحوال، ويشترك فيه ذوو الإكثار والإقلال، فيقلّ في الناس الحسد، وينتفي عنهم تباغُضُ العَدَم، وتتسعُ النفوس في التوسُّع، وتكثر المؤاساة والتواصل، وذلك من أقوى الدواعي لصلاح الدنيا، وانتظام أحوالها؛ ولأنَّ الخصب يؤول إلى الغنى، والغنى يُورث الأمانة والسخاء.

---

(١) **الكلوم:** الجروح، يريد أن الإنسان ينسى المصائب الماضية وإن كانت عظيمة ويهتم بما استجد منها.

وكَتب عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ إلى أبي موسى الأشعريّ ـ رضي الله تعالى عنه ـ: لا تستقضينّ إلاَّ ذا حَسَبٍ أو مال، فإنّ ذا الحَسَب يخافُ العواقبَ، وذا المال لا يرغبُ في مالِ غيره. وقال بعضُ السّلف: إني وجدْتُ خيرَ الدنيا والآخرة في خصلتين، وشرّ الدنيا والآخرة في خصلتين؛ فخير الدنيا والآخرة في التُّقى والغِنَى، وشرّ الدنيا والآخرة في الفُجُور والفقر. وقال بعض الشعراء:

**ولم أرَ بعدَ الدِّين خيراً من الغنَى ... ولم أرَ بعدَ الكُفْرِ شراً من الفقرِ**

وبحَسَب الغِنى يكون إقلال البخيل وإعطاؤه، وإكثار الجواد وسخاؤه، كما قال دِعْبِل:

**لئن كنتَ لا تُولِي نَدًى دون إمرةٍ ... فلسْتَ بمُولٍ نائلاً آخِرَ الدَّهْرِ**
**وأيُّ إناءٍ لم يَفِضْ عندَ مَلْئِه ... وأيُّ بخيلٍ لم يُنِلْ ساعةَ الوفْرِ**

وإذا كان الخصب لم يُحْدث من أسباب الصلاح ما وصفت، كان الجدْبُ يُحدث من أسباب الفساد ما ضَادَّها؛ وكما أنَّ صلاح الخصب عامٌّ، فكذلك فسادُ الجدْب عامٌّ، وما عمَّ به الصَّلاحُ إن وُجِدَ، عَمَّ به الفسادُ إن فُقِد، فأحرى أن يكونَ من قواعد الصلاح ودواعي الاستقامة.

**والخِصْبُ يكون من وجهين:** خِصْبٌ في المكاسب، وخِصْبٌ في المواد؛ فأما خِصْبُ المكاسب، فقد يتفرَّع من خِصب الموادّ، وهو من نتائج الأمن المقترن بها. وأمَّا خِصْبُ الموادّ فقد يتفرَّع عن أسباب إلهية، وهو من نتائج العَدْل المقترِن بها.

**وأما القاعدة السادسة - فهي أمَلٌ فسيحٌ:** يَبعثُ على اقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه، ويحث على إنشاء ما ليس يوثق في دركه بحياة أربابه، ولولا أن الثاني يرتفق بما أنشأه الأول، حتى يصير به مستغنيًا؛ لافتقر أهلُ كل عصرٍ إلى إنشاء ما يحتاجون إليه من منازل السكَنَى، وأراضي الحرث، وفي ذلك من الإعواز وتعذُّر الإمكان، ما لا خفاء به؛ فلذلك ما أرفق الله تعالى خلْقه باتساع الآمال، حتَّى عَمَّر به الدنيا، فتمَّ صلاحُها، وصارَتْ تنتقل بعمرانها إلى قَرْنٍ بعد قَرْنٍ، فيُتم الثاني ما أبقاه الأوَّل من عمارتها، ويَرُمُّ الثالث ما أحدَثَه الثاني من شعَثها؛ لتكون أحوالُها على الأعصار ملتئمةً، وأمورُها على مرور الدهر منتظمةً، ولو قَصُرَت الآمال، ما تجاوز الواحدُ حاجة يومه، ولا تعدَّى ضرورة وقته؛ ولكانت تنتقل إلى

من بعده خرابًا، لا يجد فيه بُلغة، ولا يدرك منها حاجة، ثم تنتقلُ إلى من بعدُ بأسوأ من ذلك حالاً، حتَّى لا يَنْمِيَ بها نبتٌ، ولا يمكن فيها لُبْث. وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: **«الأمل رحمة من الله لأمتي، ولولاه لما غَرَسَ غارسٌ شَجَرًا، ولا أرضعَتْ أمٌّ ولدًا»**[1]. وقال الشاعر:

**وللنُّفُـوس وإن كـانَتْ على وَجَلٍ … من المنيَّـةِ آمـالٌ تقـوِّيهـا**
**فالمرء يبسطُها والدَّهْرُ يقبِضُها … والنَّفْسُ تنشُرُها والموت يَطْويها**

وأمَّا حالُ الأمل في أمر الآخرة، فهو من أقوى الأسباب في الغَفْلة عنها، وقلَّة الاستعداد لها، وقد أفصحَ لَبيد بن ربيعة مع أعرابيته بما تبيَّن به حالُ الأمل في الأمرين، فقال:

**واكـذِبِ النَّفْسَ إذا حَدَّثْتَها … إنَّ صِدقَ النفس يُزْري بالأمَلْ**
**غَيْرَ أنْ لا تَكذِبَنْها بالتُّقى … واخزُها بالبِرِّ لله الأجَلّ**

وفرْقُ ما بين الآمال والأماني: أنَّ الآمالَ ما تقيَّدت بأسباب، والأمانيّ ما تجرَّدت عنها.

**فهذه القواعد الست:** التي تصلح بها أحوالُ الدنيا، وتنتظمُ أمورُ جملتها، فإن كَمَلَتْ فيها كمَل صلاحها. وبعيد أن يكون أمرُ الدنيا تامًّا كاملاً، وأن يكون صلاحُها عامًّا شاملاً؛ لأنَّها موضوعة على التغيُّر والفناء، ومُنْشأة على التصرُّم والانقضاء. وسمع بعضُ الحكماء رجلاً يقول: قلبَ الله الدنيا. قال: فإذًا لا تستوي؛ لأنها مقلوبة. وقال بعضُ الشعراء:

**ومِنْ عادة الأيَّام أنَّ خُطُوبَها … إذا سَرَّ منها جانبٌ ساءَ جانبُ**
**وما أعرِفُ الأيَّامَ إلاَّ ذَميمةً … ولا الدَّهرَ إلاَّ وهو للثأر طالبُ**

وبحسب ما اختلَّ من قواعدها، يكون اختلالها وفسادها.

---

(١) أورده الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» عن أنس (٢/ ٥٢)، وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٢٢٩) (٢١٦٦).

## فصل

وأمَّا ما يصلح به حالُ الإنسان فيها فثلاثة أشياء، هي قواعدُ أمره، ونظامُ حاله، وهي: نفسٌ مُطيعة إلى رشدها، منتهية عن غيِّها، وأُلفة جامعة تنعطفُ القلوبُ عليها، ويندفعُ المكروه بها، ومادَّةٌ كافيةٌ تَسْكن نفس الإنسان إليها، ويستقيم أوَدُه بها.

**فأما القاعدة الأولى** ـ التي هي نفسٌ مطيعة، فلأنَّها إذا أطاعته مَلَكَها، وإذا عَصَتْه ملكته ولم يملكها، ومن لم يملك نفسَه، فهو بأن لا يملكَ غيرَها أحرى، ومن عَصَتْه نفسُه كان بمعصية غيرها أولى. وقال بعضُ الحكماء: لا ينبغي للعاقل أن يطلب طاعةَ غيره، وطاعةُ نفسه ممتنعة عليه. وقد قال الشاعر:

**أتطمعُ أن يُطيعَك قلبُ سُعْدَى ... وتزعُمُ أنَّ قلبَكَ قد عَصَاكا**

وطاعةُ نفسه تكون من وجهين: أحدهما نصح، والثاني انقياد.

فأما النُّصْحُ فهو أن ينظر إلى الأمور بحقائقها، فيرى الرُّشْدَ رُشْدًا ويستحسنه، ويرى الغيَّ غيًّا ويستقبحه، وهذا يكون من صدق النفس إذا سلمت من دواعي الهوى، ولذلك قيل: من تفكَّر أبصر.

وأما الانقياد فهي أن تسرع إلى الرشد إذا أمرها، وتنتهي عن الغَيِّ إذا زجرها، وهذا يكون من قَبول النفس إذا كُفِيت منازعة الشهوات؛ قال الله تعالى: ﴿ **وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا** ﴾ (النساء: ٢٧). وللنفس آداب هي تمام طاعتها، وكمالُ مصلحتها، وقد أفردنا لها من هذا الكتاب بابًا[1]، واقتصرنا في هذا الموضع على ما قد اقتضاه الترتيب، واستدعاه التقريب.

**وأما القاعدة الثانية** ـ التي هي الأُلفة الجامعة، فلأنَّ الإنسان مقصودٌ بالأذيّة، محسودٌ بالنعمة، فإذا لم يكن آلفًا مألوفًا، تخطفته أيدي حاسديه، وتحكَّمت فيه أهواء أعاديه، فلم تَسْلَمْ له نعمة، ولم تصفُ له مدَّة، فإذا كان آلفًا مألوفًا، انتصر بالألفة على أعاديه، وامتنع بهم من حاسديه، فسَلمت نعمته منهم، وصَفَتْ مدَّته عنهم، وإن كان صفو الزَّمان عَسِرًا، وسِلْمه خَطَرًا. وقد روى ابن جريج عن عطاء

(١) هو الباب الخامس.

رحمهما الله، عن جابر - رضي الله تعالى عنه -، عن النبيّ ﷺ، أنه قال: **«المؤمنُ آلفٌ مألوفٌ، ولا خيرَ فيمن لا يألف ولا يُؤلَف، وخيرُ الناس أنفعُهم للناس»**[(١)].

ورُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«إنَّ الله تعالى يرضَى لكم ثلاثًا، ويكرَه لكم ثلاثًا، يرضَى لكم أن تعبُدُوه ولا تشركُوا به شيئًا، وأن تعتصِمُوا بحبله جميعًا ولا تتفرَّقوا، وأن تُناصِحُوا من ولاَّه الله أمركم، ويكره لكم قِيلَ وقال، وكثرة السؤال، وإضاعةَ المال»**[(٢)]. وكُلٌّ ذلك حثٌّ منه ﷺ على الألفة. والعربُ تقول: مَنْ قَلَّ ذلَّ. وقال قيس بن عاصم:

| | |
|---|---|
| **إنَّ القِدَاحَ إذا اجتمعْنَ فَرامَها** | **بالكسر ذو حَنَقٍ وبَطْشٍ أَيِّدِ** |
| **عَزَّتْ فلم تُكْسَرْ، وإن هي بُدِّدت** | **فالوهْنُ والتكسيرُ للمتبدِّدِ** |

وإذا كانت الألفة بما أثْبَتَ تجمَعُ الشَّمْلَ، وتمنَعُ الذُّلَّ، اقتضَت الحالُ ذكرَ أسبابها.

**وأسباب الألفة خمسة:** وهي: الدِّين، والنسب، والمصاهرة، والمودَّة، والبِرّ.

**فأمَّا الدِّين:** وهو الأوَّل من أسباب الألفة، فلأنَّه يبعث على التناصر، ويمنَعُ من التقاطع والتدابر. وبمثل ذلك وصَّى رسول الله ﷺ أصحابه، فروى سُفيان عن الزهريّ عن أنس - رضي الله تعالى عنه -، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقاطعوا ولا تَدَابَرُوا ولا تَحاسَدُوا، وكونوا عبادَ الله إخوانًا؛ لا يحلُّ لمسلم أن يهجُرَ أخاه فوق ثلاث»**[(٣)].

هذا وإن كان اجتماعهم في الدِّين يقتضيه، فهو على وجه التحذير من تذكُّر تُراث الجاهلية، وإحَن[(٤)] الضلالة، فقد بُعث رسولُ الله ﷺ والعرب أشدُّ تقاطعًا وتعاديًا، وأكثر اختلافًا وتماديًا، حتى إن بني الأب الواحد كانوا يتفرَّقون أحزابًا مختلفة، فتثور بينهم بالتحزُّب والافتراق أحقادُ الأعداء، وإحَنُ البعداء، وكانت الأنصارُ أشدَّهم تقاطعًا وتعاديًا، وكان بين الأوس والخزرج من الاختلاف والتباين أكثر من غيرهم، إلى أن أسلموا، فذهبَتْ إحَنُهم، وانقطعت عداوتهم،

---

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢٦٩٨).
(٢) أخرجه مسلم بلفظ قريب (٣٢٣٦) كتاب الأقضية.
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٨٠). (٤) أي عداوات وأحقاد.

وصاروا بالإسلام إخوانًا متواصلين، وبألفة الدِّين أعوانًا متناصرين؛ قال الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ (آل عمران: ١٠٣)، يعني أعداءً في الجاهلية، فألَّفَ بين قلوبكم بالإسلام؛ وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ (مريم: ٩٦). يعني: حبًّا.

وعلى حسب التألُّف على الدِّين تكون العداوة فيه، إذا اختلَفَ أهلُه، فإن الإنسان قد يَقْطَع في الدِّين من كان به برًّا، وعليه مشفقًا. هذا أبو عُبيدة ابن الجرَّاح، وقد كانت له المنزلةُ العالية في الفضل، والأثَرُ المشهور في الإسلام، قَتَلَ أباه يومَ بَدْرٍ، وأتى برأسه إلى رسول الله ﷺ، طاعة لله عزَّ وجلَّ، ولرسوله ﷺ، حين بَقِيَ على ضلاله، وانهمَكَ في طُغْيانه، فلم تَعطفه عليه رحم، ولا كَفَّه عنه إشفاق، وهو من أبَرِّ الأبناء، تغليبًا للدِّين على النسب، ولطاعة الله تعالى على طاعة الأب؛ وفيه أنزل الله تعالى: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (المجادلة: ٢٢).

وقد يختلف أهلُ الدِّين على مذاهب شتى، وآراء مختلفة، فيحدُثُ بين المختلفين فيه من العداوة والتباين، مثلُ ما يحدُثُ بين المختلفين في الأديان؛ وعلَّة ذلك أن الدِّين والاجتماع على العَقْد الواحد فيه لمَّا كان من أقوى أسباب الألفة، كان الاختلاف فيه من أقوى أسباب الفرقة، وإذا تكافأ أهلُ الأديان المختلفة والمذاهب المتباينة، ولم يكن أحدُ الفريقين أعلى يدًا، وأكثَرَ عددًا، كانت العداوة بينهم أقوى، والإحَنُ فيهم أعظمَ؛ لأنَّه ينضمّ إلى عداوة الاختلاف، تحاسُدُ الأكْفَاء، وتنافسُ النُّظَراء.

**وأما النسب:** وهو الثاني من أسباب الألفة، فلأنَّ تعاطفَ الأرحام، وحَمِيَّة القرابة، يبعثان على التناصر والألفة، ويمنعان من التخاذل والفُرْقة، أنَفَةً من استعلاء الأباعد على الأقارب، وتوقِّيًا من تسلُّط الغرباء الأجانب، وقد رُوي عن النبي ﷺ أنَّه قال: **«إنَّ الرَّحِمَ إذا تماسَّت تعاطَفت»**[1]، ولذلك حفظت العربُ

(١) لم أجده بلفظه، ولكن أخرجه الحاكم بلفظ قريب (٤/ ١٧٩).

أنسابها، لَمّا امتنعَتْ عن سلطان يقهرها، ويكفّ الأذى عنها؛ لتكون به متظافرة على من ناوأها، متناصرةً علىَ من شاقَّها وعاداها، حتّى بلغت بألفة الأنساب، تناصُرَها على القويّ الأيّد، وتحكَّمَتْ فيه تحكُّم المتسلِّط المتشطط، وقد أعذر نبيّ الله لوط - عليه السلام - نفسَه حين عُدم عشيرةً تنصُرُه، فقال لمن بُعث إليهم: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود: ٨٠)، يعني: إلي عشيرة مانعة. وروَى أبو سَلَمة عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه -، أنّ رسول الله ﷺ قال: «رَحِمَ اللهُ لوطًا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد»[1]، يعني الله - عزّ وجلّ -. وقال رسول الله ﷺ: «ما بَعَثَ اللهُ تعالى من نبيٍّ بعده إلاّ في ثروة من قومه». وقال وَهْب: لقد ردّت الرسل على لوط، وقالوا: إنّ ركنَكَ لشديد.

ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه كان لا يترك المرء مُفْرَجًا حتّى يضمّه إلى قبيلة يكون منها. قال الرِّياشيّ: المُفْرَج: الذي لا ينتمي إلى قبيلة يكون منها؛ وكل ذلك حثٌّ منه ﷺ على الألفة، وكفٌّ عن الفرقة، ولذلك قال ﷺ: «من كَثَّر سوادَ قومٍ فهو منهم»[2]. وإذا كان النسَبُ بهذه المنزلة من الألفة، فقد تعرض له عوارضُ تمنع منها، وتبعث على الفرقة المنافية لها. فإذًا قد لزم أن نَصِفَ حال الأنساب، وما يعرضُ لها من الأسباب.

**فجملة الأنساب أنها تنقسم ثلاثة أقسام: قسم والدون، وقسم مولودون، وقسم مناسِبون:** ولكل قسمٍ منهم منزلةٌ من البِرِّ والصلة، وعارضٌ يطرأ، فيبعث على العقوق والقطيعة.

**فأمّا الوالدون:** فهم الآباء والأمهات، والأجداد والجدات، وهم موسومون مع سلامة أحوالهم بخُلُقين: أحدهما لازم بالطبع، والثاني حادث باكتساب.

فأما ما كان لازمًا بالطبع فهو الحذَرُ والإشفاق، وذلك لا ينتقل عن الوالد بحال. وقد رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لكلِّ شيءٍ ثمَرةٌ، وثمرَةُ القلب الولدُ»[3]. ورُوي عنه أنه قال: «الولدُ مَبْخَلَةٌ مَجْهَلَةٌ، مَجْبَنَةٌ مَحْزَنَةٌ»[4]؛ فأخبرَ أنّ

---

(١) أخرجه ابن منده في «الإيمان» (١/ ٤٨٧) (٣٧١).
(٢) موضوع أورده الحوت في «أسنى المطالب» (١/ ١٤٧٤)، والسخاوي في «المقاصد الحسنة» (١/ ١١٧٠).
(٣) أورده الديلمي في «الفردوس» (٧٧٩) عن ابن عمر.
(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٣٣٥).

الحذَرَ عليه يُكْسب هذه الأوصاف[١]، ويحدثُ هذه الأخلاق. وقد كره قوم طَلَبَ الولد، كراهةً لهَـذه الحالة التي لا يَقْـدر على دفعهـا عن نفسـه، للزومها طبـعًا، وحدوثها حتـمًا. وقيل ليحيى بن زكريا ـ عليهـما السلام ـ: ما بالُكَ تكْرَه الولَدَ؟ فقال: ما لي وللـولد؟ إنْ عـاش كدَّني، وإن مـات هدَّني. وقيـل لعيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ: ألا تتزوج؟ فقال: إنما يُحَبُّ التكاثر في دار البقاء.

وأمَّا ما كان حادثًا باكتساب فـهي المحبَّةُ، التي تَنْمي مع الأوقات، وتتغيَّر مع تغيُّـر الحالات. ورُوي عن النبـيِّ ﷺ أنه قال: «**الولد ألْوَط**»[٢]، يعني أنَّ حـبه يلتصقُ بنياط القلب، فـإن انصرف الوالدُ عن حبِّ الولد، فليس ذلك لبغض منه، ولكن لسَلْوة حدثت عن عقوق أو تقصير، مع بقاء الحذَر والإشفاق، الذي لا يزول عنه، ولا ينتقل منه. وقد قال مـحمَّد بن عليّ: إنَّ الله تعالى رضيَ الآباءَ للأبناء، فحذَّرهم فتنتَهم، ولم يوصهم بهم، ولم يرضَ الأبناءَ للآباء، فأوصاهم بهم، وإنَّ شرَّ الأبناء مَنْ دعاه التقصيرُ إلى العقوق، وشرَّ الآباء من دعاه البرُّ إلى الإفراط.

والأمَّهات أكثرُ إشفاقًا، وأوفَرُ حبًا؛ لما باشرْنَ من الولادة، وعانين من التربية؛ فإنَّهُنَّ أرَقُّ قلوبًا، وألينُ نفوسًا، وبحسَبُ ذلك وجَبَ أن يكونَ التعطف من الأبناء عليهن أوفر؛ جزاءً لفعلهن، وكفاءً لحقِّهن، وإن كان الله تعالى قد أشرك بينهما في البرِّ، وجَـمَع بينهما في الوصـيَّة، فقـال تعالى: ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا** ﴾ (العنكبـوت:٨). وقـد رُوي أنَّ رجـلاً أتى إلى النبيِّ ﷺ فـقـال: إنَ ليَ أُمًّـا أنا مَطِيَّتُهـا، أُقْعدُها على ظهري، ولا أصرفُ عـنها وجهي، وأردُّ إليها كَـسبي، فهل جزيتـها؟ قالَ: «**لا، ولا بزَفْرةٍ واحدة**». قالَ: ولم؟ قال: «**لأنها كانت تخدُمك، وهي تحبُّ حياتَك، وأنتَ تخدُمُها وتحبُّ مَوْتها**»[٣].

وقـال الحسن البـصريّ: حقُّ الولد أعـظمُ، وبر الوالدة ألزم ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**أنهاكم عن عقوق الأمهات، ووأدِ البنات، ومَنْعٍ وهات**»[٤]. وروى خالد بن مـعدان، عن المِقْـداد، قال: سـمعت رسـول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله**

---

(١) يعني: البخل والجهل والجبن والحزن.

(٢) أشار البخاري في «الأدب المفرد» على أنه قول أبي بكر الصديق (١/ ٤٣).

(٣) أصله في البخاري (٢٢٣١)، ومسلم (٣٢٣٧).

(٤) هو قول رسول الله ﷺ كما في البخاري (٢٤٠٨)، من حديث المغيرة.

يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بآبائكم، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب»[(١)].

وأمَّا المولودون: فهم الأولادُ وأولاد الأولاد؛ والعربُ تسمِّي وَلَدَ الولد الصَّفْوة، وهم مختصون مع سلامة أحوالهم بخُلُقين: أحدهما لازم، والآخر مُتنقل.

فأمَّا اللازم: فهو الأنَفَةَ للآباء من تهضُّم أو خمول، والأنفة في الأبناء في مقابلة الإشفاق في الآباء، وقد لحَظ أبو تمام الطائي هذا المعنى في شعره، فقال:

فأصبحتُ يَلْقاني الزمان من أجْله ... بإعْظَام مَوْلُودٍ وإشفاقِ والدِ

وأمَّا المتنقل: فهو الإدلال، وهو أوَّلُ حالِ الولد؛ والإدلالُ في الأبناء في مقابلة المحبَّة في الآباء؛ لأنَّ المحبَّة بالآباء أخصُّ، والإدلالَ بالأبناء أمسُّ. وقد رُوي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ، أنه قال: قلْتُ: يا رسولَ الله، ما بالُنا نَرِقُّ على أولادنا، ولا يَرِقُّونَ علينا؟ قال: «لأنَّا ولدناهم ولم يَلدونا».

ثم إنَّ الإدلالَ في الأبناء قد ينتقلُ مع الكبَر إلى أحد أمرين؛ إما إلى البرِّ والإعظام، وإمَّا إلى الجفاء والعقوق؛ فإنْ كان الولدُ رشيدًا، وكان الأبُ برًا عَطُوفًا، صار الإدلالُ برًا وإعظامًا. وقد روَى الزُّهريّ عن عامر بن شَراحيل: أنَّ النبيَّ ﷺ قال لجرير بن عبد الله: «إنَّ حقَّ الوالد على الولد أن يَخْشَع له عند الغضب، ويؤثره على نفسه عند النَّصَب والسَّغب[(٢)]؛ فإنَّ المكافئ ليس بالواصل، ولكنَّ الواصلَ مَن إذا قُطعَتْ رَحِمه وصَلَها»[(٣)].

وإن كان الولد غاويًا[(٤)]، أو كان الوالد جافيًا، صار الإدلالُ قطيعةً وعُقوقًا. ولذلك قال النبي ﷺ: «رَحِمَ الله امرءًا أعان ولده على برِّه»[(٥)]. وبُشِّر عمرُ بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ بمولود، فقال: رَيْحانة أشُمُّها، ثم هو عن قريب ولدٌ بارٌ، أو عدوٌّ ضارٌ. وقد قيل في منثور الحكم: العُقوق ثُكلُ[(٦)] مَن لم يَثْكَلْ. وقال بعضُ الحكماء: ابنُكَ ريحانُك سَبعًا، وخادمُك سبعًا، ووزيرُك سبعًا، ثم هو صديق أو عدوّ.

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٣٦٥١) باب بر الوالدين، وصححه الألباني وانظر «الصحيحة» (١٦٦٦).

(٢) السغب: الجوع.

(٣) ذكره في كنز العمال (٤٥٥١٢)، وعزاه لابن عساكر من حديث ابن مسعود وابن عباس.

(٤) أي ضالاً.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٢١٩) (٥/ ٢٥٤) عن الشعبي يرفعه وأبو الشيخ في «الثواب - عن علي» كما في «كنز العمال» (٤٥٤١٧).

(٦) الثكل: الفقدان كما قالت العرب: ثكلتك أمك.

**وأما المناسبون:** فهم من عدا الآباء والأبناء، ممن يرجع بتعصيب[1] أو رحم، والذي يختصون به الحمية الباعثة على النُّصرة، وهي أدنى رُتْبة من الأنفة؛ لأنَّ الأنفة تمنعُ من التهضُّم والخمول معًا، والحمية تمنعُ من التَّهضُّم، وليس لها في كراهة الخمولِ نصيبٌ، إلاَّ أن يقترنَ بها ما يبعثُ على الأنفة. وحمية المناسبين إنما تدعو إلى النُّصرة على البُعَداء والأجانب، وهي مُعرَّضة لحسد الأداني والأقارب، موكولة إلى منافسة الصاحب بالصاحب.

فإن حُرِسَتْ بالتواصُل والتعاطف والتلاطُف، تأكَّدَت أسبابُها، واقترن بحميَّة النسبِ مصافاة المودَّة، وذلك أوكَدُ أسباب الأُلْفة. وقد قيل لبعض قريش: أيُّما أحبُّ إليك: أخوك أو صديقك؟ قال: أخي إذا كان صديقًا. وقال مَسْلَمة بن عبد الملك: العيشُ في ثلاث: سَعَة المنزل، وكثرة الخدَم، وموافقة الأهل. وقال بعضُ الحكماء: البعيد قريب بمودَّته، والقريبُ بعيدٌ بعداوته.

وإن أُهْملت الحالُ بين المتناسبين، ثقةً بلُحْمة النسب، واعتمادًا على حميَّة القرابة غَلَبَ عليها مَقْتُ الحسد، أو منازعة التنافس، فصارت المناسبةُ عداوةً، والقرابة بُعْدًا. وقال الكندي في بعض رسائله: الأب رَبٌّ، والولد كمَد[2]، والأخ فَخٌّ، والعمّ غمّ، والخالَ وبال، والأقارب عقارب. وقال عبد الله بن المعتز:

لحُومُهُمُ لحْمِي وَهُمْ يأكلُونَهُ ... ومَا داهِياتُ المرْءِ إلاَّ أقارِبُهْ

ومن أجل ذلك أمر الله تعالى بصلة الأرحام، وأثنى على واصليها، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ (الرعد:٢١). قال المفسرون: هي الرَّحِمُ التي أَمَرَ الله بوصلها، ويخشَوْن ربَّهم في قطعها، ويخافون سوءَ الحسابِ في المعاقبة عليها. وقد رَوَى عبدُ الرحمن بن عَوْف أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«يقولُ الله عزَّ وجلَّ: أنا الرحمن، وهي الرَّحِمُ، اشتققتُ لها من اسمي اسمًا، فمن وصلَها وصلته، ومن قطعها قطعته»**[3]. ورُوِي عنه ﷺ أنه قال: **«صلةُ الرَّحِمِ مَنْماةٌ للعدد، مَثْراة للمال، محبَّة في الأهل، مَنْسَأةٌ في الأجل[4]»**[5].

---

(١) أحد أوجه القرابة. (٢) كمد: هم وغم.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٩٨) عن أبي هريرة، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٧٣).

(٤) أي تزيد في العمر. (٥) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٤)، والحاكم (٤/ ١٧٨).

وقال بعضُ الحكماء: بُلُّوا[1] أرحامكم بالحقوق، ولا تجفُوها بالعُقُوق. وقال بعضُ البلغاء: صِلوا أرحامكم، فإنها لا تَبْلى عليها أصولُكم، ولا تُهتَضَم[2] عليها فُروعكم. وقال بعضُ الأدباء: من لم يَصلُح لأهله لم يصلح لك، ومن لم يذُبَّ عنهم لم يذبَّ عنك. وقال بعضُ الفصحاء: من وَصَلَ رحمَه وصلَه الله ورحمه، ومن أجار جارَه أعانه الله وأجاره. وقال محمد بن عبد الله الأزديّ:

**وحَسْبُكَ من ذُلٍّ وسُوءِ صنيعةٍ ... مُناواةُ ذي القُرْبَى وإنْ قيلَ قاطعُ**

**ولكن أواسيه وأنسَى ذُنُوبَه ... لِتُرْجِعَهُ يومًا إليَّ الرَّوَاجعُ**

وقال عبد الله بن الزُّبير:

**ولا يستوي في الحكم عبدان: واصلٌ ... وعبدٌ لأرحام القرابة قاطعُ**

**وأما المصاهرة:** وهي الثالث من أسباب الألفة، فلأنَّها استحداثُ مواصلة، وتمازجُ مناسبة، صدَرا عن رغبة واختيار، وانعقدا عن خِبرة وإيثار، واجتمع فيها أسبابُ الأُلفة، وموادُّ المظاهرة. قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (الروم: ٢١). يعني بالمودَّة المحبَّة، وبالرَّحمة الحُنوَّ والشفقة، وهما من أوكد أسباب الألفة. وفيها تأويل آخر: قاله الحسن البصريّ - رحمه الله -: إنَّ المودة النكاح، والرَّحمةَ الولد. وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ (النحل: ٧٢). واختلف المفسرون في الحَفَدَة؛ فقال عبد الله بن مسعود: هم أَخْتَانُ الرجل على بناته. وقال عبد الله بن عباس - رضي الله تعالى عنهما -: هم وُلْد الرجل، وَوُلْد وُلْده. ورُوي عنه أنهم بنو امرأة الرَّجل من غيره، وسُمُّوا حَفَدة؛ لحفْدهم في الخدمة، وسرعتهم في العَمَل. ومنه قولهم في القُنُوت: «وإليك نَسْعَى ونَحْفِد»: أي نسرع إلى العمل بطاعتك.

ولم تزل العرب تجتذبُ البُعَداءَ، وتتألَّفُ الأعداءَ بالمصاهرة، حتَّى يرجع النافر مؤانسًا، ويصيرَ العدوُّ مواليًا؛ بل يصير الصهر بين الاثنين، أُلفةً بين القبيلتين، ومُوالاةً بين العشيرتين. حكي عن خالد بن يزيد بن معاوية أنه قال: كان أبغضَ

(١) أي صِلُوها. (٢) أي تُظْلم.

خَلْقِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إليَّ آلُ الزُّبيـر، حتى تزوَّجت منهم «رَمْلة»، فـصاروا أحبَّ خَلْقِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إليَّ. وفيها يقول:

**أحبُّ بني العـــوَّام طُرًا لأَجْلِهـــا ... ومن أجْلها أحْبَبْتُ أخْوالها كَلْبا**

**فــإن تُسْلِمي نُسْلِمْ، وإنْ تتنصَّـري ... يَخُطُّ رِجَـالٌ بينَ أعــينهم صُلْبــا**

ولذلك قيل: المرء على دين زوجته، لما يستنزله الميْلُ إليها من المتابعة، ويجتذبُه الحبُّ لها من الموافقة، فلا يجد إلى المخالفة سبيلاً، ولا إلى المباينة والمشاقَّة طريقًا. وإذا كانت المصاهرة للنكاح بهذه المنزلة من الألفة، فقد ينبغي لعقدها أحدُ خمسة أوجه، وهي: المال، والجمال، ، والدِّين، والألفة، والتَّعفُّف. وقد رَوى سعيدُ بن أبي سَعيد، عن أبيه، عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**تُنْكَحُ المرأةُ لأربع: لمالها، ولجمالها، ولحسبها، ولدينها؛ فعليكَ بذاتِ الدِّينِ، تَرِبَت يداك**»[(١)].

**فإن كان عَقْدُ النكاحِ لأجلِ المال:** وكان أقوى الدَّواعي إليه، فالمالُ إذن هو المنكوح، فإن اقترن بذلك أحدُ الأسباب الباعثة على الائتلاف، جاز أن يلبَثَ العَقد، وتدومَ الألفة، فإن تجرَّدَ عن غيره من الأسباب، وعَرِيَ عمَّا سواه من الموادِّ، فأخلقْ بالعَقْد أن ينحَلَّ، وبالألفة أن تزولَ، لاسيما إذا غَلَبَ الطمَعُ، وقلَّ الوفاء؛ لأنَّ المال إن وُصِل إليه، فقد ينقضي سبَبُ الألفة به، وقد قيل: مَنْ وَدَّكَ لشيءٍ وَلَّى مع انقضائه؛ وإن أعوز الوصول إليه، وتعذَّرت القدرة عليه، أعقبَ ذلك استهانة الآيس، بعد شدَّة الأمل، فحدَثَت منه عَداوةُ الخائب بعد استحكام الطمع، فصارت الوصلة فُرقةً، والألفةُ عداوةً. وقد قيل: من ودَّك طمعًا فيك، أبغضَك إذا أيس منك. وقال عبد الحميد: مَن عظَّمك لإكثارك، استقلَّك عند إقلالك.

**وإن كان العقد رغبةً في الجمال:** فذلك أدوَمُ للألفة من المال؛ لأنَّ الجمال صفةٌ لازمة، والمالَ صفة زائلة. ولذلك قيل: حُسْن الصورة أوَّل السعادة. وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «**أعظَمُ النساء بركةً أحسنُهُنَّ وَجْهًا، وأقلُّهن مَهْرًا**»[(٢)]. فإن

---

(١) أخرجه البخاري (٥/١٩٥٨) (٤٨٠٢)، ومسلم (٢/١٠٨٦) (١٤٦٦).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢٧٣٢)، والبيهقي في «الكبرى» (١٤١٣٤).

سلمت الحالُ من الإدلال[١]، المفضي إلى المَلال، استدامت الألفة، واستحكمت الوُصْلة. وقد كانوا يكرهون الجمالَ البارع. إمَّا لما يحدُث عنه من شدَّة الإدلال؛ وقد قيل: مَنْ بَسَطه الإدلال قبضَه الإذْلال. وإمَّا لما يُخاف عليه من محن الرغبة، وبَلْوَى المنازعة؛ وقد حُكي أنَّ رجلاً شاورَ حكيمًا في التزوج، فقال له: افعل، وإياكَ والجمالَ البارعَ؛ فإنَّه مَرْعىً أنيق. قال الرجل: وكيف ذلك؟ قال: كما قال الأوَّل:

**ولَنْ تُصادِفَ مَرْعيً مُمْرِعًا أبدًا ... إلاَّ وَجَدْتَ بهِ آثارَ مُنْتَجِعِ**[٢]

وإمَّا لما يخافه اللبيبُ من شدَّة الصَّبْوة[٣]، ويتوقَّاه الحازمُ من سوء عواقب الفتنة، وقد قال بعضُ الحكماء: إياك ومخالطةَ النساء؛ فإنَّ لحظَ المرأة سَهْمٌ، ولفظَها سمٌّ. ورأى بعض الحكماء صيَّادًا يكلِّم امرأة، فقال: يا صيَّاد، احذر أن تُصاد. وقال سليمان بن داود - عليهما السلام - لابنه: امشِ وراءَ الأَسَد، ولا تمشِ وراء المرأة. وسمع عُمرُ بن الخطاب - رضي الله تعالى - عنه امرأةً تقول هذا البيت:

**إنَّ النِّساءَ رَياحينٌ خُلِقْنَ لَكُم ... وكلُّكم يَشْتَهِي شَمَّ الرَّياحينِ**

فقال عمر - رضي الله تعالى عنه -:

**إنَّ النساء شياطينٌ خُلِقْنَ لنا ... نعوذُ بالله مِنْ شرِّ الشياطينِ**

**وإن كان العَقْدُ رغبةً في الدِّين:** فهو أوثَقُ العقود حالاً، وأدومُها ألفةً، وأحمدُها بَدْءًا وعاقبة؛ لأنَّ طالب الدِّين مُتَّبع له، ومن اتَّبع الدِّين انقادَ له، فاستقامت له حاله، وأمِن زَلَله، ولذلك قال النبيّ ﷺ: «**فاظْفَرْ بذاتِ الدِّين تَرِبَتْ يداك**»[٤]. وفيه تأويلان:

**أحدهما** - تربت يداك إن لم تظفر بذات الدين[٥].

**والثاني** - أنَّها كلمة تذكر للمبالغة، ولا يرادُ بها سُوء، كقولهم: ما أشجَعَه، قاتلَه الله!

(١) **الإدلال**: الاجتراء على المرء وثوقًا بشدة محبته للمجترئ عليه.
(٢) **ممرعًا**: أي خصيبًا. **المنتجع**: هو من يطلب الأماكن الخصيبة للرعي.
(٣) **الصبوة**: جهالة الشباب.
(٤) سبق تخريجه ص١٤٦ .
(٥) أي خَسِرْتَ وافتقرْتَ حتى تعفَّرت يداك بالتراب.

**وإن كان العَقْد رغبةً في الألفة:** فهذا يكونُ على أحد وجهين:
إمَّا أن يُقْصد به المكاثرة باجتماع الفريقين، والمظافرة بتناصر الفئتين.
وإمَّا أن يُقْصد به تألُّف أعداء متسلِّطين، استكفافًا لعاديَتهم، وتسَكينًا لصولتهم.

وهذان الوجهان قد يكونان في الأماثل وأهل المنازل؛ وداعي الوجه الأول: هو الرَّغبة، وداعي الوجه الثاني: هو الرَّهبة؛ وهما سببان في غير المتناكحَيْن، فإن استدام السَّببُ، دامت الأُلفة، وإن زال السبب بزوال الرغبة والرهبة، خَيفَ زوالُ الأُلفة، إلاَّ أن يضمَّ إليها أحدُ الأسباب الباعثة عليها، والمقرِّبة لها.

**وإن كان العَقْدُ رغبةً في التعفُّف:** فهو الوجْهُ الحقيقيُّ المبتَغى بعقد النكاح، وما سوى ذلك فأسباب مُعَلَّقة عليه، ومضافة إليه. رُوي أنَّه لما نزل قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء: ١)، قال النبيّ ﷺ: **«خُلِقَ الرجلُ من التراب فهمُّه في التراب، وخُلقت المرأة من الرجل فهمُّها في الرجل»**[١]. وروى عطية بن بشر، عن عكَّاف بن وَدَاعة الهلاليّ: أنَّ النبيّ ﷺ قال له: **«يا عكَّاف، ألكَ زوجة؟»**، قال: لا، قال: **«فأنتَ إذن مِن إخوان الشياطين؛ إن كنتَ من رُهْبان النصارَى فالْحَق بهم، وإنْ كنت منّا فمِن سُنَّتنا النِّكاح»**[٢]. فكان هذا القولُ منه ﷺ حثًا على التعفُّف عن الفساد، وباعثًا على التكاثر بالأولاد. ولهذا المعنى كان النبيّ ﷺ يقول للقُفَّال من غَزْوهم: **«إذا افضَيْتُم إلى نسائكم، فالكَيْسَ الكَيْسَ»**[٣]؛ يعني في طلب الولد. فلزم حينئذ في عَقْد التعفُّف تحكيمُ الاختيار فيه، والتماسُ الأدوَم من دواعيه، وهي نوعان: نوعٌ يمكن حَصْرُ شروطه، ونوعٌ لا يمكن؛ لاختلاف أسبابه، وتغاير شروطه. فأما الشروط المحصورة فيه فثلاثة شروط:

**أحدها** ـ الدِّينُ المفضي إلى الستر، والعفاف المؤدِّي إلى القناعة والكَفاف. قال أبو هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ: **«لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مُؤمِنة، إن كَرِهَ منها خُلُقًا، رضي منها خُلُقًا»**[٤].

---

(١) لم أصل إليه.
(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٥٨) (١٨/١٨٥)، وأبو يعلى (٦٨٥٦) من طريق بقية بن الوليد عن معاوية بن يحيى بن سليمان بن موسى عن مكحول عن غصيف بن الحارث عن عطية بن بسر المازني قال: جاء عكاف بن وداعة الهلالي إلى رسول الله ﷺ.
(٣) أخرجه البخاري (١٩٩١)، ومسلم (٧١٥) ومعنى الكيس الكيس أي: طلب الولد.
(٤) أخرجه مسلم (١٤٦٩).

وخَطَبَ رجلٌ من عبد الله بن عباس - رضي الله تعالى عنهما - يتيمةً كانت عنده، فقال: لا أرضاها لك. قال: ولِمَ وفي دارك نُشِّئت؟ قال: إنها تَتَشَرَّف. قال: لا أبالي، فقال: الآنَ لا أرضاك لها. وفي معنى هذا قولُ بعضِ الحكماء: من رَضِيَ بصحبة من لا خيرَ فيه، لم يرضَ بصحبته من فيه خيرٌ.

**والشرط الثاني** - العقل الباعث على حسن التقدير، الآمر بصواب التدبير. فقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: **«العقل حيث كان ألوف ومألوف»**[1]. ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: **«عليكم بالودُود الولود، ولا تنكحوا الحمقاءَ؛ فإنَّ صحبتها بلاءٌ، وولدها ضَيَاع»**[2].

**والشرط الثالث** - الأكْفاء الذيـن يَنتَفِي بهم العار، ويحصل بهم الاستكثار. فقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: **«تخيَّروا لنُطَفكُم، ولا تَضَعوها إلاَّ في الأكْفاء»**[3]. ورُوي أنَّ أكثمَ بنَ صَيْفيّ قال لولده: يا بَنيَّ، لا يحملنَّكم جمالُ النساء عن صراحة النسب؛ فإنَّ المناكح الكريمة مَدْرَجة للشرف[4]. وقال أبو الأسود الدؤلي لبنيه: قد أحسنتُ إليكم صغارًا وكبارًا، وقبل أن تُولدوا. قالوا: وكيفَ أحسنتَ إلينا قبلَ أن نولد؟ قال: اخترتُ لكم من الأمَّهات من لا تُسَبُّون بها. وأنشدَ الرّياشي:

فأوَّلُ إحساني إليكم تَخيُّري ... لماجدة الأعْراقِ بادٍ عَفَافُها

وقد ينضم إلى هذه الشروط من صفات الذات، وأحوال النَّفْس، ما يلزمُ التحرّز منه؛ لبُعد الخير عنه، وقلَّة الرُّشْد فيه، فإنَّ كوامن الأخلاق بادية في الصُّوَر والأشكال، رُوي عن النبي ﷺ[5] أنه قال لزيد بن حارثة: **«أتَزَوَّجْتَ يا زيد»**؟ قال: لا، قال: **«تزوَّج تَسْتَعْفِفْ مع عفتك، ولا تتزوج من النساء خمسًا»**. قال: وما هُنّ يا رسول الله؟ قال: **«لا تتَزوَّجْ شَهْبَرَةً، ولا لَهْبَرَةً، ولا نَهْبَرَةً، ولا هَيْذَرة، ولا**

---

(١) سبق تخريجه (ص١٥).

(٢) لم أقف عليه بلفظه وأصله في «المستدرك» (٢/ ١٧٦) (٢٦٨٥)، وأخرجه أبوداود (٢/ ٢٢٠) (٢٠٥٠)، والنسائي في «الكبرى» (٥/ ٣٦١) (٩١٣٩).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ١٧٦) (٢٦٨٧).

(٤) أي طريق ومعبر يؤدي إلى الشرف.

(٥) ذكره في «كنز العمال» (٦/ ٣٩٥)، وعزاه للديلمي.

**لَفُوتًا»**. قال: يا رسول الله، ما أعرفُ مما قلتَ شيئًا. قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«أما الشَّهْبرة: فالزَّرقاء البَذية؛ و أما اللَّهْبَرة: فالطويلة المَهْزُولة؛ و أما النَّهْبرة: فالعجوز المُدْبرة؛ وأما الهَيْذَرة: فالقصيرة الدَّميمة؛ وأمَّا اللَّفوت: فذاتُ الولد من غيرك»**.

وقال شيخ من بني سُلَيم لابنه: يا بُنيَّ، إياك والرَّقُوبَ الغضوبَ القَطُوب[1]؛ الرَّقُوب: التي تراقبه حتى يموت، فتأخذ مالَه. وأوصى بعضُ الأعراب ابنه في التزويج، فقال: إياكَ والحَنَّانَةَ والمَنَّانة والأنَّانة. فالحنَّانة التي تحنُّ إلى زوجٍ كان لها، والمنَّانة: التي تمُنُّ على زوجها بمالها. والأنَّانة: التي تئنُّ كسلاً وتمارُضًا.

وقال أَوْفَى بن دُلْهُم: النساءُ أربَع؛ فمنهُنَّ مَعْمَع، لها شيئُها أجمع؛ ومنهنّ مَمْنَع تضُرُّ ولا تنفع؛ ومنهنَّ مَصْدَع، تفرِّقَ ولا تجمع؛ ومنهن غَيثٌ وقَع في بلد فأمْرَع[2]. وقال الشاعر:

**أرَى صاحبَ النِّسوانِ يحسبُ أنَّها … سَواءٌ، وبَوْنٌ بينهُنَّ بَعيدُ**

**فمِنْهُنَّ جَنَّاتٌ تَفِيءُ ظِلالُها … ومنهنَّ نيرانٌ لَهُنَّ وَقُودُ**

وأنشد أبو العَيْناء، عن أبي زيد:

**إنَّ النساءَ كأشجارٍ نَبتْنَ مَعًا … منهنَّ مُرٌّ وبعضُ المرِّ مأكولُ**

**إنَّ النساءَ ولو صُوِّرْنَ من ذهَبٍ … فيهنَّ من هفَوَاتِ الجَهْلِ تَخْييلُ**

**إنَّ النساء متى يُنْهَيْنَ عن خُلُقٍ … فإنَّه واجب، لابدَّ مَفْعُولُ**

**ومَا وَعَدْنَكَ من شرٍّ وفَيْنَ به … ومَا وَعَدْنَك من خَيْرٍ فَمَمْطُولُ[3]**

**وأمَّا النَّوع الآخر**: وهو الذي لا يمكن حصر شروطه، لأنه قد يختلف باختلاف الأحوال، وينتقلُ بتنقُّل الإنسان والأزمان، ولأنه لا يُسْتَغْنَى فيه عن موافقة النفس، ومتابعة الشهوة؛ ليكون أدومَ لحال الأُلفة، وأمَدَّ لأسباب الوُصْلة؛ فإنَّ الرأي المعلول لا يَبْقَى على حاله، والميلَ المدخول لا يدومُ على دَخَله، فلابدَّ أن ينتقل إلى إحدى حالتين؛ إمَّا إلى الزيادة والكمال، وإما إلى النقصان والزوال.

---

(١) القطوب: العابسة تقطب وجهها.

(٢) أي أصبح خصيبًا.

(٣) أي تماطل وتؤجل في أدائه.

حُكِيَ أن رجلاً قال لعليّ بن أبي طالب ـ كرَّم الله وجهه ـ: إنِّي أُحبُّك وأُحبُّ معاوية. فقال ـ رضي الله تعالى عنه ـ: أما الآن فأنتَ أعور؛ فإمَّا أن تبرأ، وإماَ أن تَعْمَى. وإذا كان كذلك، فلابدَّ من كشف السبب الباعث على هذا النوع، فإنه لا يخلو من ثلاثة أحوال:

**أحدها** ـ أن يكون العقد لطلب الولد؛ فالأحمدُ فيه التماسُ الحداثة والبكارة؛ لأنَّها أخصُّ بالولادة، وقد رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**عليكم بالأبكار، فإنَّهن أعذَبُ أفواهًا، وأنتَقُ أرحامًا، وأرضَى باليسير**»[1].

ومعنى قوله: «**أنتق أرحامًا**» أي أكثر أولادًا. وقال مُعاذ بن جبل ـ رضي الله تعالى ـ عنه: عليكم بالأبكار؛ فإنَّهنَّ أكثرُ حُبًا، وأقلُّ خِبًا[2]، وهذه الحال هي أولى الأحوال الثلاث؛ لأنَّ النكاح موضوع لها، والشرع وارد بها. وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «**سَوداءُ ولود خيرٌ من حسناءَ عاقر**»[3]. والعرب تقول: من لم يلد فلا وُلد. وقد كانوا يختارون لمثل هذه الحال نكاحَ البعداء الأجانب، ويرون أن ذلك أنجبُ للولد[4]، وأبهى للخلقة، ويجتنبون إنكاح الأهل والأقارب، ويرونه مُضويًا[5] لخلق الولد، بعيدًا من نجابته، رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**اغتربوا ولا تُضوُوا**»[6]. ورُوي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ أنه قال: يا بني السائب، قد أضويتم، فانكحوا في الغرائب. وقال الشاعر:

**تجاوزتُ بنتَ العمِّ وَهْيَ حَبيبةٌ ... مخافَةَ أن يَضْوَى عَلَيَّ سَليلي**

وكانت حكماء المتقدِّمين يَرَوْن أن أنجبَ الأولاد خَلْقًا وخُلُقًا من كان سنُّ أمه ما بين العشرين والثلاثين، وسنُّ أبيه ما بين الثلاثين والخمسين. والعربُ تقول: إنَّ ولد الغَيْرَى لا ينجُب، وإنَّ أنجَبَ النساءِ الفَرُوك[7]؛ لأنَّ الرجل يغلبها على

(١) أخرجه ابن ماجه (١/ ٥٩٨)، وابن أبي شيبة (٤/ ٥٢).
(٢) أي خديعة وغشًا.
(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٩/ ٤١٦) (١٠٠٤): عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده.
(٤) **النجابة**: النباهة والفطنة.
(٥) أي سببًا في هزال الولد وضعف بُنيته.
(٦) انظر «التلخيص الحبير» (٣/ ١٤٦) (١٤٨١).
(٧) أي التي تكره زوجها.

الشبه؛ لزهدها في الرجل. وقالوا: إنَّ الرجل إذا أكره المرأة وهي مَـذْعورة، ثم أذكرت[1] أنجبَتْ.

**والحال الثانية** ـ أن يكون المقصودُ به القيامَ بما يتولاَّه النساء من تدبير المنازل، فهذا وإن كان مختصًا بمعاناة النساء، فليس بألزم حالتي الزَّوْجات؛ لأنَّه قد يجوز أن يعانيَـهُ غيرُهن من النساء، ولذلك قيل: المرأة رَيحانة، وليست بقَهْرَمانة[2]. وليس في هذا القصد تأثيرٌ في دين، ولا قَدْحٌ في مُروءة. والأحمدُ في مثل هذا التماس ذوات الأسنان والحُنْكة، ممن قد خَبَرْن تدبيرَ المنازل، وعرفن عادات الرجال، فإنهن أقومُ بهذه الحال.

**والحال الثالثة** ـ أن يكون المقصودُ به الاستمتاعَ، وهي أذمُّ الأحوال الثلاث، وأوهنها للمروءة، لأنَّه ينقاد فيه لأخلاقه البهيمية، ويتابع شهواته الذَّميمة؛ وقد قال الحارث بن النَّضْر الأزدي: شرُّ النكاح نكاح الغُلْمة[3]، إلاَّ أن يفعل ذلك لكسر الشهوة وقهرها، بالإضعاف لها عند الغَلَبَة، أو تسكين النفس عند المنازعة، حتى لا تطمحَ لـه عينٌ لِريبة، ولا تتازعه نفس إلى فجور، ولا يلحقه في ذلك ذمّ، ولا يناله وَصْمٌ؛ وهو بالحمد أجدر، وبالثناء أحق. ولو تنزَّه في مثل هذه الحال عن استبذال الحرائر إلى الإماء، كان أكمل لمروءته، وأبلغ في صيانته.

وهذه الحال تقف على شهوات النفس، لا يمكن أن يرجح فيها أَوْلَى الأُمور، وهي أخطر الأحوال بالمنكوحة؛ لأنَّ للشهوات غايات متناهية، يزول بزوالها ما كان متعلّقًا بها، فتصيير الشهوة في الابتداء كراهيةً في الانتهاء، ولذلك كَرِهت العرب البنات ووأدَتْهُنَّ؛ إشفاقًا عليهن، وحميةً لهن من أن يتذلهنّ اللئام بهذه الحال، وكان مَنْ تحوَّب[4] من قتل البنات؛ لرقة أو محبة، كان موتهُنَّ أحبَّ إليه، وآثرَ عنده. خُطِبَ إلى عقيل بن عُلَّفة ابنته الجَرْباء، فقال مرتجزًا:

إنّي وإن سِيقَ إليَّ المهرُ ... ألفٌ وعبدانٌ وَذَودٌ عَشْرُ[5]

---

(١) أي: أتتْ بذَكَر.

(٢) **القهرمانة**: مديرة شؤون المنزل.

(٣) أي شدة الشهوة للجماع.

(٤) أي اجتنب إثم وأد البنات.

(٥) **ألف**: أي ألف دينار.

أحَبُّ أصــهــاري إليَّ القَــبْــرُ

وقال عُبيدُ الله بن عبد الله بن طاهرٍ:

لكلِّ أبي بنت يراعي شــؤونَهــا ... ثلاثةُ أصهــار إذا حُــمِـدَ الصِّــهْــرُ
فبــعلٌ يراعــيــهــا وخِــدْرٌ يُكِنُّهــا ... وقــبْــرٌ يواريهــا وأفــضلهــا القــبْــرُ

## فصل

**وأما المؤاخاة بالمودة:** وهي الرابع من أسباب الألفة: فلأنها تُكْسِبُ بصادق الميل إخلاصًا ومــصافاةً، وتحدث بخلوص المصــافاة وفاء ومُحامــاة، وهذا أعلى مراتب الألفــة، ولذلك آخى رســول الله ﷺ بين أصحــابه؛ لتــزيد أُلفــتهم، ويقــوى تضافُــرُهم وتناصرُهم. ورُوي عن النَّــبيِّ ﷺ أنه قال: «**عليكم بإخوان الصِّدق؛ فإنَّهم زينةٌ في الرَّخاء، وعِصْمَةٌ في البلاء**»[(١)].

ورَوى أبو الزُّبير عن سهل بن سعد، أن النبي ﷺ قال: «**المرء كثير بأخيه، ولا خير في صحبةِ مَن لا يَرَى لكَ من الحقِّ مثلَ ما ترى له**»[(٢)].

وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ: لقاءُ الإخوان جَلاء الأحزان.

وقال خالد بن صفوان: إنَّ أعجز الناسِ من قصَّر في طلب الإخوان، وأعجزَ منه من ضــيَّع من ظفر به منهم. وقــال عليٌّ ـ كرَّم الله وجــهه ـ لابنه الحــسن: يا بنيّ، الغريبُ من ليس له حَبيب. وقال عبــد الله بن المعتزّ: من اتخذ إخوانًا كانوا له أعــوانًا. وقال بــعضُ الأدباء: أفضَلُ الذخــائر أخٌ وفيّ. وقــال بعضُ البلغــاء: صديق مساعد عَضُدٌ وساعد. وقال بعضُ الشعراء:

هُمُــومُ رجــال في أمــور كــثــيــرةٍ ... وهَمِّي من الدنيــا صــديقٌ مــســاعــدُ
نكون كــروح بين جــســمين قُــسِّمَتْ ... فجسماهما جسمان والرُّوحُ واحدُ

وقيل: إنَّما سمي الصديق صديقًا لــصدقه، والعدوُّ عدوًا لعَدْوه عليك. وقال ثعلب: إنما سمي الخليل خلــيلاً؛ لأنَّ مَحبــتَّه تتخلَّل القَلْبَ، فلا تَدَعُ فــيه خَللاً إلاَّ مَلأته.

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٣٢٣) (٨٣٤٢)، وذكره القزويني في «أخبار قزوين».
(٢) «مسند الشهاب» (١٨٥) بلفظ: «المرء كثير بأخيه»، دون هذه الزيادة.

وأنشد الرياشيّ قول بشار:

• قـد تخلَّلْتِ مسلكَ الرُّوح مِنِّي ... وبه سمِّي الخليلُ خَلِيلاَ

**والمؤاخاة في الناس:** قد تكون على وجهين:

**أحدهما** - أُخُوَّة مكتسبة بالاتفاق الجاري مجرى الاضطرار.

**والثانية** - أخوَّة مكتسبة بالقَصْد والاختيار.

فأما المكتسبة بالاتفاق، فهي أوكَدُ حالاً؛ لأنَّها تنعقد عن أسباب تقوده إليها، والمكتسبة بالقَصْد تُعْقد لها أسباب تنقاد إليها، وما كان جاريًا بالطبع، فهو ألزمُ مما هو حادث بالقصد. ونحن نبدأ بالوجه الأوَّل المكتسب بالاتفاق، ثم نُعْقِبه بالوجه الثاني المكتسب بالقصد.

**أما المكتسب بالاتفاق:** فله أسباب نبتدئ بها، ثم ننتقل في غاية أحواله المحدودة إلى سبع مراتب، ربما استكملتهن، وربما وقفت على بعضهن، ولكل مرتبةٍ من ذلك حكم خاصّ، وسبب موجب، كما قال الشاعر:

ما هَوىً إلاَّ له سببُ ... يبتدي منهُ وينْشَعِبُ

**فأول أسباب الإخاء:** التجانس في حال يجتمعان فيها، ويأتلفان بها، فإنْ قَوِيَ التجانس قوي الائتلاف به، وإن ضعف كان ضعيفًا به، ما لم تحدث علَّة أخرى يقوى بها الائتلاف، وإنَّما كان كذلك؛ لأنَّ الائتلافَ بالتشاكل[1]، والتشاكلَ بالتجانس، فإذا عدمن التجانس من وجه، انتفَى التشاكل من كُلِّ وجه، ومع انْتفاء التشاكُل يعدم الائتلاف، فثبت أن التجانس - وإن تنوَّع - أصلُ الإخاء، وقاعدةُ الائتلاف. وقد رَوَى يحيى بن سعيد، عن عَمْرة، عن عائشة - رضي الله تعالى عنها -، عن النبي ﷺ أنه قال: **«الأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ، فما تعارَفَ منها ائتلَفَ، وما تناكَرَ منها اختلفَ»**[2]. وهذا واضح. وهي بالتجانس متعارفة، وبفقده متناكرة. وقد قيل في منثور الحكم: الأضداد لا تتفق، والأشكال لا تفترق. وقال بعض الحكماء: بحُسْنِ تشاكُل الإخوان يلْبَثُ التَّواصُلُ. ولبعضهم:

---

(١) أي بالاتفاق.

(٢) سبق تخريجه.

فلا تحقرَنْ نفسي وأنتَ خليلُها ... فكُلُّ امرئٍ يصبُو إلى مَن يشاكلُ

وقال آخر:

فقلتُ أخي قالوا أخٌ من قَرابةٍ ... فقلت لهم: إن الشُّكُولَ أقاربُ

نَسيبيَ في رأيي وعَزْمي وهِمَّتي ... وإن فَرَّقَتْنا في الأصول المَناسبُ

ثم قد يحدُث بالتجانس المواصلة بين المتجانسين، وهي «المرتبة الثانية» من مراتب الإخاء، وسبب المواصلة بينهما، وُجودُ الاتفاق منهما، فصارت المواصلةُ نتيجةَ التجانس، والسببُ فيه وجودُ الاتفاق؛ لأنَّ عدم الاتفاق منفِّر. وقد قال الشاعر:

الناسُ إنْ وافقتَهُم عَذُبُوا ... أَوْ لا فإنَّ جَنَاهُمُ مُرُّ

كَم من رياضٍ لا أنيسَ بها ... تُرِكَتْ لأنَّ طريقَها وعْرُ

ثم يحدُث عن المواصلة «رتبة ثالثة»، وهي المؤانسة، وسببها الانبساط، ثم يحدُث عن المؤانسة «رتبة رابعة»، وهي المصافاة، وسببها خُلوص النِّيَّة؛ ثم يحدث عن المصافاة، «رتبة خامسة»، وهي المودَّة، وسببها الثقة؛ وهذه الرتبة هي أدنى الكمال في أحوال الإخاء، وما قبلَها أسبابٌ تعود إليها، فإن اقترن بها المعاضدة[1]، فهي الصداقة؛ ثم يحدث عن المودَّة «رتبة سادسة»، وهي المحبَّة، وسببها الاستحسان؛ فإنْ كان الاستحسان لفضائل النفس، حدثت منه «رتبة سابعة»، وهي الإعظام؛ وإن كان الاستحسان للصورة والحركات، حدثت منه «رتبة ثامنة»، وهي العِشق، وسببه الطَّمَعُ؛ وقد قال المأمون:

أوَّلُ العِشْقِ مُزاحٌ وَوَلَعْ ... ثُمَّ يزدادُ إذا زادَ الطَّمَعْ

كُلُّ مَن يهوَى وإن علَتْ به ... رتبةُ الملك لمن يهوَى تَبَعْ

وهذه الرتبة هي آخر الرتب المحدودة، وليس لما جاوزها رتبة مقدَّرة، ولا حالة محدودة؛ لأنَّها قد تؤول إلى ممازجة النفوس، وإن تميَّزت ذواتها، وتفضي إلى مخالطة الأرواح، وإن تفارقت أجسادها، وهذه حال لا يمكن حصر غايتها، ولا الوقوف عند نهايتها.

---

(١) أي المعاونة.

وقد قال الكندي: الصَّديقُ إنسان هو أنتَ إلاَّ أنه غيرُك. ومثلُ هذا القولُ المرْويّ عن أبي بكر الصدِّيق - رضي الله تعالى عنه - في عمر، حين أقطَعَ طلحةَ ابن عُبيد الله أرضًا، وكتب له بها كتابًا، وأشهد فيها ناسًا منهم عُمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه -، فأتى طلحةُ بكتابه إلى عُمر - رضي الله تعالى عنه - ليختمه، فامتنع عليه، فرجع طلحة مُغضبًا إلى أبي بكر - رضي الله تعالى عنه -، وقالَ: والله ما أدري: أنتَ الخليفة أم عُمر؟ فقال: بل عُمر، لكنه أبى.

**وأما المكتسبة بالقصد:** فلابدَّ لها من داعٍ يدعو إليها، وباعثٍ يبعث عليها، وذلك من وجهين: رَغبة وفاقة.

**فأمَّا الرَّغبة: فهي:** أن يظهر من الإنسان فضائلُ تبعَثُ على إخائه، ويتوسَّم بجميلٍ يدعو إلى اصطفائه. وهذه الحال أقوى من التي بعدها؛ لظهور الصفات المطلوبة، من غير تكلُّف لطلبها. وإنَّما يخاف عليها من الاغترار بالتصنع لها، فليس كُلُّ من أظهر الخيْرَ كان من أهله، ولا كُلُّ من تخلَّق بالحُسنى كانت من طبعه، والمتكلِّف للشيء مناف له، إلاَّ أن يدومَ عليه مستحسنًا له في العقل، أو متدينًا به في الشرع، فيصير متطبِّعًا به، لا مطبوعًا عليه؛ لأنَّه قد تقدَّم من قول الحكماء: ليس في الطبع أن يكون ما ليس في التطبُّع.

ثم نقول: من المتعذِّر أن تكونَ أخلاقُ الفاضل كاملةً بالطبع، وإنَّما الأغلبُ أن يكونَ بعضُ فضائله بالطبع، وبعضُها بالتطبُّع الجاري بالعادة مجرَى الطبع، حتَّى يصيرَ ما تطبَّع به في العادة أغلبَ عليه مما كان مطبوعًا عليه إذا خالف العادة، ولذلك قيل: العادَةُ طبعٌ ثانٍ، وقال ابن الرومي - رحمه الله -:

**واعلمْ بأن الناسَ من طينةٍ ... يصدُق في الثَّلْب لها الثالبُ[١]**

**لولا علاجُ النَّاس أخلاقَهُم ... إذن لَفاحَ الحمأُ اللازِبُ[٢]**

**وأما الفاقة: فهي:** أن يفتقرَ الإنسان - لوحشة انفراده، ومَهانة وَحْدته - إلى اصطفاء مَن يأنس بمؤاخاته، ويثقُ بنُصْرَته ومُوالاته. وقد قالت الحكماء: من لم

---

(١) **الثالب:** هو التصريح بالعيب وذم صاحبه به.

(٢) **الحما اللازب:** الطين الأسود ذو الرائحة الكريهة.

يرغبْ في ثلاث بُلِيَ بستّ: من لم يرغَبْ في الإخوان بُلِيَ بالعداوة والخذْلان، ومن لم يرغب في السَّلامة بُلِيَ بالشدائد والامتهان، ومن لم يرغبْ في المعروف بُلِي بالندامة والخُسْران، ولعمري إنَّ إخوان الصِّدْق من أنفس الذَّخائر، وأفضل العُدَد؛ لأنهم سُهمان[1] النفوس، وأولياء النوائب. وقد قالت الحكماء: رُبَّ صديق أودُّ من شقيق. وقيل لمعاوية: أيُّ الناس أحبُّ إليك؟ قال: صديق يُحَبِّبني إلى الناس. وقال ابن المعتز: القريبُ بعداوته بعيدٌ، والبعيدُ بمودَّته قريب، وقال الشاعر:

لَمودَّةٌ مِمَّن يحبُّكَ مُخْلِصًا ... خيرٌ منَ الرَّحِمِ القريبِ الكاشحِ[2]

وقال آخر:

يخُونك ذو القُربَى مِرَارًا، وربَّما ... وَفَى لك عندَ العَهْدِ مَن لا تناسِبُه

فإذا عزم على اصطفاء الإخوان سَبَرَ أحوالَهم قبل إخائهم، وكَشفَ عن أخلاقهم قبل اصطفائهم؛ لما تقدَّم من قول الحكماء: اسبُرْ تَخْبُر. ولا تبعثه الوحدة على الإقدام قبل الخبرة، ولا حسنُ الظنِّ على الاغترار بالتصنُّع، فإنَّ الملَقَ مصائد العقول، والنِّفاقَ تدليس الفطَن، وهما سجية المتصنِّع، وليس فيمن يكون النِّفاقُ والملَقُ بعضَ سجاياه خيرٌ يُرْجَى، ولا صلاحٌ يؤمَّل. ولأجل ذلك قالت الحكماء: اعرف الرجلَ من فعله، لا من كلامه، واعرف محبته من عينه، لا من لسانه. وقال خالد بن صفوان: إنما نَفَقْتُ عند إخواني؛ لأنّي لم أستعملْ معهم النِّفاق، ولا قصَّرْت بهم عن الاستحقاق. وقال حَمَّاد عَجْرَد:

كم من أخٍ لك ليس تُنكرهُ ... ما دُمْتَ في دنياك في يُسْرِ
مُتَصَنِّعٍ لكَ في مَوَدَّتِه ... يلقاكَ بالتَّرحيبِ والبِشْرِ
فإذا عدا - والدَّهر ذو غِيَرٍ - ... دَهْرٌ عليك عدا مع الدَّهرِ
فارْفُضْ بإجمالٍ مودَّةَ مَنْ ... يَقْلَى المقِلَّ ويعشَقُ المُثْري
وعليكَ مَنْ حالاهُ واحِدَةٌ ... في العُسْرِ إمَّا كُنْتَ واليُسْرِ

---

(١) سُهمان: جمع سهم وهو النصيب.

(٢) الكاشح: المضمر للعداوة.

على أنَّ الإنسـان موسـوم بسـيمـاء مَن قارَبَ، ومنسـوبٌ إليـه أفاعيلُ مَن صاحبَ. قال رسول الله ﷺ: «المرءُ مع مَن أحبَّ»[1]. وقال عليٌّ بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ: الصاحبُ مُناسب. وقال عبدُ الله بن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ: مـا من شيءٍ أدل عَلَى شيء، ولا الدّخان على النـار، من الصاحب على الصـاحب. وقال بعضُ الحكمـاء: اعرف أخـاك بأخيـه قَبْلَكَ. وقـال بعضُ الأدباء: يُظَنُّ بالمرء ما يُظَنُّ بقرينه. وقال عَدِيُّ بن زيد:

**عن المَرْءِ لا تَسْأَلْ وَسَلْ عَن قَرينِه ... فكُلُّ قَرينٍ بالمُقَارَنِ يَقْتَدي**

**إذا كنْتَ في قوم فصاحبْ خيارَهُمْ ... ولا تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَرْدَى مع الرَّدِي**

فلزِمَ من هذا الوجه أيضًا أن يتحرَّز من دُخَلاء أهلِ السُّوء، ويجانبَ صحبة أهل الرِّيَب، ليكون مـوفورَ العِرْض، سليم الغَـيْب، فلا يُلام بملامة غـيره، وهذا قبل التثبُّت والارتياء ومـداومة الاختبار والابتلاء؛ متعـذِّرٌ بل مفقودٌ. وقـد ضرب ذو الرُّمَّة مَثَلاً بالماء، فيمن حَسُن ظاهره، وخَبُث باطنه، فقال:

**ألم تَرَ أنَّ الماء يخبُث طَعمُهُ ... وإنْ كان لونُ الماءِ أبيَضَ صافيا**

ونظر بعضُ الحكماء إلى رجلٍ سَوْءٍ حَسَنِ الوجه، فقال: أمَّا البيتُ فحسَنٌ، وأمَّا السَّاكنُ فرديءٌ؛ فأخذ جَحْظَةُ هذا المعنى، فقال:

**رَبَّ ما أَبينَ التَّبَايُنَ فيهِ ... منزلٌ عامرٌ وعَقْلٌ خَرابُ**

وأنشدَني بعضُ أهل العلم:

**لا تَرْكَنَنَّ إلى ذي مَنظَرٍ حَسَنٍ ... فرُبَّ رائقةٍ قد ساءَ مَخْبرُها**

**ما كلُّ أصفَرَ دينارٌ لصفرتِه ... صُفْرُ العقاربِ أرداها وأنكَرُها**

ثم قد تقدَّم من قول الحكماء: من لم يقدِّم الامتحان قبلَ الثِّقة، والثِّقة قبلَ الأنس، أثمرَتْ مودَّتُه ندَمًا. وقال بعضُ البلغاء: مُصارَمةٌ قبلَ اختبارٍ أفضلُ من مؤاخاة على اغترار. وقال بعضُ الأدباء: لا تثق بالصديق قبل الخِبْرة، ولا تُوقِع بالعدوِّ قبل القُدْرة. وقال بعضُ الشعراء:

---

(١) أخرجه ابن حبان (٥٥٧).

لا تَحْمَدَنَّ امرءاً حتَّى تجرِّبَهُ ... ولا تذمَّنَّهُ من غيرِ تجريبْ

فحمدُكَ المَرْءَ ما لَمْ تَبْلُهُ خطأٌ ... وذَمُّكَ المَرْءَ بَعْدَ الحمدِ تكذيبْ

فإذنْ قد لزم من هذين الوجهين سَبْرُ الإخوان قبلَ إخائهم، وخِبْرَةُ أخلاقهم قبلَ اصطفائهم؛ فالخصالُ المعتبرةُ في إخائهم بعدَ المجانسة التي هي أَصل الاتفاق، أربعُ خصال:

**فالخصلة الأولى** - عقل موفور، يهدي إلى مراشد الأمور؛ فإنَّ الحُمْقَ لا تثبت معه مودَّة، ولا تدومُ لصاحبه استقامة. وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: **«البَذَاء لُؤمٌ، وصحبة الأحمق شُؤم»**[(١)].

وقال بعض الحكماء: عداوة العاقل، أقلُّ ضرراً من مودَّة الأحمق؛ لأنَّ الأحمقَ ربَّما ضرَّ وهو يقدِّر أنَّه ينفع، والعاقل لا يتجاوز الحدَّ في مضرَّته، فمضرَّته لها حَدٌّ يقفُ عليه العقل، ومضرَّةُ الجاهل ليست بذات حدٍّ، فالمحدود أقلُّ ضرراً ممَّا هو غير محدود. وقال المنصور للمسيب بن زُهَير: ما مادَّةُ العقل؟ فقال: مجالسَةُ العقلاء. وقال بعضُ البلغاء: من الجهلِ صحبةُ ذوي الجهل، ومن المُحال مجادَلَةُ ذوي المحال[(٢)]. وقال بعضُ الأدباء: مَنَ أشار عليك باصطناع جاهلٍ أو عاجزٍ، لم يَخْلُ أن يكونَ صديقًا جاهلاً، أو عدوًا عاقلاً؛ لأنَّه يشير بما يضرُّ بك، ويحتال فيما يضَع منك. وقال بعضُ الشعراء:

إذا ما كنتَ متخذاً خليلاً ... فلا تَثِقَنْ بكُلِّ أخي إخاءِ

فإن خُيِّرْتَ بينَ الناس فالْصَقْ ... بأهلِ العَقْلِ منهم والحياءِ

فإنَّ العَقْلَ ليس له إذا ما ... تفاضَلَتِ الفضائلُ من كِفاءِ

**والخصلة الثانية** - الدِّين الواقف بصاحبه على الخيرات، فإنَّ تارك الدِّين عدوٌّ نفسه، فكيف يُرْجَى منه مودَّة غيره. وقال بعضُ الحكماء: اصْطَفِ من الإخوان ذا الدِّين والحسب، والرأي والأدب، فإنه ردْءٌ لك عندَ حاجتك، ويَدٌ عند نائبتك، وأُنسٌ عند وَحشَتك، وَزَيْنٌ عند عافيتك. وقال حسان بن ثابت - رضي الله تعالى عنه -:

---

(١) لم أقف عليه بلفظه، وبلفظ آخر أخرجه الترمذي (١٩٣٢).

(٢) أي ذوي المكر والدهاء، لأنها لا تجدي نفعًا.

أخِــلاَّءُ الرَّخَــاءِ هُمُ كَــثِــيــرُ ... لكنْ في البـــــلاءِ هُمُ قليلُ

فــلا يَغْــرُرْكَ خُلّةُ من تُؤاخِي ... فــمــا لكَ عند نائبَــةِ خليلُ

وكُـلُّ أخٍ يقـــــــــولُ أنا وفـيٌّ ... ولكِنْ ليسَ يفــعَلُ مــا يقــولُ

سِـــوَى خِلٌّ له حَـــسَبٌ ودِينٌ ... فــذاك لِما يقــولُ هُو الفَــعُــولُ

وقال آخر:

مَن لم تكن في الله خُلَّتـــــه ... فـــــخليلُه منه على خَطَر

والخصلة الثالثة - أن يكونَ محمودَ الأخلاق، مَرْضيَّ الأفعال، مؤثرًا للخير، آمرًا به، كارهًا للشر، ناهيًا عنه؛ فإنَّ مودَّةَ الشِّرِّير تُكْسِبُ الأعداء، وتفسدُ الأخلاق؛ ولا خيرَ في مودَّة تجلُب عداوةً، وتُورثُ مَذَمَّةً وملامَةً؛ فإنَّ المتبوع تابع صاحبه. وقال عبد الله بن المعتز: إخوان الشرِّ كشجر النارنَج يُحْرِق بعضه بعضًا. وقال بعض الحكماء: مخالطة الأشرار خَطَر، والصبر على صحبتهم كركوب البحر، الذي مَن سَلِم منه ببدنه من التَّلَف فيه، لم يسلَمْ بقلبه من الحَذَر منه. وقال بعضُ البلغاء: صحبة الأشرار تورثُ سُوءَ الظنِّ بالأخيار. وقال بعضُ البلغاء: من خير الاختيار صحبةُ الأخيار، ومن شرِّ الاختيار صحبةُ الأشرار. وقال بعضُ الشعراء:

مجالسَةُ السَّفيه سَفاهُ رايٍ ... ومِنْ عَقْلٍ مجالسَةُ الحَكيم

فإنَّكَ والقَرينَ معًا سواءٌ ... كما قُدَّ الأديم من الأديم[1]

والخصلة الرابعة - أن يكونَ من كُلٍّ واحد منهما ميلٌ إلى صاحبه، ورغبةٌ في مؤاخاته؛ فإنَّ ذلك أوكدُ لحال المؤاخاة، وأمَدُّ لأسباب المصافاة؛ إذ ليس كلُّ مطلوبٍ إليه طالبًا، ولا كُلُّ مرغوبٍ إليه راغبًا، ومَن طلب مودَّةَ ممتنعٍ عليه، ورَغِبَ إلى زاهدٍ فيه، كان مُعَنّى[2] خائبًا، كما قال البُحْتري:

وطلبتُ منك مودَّةً لم أُعطَها ... إنَّ المُعَنَّى طالِبٌ لا يظفَرُ

---

(١) القد: القطع، والأديم: هو الجلد، يريد شدة توافُق القرين ولُصُوقه بصاحبه كأنهما من أصل واحد.

(٢) المُعنَّى: هو المتعَب المكدود.

وقال العبَّاس بن الأحنف:

فإنْ كان لا يدنيكَ إلاّ شفاعةٌ ... فلا خيرَ في وُدٍّ يكون بشافعِ
وأُقسِمُ ما تَرْكي عتابَك عن قِلىً ... ولكن لِعلمي أنَّه غيرُ نافعِ
وإنِّي إذا لم أَلزَم الصَّبْرَ طائعًا ... فلابدَّ منه مُكْرَهًا غيرَ طائعِ

فإذا استَكْملَتْ هذه الخصال في إنسان، وجَبَ إخاؤه، وتعيَّن اصطفاؤه، وبحسَب وفورها فيه، يجبُ أن يكون الميل إليه، والثقة به، وبحسَب ما يُرَى من غَلَبة إحداها عليه، يجعله مستعمَلاً في الخُلق الغالب عليه؛ فإنَّ الإخوان على طبقات مختلفة، وأنحاء متشعبة، ولكُلٍّ واحد منهم حال يختصُّ بها في المشاركة، وثُلْمَة يَسُدّها في المؤازَرة والمظافرة، وليس تتفَق أحوال جميعهم على حدٍّ واحد؛ لأنَّ التباينَ في الناس غالب، واختلافهم في الشِّيَم ظاهر.

وقد قال بعضُ الحكماء: الرجال كالشجر؛ شرابُه واحدٌ، وثمرُه مختلفٌ؛ فأخذ هذا المعنى منصور بن إسماعيل الفقيه، فقال:

بنو آدمَ كالنَّبْتِ ... ونَبْتُ الأرضِ ألوانُ
فمنهمْ شجرُ الصَّنْدَلِ ... والكافورُ والبانُ
ومنهمْ شجَرٌ أفضلُ ... ما يحمِلُ قَطِرَانُ

ومَنْ رام إخوانًا تتفق أحوالُ جميعهم، رام أمرًا متعذرًا، بل لو اتفقوا لكان ربما وقع به خَلَل في نظامه؛ إذ ليس الواحد من الإخوان يمكن الاستعانة به في كُلِّ حال، ولا المجبولون على الخلق الواحد، يمكن أن يتصرَّفوا في جميع الأعمال، وإنَّما بالاختلاف يكون الائتلاف. وقد قال بعض الحكماء: ليس بلبيب من لم يعاشر بالمعروف من لم يجدْ من معاشرته بُدًا. وقال المأمون: الإخوانُ ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه، وطبقة كالدواء يُحتاج إليه أحيانًا، وطبقة كالدَّاء لا يُحتاج إليه أبدًا.

ولعمري إنَّ الناس على ما وصفهم، لا الإخوان، وليس من كان منهم كالداء من الإخوان المعدودين، بل هم من الأعداء المحذورين، وإنما يُداجَون[1] بالمودَّة

(١) المداجاة: المداراة ومساترة العداوة.

استكفافًا لشرِّهم، وتحرُّزًا من مكاشفتهم، فدخلوا في عِداد الإخوان بالمظاهرة والمساترة، وفي الأعداء عند المكاشفة والمجاهرة. قال بعض الحكماء: مَثَل العدوّ الضاحك إليك، كالحنظلة الخضْرَاء أوراقُها، القاتل مذاقُها. وقد قيل في منثور الحكم: لا تغترِرْ بمقاربة العدوِّ؛ فإنَّه كالماء الذي إنْ أطيلَ إسخانه بالنار، لم يُمنع من إطفائها. وقال يزيد بن الحكَم الثقفيّ:

تُكاشِرُني ضِحكًا كأنَّك ناصحٌ ... وعينُك تُبْدِي أنَّ صدرَكَ لي دَوِيّ[1]

لسانُكَ معسُولٌ ونفسُك عَلْقَمٌ ... وَشَرُّك مبسُوطٌ وخيرُك مُلْتَوِ

فَلَيْتَ كَفَافًا كان خيرُك كُلُّهُ ... وشرُّك عنِّي ما ارْتَوى الماءَ مُرْتَوِ

وإذا خرج من كان كالدَّاء من عداد الإخوان، فالإ- ِ نُ هم الصنفان الآخران، من كان منهم كالغذاء أو كالدواء؛ لأنَّ الغذاء قوام النفس وحياتُها، والدَّواءَ علاجُها وصلاحُها؛ وأفضلها مَنْ كان كالغذاء؛ لأنَّ الحاجة إليه أعمُّ. وإذا تميَّز الإخوان وَجَبَ أن ينزل كُلُّ واحد منهم حيث تنزَّلت به أحوالُه إليه، واستقرَّت خصاله وخلاله عليه؛ فمن قويت أسبابه، قويت الثِّقةُ به، وبحسَب الثِّقة به يكونُ الركونُ إليهَ، والتعويلُ عليه. قال الشاعر:

ما أنْتَ بالسَّببِ الضَّعيفِ وإنَّما ... نُجْحُ الأمورِ بقوَّةِ الأسبابِ

فاليومَ حاجتُنا إليكَ وإنَّما ... يُدعى الطَّبيبُ لشدَّةِ الأوْصابِ

وقد اختلفت مذاهب الناس في اتخاذ الإخوان؛ فمنهم من يَرَى أنَّ الاستكثار منهم أولى؛ ليكونوا أقوَى مَنَعةً ويدًا، وأوفَرَ تحبُّبًا وتودُّدًا، وأكثَرَ تعاونًا وتفقُّدًا. وقيل لبعض الحكماء: ما العيشُ؟ قال: إقبالُ الزمان، وعزُّ السلطان، وكثرة الإخوان. وقد قيل: حِليةُ المرء كثرة إخوانه.

ومنهم من يرى أن الإقلال منهم أولى؛ لأنَّه أخفُّ أثقالاً وكُلَفًا، وأقلُّ تنازُعًا وخُلْفًا. وقد قال الإسكندر: المستكثِرُ من الإخوان من غير اختيار، كالمستوقر[2] من الحجارة، والمُقِلُّ من الإخوان المتخيِّرُ لهم، كالذي يتخيَّر الجوهر. وقال عمرو بن

---

(١) أي مريض، يريد أنه يخفي في صدره بغضًا وعداوة.

(٢) أي الذي يحمل منها حملاً ثقيلاً.

العاص: من كـثُرَ إخوانُه كـثُر غُرَماؤه. وقـال إبراهيم بن العباس: مَـثَلُ الإخوان كالنَّار؛ قليلُهـا متاعٌ، وكثيرُها بَوَار. ولقد أحسَـنَ ابنُ الروميّ في هذا المعنى ونبَّه على العلة، حيث يقول:

عَـدوُّك من صـديقك مـسـتـفـادٌ ... فـلا تَسْـتَكـثـرَنَّ من الصِّـحـابِ
فـإنَّ الدَّاءَ أكـثـرَ مـا تراهُ ... يكونُ مـن الطعـام أو الشـراب
فـدَعْ عنك الكثـيـرَ فكم كـثـيـر ... يُعـافُ وكم قليلٍ مـسـتطابِ
فـمـا اللُّجَجُ المِلاحُ بمُرويات ... وتَلْقَى الرِّيَّ في النُّطف العِـذابِ

وقال بعض البلـغاء: ليكن غرضُك في اتخـاذ الإخوان، واصطناع النُّصـحاء تكثيـرَ العُدَّة[1]، لا تكثيـرَ العدَّة[2]، وتحصـيلَ النَّفْع، لا تحصيلَ الجَمْع، فـواحدٌ يحصُلُ به المرادُ، خـيرٌ من ألفَ يُكثِّر الأعـداد. وإذا كان التجانسُ والتـشاكل من قواعد الأخوَّة وأسبابِ المودَّة، كان وُفورُ العقلِ، وظهورُ الفَضْل، يقتضي من حال صـاحبـه قلَّة إخوانه؛ لأنَّه يروم مِـثْلَه، ويطلبُ شكلَه؛ وأمـثاله من ذوي العـقل والفضل، أقلُّ من أضداده من ذوي الحـمق والنقص؛ لأنَّ الخيار في كُلِّ جنسٍ هو الأقلُّ، فلذلك قلَّ وفور العقل والفـضل. وقد قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ (الحجرات: ٤). فقلّ بهذا التـعليل إخوان أهل الفضل لقلتهم، وكثر إخوان ذوي النقص والجهل لكثرتهم. وقد قال في ذلك الشاعر:

لكلِّ امـرئٍ شَكْلٌ منَ الناس مـثلُه ... فـأكـثـرُهم شَكْلاً أقلُّهم عـقـلاَ
وكُلُّ أناسٍ آلِـفـون لشكلهـمْ ... فـأكـثـرهم عـقـلاً أقلُّهُمُ شكلاَ
لأنَّ كـثـيـرَ العـقل ليس بواجـدٍ ... له في طريقٍ حين يسلكه مِـثْـلاَ
وكُلُّ سـفـيـهٍ طائش إن فـقـدتَهُ ... وجـدتَ له في كُلِّ ناحـيـةٍ عِـدْلاَ[3]

وإذا كـان الأمر على مـا وصـفناه، فقـد تنقسم أحوال مَن دخل في عِـداد الإخوان أربعة أقـسام: منهم من يُعين ويستعين، ومنهم مَـن لا يعين ولا يستعين، ومنهم من يستعين ولا يعين، ومنهم من يعين ولا يستعين.

---

(١) بالضم أي الاستعداد والتأهب.
(٢) بالكسر أي العَدَد.
(٣) أي مثيلاً يعادله ويساويه.

**فأما المعين والمستعين:** فهو معاوض منصف، يؤدِّي ما عليه، ويستوفي ما لَه، فهو كالمقرض؛ يُسعف عند الحاجة، ويستردُّ عند الاستغناء، وهو مشكور في مَعونته، ومعذورٌ في استعانته؛ وهذه أعدل أحوال الإخوان.

**وأما من لا يعين ولا يستعين:** فهو مُتَارك، قد مَنع خَيرَه، وقمَعَ شَرَّه، فلا هو صديق يُرْجَى، ولا هو عدوٌّ يُخشى. وقد قال المغيرة بن شُعْبة: التارك للإخوان متروك. ومن كان كذلك فهو كالصورة الممثَّلة؛ يروقك حسنها، ويخونك نفعها؛ فلا هو مذموم لقمع شره، ولا هو مشكور لمنع خيره، وإن كان باللوم أجدر. وقد قال الشاعر:

**وأسوأُ أيام الفتَى يومٌ لا يُرَى ... له أحدٌ يُزْرِي عليه ويُنكِرُ**

غير أنَّ فساد الوقت وتغيُّرَ أهله، يوجب شكر مَن كان شرُّه مقطوعًا، وإن كان خيرُه ممنوعًا، كما قال المتنبي:

**إنا لفي زمنٍ تَرْكُ القبيحِ بهِ ... مِن أكثرِ النَّاس إحْسانٌ وإجْمالُ**

**وأمَّا من يستعين ولا يُعين:** فهو لئيمٌ كَلٌّ[1]، ومَهين مُستذَلّ، قد قطعَ عنه الرغبة، وبَسط فيه الرَّهبة، فلا خيرُه يُرْجَى، ولا شرُّه يؤمَنُ، وحسبُك مهانةً من رجلٍ يستثقَلُ عند إقلاله، ويُستَقَلّ عند استقلاله، فليس لمثله في الإخاء حظّ، ولا في الوداد نصيب، وهو ممن جعله المأمون من داء الإخوان لا من دوائهم، ومن سمِّهم لا من غذائهم. وقال بعضُ الحكماء: شرُّ ما في الكريم أن يمنعكَ خيرَه، وخيرُ ما في اللئيم أن يكفَّ عنك شرَّه. وقال ابن الرومي:

**عَذَرْنا النَّخْلَ في إبداءِ شوكٍ ... يردُّ به الأناملَ عن جَناه[2]**

**فما للعَوْسَج الملعونِ أَبْدَى ... لنا شوكًا بلا ثمرٍ نراهُ؟**

**وأمَّا مَن يعين ولا يستعين:** فهو كريمُ الطبع، مشكور الصنع، قد حاز فضيلتي الابتداء والاكتفاء، فلا يُرى ثقيلاً في نائبة، ولا يقعد عن نهضة في معونة؛ فهذا أشرف الإخوان نفسًا، وأكرمُهم طبعًا؛ فينبغي لمن أوجد له الزمانُ نيميم

---

(١) الكَلُّ: هو المرء الثقيل الذي يعيش عالة على غيره.

(٢) الجَني: ما يُقطف من الثمر.

مثـلَه - وقلَّ أن يكونَ له مثل؛ لأنَّه البَـرُّ الكريم، والدُّر اليتـيم[1] - أن يَثْنيَ عليه خنصره[2]، ويَعَضَّ عليه بناجـذه، ويكون به أشدَّ ضنًا منه بنفـائس أمواله، وسَنِيِّ ذخَـائره؛ لأنَّ نفعَ الإخوان عـامّ، ونَفْعَ المال خـاصّ، وما كـان أعمَّ نفعًـا، فهـو بالادخار أحقّ. وقال الفرزدق:

يمضي أخـوكَ فـلا تَلْقَى لَهُ خَلَفَـا ... والمالُ بعـدَ ذهابِ المالِ يُكْتَسَبُ

وقال آخر:

لِكُلِّ شيءٍ عَـدِمْـتَـهُ عِـوَضٌ ... ومـا لِفَـقْـدِ الصَّديق من عِـوَضِ

ثم لا ينبغي أن يَزهَد فيه لخلُق أو خلُقين ينكرهما منه، إذا رَضِي سائر أخلاقه، وحمدَ أكثَرَ شـيمه؛ لأنَّ اليسير مغفور، والكمال مُـعْوِز. وقد قال الكنْديّ: كيف تريدُ من صديقك خُلُـقًا واحدًا، وهو ذو طبائعَ أربـع؟! مع أن نفس الإنسان التي هي أخصُّ النفوس به، ومدبَّرة باختياره وإرادته، لا تعطيه قيادَها في كُلِّ ما يريد، ولا تجيبه إلى طاعته في كُلِّ مـا يحبّ، فكيف بنفسِ غيره؟ وحسبك أن يكون لك من أخيك أكثرُه. وقد قال أبو الدَّرداء - رضي الله تعـالى عنه -: معاتبةُ الأخ خيرٌ من فَقْده، ومَنْ لَكَ بأخيك كلِّه؟ فأخَذَ الشعراء هذا المعنى، فقال أبو العتاهية:

أأُخيَّ مَنْ لك من بني الدنيـا ... بِـكـلِّ أخـيـكَ مَـنْ لَـكْ
فـاسْـتَـبْقِ بَعْـضَكَ لا يَملُّكَ ... كُـلُّ مَـن أَعْـطَـيْـتَ كـلَّـكْ

وقال أبو تمام الطائي:

مـا غَـبَنَ المَغْـبُـونَ مِـثْلُ عَـقْلِهِ ... مَنْ لَكَ يومًـا بأخِـيكَ كُلِّهِ

وقال بعضُ الحكماء: طلبُ الإنصاف من قـلَّة الإنصاف. وقال بعضُ البلغاء: لا يزهدنك في رجلٍ حَمِـدْتَ سيرته، وارتَضَيْتَ وَتيرته، وعَـرَفْتَ فضلَه، وبَطَنْتَ عقلَه، عيبٌ خفيّ يحيط بـه كثرةُ فضائله، أو ذنبٌ صغير تستـغفر له قوَّةُ وسائله؛ فإنَّك لن تجد ما بقيتَ مهذَّبًا لا يكونُ فيه عيبٌ، ولا يَقَعُ منه ذنب، فاعتبر بنفسك

(١) أي الذي ليس له مثيل.

(٢) يقال: فلان تثنى عليه الخناصر: أي يُبدأ به إذا ذُكر أمثاله لشرفه.

بعد ألاَّ تراها بعين الرِّضا، ولا تجري فيها على حكم الهوى؛ فإنَّ في اعتبارك بها، وفي اختبارك لها، ما يُؤْيِسُكَ ممَّا تطلب، ويعطفُك على من يُذنب. وقد قال الشاعر:

**وَمَن ذا الذي تُرْضَى سجاياهُ كلُّها ... كَفَى المرءَ نُبْلاً أن تُعَدَّ معايبُه**

وقال النابغة الذبياني:

**ولستَ بِمُسْتَبْقٍ أخًا لا تَلُمُّهُ ... عَلى شَعَثٍ أيُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ**

وليس ينقضُ هذا القولَ ما وصفنا من اختباره، واختبار الخصال الأربع فيه، لأنَّ ما أعوزَ فيه معفوٌّ عنه. وهكذا لا ينبغي أن توحشك فَتْرة[1] تجدُها منه، ولا أن تسيء به الظنَّ في كَبْوة تكون منه، ما لم تتحقَّق تغيُّرَه، وتتيقَّنْ تنكُّره، وليُصْرَفْ ذلك إلى فَتَرات النفوس، واستراحات الخواطر؛ فإنَّ الإنسان قد يفتر عن مراعاة نفسه التي هي أخصُّ النفوس به، ولا يكون ذلك من عداوة لها، ولا مَلَل منها. وقد قيل في منثور الحكم: لا يفسدنَّك الظنُّ على صديق قد أصلحك اليقينُ له. وقال جعفر بن محمد لابنه: يا بنيَّ، من غضب من إخوانك ثلاث مرات، فلم يقُل فيك سوءًا، فاتخذْه لنفسك خلاً. وقال الحسن بن وهب: من حُقوق المودَّة أَخْذُ عَفْوِ الإخوان، والإغضاءُ عنَ تقصيرٍ إن كان. وقد رُوي عن عليّ ـ رضي الله تعالى عنه ـ في قوله تعالى: ﴿**فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ**﴾ (الحجر: ٨٥). قال: الرِّضا بغير عِتاب. وقال ابن الروميّ:

**هُمُ الناسُ والدُّنيا ولابدَّ مِنْ قَذَى ... يُلِمُّ بعينٍ أو يكدِّرُ مَشْرَبا**

**ومِن قلَّة الإنصاف أنَّك تبتغي ... المُهذَّبَ في الدنيا ولَسْتَ المهذَّبا**

وقال بعض الشعراء:

**تَواصُلُنا عَلَى الأيام باقٍ ... ولكنْ هَجرُنا مَطَرُ الرَّبيع**

**يروعُكَ صَوْبُه لكنْ تراهُ ... على عِلاَّتِه داني النُّزوع**

**مَعاذَ الله أن نُلْفَى غِضابًا ... سوى دَلِّ المُطاع عَلَى المطيع**

---

(١) أي تقصير منه.

وأنشدني الأزديّ:

لا يُؤْيِسَنَّكَ من صديقٍ نَبْوَةٌ ... ينبو الفتى وَهْوَ الجَوادُ الخِضْرِمُ
فإذا نبا فاسْتَبْقِه وتَأَنَّهُ ... حتى تفيءَ به وطبعُك أكرمُ

وأمَّا المَلُول، فهو السريع التغيُّر، الوشيكُ التنكُّر، فوداده خَطَرٌ، وإخاؤه غَرَرٌ؛ لأنَّه لا يبقى على حالة، ولا يخلو من استحالة. وقد قال ابن الرومي:

إذا أنتَ عاتبْتَ المَلُولَ فإنَّما ... تخطُّ عَلَى صُحْفٍ من الماء أحرُفَا
وَهَبْه ارْعوَى بعدَ العتابِ ألم تكُنْ ... مودَّتُه طَبعًا فصارت تكلُّفَا

وهم نوعان: منهم من يكون مَلَلُهُ استراحة: ثم يعودُ إلى المعهود من إخائه، فهذا أسلَمُ المَلَلَيْن، وأقربُ الرجلين، يسامح في وقت استراحته، وحين فَتْرته؛ ليرجعَ إلى الحسنى، ويَؤوبَ إلى الإخاء، وإن تقدم المثل بما نظمه الشاعر حيث يقول:

وقالوا يعودُ الماءُ في النَّهر بعدما ... عَفَتْ منه آثارٌ وجَفَّتْ مشارعُهْ
فقلْتُ إلى أن يرجعَ الماءُ عائداً ... ويُعْشِبَ شطَّاهُ تموتُ ضفادعُهْ

لكن لا يَطرحُ حَقَّه بالتوهُّم، ولا يُسْقِط حُرمتَه بالظُّنون، وقد قال الشاعر:

إذا ما حالَ عهدُ أخيكَ يومًا ... وحادَ عن الطريق المستقيم
فلا تعجَلْ بلومِكَ واسْتَدِمْهُ ... فإنَّ أخا الحفاظ المستديمُ
فإن تكُ زَلَّةٌ منهُ وإلاَّ ... فلا تبعُدْ عن الخُلق الكريم

ومنهم من يكون مَلَلَه تركًا واطِّراحًا: ولا يراجع إخاءً ولا ودًّا، ولا يتذكَّر حِفاظًا ولا عهدًا، كما قال الأشجع بن عَمرٍو السُّلَمي:

إني رأيتُ لها مواصلةً ... كالسُّم تُفرِغُه على الشَّهْدِ
فإذا أخذتُ بعهد ذمَّتها ... لَعِبَ الصُّدودُ بذلك العهدِ

وهذا أذمُّ الرجُلين حالاً؛ لأنَّ مودَّته من وساوس الخَطرات، وعوارض الشَّهوات، وليس إلا استدراك الحال معه، بالإقلاع قبل المخالطة، وحسن المتاركة بعد الورطة، كما قال العباس بن الأحنف:

تداركْتُ نفسي فعزَّيتُها ... وبَغَّضْتُها فيكَ آمالَها
وما طابَت النَّفْسُ عن سَلْوةٍ ... ولكن حَمَلْتُ عليها لها

وما مثلُ مَنْ هذه حالُه إلاَّ كما قد قال إبراهيم بن هَرْمة:

فإنَّكَ واطِّراحَكَ وَصْلَ سَلْمَى ... لأُخْرَى في مودَّتها نُكُوبُ[1]
كثاقبةٍ لحَلْي مستعارٍ ... لأُذْنيها فَشَانَهُما الثُّقوب
فأدَّت حَلْيَ جارتِها إليها ... وقد بقيت بأُذْنَيْها نُدُوبُ

فإذا صفَتْ عنده أخلاق من سَبَره، وتمهدت لديه أحوالُ من خَبَره، وأقدمَ على اصطفائه أخًا، وعلى اتخاذه خدْنًا[2]، لزمَتْه حينئذ حقوقُه، ووجبَتْ عليه حُرُماته، وقد قال عمرو بن مسعدة: العبودية عبوديةُ الإخاء لا عبودية الرقِّ. وقال بعض الحكماء: من جاد لك بمودَّته فقد جعلك عَديلَ نفسه.

فأوَّل حقوقه اعتقادُ مودَّته، ثم إيناسُه بالانبساط إليه في غير مُحَرَّم، ثم نصحُه في السرِّ والعلانيَة، ثم تخفيفُ الأثقال عنه، ثم معاونتُهُ فيما ينوبه من حادثة، أو ينالُه من نكْبة؛ فإنَّ مراقبتَه في الظاهر نفاق، وتركَه في الشدَّة لؤم. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«خيرُ أصحابك المعين لك على دهرك، وشرُّهم من سعى لك بسوء يومه»**[3]. وقيل: يا رسول الله، أي الأصحاب خير؟ قال: **«الذي إذا ذَكَرْتَ أعانَكَ وواساك، وخيرٌ منه من إذا نسيت ذكَّرك»**[4]. وقال عليُّ بن أبي طالب ـ كرَّم الله وجهه ـ: خيرُ إخوانك من واساك، وخيرٌ منه من كفاك. وكان أبو هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ يقول: اللهم إنِّي أعوذُ بك ممن لا يلتمسُ خالصَ مودَّتي إلاَّ بموافقة شهوتي، وممن ساعدني على سرور ساعتي، ولا يفكِّر في حوادث غَدي. وقال بعضُ البلغاء: عقود الغادر محلولة، وعهوده مَدْخولة. وقال بعض البلغاء: ما وَدَّك من أهملَ وُدَّك، ولا أَحَبَّكَ من أبغَضَ حبَّك. وقال بعضُ الشعراء:

وكلُّ أخٍ عندَ الهُوَيْنَى ملاطِفٌ ... ولكنَّما الإخوانُ عندَ الشَّدائد

---

(١) جمع نكب وهي المصيبة. (٢) أي صادقًا وصاحبًا.
(٣) لم أجده.
(٤) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/٢٧٨).

وقال صالح بن عبد القدوس: شرُّ الإخوان مَن كانت مودَّته مع الزَّمان إذا أقبَلَ، فإذا أدبرَ الزَّمانُ أدبرَ عنك، فأخذ هذا المعنى الشاعر، فقال:

**شَرُّ الأخلاَّءِ مَن كانتْ مودَّتُهُ ... مَعَ الزَّمانِ إذا ما خافَ أو رَغِبَا**

**إذا وَتَرت امرءاً فاحْذَرْ عَداوَتَهُ ... مَنْ يزرَعِ الشَّوْكَ لا يحصُدْ به عِنَبَا[1]**

**إنَّ العَدُوَّ وإنْ أبدَى مُسالمَةً ... إذا رأى منكَ يومًا فُرْصةً وَثَبَا**

وينبغي أن يتوَقَّى الإفراطَ في محبَّته، فإنَّ الإفراط داعٍ إلى التقصير، ولأنْ تكون الحالُ بينهما ناميةً، أولَى من أن تكون متناهية. وقد رَوَى ابنُ سيرينَ عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال[2]: «**أحْبِبْ حبيبَكَ هَوْنًا ما، عَسَى أن يكونَ بَغيضَك يومًا ما، وأبغِضْ بغيضَك هونًا ما، عَسَى أن يكونَ حبيبكَ يومًا ما**». وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ: لا يكن حبُّك كَلَفًا[3]، ولا بُغْضُكَ تَلَفًا. وقال أبو الأسود الدُّؤليّ:

**وكُنْ مَعْدِنًا للخير واصْفَحْ عن الأذَى ... فإنَّك راءٍ ما عمِلْتَ وسامعُ**

**وأحبِبْ إذا أحببْتَ حُبًا مُقاربًا ... فإنَّك لا تدري متى أنتَ نازعُ**

**وأبغِضْ إذا أبغضْتَ غيرَ مُباينٍ ... فإنَّك لا تدري متى أنت راجعُ**

وقال عديّ بن زيد:

**ولا تَأْمَنَنْ مِن مُبْغِضٍ قُرْبَ دارِهِ ... ولا مِن مُحِبٍّ أن يَمَلَّ فَيَبْعُدَا**

وإنَّما يلزم من حقِّ الإخاء بذلُ المجهود في النصح، والتناهي في رعاية ما بينهما من الحقّ؛ فليس في ذلك إفراطٌ وإن تناهى، ولا مجاوزةُ حدٍّ وإن كثر وأوفَى، فتستوي حالتاهما في المَغيب والمَشْهَد. ولأن يكون مَغيبُهما أفضلُ من مشهدهما أولى؛ فإنَّ فضل المشهد على المغيب لؤم، وفضلَ المغيب على المشهد كرم، واستواؤهما حِفاظ. وقد قال بعض الشعراء:

---

(١) وترت: يقال وتر فلانًا أي: أساء إليه أو أصابه بمصيبة أو مكروه.

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٩٧) (٤/ ٣٦٠).

(٣) الكلف: شدة الولوع بالشيء والتعلق به.

عَلَيَّ لإخواني رقيبٌ من الصَّفا ... تَبيدُ الليالي وَهْو ليس يَبيدُ
يُذَكِّرُنيهمْ في مَغيبي وَمَشْهَدي ... فسيَّان منهمْ غائبٌ وشهيدُ
وإني لأستحيي أخي أن أبره ... قريبًا وأن أجفوه وَهْو بَعيدُ

وهكذا يقصد التوسُّط في زيارته وغشيانه، غير مقلِّل ولا مكثر؛ فإنَّ تقليل الزيارة داعيةُ الهِجْران، وكثرتَها سببُ المَلاَل. وقد قال النبيُّ ﷺ لأبي هريرة - رضي الله تعالى عنه -: «**يا أبا هريرة، زُرْ غبًا**[1] **تَزْدَدْ حبًا**»[2]. وقال لبيد:

تَوَقَّفْ عَنْ زيارةِ كلَّ يوم ... إذا أكثرْتَ ملَّكَ مَنْ تَزُورُ

وقال آخر:

أَقْلِلْ زيارتَكَ الصَّديقَ ولا تُطِلْ ... هِجْرانَهُ فَيلجَّ في هِجْرانِهِ
إنَّ الصديق يَلجُّ في غِشْيانِهِ ... لصديقه فيملَّ من غِشْيانِهِ
حتى تَراهُ بعدَ طولِ سُرُورِهِ ... بمكانِهِ مُتَثاقِلاً بمكانِهِ
وإذا تَوانَى عن صيانةِ نفسِهِ ... رجلٌ تُنُقِّصَ واسْتُخِفَّ بشانِهِ

وبحسب ذلك فليكن في عتابه؛ فإنَّ كثرة العتاب سبب للقطيعة، واطراحَ جميعه دليلٌ على قلَّة الاكتراث بأمر الصَّديق؛ وقد قيل: علَّةُ المعاداة قلة المُبالاة، بل يَتَوسَّطُ حالتي تركه وعتابه، فيسامَح بالمتاركة، ويُستصلَح بالمعاتبة؛ فإنَّ المسامحة والاستصلاح إذا اجتمعا، لم يلبثْ معهما نفور، ولم يبقَ معهما وَجْد. وقد قال بعضُ الحكماء: لا تُكثِرَنَّ معاتبة إخوانك، فيهونَ عليهم سُخْطك. وقال منصور النَّمَريّ:

أقلِلْ عتابَ من اسْتَرَبْتَ بودِّهِ ... ليسَتْ تُنالُ مودَّةٌ بعتابِ

وقال بشار بن برد:

إذا كنتَ في كلِّ الأمور معاتبًا ... صديقَكَ لم تَلْقَ الذي لا تُعاتِبُهْ
وإن أنْتَ لم تشرَبْ مرارًا على القَذَى ... ظَمِئْتَ وأيُّ الناس تَصْفُو مَشَارِبُهْ
فعِشْ واحدًا أوْ صِلْ أخاكَ فإنَّه ... مُقارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً ومجانِبُهْ

---

(١) غبًا: أي أن تكون زيارته مرة بعد مرة من غير إكثار.
(٢) «مسند الطيالسي» (١/ ٣٣٠) (٢٥٣٥)، وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٦٢٩).

ثم من حقِّ الإخوان أن تغـفرَ هفوتهم، وتستُر زلَّتـهم؛ لأنَّ من رامَ بريئًا من الهفوات، سليمًـا من الزَّلاَّت، رام أمرًا مُعْوزًا، واقترح وصفًا مـعْجزًا؛ وقد قالت الحكماء: أيّ عالمٍ لا يهفو، وأيّ صارمٍ لا ينبو[1]، وأيّ جواد لا يكبو؟ وقالوا مَن حاول صديقًـا يأمَنُ زلَّته، ويدومُ اغتباطُه به، كـان كضالِّ الطريق، الذي لا يزداد لنفسه إتعابًا، إلاَّ ازداد من غايته بُعْـدًا. وقيل لخالد بن صفوان: أيُّ إخوانك أحبُّ إليك؟ قال: مَنْ غَفَرَ زللي، وقَطَع عِلَلي، وبلَّغني أملي. وقال بعض الشعراء:

مـا كـدْتُ أفـحَصُ عن أخي ثِقَـةٍ ... إلاَّ ندِمْتُ عـواقِبَ الفَـحْصِ

وأُنشِدْتُ عن الرَّبيع، للشافعي ـ رضي الله تعالى عنه ـ:

أُحِبُّ مِنَ الإخـوان كلَّ مُـواتِي ... وكلَّ غَضيضِ الطَّرْف عن عَثَراتي[2]

يوافِـقُني في كُلِّ أمـرٍ أريدُه ... ويَحـفظني حَـيًـا وبعـدَ وفـاتِي

فَـمَنْ لـي بهـذا لَيْتَ أنِّي أصـبْـتُـهُ ... فـقـاسَـمْـتُـه مـا لي مِنَ الحسَنَاتِ

تصـفَّـحْتُ إخـوانِي فكان أقلُّهم ... على كـثـرة الإخـوان أهلَ ثـقـاتي

وأنشد ثعلب:

إذا أنْتَ لم تَسْتَقْبلِ الأمْرَ لم تجِدْ ... بكفَّـيْكَ في أدباره مُـتَـعَلَّقَـا

إذا أنتَ لم تتـرُكْ أخـاكَ وَزَلَّةَ ... إذا زَلَّهـا أوشكتـمـا أنْ تَفَـرَّقـا

وحكى الأصمـعي عن بعض الأعراب، أنه قال: تناسَ مسـاوِئَ الإخوان يدُمْ لكَ ودُّهم. ووصَّى بعض الأدباء أخًـا له، فقـال: كُنْ للودِّ حافظًا، وإن لـم تجدْ محافظًا، وللخلِّ واصلاً وإن لم تجدْ مواصلاً. وقال رجل من إياد ليزيدَ بن المُهَلَّب:

إذا لـم تَجَـاوَزْ عـن أخٍ عنـدَ زَلَّـةٍ ... فلسْتَ غَـدًا عن عَـثْـرتي مـتـجـاوزًا

وكـيـفَ يرجِّـيكَ البَـعـيـدُ لنفـعـهِ ... إذا كـان عن مـولاكَ خـيـرُك عـاجـزًا

ظلـمْتَ أخًـا كلَّفْـتَـه فـوْقَ وُسْـعِـهِ ... وهَلْ كـانتِ الأخـلاق إلاَّ غـرائـزا

---

(١) الصارم هو السيف، ونَبْوة السيف أن يخطئ الضرب.

(٢) مواتي: أي موافق.

وقال أبو مسعود كاتب الرَّضِي: كنَّا في مجلس الرَّضِيّ، فشكا رجلٌ أخاه، فأنشأ الرَّضِيُّ يقول:

اعْذِرْ أخاك على ذنوبه ... واستُرْ وغطِّ على عُيوبِهْ
واصْبِرْ عَلَى بَهْتِ السَّفيهِ ... وللزَّمانِ على خُطُوبِه
ودَعِ الجوابَ تفضُّلاً ... وكِلِ الظَّلومَ إلى حَسِيبِهْ
واعْلَمْ بأنَّ الحِلْمَ عندَ ... الغَيظِ أحسَنُ مِنْ رُكُوبِهْ

وحكي عن بنت عبد الله بن مطيع، أنها قالت لزوجها طلحةَ بن عبد الرحمن ابن عَوْف الزُّهريّ، وكان أجودَ قريشٍ في زمانه: ما رأيْت قومًا ألأمَ من إخوانك. قال: مَهْ،ولِمَ قلتِ ذلك؟ قالت: أراهم إذا أيسرت لزِموكَ، وإذا أعسرت تركُوكَ. قال: هذا والله من كرمهم؛ يأتوننا في حال القوَّة بنا عليهم، ويتركوننا في حال الضّعف بنا عنهم. فانظر كيف تأوَّل بكرمه هذا التأويلَ، حتَّى جَعَلَ قبيحَ فعلهم حسنًا، وظاهرَ غَدرهم وفاءً، وهذا مَحْضُ الكَرَمِ، ولُبَابُ الفَضْلِ، وبمثل هذا يلزم ذوي الفضل أن يتأوَّلوا الهفواتِ من إخوانهم. وقد قال بعضُ الشعراء:

إذا ما بَدَتْ من صاحبٍ لك زَلَّةٌ ... فكن أنْتَ مُحتالاً لزلَّته عُذْرا
أُحِبُّ الفتَى ينفِي الفواحِشَ سمعُهُ ... كأنَّ به عن كُلِّ فاحشةٍ وَقْرَا
سَليمَ دواعي الصَّدْرِ لا باسطٌ أذًى ... ولا مانعٌ خيرًا ولا قائلٌ هَجْرَا

والدَّاعي إلى هذا التأويل شيئان: التغافلُ الحادثُ عن الفطْنة، والتألُّف الصادر عن الوفاء. وقال بعض الحكماء: وجدت أكثر أمور الدنيا لا تجوز إلا بالتغافل. وقد قال أكثَمُ بن صَيْفيّ: من شدَّد نفَّر، ومن تراخَى تألَّف، والشرفُ في التغافل. وقال شبيب بن شيبة: الأريب العاقل هو الفطِنُ المتغافل. وقال الطائيّ:

لَيْسَ الغَبيُّ بسيِّدٍ في قَوْمِهِ ... لكنَّ سيِّدَ قومِهِ المُتَغَابِي

وقال أبو العتاهية:

إنَّ في صِحَّةِ الإخاءِ من النَّاسِ ... وفي خُلَّةِ الوفاءِ لَقِلَّهْ
فالْبَسِ الناسَ ما استطعت على ... النقْص وإلاَّ لم تستقِمْ لَكَ خُلَّهْ
عِشْ وحيدًا إنْ كنتَ لا تقبَل العُذْرَ ... وإنْ كنْتَ لا تجاوِزُ زَلَّهْ

مِن أبٍ واحـــدٍ وأمٍّ خُلِقْنا غيرَ أنَّا في المال أولادُ عَلَّه[1]

ومِمَّا يتبع هذا الفصل تألُّفُ الأعداء، بما يَثْنيهم عن البغضاء، ويعطفُهم على المحبَّة، وذلك قد يكون بصنوف من البِرِّ، ويختلف بحسب اختلاف الأحوال؛ فإنَّ ذلك من سمات الفَضْل، وشروط السُّؤْدُد؛ فإنَّه ما أحدٌ يعدَمُ عدوًا، ولا يفقِدُ حاسدًا، وبحسَب وفور النِّعمة تكثرُ الأعداءَ والحَسَدة، كما قال البُحتري:

ولن تستَبينَ الدَّهْرَ مَوْضِعَ نِعْمَةٍ إذا أنتَ لم تُدْلَلْ عليها بحاسِدِ

فإن أغفل تألُّفَ الأعداء مع وُفور النِّعمة وظهور الحَسَدة، توالَى عليه من مكر حليمهم، وبادرة سفيههم، ما تصيرُ به النِّعمة غرامًا[2]، والدعة[3] مَلامًا.

وروَى ابنُ المسيِّب عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأسُ العَقْلِ بعدَ الإيمان بالله تعالى، التودُّد إلى الناس»[4]. وقال سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ لابنه: لا تستكثِرْ أن يكون لك ألف صديق، فالألفُ قليلٌ، ولا تستقلَّ أن يكونَ لك عدوٌّ واحد، فالواحد كثير. فنظم ابنُ الروميّ هذا المعنى، فقال:

تكَثَّرْ من الإخوان ما اسطعْتَ إنَّهم بطُونٌ إذا استنجدْتَهم وظُهُورُ
وليس كثيرًا ألفُ خِلٍّ وصاحبٍ وإنَّ عدوًّا واحدًا لكثيرُ

وقيل لعبد الملك بن مروان: ما أفدْتَ في ملكك هذا؟ قال: مودَّة الرجال. وقال بعضُ الحكماء: من علامة الإقبال اصطناعُ الرجال. وقال بعضُ البلغاء: من استصلح عدوَّه زادَ في عَدَده، ومن استفسَدَ صديقه نقصَ من عُدَده. وقال بعضُ الأدباء: العَجَبُ ممن يطرح عاقلاً كافيًا؛ لما يضمره من عداوته، ويصطنع عاجزًا جاهلاً؛ لما يظهره من محبته، وهو قادر على استصلاح مَن يعاديه؛ بحسن صنائعه وأياديه. وأنشد عبد الله بن الزُّبير ثلاثةَ أبيات جامعة لكُلِّ ما قالته العربُ، وهي للأَفْوه، واسمه صَلاءة بن عَمرو حيث يقولُ:

---

(١) بنو العَلاَت: أبناء رجل واحد من أمهات شتى.

(٢) أي شرًا دائمًا.

(٣) أي رَغَدَ العيش واستقراره.

(٤) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١/١٤٧) (٢٠٠)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/١٠٩)، والطبراني في «الأوسط» (٦/١٥٦) عن علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة مرفوعًا.

بلوتُ الناسَ قرنًا بعدَ قرنٍ ... فلم أرَ غيرَ ختّالٍ وقالي[1]
وذُقتُ مرارةَ الأشياءِ جمعًا ... فما طَعْمٌ أمرَّ من السؤالِ
ولم أرَ في الخُطوبِ أشدَّ هولاً ... وأصعبَ من معاداةِ الرجالِ

وقال القاضي التنوخي:

الْقَ العدوَّ بوجهٍ لا قُطوبَ به ... يكادُ يقطرُ من ماءِ البشاشاتِ
فأحزمُ النَّاسِ مَنْ يَلْقَى أعاديَهُ ... في جسمِ حقدٍ وثوبٍ من مودَّاتِ
الرِّفْقُ يمْنٌ وخيرُ القَولِ أصدقُهُ ... وكثرةُ المزْحِ مفتاحُ العداواتِ

وأنْشدْتُ عن الرَّبيع للشافعيِّ - رحمه الله ورضي عنه -:

لمَّا عفوْتُ ولم أحْقدْ علَى أحَدٍ ... أرَحْتُ نفسيَ من همِّ العداواتِ
إنِّي أُحيِّي عدوِّي عند رؤيتهِ ... لأدفعَ الشرَّ عنِّي بالتَّحياتِ
وأُظْهِرُ البشرَ للإنسانِ أُبْغضُه ... كأنَّما قد حَشَا قلبي محبَّاتِ
النَّاسُ داءٌ وداءُ الناسِ قُرْبُهُمُ ... وفي اعتزالهمُ قطعُ المودَّاتِ

وليس وإن كان بتألُّف الأعداء مأمورًا، وإلى مقاربتهم مندوبًا، ينبغي أن يكونَ لهم راكنًا، وبهم واثقًا، بل يكون منهم على حَذَرٍ، ومن مكرهم على تحرُّزٍ، فإنَّ العداوة إذا استحكمت في الطباع، صارت طبعًا لا يستحيل، وجبلَّةً لا تزول، وإنما يُستكَفُّ[2] بالتألف إظهارُها، ويُستدفَع به أضرارها، كالنَّار يُستدفع بالماء إحراقُها، ويُستفاد به إنضاجُها، وإن كانت محرقةً بطبعٍ لا يزول، وجوهرٍ لا يتغيَّر. وقد قال الشاعر:

وإذا عجزْتَ عن العدوِّ فدارِهِ ... وامْزَحْ له إنَّ المزاحَ وِفاقُ
فالنارُ بالماءِ الذي هو ضدُّها ... تُعْطِي النِّضاجَ وطبعُها الإحراقُ

---

(١) الختَّال: المخادع، والقالي: المبغض. (٢) أي يُمنَع.

## فصل

**وأما البرّ**، وهو الخامس من أسباب الألفة: فلأنه يوصل إلى القلوب ألطافًا، ويثنيها محبةً وانعطافًا، ولذلك ندب الله تعالى إلى التعاون به، وقرنه بالتقوى له، فقال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (المائدة: ٢)، لأنَّ في التقوى رضا الله تعالى، وفي البرِّ رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس، فقد تمَّت سعادتُه، وعمَّت نعمتُه. وروى الأعمشُ عن خَيْثَمَةَ، عن ابن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**جُبِلَت القلوبُ على حُبِّ من أحسَنَ إليها، وبُغْض من أساءَ إليها**»[1]. وحكي أنَّ الله تعالى أوحَى إلى داود ـ عليه السَّلام ـ: ذكر عبادي إحساني إليهم ليحبوني، فإنَّ عبادي لا يحبون إلا مَنْ أحسن إليهم. وأنشدني أبو الحسن ابن أبي الحارث الهاشميّ:

**النَّاسُ كلُّهم عيالُ ... الله تحتَ ظلالِه**
**فأحبُّهم طُرًا إليه ... أبرُّهم لعيالِه**

**والبرُّ نوعان**: صلة، ومعروف.

**فأما الصلة**: فهي التبرُّع ببذل المال في جهات محمودة، لغير عوض مطلوب، وهذا يبعث عليه سماحة النفس وسخاؤها، ويمنَعُ منه شُحُّها وإباؤها؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩). وروى محمد بن إبراهيم التيميّ، عن عروة بن الزبير، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**السَّخِيّ قريبٌ من الله، قريب من الجنَّة، قريبٌ من الناس، بعيدٌ من النار. والبخيل بعيدٌ من الله، بعيد من الجنة، بعيدٌ من الناس، قريبٌ من النار**»[2].

وقال ﷺ لعديِّ بن حاتم: «**رَفَعَ الله عن أبيك العذابَ الشَّديدَ لسخائه**»[3].

وبلغه ﷺ عن الزُّبير إمساكٌ، فجذَبَ عمامته إليه، وقال: «**يا زُبَيْر، أنا رسول الله ﷺ إليك وإلى غيرك، يقولُ: أَنفِقْ أُنْفِقْ عليك، ولا تُوكِ فأوكيَ عليك**»[4].

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٤٨١) (٨٩٨٣)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ٣٥٠)، (٥٩٩)، عن عبد الله بن مسعود وصحح البيهقي وقفه كما في «كنز العمال» (٤٤١٠٢).

(٢) ضعيف جداً: وانظر «الضعيفة» للألباني (١٥٤).

(٣) لم أصل إليه.

(٤) بغير هذا اللفظ أخرجه البخاري (٤٤٠٧)، ومسلم (٩٩٣) عن أبي هريرة ﷺ.

وروى أبو الدَّرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم غربت فيه شمسه، إلا وملكان يناديان: اللهم أعطِ منفقًا خلفًا، وممسكًا تلفًا»[1]. وأنزل في ذلك القرآن: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (الليل: ٥-١٠).

قال ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما -: يعني مَنْ أعطَى فيما أَمَر، واتقى فيما حَظَر؛ وصدَّق بالحسنى، يعني: بالخَلف من عطائه، فعند هذا قال ابنُ عباس: سادات الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء. وقيل في منثور الحكم: الجود عن موجود. وقيل في المثل: سُؤْدُدٌ بلا جود، كملك بلا جُنود. وقال بعض الحكماء: الجود حارس الأعراض. وقال بعضُ الأدباء: من جاد ساد، ومن أضعف ازداد. وقال بعض الفصحاء: جودُ الرجلِ يحببه إلى أضداده، وبخله يبغضه إلى أولاده. وقال بعضُ الفصحاء: خيرُ الأموال ما استرقَّ حُرًا، وخيرُ الأعمالِ ما استحقَّ شكرًا. وقال صالح بن عبد القدوس:

ويُظهرُ عيبَ المرءِ في الناس بخلُهُ ... ويسترُهُ عنهم جميعًا سخاؤُهُ
تغطَّ بأثواب السَّخاء فإنني ... أرَى كُلَّ عيبٍ السَّخاءُ غطاؤُهُ

وحدُّ السَّخاء: بذْلُ ما يُحتاج إليه عند الحاجة، وأن يُوصَّل إلى مستحقه بقدر الطاقة؛ وتدبيرُ ذلك مستصعب، ولعلَّ بعضَ مَن يُحب أن ينسَبَ إلى الكرم، يُنكر حدَّ السَّخاء، ويجعل تقدير العطية فيه نوعًا من البَخل، وأنَّ الجودَ بذْلُ الموجود؛ وهذا تكلُّف يفضي إلى الجهل بحدود الفضائل؛ ولو كان حَدّ الجودِ بذل الموجود، لما كان للسَّرف موضع، ولا للتبذير موقع؛ وقد ورد الكتاب بذمهما، وجاءت السُّنَّة بالنهي عنهما. وإذا كان السَّخاء محدودًا، فمَنْ وَقَفَ على حدِّه سُمِّي كريمًا، وكان للحمد مستَحقًا؛ ومن قَصَّر عنه كان بخيلاً، وكان للذَّمِّ مستوجبًا؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣٦٦٢)، وقد أخرج البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠)، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول احدهما اللهم أعطِ منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكًا تلفًا».

**سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** (آل عمران: ١٨٠). ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«أقسم الله تعالى بعزَّته لا يجاورُه بخيلٌ»**[١]. ورُوي عنه ﷺ أنه قال: **«طعامُ الجَوَاد دواءٌ، وطعامُ البخيل داءٌ»**[٢]. وسمع رسول الله ﷺ رجلاً يقول: الشَّحيح أعذَرُ من الظالم. فقال: **«لَعَنَ الله الشحيحَ، ولعَنَ الظالم»**.

وقال بعضُ الحكماء: البـخْلُ جِلباب المَسْكَنَة[٣]. وقال بعض الأدباء: البخيل ليس له خليل. وقال بعضُ البلغاء: البخيلُ حارسُ نعمته، وخازنُ ورَثته. وقال بعضُ الشعراء:

**إذا كنتَ جَمَّاعًا لمالكَ مُمْسِكًا ... فأنتَ عليه خازنٌ وأمينُ**
**تؤدِّيه مَذمُومًا إلى غير حامدٍ ... فيأكلُه عفوًا وأنتَ دفينُ**[٤]

وتظاهر بعضُ ذوي النَّباهة بحبِّ الثناء مع إمساكٍ فيه؛ فقال فيه بعضُ الشعراء:

**أراك تؤمِّلُ حُسنَ الثَّناءِ ... ولم يرزُق الله ذاكَ البخيلاَ**
**وكيفَ يَسُودُ أخو بطنةٍ ... يَمُنُّ كثيرًا ويعطي قليلاَ**

وقد بينا حبَّ الثناء وحبَّ المال؛ لأنَّ حُبَّ الثناء يبعثُ على البَذْل، وحُبَّ المال يمنَعُ منه، فإن ظهرا كان حب الثناء كاذبًا. وقد قال بعضُ الشعراء:

**جمعتَ أمرين ضاعَ الحزمُ بينهما ... تيه الملوكِ وأخلاَقَ المماليكِ**
**أردتَ شكرًا بلا بِرٍّ ولا صِلَةٍ ... لقد سَلَكْتَ طريقًا غيرَ مسلوكِ**
**ظننتَ عِرْضَك لم يُقرَع بقارعةٍ ... وما أراكَ على حالٍ بمتروكِ**
**لئنْ سَبَقْتَ إلى مالَ حَظِيتَ بهِ ... فما سَبَقْتَ إلى شيء سوى النُّوكِ**[٥]

---

(١) قطعة من حديث رواه الطبراني من طريق: السدي الصغير، عن أبي صالح، عن ابن عباس. وهو ضعيف جدًا، فالسدي الصغير متهم، وأبو صالح ضعيف.
(٢) أورده الديلمي في «الفردوس» (٢/٤٥٦).
(٣) المسكنة: الفقر والضعف.
(٤) عفوًا: أي من غير تعب في تحصيله.
(٥) النوك: أي الحماقة.

وقد يحدُثُ عن البُخْل من الأخلاق المذمومة، وإن كان ذريعةً إلى كُلِّ مذمَّة، أربعةُ أخلاق، ناهيك بها ذمًا، وهي: الحِرْصُ، والشَّرَه، وسُوء الظَّنِّ، ومَنْعُ الحقوق.

**فأمَّا الحِرْصُ:** فهو شدة الكَدْح، والإسرافُ في الطلب.

**وأما الشَّرَه:** فهو استقلالُ الكفاية، والاستكثارُ لغير حاجة، وهذا فرق ما بين الحِرْص والشَّرَه. وقد رُوي عن العلاء بن جرير، عن أبيه، عن سالم بن منصور قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لا يَجزيه من العيش ما يكفيه، لم يجدْ - ما عاش - ما يغنيه**»[1]. وقال بعضُ الحكماء: الشَّرَهُ من غرائز اللؤم.

**وأما سوء الظَّنِّ:** فهو عدمُ الثقة بمن هو لها أهل، فإن كان بالخالق كان شكًا يؤول إلى ضلال، وإن كان بالمخلوق كان استخانة يصير بها مختانًا وخوَّانًا؛ لأنَّ ظنَّ الإنسان بغيره بحسب ما يراه في نفسه، فإن وجد فيها خيرًا ظنّه في غيره، وإن رأى فيها سوءًا اعتقد في الناس، وقد قيل في المثل: كُلُّ إناء ينضَح بما فيه. فإن قيل: قد تقدَّم من قول الحكماء أن مِنْ الحزم سُوء الظنِّ. قيل: تأويله: قلَّة الاسترسال إليهم، لا اعتقاد السوء فيهم.

**وأمَّا منعُ الحقوق:** فإنَّ نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها، ولا تنقادُ إلى ترك مطلوبها، فلا تُذْعِن لحقٍّ، ولا تجيب إلى إنصاف.

وإذا آل البخيلُ إلى ما وصفنا من هذه الأخلاق المذمومة، والشِّيم اللئيمة لم يَبقَ معه خيرٌ مرجوٌ، ولا صلاحٌ مأمول. وقد روي عن النبيِّ ﷺ أنه قال للأنصار[2]: «**مَن سيِّدكم**»؟ قالوا: الحرّ بن قيس، على بخلٍ فيه. فقال ﷺ: «**وأيّ داءٍ أدوأ من البخل؟**»، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «**إنَّ قومًا نزلوا بساحل البحر، فكرهوا لبخلهم نزول الأضياف بهم**»، فقالوا: ليبعد الرجال منّا عن النساء، حتى يعتذر الرجال إلى الأضياف ببُعْد النساء، ويعتذر النساء ببُعد الرجال، ففعلوا، وطال ذلك بهم؛ فاشتغل الرجال بالرجال، والنساء بالنساء[3].

---

(١) لم أصل إليه.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٤/ ٢٩٢)، وأخرج شطره الطبراني في «الكبير» (١٩/ ٨١).

(٣) يعني: اللواط والعياذ بالله.

**وأمَّا السَّرَف والتبذير**: فإنَّ من زاد على حدِّ السَّخاء فهو مسرف ومبذِّر، وهو بالذَّم جَدير. وقد قال الله تعالى: ﴿**وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ (الأنعام: ١٤١). ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**ما عالَ مَن اقتصد**[(١)]»[(٢)]. وقد قال المأمون - رحمه الله -: لا خيرَ في السَّرف، ولا سَرَفَ في الخير. وقال بعضُ الحكماء: صديقُ الرجل قصدُه، وسَرَفه عدوُّه. وقال بعضُ البلغاء: لا كثيرَ مع إسرافٍ، ولا قليلَ مع احتراف.

واعلمْ أنَّ السَّرَف والتبذيرَ قد يفترق معناهما، فالسَّرَف: هو الجهل بمقادير الحقوق، والتبذير: هو الجهل بمواقع الحقوق، وكلاهما مذمومٌ، وذمُّ التبذير أعظم؛ لأنَّ المسرف يخطئ في الزيادة، والمبذِّر يخطئ في الجهل، ومَن جهل مواقعَ الحقوق ومقاديرَها بماله وأخطأها، فهو كمن جهلها بفعاله فتعدَّاها. وكما أن بتبذيره قد يضَعُ الشيء في غير موضعه، فهكذا قد يعدل به عن موضعه، لأنَّ المال أقلُّ من أن يوضَعَ في كل موضع، من حقٍّ وغير حقّ. وقد قال معاوية - رضي الله تعالى عنه -: كُلُّ سَرَف فبإزائه حقٌّ مُضَيَّع. وقال بعضُ الحكماء: الخطأ في إعطاء ما لا ينبغي ومنعِ ما ينبغي واحدٌ. وقال سفيان الثَّوريّ: الحلال لا يحتملُ السَّرَف.

وليس يتمُّ السخاءُ ببذْل ما في يده، حتَّى تسخوَ نفسه عمَّا بيد غيره، فلا يميل إلى طلب، ولا يكفّ عن بَذْل. وقد حكي أنَّ الله تعالى أوحى إلى إبراهيم الخليل - عليه السَّلام -: أتدري لِم اتخذتك خليلاً؟ قال: لا، يارَبّ، قال: لأني رأيتك تحبُّ أن تعطيَ، ولا تحبُّ أن تأخذ. ورَوَى سهل بن سعد الساعديّ قال: أتى رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، مُرني بعملٍ يُحبُّني الله عليه، ويحبُّني الناس. فقال: «**ازهَدْ في الدنيا يحبَّك الله، وازهَدْ فيما في أيدي الناس يحبَّك الناس**»[(٣)].

وقال أيُّوب السَّختياني: لا ينبُلُ الرجلُ حتَّى يكونَ فيه خَصْلتان: العفَّة عن أموالِ الناس، والتجاوز عنهم. وقيل لسفيان: ما الزُّهدُ في الدنيا؟ قال: الزُّهْدُ في الناسِ. وكتب كسرى إلى ابنه هُرْمُز: يا بُنيّ، استقلّ الكثيرَ مما تعطي، واستكثر

---

(١) أي ما افتقر مَن راعى إنفاق المال من غير إسراف ونحوه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠١١٨).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٧٨٧٣)، وابن ماجه (٤١٠٢).

القليل مما تأخذ؛ فإنَّ قُرَّةَ عيون الكرام في الإعطاء، وسرور اللئام في الأخذ، ولا تَعُدَّ الشَّحيحَ أمينًا، ولا الكذَّابَ حُرًا؛ فإنَّه لا عفَّةَ مع الشحِّ، ولا مروءة مع الكذب. وقال بعضُ الحكماء: السَّخاءُ سخاءان؛ فأشرفهما سخاؤك عمَّا بيد غيرك. وقال بعضُ البلغاء: السَّخاء أن تكون بمالك متبرِّعًا، وعن مال غيرك متورِّعًا. وقال بعضُ الصلحاء: الجودُ غايةُ الزُّهدِ، والزُّهْدُ غايةُ الجود. وقال بعضُ الشعراء:

إذا لم تكن نَفْسُ الشَّريف شريفةً ... وإن كان ذا قدرٍ فليس له شَرَفْ

**والبَذْل على وجهين:** أحدهما: ما ابتدأ به الإنسان من غير سؤال. والثاني: ما كان عن طلبٍ وسؤالٍ.

فأما المبتدئ به فهو أطبعهما سخاءً وأشرفُهما عطاءً. وسئل عليٌّ - كرَّم الله وجهه - عن السخاء، فقال: ما كان منه ابتداءً، فأمَّا ما كان عن مسألة فحياءٌ وتكرُّم. وقال بعض الحكماء: أجلُّ النَّوال ما وصل قبل السؤال. وقال بعضُ الشعراء:

وفتًى خَلاَ من ماله ... ومِنَ المروءة غيرُ خالْ

أعطاكَ قَبْلَ سؤاله ... فكفاك مكْرُوه السؤال

وهذا النوع من البَذْل قد يكون لأحد تسعة أسباب:

**فالسبب الأوَّل** - أن يَرَى خَلَّةً يقدر على سدِّها، وفاقةً يتمكَّن من إزالتها، فلا يدعُه الكرمُ والتديُّن، إلاَّ أن يكونَ زعيمَ صلاحها، وكفيلَ نجاحها، رغبةً في الأجر إن تديَّن، وفي الشكر إن تكرَّم. وقال أبو العتاهية:

ما النَّاسُ إلاَّ آلةٌ مُعْتَمِلَهْ ... للخير والشرِّ جميعًا فَعَلَهْ

**والسبب الثاني** - أن يرى في ماله فضلاً عن حاجته، وفي يده زيادةً عن كفايته، فيرَى انتهازَ الفرصة بها، فيضعُها حيث تكون له ذُخْرًا مُعَدًا، وغُنمًا مستجدًا. وقد قال الحسن البصريّ - رحمه الله -: ما أنصفَكَ مَنْ كلَّفَك إجلالَه، ومنعَكَ مالَه. وقيل لهند بنت الخسِّ: مَن أعظم الناس في عينك؟ قالت: من كان لي إليه حاجة. وقال الشاعر:

وما ضاع مالٌ ورَّثَ الحمدَ أهلَهُ ... ولكنَّ أموالَ البخيلِ تضيعُ

والسبب الثالث - أن يكونَ لتعريض يتنبه عليه بفطنته، وإشارة يَستدل عليها بكرمه، فلا يدعه الكرمُ أن يَغفُل، ولا الحياء أن يكفّ. وقد حكي أنّ رجلاً ساير بعضَ الولاة، فقال: ما أهزَلَ برذونك[1]؟ فقال: يدُه مع أيدينا، فوصلَه اكتفاءً بهذا التعريض الذي بلغ ما لا يبلغه صريح السؤال. ولذلك قال أكثم بن صيفيّ: السَّخاء حسن الفطنة، واللؤم سوء التغافُل. وحُكي أن عبيد الله بن سليمان لمّا تقلّد وزارة المعتضد، كتب إليه عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر:

أبَى دَهْرُنا إسعافَنا في نفوسنا ... وأسعَفَنا فيمن نُحبُّ ونُكرمُ

فقلت لهُ نُعماكَ فيهم أتِمَّها ... ودَعْ أمرَنا إنَّ المهمَّ مُقدَّمُ

فقال عُبيد الله: ما أحسَنَ ما شكا أمره بينَ أضعاف مدحه! وقَضَى حاجته. ولذلك قال بعض الشعراء:

ومَنْ لا يَرَى من نفسه مُذْكِرًا لها ... رَأى طلَبَ المستنجدين ثقيلاً

والسبب الرابع - أن يكونَ ذلك رعايةً ليد، أو جزاءً على صنيعة؛ فيرَى تأديةَ الحقِّ عليه طوعًا؛ إمَّا أنَفَةً، وإما شكرًا؛ ليكوّنَ من أَسْر الامتنانِ طليقًا، ومن رقِّ الإحسان وعبوديته عَتيقًا.

وقد قال بعضُ الحكماء: الإحسانُ رقٌّ، والمكافأة عتْقٌ. وقال أبو العتاهية:

وليستْ أيادي النَّاس عندي غنيمة ... ورُبَّ يدٍ عندي أشد من الأسْرِ

والسبب الخامس - أن يؤثر الإذعانَ بتقديمه، والإقرارَ بتعظيمه؛ توطيدًا لرئاسةٍ هو لها محبٌّ، وعلى طلبها مكبٌّ، وقد قال الشاعر:

حُبُّ الرِّياسةِ داءٌ لا دَوَاءَ لهُ ... وقلَّما تَجِد الرَّاضينَ بالقِسَمِ

فتستصعب عليه إجابة النفوس له طوعًا إلاّ بالاستعطاف، وإذعانها إلاّ بالرَّغبة والإسعاف، وقد قال بعضُ الأدباء: بالإحسان يرتبط الإنسان. وقال بعضُ البلغاء: مَنْ بَذَلَ مالَهُ أدركَ آمالَه. وقال بعضُ الشعراء:

أترجُو أن تسودَ بلا عناءٍ ... وكيفَ يسُودُ ذو الدَّعة البخيلُ

والسبب السادس - أن يدفع به سطوةَ أعدائه، ويستكفّ به نفارَ خصمائه، ليصيروا له بعد الخصومة أعوانًا، وبعدَ العداوة إخوانًا؛ إمَّا لصيانَة عِرْضٍ، وإمَّا لحراسة مَجْدٍ. وقد قال أبو تمَّام الطائيّ:

---

(١) البِرْذون: الدابة.

ولم يجتمعْ شَرْقٌ وغَرْبٌ لِقَاصِدٍ ولا المَجْدُ في كفِّ امْرِئٍ والدَّرَاهِمُ
ولم أرَ كالمعروفِ تُدْعى حُقُوقُه مَغَارِمَ في الأقوام وَهْيَ مَغَانِمُ

وقال بعضُ الأدباء: من عَظُمت مَرافِقُه[1]، أعظَمَه مُرَافِقُه.

**والسبب السابع** - أن يَرُبَّ[2] به سالفَ صنيعة أولاها، ويراعيَ به قديمَ نعْمَة أسْدَاها؛ كيلا يُنْسَى ما أولاه، أو يُضاعَ ما أسداهُ؛ فإنَّ مقطوع البرِّ ضائعٌ، ومُهْمَلَ الإحسان ضالّ. وقد قال الشاعر:

وَسَمْتَ امرءاً بالبرِّ ثمَّ اطَّرَحْتَه ومن أفضل الأشياء رَبُّ الصنائع

وقال محمد بن داود الأصبهاني:

بدأت بنُعْمَى أوجَبَتْ لِيَ حُرْمَةً عليك فعُدْ بالفَضْلِ فالعَوْدُ أحْمَدُ

**والسبب الثامن** - المحبة يُؤْثِرُ بها المحبوب على ماله، فلا يضنُّ عليه بمرغوب ولا ينفَس[3] عليه بمطلوب، للَّذَّة التي هي عنده أحظَى، وإلى نفسه أشهى؛ لأنَّ النفس إلى محبوبها أشوَقُ، وإلى ممايلته أسبق. قال الشاعر:

وما زرتُكُمْ عَمْداً ولكنَّ ذا الهوى إلى حيث يَهْوَى القَلْبُ تَهْوِي به الرِّجْلُ

وهذا وإنْ دخلَ في أقسام العطاء، فخارجٌ عن حدِّ السَّخاء، وهكذا الخامس والسادس من هذه الأسباب؛ وإنَّما ذكرناها لدخولها تحت أقسام العطاء.

**والسبب التاسع وليس بسبب** - أن يفعل ذلك لغير ما سبب، وإنَّما هي منه سجية قد فُطِرَ عليها، وشيمة قد طُبِعَ بها، فلا يميز بين مستحقٍّ ومحرومٍ، ولا يفرِّق بين محمودٍ ومذمومٍ، كما قال بشار بن برد:

ليس يُعطيكَ للرَّجاء ولا للْخَوفِ لكنْ يَلَذُّ طَعْمَ العَطاءِ

وقد اختلَفَ الناسُ في مثل هذا: هل يكون منسوبًا إلى السَّخاء فيحمَد، أو خارجًا عنه فيذم؟ وقال قوم: هذا هو السخيّ طبعًا، والجوادُ كرمًا، وهو أحقُّ من كان به ممدوحًا، وإليه منسوبًا. وقال أبو تمام:

---

(١) أي منافعه. (٢) أي يرعى. (٣) أي يبخل.

مِنْ غَيْرِ ما سَبَبٍ يُدْنِي كَفَى سَبَبًا ... لِلحُرِّ أن يَجْتَدِي حُرًا بلا سَبَبِ

وقال الحسن بن سهل: إذا لم أعط إلاَّ مستحقًا، فكأني أعطيتَ غَرِيمًا. وقال: الشرف في السَّرف، فقيل له: لا خيرَ في السَّرف. فقال: ولا سَرَف في الخير. وقال الفضل بن سهل: العجَبُ لمن يرجو مَنْ فَوْقَه، كيف يَحْرِمُ مَن دُونه. وقال بشار:

وما الناسُ إلا صاحباكَ فمنهمُ ... سَخِيٌّ ومغلولُ اليدَيْن من البُخْلِ

فسامِحْ يداً ما أمكنتك فإنَّها ... تُقِلُّ وتُثْرِي والعَواذِلُ في شُغْلِ

وقال آخرون: هذا خارج من السَّخاء المحمود، إلى السَّرف والتبذير المذموم؛ لأن العطاء إذا كان لغير سبب، كان المنْعُ لغير سبب؛ لأنَّ المال يقلُّ عن الحقوق، ويقصرُ عن الواجبات، فإذا أَعطى غير المستحق، فقد يمنع مستحقًا، وما يناله من الذم بمنع المستحق أكثر مما يناله من الحمد بإعطاء غير المستحق، وحسبك ذمًا بمن كانت أفعاله تصدُرُ عن غير تمييز، وتوجد لغير علَّة. وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُوراً ﴾ (الإسراء: ٢٩). فنهى عن بسطها سَرَفًا، كما نَهَى عن قَبْضِها بُخلاً، فدلَّ على استواءِ الأمرين ذمًا، وعلى اتفاقهما لَومًا. وقال الشاعر:

وكانَ المالُ يأتينا فكُنَّا ... نُبَذِّره وليس لنا عُقُولُ

فلمَّا أنْ تَوَلَّى المالُ عنَّا ... عَقَلْنا حينَ ليس لنا فُضُولُ

قالوا: ولأنَّ العطاء والمنْعَ إذا كانا لغير علَّة، أفضيا إلى ذمِّ الممنوع، وقلَّة شُكْرِ المعطَى؛ أمَّا الممنوع فلأنه قد فضَّل عليه مَنْ سواه، وأما المعطَى فإنه وجد ذلك اتفاقًا وربَّما أمَّل بالاتفاق أضعافًا، فصار ذلك مُفْضيًا إلى اجتلاب الذمِّ، وإحباط الشكر، وليس فيما أفضى إلى واحد منهما خيرٌ يُرجَى، وهو جدير أن يكون شرًا يُتَّقى، ولمثل هذا قيل: منْعُ الجميع إرضاءٌ للجميع؛ وعطاءٌ يكون المنْعُ أرضَى منه خسرانٌ مبين.

فأمَّا إذا كان البَذْلُ والعطاء عن سؤال وطلب؛ فشروطه معتبرة من وجهين: أحدهما: في السائل، والثاني: في المسؤول؛ فأما ما كان معتبرًا في السائل فثلاثة شروط:

**الشرط الأول** - أن يكونَ السؤالُ لسبب، والطَّلبُ لموجب، فإن كان لضرورة ارتفع عنه الحرَجُ، وسقط عنه اللوم. وقدْ قال بعضُ الحكماء: الضرورة تُوَقِّحُ الصورة[1]. وقال بعض الشعراء:

**ألاَ قبَّح اللهُ الضَّرورةَ إنَّها ... تكلّفُ أعْلَى الخَلْق أدنَى الخلائقِ**

**ولله درُّ الاتِّساعِ فإنَّه ... يُبَيِّن فَضْلَ السَّبْق مِن غيرِ سابِقِ**

وقال الكُميت:

**إذا لمْ يكنْ إلاَّ الأسنَّة مَرْكَبٌ ... فلا رأيَ للمضطَرِّ إلاَّ ركوبُها**

فإن ارتفعت الضرورة، ودعت الحاجة فيما هو أولى الأمرين أن يكونَ، وإن جاز ألاَّ يكون، فالنفس المسامحة تغلب الحاجة، وتسمَحُ في الطلب، وتراعي ما استقام به الحال، وانتظم به الأمر؛ وإن ناله ذلٌّ، ولحقه وهنٌ، فيتأوَّل صاحبها قولَ البحتريّ:

**ورُبَّما كان مكروهُ الأمورِ إلى ... مَحبُوبِها سَبَبًا ما مِثلُه سَبَبُ**

والنفس الشريفة تطلب الصيانة، وتراعي النزاهة، وتحتملُ من الضُّرِّ ما احتملت، ومن الشدَّة ما أطاقتْ، فيبقى تحمُّلُها، ويدومُ تصوُّنُها، فتكون كما قال الشاعر:

**وقد يكتسِي المرءُ خَزَّ الثيابِ ... ومِنْ دُونها حالةٌ مُضْنِيَهْ**

**كما يَكْتَسِي خَدُّهُ حُمْرَةً ... وعِلَّتُها وَرَمٌ في الرِّيَهْ**

ولا يرى أن يتدنَّس بمطالب الشؤم، ومطالع اللؤم، فإنَّ البهائم الوحشية تأبى ذلك، وتأنف منه. قال الشاعر:

**وليسَ الليثُ مِنْ جوعٍ بِغادٍ ... على جِيَفٍ تُطيفُ بها الكلابُ**

فكيف بالإنسان الفاضل، الذي هو أكرم الحيوان جنسًا، وأشرفُه نفسًا، هل يحسن به أن يَرَى لوحشيِّ البهائم عليه فضلاً؟ وقد قال الشاعر:

**على كلِّ حالٍ يأكُلُ المرءُ زادَهُ ... على البؤسِ والضرَّاءِ والحَدَثانِ**

والفضل في مثل هذا ما قيل لبعض الزهاد: لو سألتَ جارَك أعطاك؟ فقال: والله ما أسأل الدنيا ممن يملكها، فكيف ممن لا يملكها. ووصف بعضُ الشعراء قومًا، فقال:

---

(١) أي تُذهب حياء الوجه، فيصدر من المضطر شيء من الوقاحة.

إذا افتقروا أغضَوْا على الضُّرِّ حِسْبَةً … وإن أيْسَرُوا عادوا سِرَاعًا إلى الفقر[1]

فأما من يسأل من غير ضرورة مَسَّتْ، ولا حاجة دعَتْ، فذلك صريحُ اللؤم، ومحضُ الدناءة، وقلَّما تجد مثلَه ملحوظًا، أو مموَّلاً محفوظًا؛ لأنّ الحرمان قاده إلى أضيق الأرزاق، واللؤم ساقه إلى أخبث المطاعم، فلم يَبْقَ لوجهه ماءٌ إلاَّ أراقه، ولا ذلٌّ إلاَّ ذاقه، كما قال عبدُ الصَّمد بن المعذّل لأبي تمام الطائيّ:

أنتَ بينَ اثنتين تبرزُ للناس … وكلتاهما بوجْهٍ مُذالِ
لستَ تنفكُّ طالبًا لوصالٍ … من حبيبٍ أو طالبًا لنوالِ
أيُّ ماءٍ لحرِّ وجْهِكَ يبقَى … بين ذلِّ الهَوَى وذلِّ السؤالِ

ولو استقبح العار، وأنف من الذلّ، لوجدَ غير السؤال مكْسبًا يَمُونه، ولَقَدَرَ على ما يقلّه ويصونه، وقد قال الشاعر:

لا تطلبَنَّ معيشَةً بتذلُّلٍ … فليأتيَنَّكَ رِزْقُكَ المقدُورُ
واعلمْ بأنك آخِذٌ كُلَّ الذي … لَكَ في الكتابِ مقدَّرٌ مَسْطُورُ

**والشرط الثاني من شروط السؤال** ـ أن يضيقَ الزمان عن إرجائه، ويقصُرَ الوقتُ عن إبطائه، فلا يجد لنفسه في التأخير فُسحةً، ولا في التمادي مُهلةً، فيصير من المعذورين، وداخلاً في عداد المضطرين. فأمَّا إذا كان الوقت متسعًا، والزمان ممتدًا، فتعجيلُ السؤال لؤم وقُنوط. وقال الشاعر:

أبَى ليَ إغضاءَ الجفونِ على القَذَى … يَقينيَ أنْ لا عُسْرَ إلاَّ مُفَرَّجُ
ألا رُبَّما ضاقَ الفضاءُ بأهله … وأمكنَ مِنْ بين الأسنة مَخْرَجُ

**والشرط الثالث** ـ اختيار المسؤول أن يكون مرجوَّ الإجابة، مأمولَ النُّجْح؛ إمَّا لحرمة السائل، أو كرم المسؤول؛ فإن سأل لئيمًا لا يراعي حُرْمَةً، ولا يُولي مكرمة، فهو في اختياره ملوم، وفي سؤاله محروم. وقد قال بعض الحكماء: المخذولُ من كانت له إلى اللئام حاجة. وقد قال بعضُ البلغاء: أذلُّ من اللئيم سائله، وأقلُّ من البخيل نائلُه. وقال بعض الشعراء:

(1) أي إذا افتقروا صبروا ابتغاء الأجر، وإن أيسروا: أنفقوا حتى يعودوا فقراء.

مَن كان يأملُ أن يَرَى ... مِن ساقطٍ نَيْلاً سَنِيًّا
فلقد رجا أنْ يجتَنِي ... مِن عَوْسَجٍ رُطَبًا جَنِيًّا[1]

وأمَّا الشروط المعتبرة في المسؤول فثلاثة:

**الشرط الأوَّل** ـ أن يكتفيَ بالتعريضِ، ولا يُلْجِئَ إلى السؤال الصريح، ليصونَ السائلَ عن ذلِّ الطلب؛ فإنَّ الحالَ ناطقة، والتعريضَ كافٍ، وقد قال الشاعر:

أقولُ وسِتْرُ الدُّجَى مُسْبَلٌ ... كما قال حين شكا الضِّفْدَعُ
كلامِيَ إنْ قلْتُهُ ضائعٌ ... وفي الصَّمْتِ حَتْفي فما أصنعُ

وربما فهم المسؤول الإشارة، فألْجأ إلى التصريح بالعبارة، تهجينًا للسائل؛ ليخجلَ فيمسكَ، ويستحيي فيكفَّ، فيكون كما قال أبو تمام:

مَن كانَ مَفْقُودَ الحَياءِ فوجهُهُ ... مِن غيرِ بوَّابٍ له بوَّابُ

**والشرط الثاني** ـ أن يَلْقَى بالبشر والترحيب، ويقابلَ بالطلاقة والتقريب؛ ليكون مشكورًا إن أعطَى، ومعذورًا إن منع. وقد قال بعضُ الحكماء: الْقَ صاحبَ الحاجة بالبِشر، فإن عَدِمْتَ شكرَه، لم تعدم عُذْرَه. وحكى ابن لَنْكَكَ: أنَّ أبا بكر ابن دُريد قصد بعضَ الوزراء في حاجة، فلم يقضِها له، وظهر له منه ضجرٌ، فقال:

لا تدْخُلَنَّكَ ضَجْرَةٌ من سائلٍ ... فَلَخَيْرُ دهرِك أن تُرَى مَسؤولا
لا تَجْبَهَنْ بالردِّ وَجْهَ مُؤَمِّلٍ ... فبقاءُ عِزِّك أن تُرى مأمُولاَ
تلقَى الكريمَ فتستدلَّ ببشْرِه ... وتَرَى العُبُوسَ على اللئيم دَليلا
واعْلَمْ بأنَّك عن قليلٍ صائرٌ ... خَبرًا فكن خبرًا يَرُوق جميلاَ

**والشرط الثالث** ـ تصديقُ الأمل فيه، وتحقيق الظنِّ به، ثم اعتبار حاله وحال سائله، فإنَّهما لا يخلوان من أربع أحوال:

**فالحال الأولى** ـ أن يكون السائل مستوجبًا، والمسؤول متكِّنًا، فالإجابة هاهنا تُسْتَحَقُّ كرمًا، وتُسْتلزَم مُروءةً، وليس إلى الرد سبيل إلاَّ لمن استولى عليه البُخل، وهان عليه الذمُّ، فيكون كما قال عبدُ الرحمن بن حسان:

---

(1) العوسج: نبات شائك.

إنّي رأيْتُ من المكارم حَسْبَكُم أن تلبسُوا خَزَّ الثياب وتشبَعُوا
فإذا تُذُوكِرَتِ المكارمُ مرَّةً في مجلسٍ أنتم به فتَقَنَّعُوا

فنعوذ بالله ممن حَرَمَ ثروةَ ماله؛ ومَنَعَ حُسْنَ حاله، أن يكون مستودَعًا في صنيع مشكور، وبرٍّ مذخور. وقد قيل لبخيل: لِمَ حَبَسْتَ مالك؟ قال: للنوائب، فقيل له: قد نزلَتْ بك. وقال بعضُ الشعراء:

ما لَكَ من مالِكَ إلاَّ الذي قدَّمْتَ فابْذُلْ طائعًا مالكا
تقولُ أعمالي ولو فتَّشُوا رأيْتَ أعمالَكَ أعْمَى لَكا

وقد أسقط حقَّ نفسه، ورفعَ أسبابَ شُكْرِه، فصار ـ بأن لا حقَّ له ـ مذمومًا كمشكور، ومأثومًا كمأجور؛ وقال أبو العتاهية:

خزَنَ البخيلُ عَلَيَّ صالحهُ إذْ لم يُثقِّل برُّه ظهري
ما فاتني خيرُ امرئٍ وَضَعَتْ عنِّي يداهُ مؤونة الشكر
ورُزِقْتُ من جدواه عافيةً ألاَّ يضيقَ بشكره صدري

فإذا لم يكن إلى الردِّ في مثل هذه الحال سبيل، نَظَرَ، فإن كان التأخير مُضرًا، أعجَلَ بذلَه، وقَطَعَ مَطْلَه، وكانت إجابتُه فعلاً، وقولُه عملاً. وقد قالت الحكماء: من مُرُوءة المطلوب منه، ألاَّ يُلجئ إلى الإلحاح عليه. وقال محمد بن حازم:

ومنتظرٍ سؤالَكَ بالعطايا وأشرفُ من عطاياهُ السؤالُ
إذا لم يأتكَ المعروفُ طوعًا فَدَعْهُ فالتنزُّهُ عنه مالُ

وإن كان في الوقت مهْلَة، وفي التأخير فُسحة، فقد اختلفت مذاهب الفضلاء فيه، فذهب بعضهم إلى أن الأوْلى تعجيلُ الوعد قولاً، ثم يُعْقِبُهُ الإنجازَ فعلاً؛ ليكونَ السائلُ مسرورًا بتعجيل الوعد، ثم بآجل الإنجاز، ويكونَ المسؤول موصوفًا بالكرم، ملحوظًا بالوفاء. وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «العِدَةُ عطيَّة»[1]. وقال الفضل بن سهل لرجل سألَه حاجةً: أَعِدُك اليوم، وأَحْبُوكَ غدًا بالإنجاز؛ لتذوقَ حلاوةَ الأمل، وأتزيَّن بثوب الوفاء.

---

(١) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١/٣٩) (٦)، عن ابن مسعود.

ووعد يحيى بن خالد رجلاً بحاجة سأله إياها، فقيل له: تَعِدُ وأنتَ قادرٌ؟ فقال: إنَّ الحاجة إذا لم يتقدَّمْها وَعْدٌ ينتظرُ صاحبه نُجْحَه، لم يجدْ سُرورها؛ لأن الوعد طَعْم والإنجازَ طعام، وليس من فاجأه الطعام، كمن يجد رائحته ويطعَمه؛ فدعِ الحاجة تختمر بالوعد؛ ليكونَ لها طعمٌ عند المصطنَع إليه. وقال بعضُ البلغاء: إذا أحسنت القول فأحسنِ الفعل؛ ليجتمع لك ثمرة اللسان، وثمرة الإحسان، ولا تقل ما لا تفعل؛ فإنَّك لا تخلو في ذلك من ذنب تكتسبه، أو عجزٍ تلتزمُه.

ومنهم من ذهب إلى أن تعجيل البَذْل فعلاً من غير وَعْد أولى، وتقديمَه من غير ترقُّب ولا انتظارِ أحرَى، وإنما يقدِّم الوعد واحد من رجلَين: إما مُعْوِز ينتظر جِدَةَ[1]، وإمَّا شحيحٌ يَرُوض نفسه توطئةً، وليس للوعد في غير هاتين الحالتين وجه يصحّ، ولا رأي يتَّضِح، مع ما يغيِّره الليل والنهار، وتتقلَّبُ به الحال من يسار وإعسار. وقال بعضُ الشعراء:

يا أيُّها الملكُ المقدَّم أمرُهُ شرقًا وغَربَا
امْنُنْ بختْم صحيفتي ما دام هذا الطّينُ رَطْبَا[2]
واعْلَمْ بأنَّ جفافَه ممَّا يُعيدُ السَّهلَ صَعْبا

قالوا: ولأنَّ في الرجوع عنه منَ الانكسار، وفي توقُّع الوعد من مرارة الانتظار، وفي العَود إليه من بِذْلة[3] الاقتضاء، وذِلة الاجتداء[4]؛ ما يكدِّر بِرَّه، ويُوهنُ شُكْره. وقال الشاعر:

إنَّ الحوائجَ ربَّما أزْرَى بها عندَ الذي تُقْضَى له تطويلُها
فإذا ضمِنْتَ لصاحبٍ لك حاجةً فاعْلَم بأنَّ تمامَها تعجيلُها

**والحال الثانية** - أن يكون السائلُ غيرَ مستوجب، والمسؤولُ غيرَ متمكِّن، ففي الردِّ فُسْحة، وفي المنع عُذر؛ غير أنه يَلين عند الردّ لينًا يقيه الذمَّ، ويُظهر عُذْرًا يدفع عنه اللوم، فليس كُلُّ مقلٍّ يَعْرِف، ولا كُلُّ معذور يُنْصِف.

---

(١) أي تَوَفُّر المال.

(٢) أراد بالطين جسم الإنسان المخلوق من طين، فرطبه حياته وجفافه موته.

(٣) من الابتذال وهو المهانة وترك صيانة النفس وعزها.

(٤) أي طلب المال والمعونة.

وقد قال أبو العتاهية يصف الناس:

يا ربَّ إنَّ النَّاس لا يُنْصِفونني ... فكيفَ وإن أنْصَفْتُهُمْ ظَلَمُوني
فإن كان لي شيءٌ تَصَدُّوا لأخْذِهِ ... وإن جئتَ أبغي شَيْئَهُمْ منعوني
وإن نالَهُم بذْلي فلا شُكْرَ عنْدَهم ... وإن أنا لم أبذُلْ لَهُم شَتَمُوني
وإن طَرَقَتْني نَكْبَةٌ فَكِهُوا بها ... وإن صحِبَتْني نعْمَةٌ حَسَدوني
سأمنَعُ قلبي أن يَحِنَّ إليهِمُ ... واغمض عنهم ناظري وجُفُوني
واقطَعُ أيامِي بيوم سُهُولةٍ ... أُقَضِّي بها عمري ويَوْم حَزونِ
ألا إنَّ أصْفَى العيشِ ما طاب غِبُّه ... وما نِلْتُه في لذَّةٍ وسُكُونِ[١]

**والحال الثالثة** - أن يكونَ السائل مستوجبًا، والمسؤولُ غير متمكّن، فيأتي بالحمل على النفس ما أمكنٍ؛ من يسيرٍ يُسدُّ به خَلَّة، أو يدفع به مَذَمَّة، أو يوضح من أعذار المعوزين، وتوجّع المتألّين، ما يجعله في المنع معذورًا، وبالتوجّع مشكورًا. وقد قال أبو النصر العتبيّ - رحمه الله تعالى -:

الله يعلمُ أنّي لستُ ذا بَخَلٍ ... ولسْتُ ملتمسًا في البخل لي عِلَلا
لكنَّ طاقةَ مثلي غيرُ خافِيةٍ ... والنَّمل يُعْذَرُ في القَدْرِ الذي حَمَلا

وربما تحسَّر بحدوث العَجْزِ بعد تقدُّم القدرة عَلى فوت الصنيعة، وزوال النعمة، حتى صار أضنى جسدًا، وأزيدَ كَمدًا، كما قال الشاعر:

وكنتُ كبازِ السُّوءِ قُصَّ جَناحُه ... يَرَى حسراتٍ كُلَّما طارَ طائرُ
يَرَى طائراتِ الجوِّ تَخْفُقُ حَوْلَه ... فيذكُرُ إذ ريشُ الجناحَيْن وافرُ

**والحال الرابعة** - أن يكونَ السائلُ غيرَ مستوجبٍ، والمسؤولُ متمكّنًا، وعلى البَذْل قادرًا، فينظر، فإنَّ خاف بالردّ قَدْحَ عِرْضٍ، أو قُبْحَ هجاءٍ مُمِضٍ[٢]، كان البذل إليه مندوبًا، صيانةً لا جودًا؛ فقد رُوِي عن النَّبيّ ﷺ أنه قال: **«ما وقى به المرءُ عِرْضَه فهو له صدقة»**[٣]. وإنْ أمن من ذلك وسلم منه؛ فمن الناس من غَلَّب

---

(١) غبه: أي عاقبته. (٢) أي مؤلم محزن.
(٣) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٩٣).

المسألة، وأمر بالبَذْل؛ لئلاَّ يقابل الرجاء بالخيبة، والأمَل بالإياس، ولما فيه من اعتياد الردِّ، واستسهال المنع. وكما أن اعتياد البَذْل مفضٍ إلى السَّخاء، كذلك اعتياد المنع مفضٍ إلى الشحّ. وأنشد الأصمعيّ عن الكسائي:

كأنَّكَ في الكتابِ وجدْتَ لاءً ... محرَّمةً عليك فلا تحلُّ[1]
فما تدري إذا أعطيتَ مالاً ... أيُكثِرُ من سماحك أم يُقِلُّ
إذا حضَرَ الشتاءُ فأنْتَ شمسٌ ... وإن حَضَرَ المَصيفُ فأنتَ ظِلُّ

ومِن الناس من اعتبر الأسباب، وغلَّبَ حالَ السائل، ونَدَبَ إلى المنع، إذا كان العطاء في غير حقّ؛ ليقوى على الحقوق إذا عرضت، ولا يعجز عنها إذا لزمت وتعيَّنت. وقد قال بعض الشعراء:

لا تَجُدْ بالعطاء في غيرِ حقٍّ ... ليس في مَنْعِ غَيْرِ ذي الحقِّ بُخْلُ
إنَّما الجودُ أن تجودَ على مَنْ ... هو للجود والنَّدى منك أهلُ

فأمَّا من أجاب السؤال، ووعد بالبَذْل والنَّوال، فقد صار بوعده مرهونًا، وصار وفاؤه بالوعد مقرونًا، ولا اعتبار باستحقاق السائل بعد الوعد، ولا سبيلَ إلى مراجعة نفسه في الردّ، فيستوجب مع ذمِّ المنع لؤمَ المخلف، ومَقْت القادر، وهُجْنة[2] الكذوب، ثم لا سبيلَ إلى مَطْله بعد الوعد؛ لمَا في المطل من تكدير الصنيع، وتمحيق الشكر. والعرب تقول في أمثالها: المَطْلُ أحد المَنْعَين، واليأس أحدُ النُّجْحَين. وقال بشار بن برد:

أظلَّتْ علينا منكَ يومًا غمامةٌ ... أضاءتْ لنا بَرْقًا وأبْطأ رَشَاشُها
فلا غَيْمُها يُجْلَى فييأسَ طامعٌ ... ولا غَيْثُها يأتي فيُرْوَى عطاشُها

ثم إذا أنجز وعده، وأوفى عهده، لم يُتبِعْ نفسه ما أعطى، ويُسَرُّ أَنْ كانت يدُه العليا، فقد قال رسول الله ﷺ: **«اليدُ العُلْيا خيرٌ من اليد السُّفْلى»**[3]. وقال الشاعر:

---

(١) **لاء**: يريد بها «لا» التي تعني المنع، فكأنها محرمة على أهل الجود والسخاء.

(٢) **الهجنة**: القبح والعيب.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٢٧)، ومسلم (١٠٣٣).

وإنَّكَ لا تدري إذا جاءَ سائلٌ ... أأنتَ بما تعطيه أم هُوَ أسْعَدُ
عسى سائلٌ ذو حاجةٍ إنْ منعْتَهُ ... مِنَ اليوم سُؤْلاً أن يكونَ له غَدُ

وليكن من سروره - إذ كانت الأرزاق مقدَّرةً - أن تكونَ على يده جاريةً؛ ومن جهته واصلةً لا تنتقلُ عنه بمنع، ولا تتحوَّل عنه بإياس. حُكي أنَّ رجلاً شكا كثرةَ عياله إلى بعض الزُّهَّاد، فقال: انظر من كان منهم ليس رزقه على الله - عزَّ وجلَّ -، فحوِّله إلى منزلي. وقال ابن سيرين لرجل كان يأتيه على دابة، ففقد الدابة: ما فَعَلَ بِرْذَوْنُك؟ قال: اشتدَّت عليَّ مؤونته فبعته. قال: أفتراه خَلَّف رزقه عندك؟ وقال ابن الرومي:

إنَّ لله غيرَ مَرْعَاك مَرْعىً ... ترتعيه وغيرَ مائكَ ماءَ
إنَّ لله بالبريةِ لُطفاً ... سَبَقَ الأمَّهاتِ والآباءَ

ثم ليكن غالبُ عطائه لله تعالى، وأكثَرُ قَصْده ابتغاءَ ما عند الله - عزَّ وجلَّ -، كالذي حكاه أبو بكْرة، عن عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه -: أنَّ أعرابيًا أتاه فقال:

يا عُمَرَ الخيرِ جُزيتَ الجَنَّهْ ... اكْسُ بُنَيَّاتي وأمَّهُنَّهْ
وكُنْ لنا من الزَّمانِ جُنَّهْ ... أُقسِمُ بالله لتفعلَنَّهْ

فقال عمر - رضي الله تعالى عنه -: فإن لم أفعَلْ يكون ماذا؟ قال:

إذَنْ أبا حفْصٍ لأذهَبَنَّهْ

فقال: فإذا ذهبْتَ يكون ماذا؟ فقال:

يكونُ عن حالي لتُسألنَّهْ ... يومَ تكون الأعطياتُ هَنَّهْ(1)
وموقف المسؤول بينهُنَّهْ ... إمَّا إلى نارٍ وإمَّا جَنَّهْ

فبكى عمر - رضي الله تعالى عنه -، حتى اخضلت لحيته، ثم قال: يا غلام؛ أعطِه قميصي هذا لذلك اليوم، لا لِشعْرِه، أمَا والله لا أملك غيره. وإذا كان

(1) من الهنين وهو البكاء.

العطاء على هذا الوجـه، خلا من طلب جـزاءٍ وشكرٍ، وعَرِي عن امتـنانٍ ونشْرٍ، فكان ذلك أشرفَ للباذل، وأهنأ للقابل.

وأما المعطي إذا التـمس بعطائه الجزاءَ، وطلب به الشكر والثناء، فهـو خارج بعطائه عن حكم السَّخاء؛ لأنَّه إنْ طلَب به الشُّكْرَ والثَّناء، كـان صاحب سُمْـعة ورياء، وفي هذينِ من الذَّمِّ مـا ينافي السَّخاء؛ وإن طلب به الجـزاء، كان تاجـرًا متربِّحًا لا يستحقُّ حَمْدًا ولا مَدْحًا. وقد قال ابن عبَّاس - رضي الله تعالى عنهما - في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ (المدثر: ٦): إنه الذي يعطي عطية يلتمس بهـا أفضلَ منهـا. وكان الحسن البـصري يقـول في تأويل ذلك: ﴿وَلَا تَمْنُن﴾، بعملك ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾، على ربِّك. وقال أبو العتاهية:

**وليـسَتْ يَدٌ أولَيْـتَـهـا بغنيـمَـةٍ ... إذا كُنْتَ ترجـو أن تُعـدَّ لهـا شُكْرا**

**غِنَى المرءِ مـا يَكْفيـه من سدِّ حاجةٍ ... فإن زاد شيئًا عـاد ذاك الغِنَى فَقْرا**

**واعلَم:** أنَّ الكريم يُجْـتَدى[1] بالكرامـة واللطف، واللئـيم يُجْـتَدَى بالمهـانة والعُنْف، ولا يجود إلاَّ خوفًا، ولا يجيب إلاَّ عُنفًا، كما قال الشاعر:

**رأيتُكَ مِـثْلَ الجَـوْزِ يَمنَعُ لُبَّـهُ ... صحيحًا، ويعطِي خيرَهُ حينَ يُكسَرُ**

فاحْـذَرْ أن تكونَ المهانة طريقًا إلى اجـتدائك، والخوفُ سبـيلاً إلى إعطائك، فيجـري عليه سَفَهُ الطَّغَـام، وامتهانُ اللئـام، ولْيَكُن جودُكَ كرمًا ورغـبة، لا لؤمًا ورهبة؛ كيلا يكون مع الوصمة، كما قال العباس بن الأحنف:

**أُحـرم منكم بما أقـولُ وقـد ... نال به العـاشقـون مَنْ عشقـوا**

**صِـرْتُ كـأنِّي ذُبالةٌ نُصِـبتْ ... تضيءُ للنَّاسِ وهْيَ تحـترقُ**

**وأمَّا النوع الثاني من البرِّ:** فهو المعروف. ويتنوَّع أيضًا نوعين: قولاً وعملاً.

**فأما القول:** فهو طيب الكلام، وحُسْن البِشـر، والتَّودُّدُ بجميل القَوْل؛ وهذا يبعَثُ عليه حُسْنُ الخُلق، ورقَّةُ الطبع؛ ويجب أن يكون محدودًا كالسَّخاء؛ فإنَّه إن أسرف فيه كان مَلَقًا مذمومًا؛ وإن توسَّط واقتصَدَ فيه كان معروفًا وبرًا محمودًا.

---

(١) أي يرجى عطاؤه ويُسأل.

وقد قال ابنُ عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ، في تأويل قوله تعالى: ﴿ **وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً** ﴾ (الكهف: ٤٦). إنَّها الكلام الطيِّب. وكان سعيد بن جبير يتأوَّل أنَّها الصَّلوات الخمس. وروى سعيد عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنكم لن تسعوا النَّاسَ بأموالكم، فليسعْهُم منكم بسطُ الوجوه، وحُسْنُ الخلق**»[1]. ورُوِي أنَّ النبيَّ ﷺ أنشد عنده قول الأعرابيِّ هذا:

**وَحَيٍّ ذوي الأضغانِ تَسْبِ قلوبَهُم ... تحيَّتُك الحُسنَى فقد يُدْبَغُ النَّغَلْ**[2]

**فإن دَحَسُوا بالمكر فاعْفُ تكرُّمًا ... وإن خَنَسوا عنك الحديثَ فلا تَسَلْ**[3]

**فإنَّ الذي يؤذيك منه سماعُهُ ... وإنَّ الذي قالوا وراءَك لم يُقَلْ**

فقال النبيّ ﷺ: «**إنَّ من الشعر لحكمة، وإنَّ من البيان لسِحرًا**»[4].

وقيل للعَتَّابي: إنَّك تلقَى العامة ببِشْر وتقريب. فقال: دفع ضغينة بأيسر مبذول، واكتسابُ إخوان بأيسر مؤونة. وقيل في منثور الحكم: مَنْ قلَّ حياؤه قلَّ أحباؤه. وقال بعضُ الشعراء:

**أبُنَيَّ إنَّ البِشْرَ شيءٌ هيِّنُ ... وَجْهٌ طليقٌ وكلامٌ ليِّنُ**

وأنشد بعضُهم:

**المرءُ لا يُعْرَفُ مِقْدارُهُ ... ما لم تَبِنْ للناس أفعالُهُ**

**وكلُّ مَنْ يمنعُني بِشْرَهُ ... فقلَّما ينفعُني مالُهُ**

**وأمَّا العَمَلُ:** فهو بذل الجاه، والمساعدة بالنفس، والمعونة في النائبة؛ وهذا يبعث عليه حبُّ الخير للناس، وإيثارُ الصلاح لهم، وليس في هذه الأمور سَرَفٌ، ولا لغايتها حدٌّ بخلاف النوع الأوَّل؛ لأنَّها وإن كثرت فهي أفعالُ خيرٍ تعود

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (١١/٤٢٨) (٦٥٥٠).

(٢) الأضغان: الحقد الشديد. النَّغَل: الجلد الفاسد العفن.

(٣) دحسوا: أي أضمروا المكر وأخفوه فلا يعلمه أحد. خنسوا: أي أخفوه عنك.

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٧٩)، وأحمد (٤/٢٦٣).

بنفعين: نفعٍ على فاعلها في اكتساب الأجر، وجميل الذكر؛ ونفعٍ على المُعان بها في التخفيف عنه، والمساعدة له. وقد روَى محمد بن المنكدر عن جابر، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«كلُّ معروفٍ صدقةٌ»**[(١)]. وقال النبيُّ ﷺ: **«صنائعُ المعروف تقي مصارعَ السوء»**[(٢)]. وعنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: **«المعروفُ كاسْمِه، وأوَّلُ من يدخل الجنة يوم القيامة المعروفُ وأهلُه»**[(٣)].

وقال عليّ بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ: لا يزهدنك في المعروف كُفْرُ من كفره، فقد يَشكر الشاكرُ بأضعاف جحود الكافر. وقال الحُطيئة:

**مَنْ يفْعَلِ الخَيْرَ لا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ ... لا يَذْهَبُ العُرْفُ بين الله والنَّاسِ**

وأنشد الرياشيّ:

**يدُ المعروفِ غُنْمٌ حيثُ كانَتْ ... تحمَّلَها كَفورٌ أم شكورُ**

**ففي شُكْر الشَّكور لها جزاءٌ ... وعند الله ما كَفَر الكَفورُ**

فينبغي لمن قدر على ابتداء المعروف أن يعجِّله، حذرَ فواته، ويبادرَ به خيفةَ عَجْزه، ولْيَعْلَمْ أنَّه من فُرَصِ زمانه، وغنائم إمكانه، ولا يهمله ثقة بقدرته عليه، فكم من واثق بقدرة فاتت، فأعقبَتْ ندمًا، ومعوِّلٍ على مُكْنةٍ زالَتْ، فأورَثتْ خجلاً. وقد قال الشاعر:

**ما زلت أسمعُ كمْ من واثق خَجِل ... حتى ابْتُليتُ فكنْتُ الواثقَ الخَجِلا**

ولو فطن لنوائب دهره، وتحفَّظ من عواقب مكْرِه، لكانتْ مَغانمُه مذخورةً، ومغارمُهُ مجبورةً؛ فقد رُوِي عن النبي ﷺ أنه قال: **«من فُتحَ عليه بابٌ من الخير فلْينتهزْه، فإنَّه لا يدري متى يُغْلَق عليه»**[(٤)]. وروِيَ عنه ﷺ أنه قال: **«لكلِّ شيءٍ ثمرةٌ، وثمرةُ المعروف تعجيلُ السَّراح»**[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٥)، ومسلم (١٠٠٥).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٦١)، (٨٠١٤٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ٩٤) (١٠٢)، والديلمي في «الفردوس» (٢/ ٣٩٨) (٣٧٧٠).

(٣) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» بلفظ قريب، وفيه ضعف (٧/ ٢٦٣)، وعزاه للطبراني.

(٤) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٤٣٤).

(٥) أخرجه الطبراني في «تفسيره» (٥/ ٣٨٤) تفسير (الإسراء - ٤٧).

وقيل لأنوشروان: ما أعظمُ المصائب عندكم؟ فقال: أن تقدرَ على المعروف ولا تصطنعه حتى يفوت. وقال عبدُ الحميد: مَنْ أخّر الفرصةَ عن وقتها، فليَكُن على ثقة من فَوْتها. وقال بعضُ الشعراء:

إذا هَبَّتْ رياحُك فاغتنمها ... فإنَّ لكلِّ خافقةٍ سُكونُ
ولا تغفُلْ عن الإحسان فيها ... فما تدري السكونُ متى يكونُ
إن دَرّت نياقُكَ فاحْتَلِبْها ... فما تدري الفصيلُ لمن يكونُ(١)

وروى أنَّ بعضَ وزراء بني العبَّاس مَطَل راغبًا إليه في عملٍ يستكفيه إياه، فكتب إليه بعد طُول المَطْل به:

أما يدعوكَ طُولُ الصَّبْر منِّي ... على استئناف منفعتي وشُغلِي
وعلمُكَ أنَّ ذا السلطان غادٍ ... على خطرين من مَوت وعَزْلِ
وأنَّكَ إن تركتَ قضاءَ حَقِّي ... إلى وقتِ التفرّغ والتخلّي
ستصبحُ نادمًا أسِفًا مُعَزًّى ... على فَوْتِ الصَّنيعةِ عندَ مثلي

وكتب بعضُ ذوي الحُرمات إلى والٍ قد قصَّر في رعاية حرمته، يقول:

أعَلَى الصِّراط تريدُ رعيةَ حُرمتي ... أم في الحساب تمنُّ بالإنعام
للنَّفْع في الدنيا أردتُكَ فانتبه ... لحوائجي من رَقْدة النُّوَّام

وكتب أبو عليٍّ البصير إلى بعض الوزراء، وقد اعتذر إليه بكثرة الأشغال، يقول:

لنا كلَّ يوم نَوبةٌ قد نَنوبُها ... وليس لنا رزقٌ ولا عندنا فضلُ
فإن تعتذرْ بالشُّغل عنَّا فإنَّما ... تُناطُ بك الآمالُ ما اتَّصَلَ الشُّغْلُ

واعلم أنَّ للمعروف شروطًا لا يتمُّ إلاَّ بها، ولا يكمُلُ إلاَّ معها؛ فمن ذلك سَتره عن إذاعة يستطيل لها، وإخفاؤه عن إشاعة يُستَدَلُّ بها؛ فقد قال بعضُ الحكماء: إذا اصطنعت المعروف فاسْتُرْه، وإذا اصطُنِعَ إليك فانْشُرْه؛ وقال دِعْبِل الخزاعي:

إذا انْتَقَمُوا أعلَنُوا أمرَهُم ... وإن أنْعَمُوا أنْعَمُوا باكتِتام
يقومُ القُعُودُ إذا أقبَلُوا ... وتقعُدُ هيبتهم بالقيام

على أنَّ سَتْرَ المعروف من أقوى أسباب ظهوره، وأبلغ دواعي نَشْرِه؛ لما جُبِلت عليه النُّفوس من إظهار ما خفِي، وإعلانِ ما كُتِم؛ وقد قال سهل بن هارون:

(١) الفصيلُ: ولد الناقة.

خِلٌّ إذا جئتَه يومًا لتسألَهُ أعطاكَ ما ملكَتْ كفَّاهُ واعتذَرا
يُخفي صنائعَهُ والله يُظهرُها إنَّ الجميلَ إذا أخفيتَهُ ظَهَرا

**ومن شروط المعروف:** تصغيره عن أن يراه مستكبرًا، وتقليلُه عن أن يكون مستكثرًا؛ لئلا يصير به مُدلاً[1] بطرًا، أو مستطيلاً أشرًا[2]. قال العبَّاس بن عبد المطلب ـ رضي الله تعالى عنه ـ: لا يتمُّ المعروفُ إلاَّ بثلاث خصال: تعجيله، وتصغيره، وستْره؛ فإذا عَجَّلْتَه هنَّأْتَه، وإذا صغَّرته عظَّمته، وإذا سترته أتممتَه؛ وقال بعضُ الشعراء:

زادَ معروفَكَ عندي عِظَمًا أنَّه عندَكَ مستورٌ حقيرُ
وتناسيْتَ كأنْ لم تأتِهِ وَهْوَ عندَ النَّاسِ مَشْهورٌ خَطِيرُ

**ومن شروط المعروف:** مجانبةُ الامتنان به، وتَرْكُ الإعجاب بفعله؛ لِمَا فيهما من إسقاط الشُّكْر وإحباط الأجر، فقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إياكم والامتنانَ بالمعروف؛ فإنَّه يُبطِلُ الشُّكْر، ويَمْحَقُ الأجْر**، ثم تلا قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى**﴾ (البقرة: ٢٦٤)»[3].

وسمع ابنُ سيرين رجلاً يقولُ لرجل: فعلْتُ إليكَ وفعلْتُ، فقال ابنُ سيرين: اسكت، فلا خَيْرَ في المعروف إذا أُحْصِيَ. وقال بعضُ الحكماء: المنُّ مَفْسدةُ الصنيعة. وقال بعضُ الأدباء: كَدَّرَ معروفًا امتنانٌ، وضيَّعَ حَسَبًا امتهانٌ. وقال بعضُ البلغاء: مَن منَّ بمعروفه سقط شكرُه، ومن أُعجبَ بعمله حبِطَ أجرُهُ. وقال بعضُ الفصحاء: قُوَّةُ المنن من ضعف المنن[4]. وقال بعض الشعراء:

أفسدْتَ بالمنِّ ما أسدَيْتَ من حَسَنٍ ليس الكريم إذا أَسْدَى بمنَّانِ

وقال أبو نُوَاسٍ:

فامْضِ لا تَمْنُنْ عَليَّ يدًا مَنُّكَ المعروفَ من كَدَرِهْ

(١) أي مجترءًا وممتنًا به على من نال ذلك المعروف.
(٢) أي مستكبرًا.
(٣) أورده القرطبي في «تفسيره» (٣/ ٣١٢).
(٤) المنن: جمع منَّة وتعني العطية والإحسان، كما تعني الفخر بالعطية والإعجاب بها، فلعل المراد أن قوة العطية وقيمتها تأتي من ترك الإعجاب بها والفخر بها.

وأُنْشِدْتُ عن الرَّبيع للشافعيّ - رضي الله تعالى عنه -:

لا تحملنَّ لِمَنْ يَمُنُّ ... مِنَ الأنامِ عليكَ مِنَّهْ
واخْتَرْ لنفسِكَ حظَّها ... واصْبِرْ فإنَّ الصَّبْرَ جُنَّهْ
مِنَنُ الرِّجالِ على القُلوبِ ... أشَدُّ مِن وَقْعِ الأسِنَّهْ

**ومن شروط المعروف:** ألاّ يحتقرَ منه شيئًا وإن كان قليلاً نَزْرًا، إذا كان الكثيرُ مُعْوِزًا، وكنتَ عنه عاجزًا؛ فإنَّ من حَقَر يسيرَهُ فمَنَعَ منه، أعجزه كثيره فامتنع عنه؛ وفعْلُ قليلِ الخير أفضَلُ من تَرْكِه، فقد رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**لا يمنعْكم من المعروف صغيره**»[1]. وقال عبد الله بن جعفر: لا تستحي من القليل؛ فإنَّ المَنْعَ أقلُّ منه، ولا تجبُنْ عن الكثير، فإنَّك أكثَرُ منه. وقال الشاعر:

اعمَلِ الخَيْرَ ما استَطَعْتَ وإن كانَ ... قليلاً فلن تحيطَ بكلِّه
ومتى تفعل الكثيرَ مِنَ الخَيْرِ ... إذا كنتَ تاركًا لأقلِّه

على أنَّ مِن المعروف ما لا كُلْفَةَ على مُوليه، ولا مشقَّةَ على مُسْديه، وإنَّما هو جاهٌ يَسْتظلُّ به الأَدْنى، ويرتَفِقُ به التَّابعُ، وقد قال الشاعر:

ظِلُّ الفَتى ينفَعُ مَنْ دُونَه ... وما لَه في ظِلِّه حَظّ

**واعلم:** بأنَّك لن تستطيعَ أن تُوسعَ جميعَ النَّاس معروفَك، ولا أن تُولِيَهُمْ إحسانَك، فاعتمدْ بذلك أهلَ الفَضْلِ منهم والحفاظ، واقصد به ذوي الرعاية والوداد؛ لِيَكونَ معروفُكَ فيهم ناميًا، وصنيعُك عندهم زاكيًا. وقد رُوي عَن النبيّ ﷺ أنه قال: «**لا تنفعُ الصَّنيعةُ إلاَّ عند ذي حَسَبٍ ودين**»[2]. وقال النبيّ ﷺ: «**إذا أرادَ الله بِعَبْدٍ خيرًا جَعَلَ صنائعَه في أهلِ الحفاظ**»[3]. وقال حسان بن ثابت - رضي الله تعالى عنه -:

إنَّ الصَّنيعةَ لا تكونُ صَنيعةً ... حتَّى يُصابَ بها طريقُ المَصْنَعِ
فإذا صنعْتَ صنيعةً فاعمَلْ بها ... لله أو لذوي القرابة أو دَعِ

(١) مسلم (٢٦٢٦)، وأورده الترمذي (١٩٧٠) عن أبي ذر مرفوعًا بلفظ: «**لا يحقرن أحدكم من المعروف شيئًا وإن لم يجد فليلق أخاه بوجه طلق**».

(٢) لم أصل إليه.

(٣) انظر: «كنز العمال» (١٦٢٣٣) وعزاه للفردوس عن جابر وفيه: (قال المناوي في «فيض القدير» (٢٥٤١): «فيه خلف بن يحيي قال الذهبي عن أبي حاتم كذاب فمن زعم صحته فقد غلط»).

وقيل في منثور الحكم: لا خيرَ في معروف إلى غير عَرُوف، وقد ضرب به الشاعر مثلاً، فقال:

**كحمار السَّوْءِ إن أشبَعْتَه ... رَمَحَ النَّاسَ وإن جاع نَهَقْ**

وقد قال بعضُ الحكماء: على قدر المغارس يكون اجتناء الغارس، فأخذَه بعضُ الشعراء، فقال:

**لَعَمْرُك ما المعروفُ في غير أهله ... وفي أهله إلاَّ كبعض الودائع**

**فمستودَعٌ ضاع الذي كان عندَه ... ومستودَعٌ ما عندَه غيرُ ضائع**

**وما النَّاس في شُكْرِ الصَّنيعة عندَهم ... وفي كفرها إلاَّ كبعض المزارع**

**فمزرَعَةٌ طابَتْ وأضعفَ نبتُها ... ومزرعةٌ أكدَتْ على كُلِّ زارع[1]**

وأمَّا من أُسْدِي إليه المعروف، واصطُنِع إليه الإحسان، فقد صار بأسْر المعروف موثوقًا، وفي ملك الإحسان مرقوقًا، ولزمه إن كان من أهل المكافأة أن يكافئ عليها، وإن لم يكن من أهلها، أن يقابل المعروفَ بنشْره، ويقابَلَ الفاعلَ بشُكْره. فقد رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«من أُودِعَ معروفًا فلينْشُرْه، فإنْ نَشَرَه فقد شكره، وإن كتَمه فقد كَفَرَه»**[2]. وروى عن الزُّهريّ، عن عُرْوة، عن عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ، قالت: دخَلَ عَلَيَّ رسول الله ﷺ وأنا أتمثَّل بهذين البيتين:

**ارفَعْ ضعيفَكَ لا يحُونُكَ ضَعفُه ... يومًا فتدركَهُ العواقبُ قد نَمى**

**يَجْزيك أو يُثني عليكَ وإن مَنْ ... أثنى عليكَ بما فعلتَ فقد جَزَى**

فقال النبي ﷺ: **«رُدِّي عليَّ قول اليهوديِّ قاتلَه الله، لقد أتاني جبرائيل برسالةٍ من ربي تعالى: أيّما رجلٍ صنَعَ إلى أخيه صنيعةً، فلم يجدْ لها جَزاءً إلاَّ الدُّعاء والثناء فقد كافأه»**[3]. وقيل في منثور الحكم: الشكر قيدُ النِّعم. وقال عبدُ الحميد: من لم يشكر الإنعام فاعْدُدْه من الأنعام. وقيل في منثور الحكم: قِيمة كُلِّ

---

(١) اكدت: أي أجدبت فلم تثمر.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨١٤) بلفظ: «من ابلى بلاء فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره». وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢١١).

(٣) أخرجه الديلمي في «الفردوس» (١/٣٤٨) (١٣٩٤).

نعْمة شُكْرُها. وقال بعضُ الحكماء: كُفْـر النِّعم من أمارات البَطَر، وأسباب الغِيَر. وَقالَ بعضُ الفصحاء: الكريم شَكُور أو مشكـور، واللئيم كَفُور أو مكفور. وقال بعضُ البلغاء: لا زوال للنِّعمة مع الشكر، ولا بقاءَ لها مع الكفر. وقال بعضُ الأدباء:

| | |
|---|---|
| شُـكْـرُ الإلـه بـطـولِ الـثـنـاء | وشكـرُ الـولاةِ بـصِـدْق الـولاءِ |
| وشُكْرُ الـنظيـرِ بـحـسنِ الجـزاءِ | وشُكْرُ الـدنـيِّ بحـسن العطاءِ |

وقال بعضُ الشعراء:

| | |
|---|---|
| فلو كان يَسْتغني عن الشكر ماجدٌ | لِعـزَّة مُـلْـكٍ أو عُـلـوِّ مـكـانِ |
| لَمَا أمَـرَ الله العـبـادَ بشُكْرِه | فـقـال اشكروا لي أيُّهـا الثَّـقَـلانِ |

فإنَّ من شكَرَ معروفَ مَن أحسنَ إليه، ونَشَـرَ إفضالَ مَن أنْعَمَ عليه، فقد أدَّى حقَّ النِّعـمة، وقضَى مُـوجبَ الصنيعـة، ولم يبقَ عليه إلا اسـتدامـة ذلك، إتمامًا لشكره؛ ليكون للمزيد مستحقًا، ولمتابعة الإحسان مستوجبًا.

حُكِيَ أنَّ الحجَّـاج أُتِيَ إليه بقومٍ من الخوارج، وكـان فيهم صديقٌ له، فـأمر بقتلهم إلاَّ ذلك الصديق، فإنَّه عـفـا عنه وأطلقه ووصلَه، فرجع الرجل إلى قطريّ ابن الفُجاءة، وكان من أصحابه، فقال له: عُـدْ إلى قتال الحجَّاج عدوِّ الله، فقال: هيهات! غَلَّ يدًا مُطْلِقُها، واسترقَّ رقبةً مُعْتِقُها، وأنشأ يقول:

| | |
|---|---|
| أأقـاتلُ الحـجَّـاجَ عن سُلطانه | بيـدٍ تُقـرُّ بـأنَّهـا مَـولاتُهُ |
| إني إذَنْ لأخـو الـدَّنـاءة والـذي | شـهِـدَتْ بأقـبح فِـعْله غَـدَرَاتُهُ |
| مـاذا أقـولُ إذا وقـفْتُ إزاءَهُ | في الصفِّ واحـتـجَّتْ له فَـعَـلاتُهُ |
| أأقـول جـارَ عليَّ؟ لا، إنِّي إذَنْ | لأحَقُّ مَن جـارَتْ علـيـه وُلاتُهُ |
| وتَحـدَّثَ الأقـوامُ أن صنائعًـا | غُـرِسَتْ لديَّ فَـحَنْظَلَتْ نَخَـلاتُهُ |

وقـيل في منثور الحكم: المعروف رِقٌّ، والمكافـأة عِـتق. ومن أشكر الناس الذي يقول:

| | |
|---|---|
| لأشْكُرنْ لَكَ مـعـروفًـا همـمْتَ به | إنَّ اهتـمـامك بالمعـروفِ مَـعـروفُ |
| ولا ألومُكَ إنْ لم يُمْـضِـه قَـدَرٌ | فـالشيءُ بالقَـدَرِ المحتومِ مَصْرُوفُ |

وهذا النوع من الشكر الذي يتعجَّلُ المعروفَ، ويتقدَّم البِرَّ، قد يكونُ على وجوه: فيكون تارةً من حسن الثقة بالمشكور في وصول برِّه، وإسداء عُرْفه، ولا رأي لمن يحسن به ظن شاكر، أن يُخلف حسن ظنّه فيه، فيكون كما قال العتَّابيّ:

قد أَوْرَقَتْ فيكَ آمالي بوعدِكَ لي ... وليس في ورَقِ الآمالِ لي ثَمَرُ

وقد يكون تارةً من فرط شُكْر الرَّاجي، وحُسْنِ مكافأة الآملِ، فلا يرضَى لنفسه إلاَّ بتعجيل الحقِّ، وإسلاف الشكر، وليس لمن صادفَ لمعروفه مَعْدنًا زاكيًا، ومَغْرِسًا ناميًا، أن يفوِّتَ نفسه غُنمًا، ولا يحرمَها ربحًا، فهذا وجه ثان. وقد يكون تارةً ارتهانًا للمأمول، وحثًا للمسؤول؛ وبحسَبِ ما أسلَفَ من الشكرِ يكون الذَّمُّ عند الإياس. وقال بعضُ الأدباء من حكماء المتقدِّمين: مَن شكرك على معروف لم تُسْدِه إليه، فعاجِلْه بالبِرِّ، وإلاَّ انعكس فصار ذمًّا. وقال ابن الروميّ في ذلك:

وما الحِقْدُ إلاَّ تَوْأمُ الشُّكْرِ في الفَتى ... وبعضُ السَّجايا ينتسِبْنَ إلى بعضِ
فحيثُ ترى حقداً على ذي إساءةٍ ... فثَمَّ شُكْرًا عَلَى حَسَنِ الفرضِ
إذا الأرضُ أدَّتْ رَيْعَ ما أنتَ زارعٌ ... من البذْرِ فيها فهي ناهيك من أرضِ

وأمَّا من ستر معروفَ المنعم، ولم يشكرْه على ما أولاه من نعَمه، فقد كَفَرَ النِّعمة، وجَحدَ الصَّنيعةَ؛ وإنَّ من أذمِّ الخلائق، وأسوأ الطرائق، مَا يُستوجَبُ به قبحُ الرَّدِّ، وسوءُ المنْع. فقد رَوَى أبو هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يشكرُ اللهَ من لا يشكرُ الناسَ»[1]. وقال بعض الأدباء: من لم يشكر لمنعمه، استحقَّ قَطْعَ النِّعمة. وقال بعضُ الفصحاء: من كفر نعمة المُفيد، استوجَبَ حرمان المَزيد. وقال بعض البلغاء: من أنكر الصَّنيعة، استوجَبَ قُبْحَ القطيعة. وأنشدني بعض الأدباء ما ذكر لعليِّ بن أبي طالب ـ كرَّم الله وجهه ـ:

من جاورَ النِّعمةَ بالشكر لم ... يخشَ على النِّعمة مُغتالَها
لو شكروا النِّعمةَ زادتْهُمُ ... مقالةُ الله التي قالَها
لئن شَكَرْتُم لأزيدَنَّكمْ ... لكنَّما كُفْرُهُمُ غالَها
والكُفْرُ بالنِّعمة يدعو إلى ... زوالها والشُّكْرُ أبقَى لها

(1) أبو داود (٤٨١١)، وصحيح ابن حبان (٣٤٠٧)، باب في شكر المعروف.

وهذا آخر ما يتعلَّق بالقاعدة الثانية من أسباب الألفة الجامعة.

**وأمَّا القاعدة الثالثة** - فهي المادة الكافية؛ لأنَّ حاجة الإنسان لازمة لا يَعْرَى منها بشر. قال الله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ**﴾ (الأنبياء:٨). فإذا عَـدِمَ المادة التي هي قِوامُ نفسـه، لم تدُمْ له حياة، ولم تسـتقم له دنيا؛ وإذا تعذَّر شيء منها عليه، لحقـه من الوَهْن في نفسه، والاختلال في دنياه، بقدر مـا تعذَّر من المادة عليـه؛ لأن الشيء القائم بغـيره، يكمُل بكمـاله، ويختلُّ باختـلاله. ثم لما كانت الموادُّ مطـلوبةً لحاجة الكافـة إليهـا، أُعوزت بغـير طلب، وعُدِمَت لغيـر سبب؛ وأسباب المواد مختلفـة، وجهات المكاسب متشـعبة؛ ليكون اختلافُ أسبابها علَّةَ الائتلاف بها، وتشعبُ جهاتها توسعةً لطلابها؛ كيلا يجتمعوا على سبب واحد فلا يلتئمون، أو يشتركوا في جهة واحدة فلا يكتفون، ثم هداهم إليها بعـقولهم، وأرشدَهم إليها بطبـاعهم، حتى لا يتكلَّفوا ائتـلافهم في المعايش المختلفة فيعـجزوا، ولا يعانوا بتقدير موادِّهم بالمكاسب المتشعبـة، فيختلوا؛ حكمةً منه - سبحانه وتعالى - اطلع بها على عواقب الأمور.

وقد أنبأ الله تعالى في كتابه العزيز إخبـارًا وإذكارًا، فقال - سبحانه وتعالى -: ﴿**قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ**﴾ (طه: ٥٠). اختلف المفـسرون في تأويل ذلك، فقال قـتادة: أعطى كُلَّ شيء ما يصلحُه، ثم هداه. وقـال مجاهد: أعطى كُلَّ شيء صورته، ثم هداه لمعيشته. وقـال ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما -: أعطَى كُلَّ شيء زوجه، ثم هداه لنكاحهـا. وقال تعالى: ﴿**يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**﴾ (الروم:٧). يعني معـايشهم متى يزرعـون، ومتى يغرسون. وقال تعالى: ﴿**وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ**﴾ (فصلت: ١٠). قال عكرمة: قدَّر في كُلِّ بلدة منها ما لم يجـعلْه في الأخرى، ليعيشَ بعضُهم من بعض، بالتجـارة من بلد إلى بلد. وقال الحسن البـصريّ وعبـد الرحمن بن زيد: قدَّر أرزاق أهلها سواءً للسَّائلين الزِّيادةَ في أرزاقهم.

ثم إن الله تعالى جعل لهم - مع ما هداهم إليـه من مكاسبهم، وأرشدَهم إليه من معـايشهم - دينًا يكون عليـهم حَكَمًا، وشرعًـا يكون لهم قيِّمًـا، ليصلوا إلى موادهم بتـقديره، ويطلبـوا أسباب مكاسـبهم بتـدبيره، حتى لا ينـفردوا بإرادتهم

فيتـغالبوا، وتستولي عليـهم أهواؤهم فيتقاطعـوا. قال الله تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ (المؤمنون: ٧١). قال المفسرون: الحقّ في هذا الموضع: هو الله جل جـلاله، فلأجل ذلك لم يجعل المواد مطـلوبة بالإلهام، حتى جَعَلَ العقلَ هاديًا إليها، والدِّين قاضيًا عليها؛ لتتمَّ السَّعادة، وتعمَّ المصلحة.

ثم إنه ـ جلَّت قـدرته ـ جَعَلَ سَـدَّ حاجـتهم، وتَـوَصُّلَهم إلى منافعـهم من وجهين: بمادة، وكسْب.

**فأمَّا المادة:** فهي حـادثة عن اقتنـاء أصول نامـية بذواتها، وهي شيـئان: نَبْتٌ نامٍ، وحـيـوان متناسـل. قـال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ (النجم: ٤٨). قال أبو صالح: أغنى خلقه بالمال، وأقنى: جعل لهم قِنية، وهي أصولُ الأموال.

**وأمـا الكسب:** فـيكون بالأفـعـال الموصلة إلى المادة، والتـصـرُّف المؤدِّي إلى الحـاجة، وذلك من وجـهين: أحدهمـا: تقلُّبٌ في تجـارة، والثاني: تصـرّفٌ في صناعة؛ وهذان الوجـهان هما فرع لوجـهي المادة، فصارت أسبـاب الموادّ المألوفة، وجهـات المكاسب المعـروفة من أربعـة أوجه: نماءُ زراعـةٍ، ونِتاجُ حيـوانٍ، ورِبْحُ تجارةٍ، وكَسْبُ صناعةٍ.

وقد حكـى الحسنُ بن رجاء نحـو ذلك عن المأمون، قـال: سمـعتـه يقول: مَعـايشُ الناس على أربعة أقسام: زراعـة، وصناعة، وتجارة، وإمارة؛ فـمن خرج عنها كان كَلاً علـيها. وإذ قد تقررت أسباب المواد بما ذكـرناه، فسَنَصِفُ حال كل واحدٍ منها بقولٍ موجز:

**أمـا الأول من أسـبـابهـا وهـو الزراعة:** هي مادّةُ أهل الحضَـر، وسكان الأمصار والمدن، والاستـمداد بها أعمُّ نفـعًا، وأوفَى فرعًـا، ولذلك ضرب الله تعـالى بها المثل، فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ (البقرة: ٢٦١). ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: **«خيرُ المال عينٌ ساهرة، لعين نائمة»**[(١)] [(٢)]. وقال ﷺ: **«نِعْمَتْ لكم النَّخلة: تشرب**

---

(١) **العين الساهرة:** هي نبع الماء، **والعين النائمة:** هي عين صاحب الأرض: كناية عن فراغ باله.

(٢) أورده أبو الفرج ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (١/ ٢٠٥).

**من عين خَـرَّارة**[١]، **وتغـرس في أرض خَـوَّارة**»[٢]. وقـال ﷺ في النخل: «**هي الرَّاسخاتُ في الوَحْل، المطعماتُ في المَحْل**»[٣][٤]. وقال بعضُ السلف: خيرُ المال عينٌ خرَّارة، في أرض خوَّارة؛ تسهر إذا نمْتَ، وتشهَدُ إذا غبْتَ، وتكون عَقِبًا إذا متَّ. ورَوَى هشام بن عُروة عن أبيه، عن عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**التمسوا الرزق في خَبايا الأرض**»[٥]، يعني: الزَّرْع.

وحُكي عن المعتضد أنه قال: رأيت عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ في المنام، يناولني المِسْحاة[٦]، وقال: خذها، فإنَّها مفاتيحُ خزائن الأرض. وقال كسرى للمُوبَذ: ما قيمة تاجي هذا؟ فأطرق ساعةً، ثم قال: ما أعرفُ له قيمةً إلاَّ أن تكونَ مَطْرةٌ في نَيْسان؛ فإنَّها تُصلح من معايشِ الرعية ما تكون قيمته مثَل تاج الملك. ولقيَ عبدُ الله ابنَ شهاب الزُّهريّ، فقال له: ادللني على مالٍ أُعالجه، فأنشأ ابنُ شهاب يقول:

**تتبَّعْ خَبايا الأرض وادْعُ مليكَها ... لعلَّك يومًا أن تجابَ فتُرْزَقا**

**فيؤتيك مالاً واسعًا ذا مثابة ... إذا ما مياهُ الأرضِ غارتْ تَدَفَّقا**

وقد اختلف الناس في تفضيل الزرع والشجر، مما ليس يتَّسِعُ كتابُنا هذا لبسْط القول فيه، غير أنَّ من فضَّل الزرع، فلقرب مداه، ووُفور جدواه؛ ومن فَضَّل الشجر، فلثبُوت أصله، وتوالي ثمره.

**وأما الثاني من أسبابها وهو نتاج الحيوان:** فهو مادةُ أهلِ الفلوات[٧]، وسكَّان الخيام؛ لأنَّهم لَمَّا لم تستقرَّ بهم دارٌ، ولم تضمَّهم أمصارٌ، افتقروا إلى الأموال

---

(١) أي عين ماء جارية، والخرير صوت جريان الماء.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وأورد الطبري في «تاريخه» (٣/٢٦٧)، قال معاوية: ما من شيء أحب إليَّ من عين خرارة في أرض خوارة.

(٣) **المحل:** أي الشدة والجدب.

(٤) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٣١٢).

(٥) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٩٥-٨٩٧)، وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٦٩٤) (١/٤٠٤).

(٦) أداة من أدوات الزراعة.

(٧) أي الأراضي الواسعة المقفرة.

المتنقلة معهم، ومـا لا ينقطع نماؤه بالظَّعْن والرِّحْلة، فاقتنوا الحيـوان؛ لأنه يستقل في النقلة بنفسه، ويسـتغني عن العَلُوفة برعيه، ثم هو مـركوبٌ ومحلوب، فكان اقتناؤه على أهل الخـيام أيسَرَ، لقـلَّة مؤونته، وتسـهيل الكلفة به، وكـانت جدواه عليهم أكثرَ؛ لوفور نسله، واقتيات رِسله، توفيقًا وإلهامًا من الله تعالى لخلْقه، في تعديل المصالح فيهم، وإرشادًا لعباده، في قَسْم المنافع بينهم.

وقد رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«خيرُ المالِ مُهْرة مأمورة، وسِكَّة مأبورة»**[1].

ومعنى قوله ﷺ: **«مهرة مأمورة»**: أي كثيرة النسل، ومنه ما تأوَّل الحسَنُ وقتادة قولَه تعالى: ﴿**أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا**﴾ (الإسراء:١٦). أي كثَّرنا عَـدَدهم. وأمَّا السِّكَّة المأبورة: فـهي النخـل المؤبَّرة الحَـمل. ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قـال في الغنم: **«سَمْنُها مَعاش، وصُوفُها رِياش»**[2]. ورُوِي عن أبي ظَبْيان، أنه قال: قال لي عُمَرُ بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ: مالُك يا أبا ظَبْيان؟ قال: قلت: عطائي ألفان. قال: اتخذْ من هذا الحرْث والسـائبات، قبل أن تَلِيك غِلْمة من قريش، لا تَعُدّ العطاء معهم مالاً. والسائبات: النِّتاج.

ورُوِي أنَّ امرأة أتت النبيَّ ﷺ، فقالت: يا رسولَ الله، إنِّي اتَّخَذْت غنمًا أبتغي نَسْلَـها ورِسْلها، وإنَّهـا لا تنمي. فقـال لها النبيّ ﷺ: **«ما ألوانها»**؟ قالت: سُودٌ. فقال لها: **«عَفِّري»**[3]. وهذا مثلُ قوله ﷺ في مَناكِح الآدميين: **«اغتربُوا ولا تُضْوُوا»**.

**وأما الثالث من أسبابها وهو التجارة:** فهي فَرْع لمادتي الزَّرْع والنِّتاج: فقد رُوِي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«تسـعـة أعـشـار الرِّزق في الـتـجـارة والحـرث»**[4]. والجزء الباقي في السـائبات. وهي نوعـان: تَقَلُّبٌ في الحَضر، مـن غير نُقْلة ولا سـفر، وهذا تربصٌ واحتكار، وقد رغِبَ عنه أولو الأقدار، وزهِدَ فيه ذوو الأخطار.

---

(١) أخرجـه أحمد في «مسنده» (٣/ ٤٦٨)، والبيـهقي في «الكبرى» (١٠/ ٦٤)، والـطبراني في «الكبير» (٧/ ٩١).

(٢، ٣) لم أصل إليه.

(٤) انظر «كنز العمال» (٩٣٤٢) عن نعيم بن عبد الرحمن الأزدي ويحيى بن جابر الطائى مرسلاً.

**والثاني** - تقلُّب بالمال بالأسفار، ونقله إلى الأمصار، فهذا أليقُ بأهل المروءة، وأعمُّ جَدْوَى ومنفعة، غير أنه أكثرُ خَطَرًا، وأعظم غَرَرًا، وقد رُوِي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إنَّ المسافر ومالَه لعلى قَلَت، إلاَّ ما وَقَى الله**»[1]. يعني: على خَطَرٍ. وقيل في التوراة: يا بْنَ آدم، أَحْدِثْ سفرًا، أُحدِثْ لكَ رزقًا.

**أما الرابع من أسبابها وهو الصناعة**: فقد يتعلَّق بما مضى من الأسباب الثلاثة. وتنقسم أقسامًا ثلاثة: صناعة فكر، وصناعة عمل، وصناعة مشتركة بين فكر وعمل؛ لأنَّ الناس آلات للصناعات، فأشرفهم نفسًا متهيئ لأشرفها جنسًا، كما أنَّ أرذلَهم نفسًا متهيئ لأرذلها جنسًا؛ لأن الطبع يبعث على ما يلائمه، ويدعو إلى ما يجانسه. حكي أن الإسكندر لَمَّا أراد الخروج إلى أقاصي الأرض، قال لأرسطاطاليس: اخْرُج معي. قال: قد نَحَل جسمي، وضعُفتُ عن الحركة، فلا تزعجني. قال: فما أصنع في عُمالي خاصة؟ قال: انظر إلى من كان له عَبيد فأحسَنَ سياستهم، فولِّه الجُنود، ومن كانت له ضَيْعةٌ، فأحسَنَ تدبيرها، فولِّه الخراجَ فنبَّهَ باعتبار الطباع، على ما أغناه عن كلفة التجربة. وأشرفُ الصناعات صناعةُ الفكر، وأرذلُها صناعةُ العمل؛ لأنَّ العمل نتيجة الفكر، وهو مُدَبِّره.

**فأما صناعة الفكر**: فقد تنقسم قسمين:

**أحدهما** - ما وَقَفَتْ على التدبيرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة، كسياسة الناس، وتدبير البلاد، وقد أفردنا للسياسة كتابًا[2]، لخصنا فيه من جُمَلها، ما ليس يحتملُ هذا الكتابُ زيادةً عليها.

**والثاني** - ما أدَّتْ إلى المعلومات الحادثة عن الأفكار النظرية، وقد مضى في فضل العلم من كتابنا هذا باب، أغنى ما فيه عن زيادة قول فيه.

**وأما صناعة العمل**: فقد تنقسم قسمين: عمل صناعيّ، وعمل بهيميّ.

**فالعمل الصناعي**: أعلاهما رتبة؛ لأنه يحتاج إلى معاطاة في تعلُّمه، ومعاناة في تصوُّره، فصار آخذًا بنسبة من المعلومات الفكرية.

---

(١) ذكره ابن الملقن في «الخلاصة» (٢/ ١٥٠)، وذكر أنه غريب جدًا، وقال النووي: إنما هو من كلام بعض السلف.

(٢) هو كتاب «الأحكام السلطانية»، مطبوع.

**والآخر** ـ إنما هو صناعة كـدٍّ، وآلة مَهْنة، وهي الصناعة التي تـقتصر عليـها النفوس الرَّذْلة، وتـقفُ عليها الطبـاع الخاسئـة، كما قـال أكثم بن صَـيفيّ: لِكُلِّ ساقطة لاقطةٌ، وكما قال المتلمِّس:

**ولا يُقـيمُ عَلَى ضَـيمٍ يُسـامُ بـه ... إلاَّ الأذلاَّن عَـيْـرُ الحيِّ والوَتِدُ**

**هذا على الخَسْفِ مَربوطٌ برُمَّتِـهِ ... وذا يُشَجُّ فـلا يَرْثى لـه أحَـدُ**

**وأما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل:** فقد تنقسم قسمين:

**أحدهما** ـ أن تكونَ صناعة الفكرِ أغلبَ، والعَمَلِ تبعًا، كالكتابة.

**والثاني** ـ أن تكون صناعُ العملِ أغلبَ، والفكر تبعًا، كالبناء، فأعلاهما رتبةً ما كانت صناعة الفكر أغلبَ عليها، والعملِ تبعًا لها.

فهذه أحـوال الخَلْق، التي ركّبهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليهـا في ارتياد موادّهم، ووكلهم إلى نظرهم في طلب مكاسبهم، وفرَّق بين هممـهم في التماسها؛ ليكونَ ذلك سببًا لألفتـهم. فسبحان من تفرَّد فينا بلطيف حكمـته، وأظهرَ لفطنتنا عزائمَ قُدْرته. وإذ قد وضح القولُ في أسباب الموادّ، وجهات الكسْب، فليس يخلو حالُ الإنسان فيها من ثلاثة أمور:

**أحدها** ـ أن يطلبَ منها قَدْرَ كفايته، ويلتمسَ وفْق حاجته، من غير أن يتعدَّى إلى زيادة عليها، أو يقتصرَ على نقصانٍ منها، فهذه أحمدُ أحوالِ الطالبين، وأعدَلُ مراتب المقتصدين. وقد رُوي عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: **«أوحَى الله تعالى إليَّ كلماتٍ، فدخلْن في أُذُني، ووقَرْن في قلبي: مَنْ أعْطَى فَضْلَ مالِهِ فهو خيرٌ له، ومن أمسَكَ فهو شرٌّ له، ولا يَلُومُ الله على كَفاف»**[1].

ورَوَى حُميد عن معاوية بن حَيْدة، قال: قلت: يا رسول الله، ما يكفيني من الدنيا؟ قال: **«ما يسدُّ جَوْعتك، ويستر عورتك، فإن كان دارٌ فذاك، وإن كان حِمارٌ فَبَخٍ بخٍ**[2]**، فِلَقٌ من خُبْزٍ، وجَرٌّ**[3] **من ماء، وأنت مسؤول عمَّا فوق الإزار»**[4].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٣) عند قوله سبحانه وتعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه﴾.

(٢) كلمة تقال عند الرضا بالشيء والإعجاب به.

(٣) جمع جرة، إناء من الفخار.

(٤) الطبراني في «الأوسط» (٩٣٤٣)، بلفظ: «ما سد جوعتك ووارى عورتك».

وقد رُوي عن ابن عباس ومجاهد في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ (المائدة: ٢٠). أنَّ كلَّ مَنْ ملك بيتًا وزوجة وخادمًا فهو مَلِكٌ. وروَى زيد بن أسلم، قال: قال رسول الله ﷺ: **«من كان له بيتٌ وخادم فهو ملك»**[١]. وهو في المعنى صحيح؛ لأنَّه بالزوجة والخادم مُطاع في أمره، وفي الدار محجوب، إلاَّ عن إذنه، وليس على من طلب قَدْرَ الكفاية، ولم يتجاوز تَبعات الزيادة، إلا توخي الحلال منه، وإجمالُ الطلب فيه، ومجانبةُ الشبهة الممازجةَ له. فقد رَوَى نافع عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: **«الحلالُ بيِّن، والحرام بَيِّن، وبينهما أمور مشتبهات؛ فدَعْ ما يَريبك إلى ما لا يريبك؛ فإنَّك لن تجدَ فَقْدَ شيء تركته لله»**[٢].

وسئل رسول الله ﷺ عن الزُّهْد، فقال: **«أمَا إنَّه ليسَ بإضاعة المال، ولا تحريم الحلال، ولكن أن تكونَ بما بيد الله، أوثَقَ منك بما في يديك، وأن يكون ثوابُ المصيبة، أرجحَ عندك من بقائها»**[٣].

وحكَى عبد الله بن المبارك، قال: كتب عُمَرُ بن عبد العزيز إلى الجرَّاح بن عبد الله الحكَميِّ: إن استطعت أن تدعَ مما أحَلَّ الله لك، ما يكون حاجزًا بينك وبين الحرام، فافْعَلْ؛ فإنَّه من استوعب الحلال، تاقت نفسُه إلى الحرام.

وقد اختلف أهل التأويل في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ (طه: ١٢٤). فقال عكرمة: يعني كسْبًا حرامًا. وقال ابن عباس: هو إنفاقُ مَن لا يُوقِنُ بالخَلَف[٤]. وقال يحيى بن مُعاذ: الدِّرهم عَقرب، فإذا أحسنت رُقْيَتَها[٥]، وإلا فلا تأخذْهَا. وقيل: مَن قلَّ توقِّيه، كثُرت مَساويه. وقال بعضُ البلغاء: خيرُ الأموال، ما أخذته من الحلال، وصرفته في النَّوَال؛ وشرُّ الأموال، ما أخذته من الحرام، وصرفته في الآثام. وكان الأوزاعيُّ الفقيه كثيرًا ما يتمثَّل بهذه الأبيات:

| | |
|---|---|
| **المالُ يَنفَدُ حِلُّهُ وحَرَامُهُ** | **يومًا ويبقَى بَعْدَه آثامُهُ** |
| **ليسَ التقيُّ بمتَّقٍ لإلهِهِ** | **حتَّى يطيبَ شرابُهُ وطعامُهُ** |

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥/ ١٦٩) بزيادة «وامرأة». «سنن سعيد بن منصور» (٧٢٥).
(٢) أخرجه البخاري (٥٢) (١/ ٢٨)، مسلم (١٥٩٩) (٣/ ١٢١٩).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٧٣)، والترمذي (٤/ ٥٧١)، والطبراني في «الأوسط» (٨/ ٥٧).
(٤) الخَلَف: العوض.
(٥) الرُّقية: ما يُقرأ على المريض ليَشفى.

ويطيبَ ما يجني ويُكسبُ أهلَه ... ويطيبَ من لفظ الحديث كلامُه
نطقَ النبيُّ لنا به عن ربِّه ... فعلى النبيِّ صلاتُهُ وسلامُهُ

حُكِي عن ابن المُعتمر السّلَمي، أنه قال: الناس ثلاثة أصناف: أغنياء، وفقراء، وأوساط؛ فالفقراءَ موتَى إلاَّ من أغناه الله بعزِّ القناعة، والأغنياء سكَارى إلاَّ من عَصَمَه الله تعالى بتوقُّع الغيَر؛ وأكثرُ الخير مع أكثر الأوساط، وأكثرُ الشرِّ مع أكثر الفقراء والأغنياء؛ لسُخْف الفقر، وبَطَر الغِنَى.

**والأمر الثاني** - أن يُقَصِّرَ عن طلب كفايته، ويزيدَ في التماس مادته، وهذا التقصير قد يكون على ثلاثة أوجه: فيكون تارة كسلاً، وتارة توكلاً، وتارة زُهدًا وتقنُّعًا؛ فإنَّ كان تقصيرُه لكسلٍ، فقد حُرم ثروة النشاط، ومَرَحَ الاغتباط، فلن يعدَمَ أن يكونَ كَلاً قَصيًا، أو ضائعًا شَقِيًا. وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«كاد الحَسَدُ أن يغلبَ القدر، وكاد الفقرُ أن يكون كُفْرًا»**[1]. وقال بُزُرْجمهر: إن كان شيء فوق الحياة فالصِّحَّة، وإن كان شيء مثلها فالغنى، وإن كان شيء فوق الموت فالمرض، وإن كان شيء مثله فالفقر. وقيل في منثور الحكم: القبرُ خيرٌ من الفقر. ووُجِدَ في نيل مصرَ مكتوبٌ على حَجَر:

عُقْبَةُ الصَّبْر نجاحٌ وغِنًى ... ورداءُ الفقر مِن نسج الكَسَلْ

وقال بعض الشعراء:

أعوذُ بكَ اللهم مِن بَطَر الغنَى ... ومِن نَهْكَةِ البَلْوَى ومِن ذلَّة الفَقْر[2]
ومِن أملٍ يمتدُّ في كُلِّ شارقٍ ... ويُرجِعُني منهُ بحظٍ يدٍ صِفْرِ
إذا لم تدنِّسْني الذُّنُوبُ بعارها ... فلستُ أبالي ما تشعَّثَ من أمري

وإن كان تقصيرُه لتوكُّلٍ، فذلك عَجْزٌ قد أعذر به نفسه، وتَرْكُ حَزْمٍ قد غيَّر اسمَه؛ لأنَّ الله تعالى إنما أمر بالتوكل عند انقطاع الحيل؛ والتسليم إلى القضاء بعد

---

(١) الطبراني في «الأوسط» (٤٠٥٦٦) ج(٥/ ٣٤-٣٩)، بلفظ: «كاد الحسد يسبق القدر، وكادت الحاجة أن تكون كفرًا».

(٢) النهكة: آثار المرض من الهزال والضعف.

الإعذار. وقد رَوَى مَعمَر عن أيُّوب، عن أبي قلابة، قال: ذُكر عند النبيِّ ﷺ رجلٌ، فذُكر فيه خير، فقالوا: يا رسولَ الله، خَرج معنا حاجًا، فإذا نزلنا منزلاً لم يزل يصلِّي حتى نرحَلَ، فإذا ارتحلنا لم يزل يذكرُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حتى ننزل. فقال ﷺ: **«فمن كان يكفيه عَلَفَ ناقته وصنع طعامه»؟** قالوا: كلُّنا يا رسولَ الله. قال: **«كلُّكم خيرٌ منه»**[1].

وقال بعض الحكماء: ليس من توكُّل المرء إضاعته للحزْم، ولا من الحزم إضاعةُ نصيبه من التوكُّل.

وإن كان تقصيره لزهد وتقنع، فهذه حالٌ من علم بمحاسبة نفسه بتَبِعات الغنى والثروة، وخاف عليها بوائِقَ الهوى والقدرة، فآثر الفقرَ على الغنى، وزجرَ النفسَ عن ركوب الهوى؛ فقد روَى أبو الدَّرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من يوم طَلَعَتْ فيه شمسُه إلاَّ وعلى جَنْبَتيها ملَكان يناديان، يسمعُهما خَلْقُ الله كلُّهم، إلاَّ الثقلين: يا أيُّها الناسُ، هَلُمُّوا إلى ربِّكم، إنَّ ما قلَّ وكَفى، خيرٌ مما كثُرَ وألْهَى»**[2].

وروى زيد بن عليّ بن الحسين، عن أبيه، عن جدِّه، رضي الله تعالى عنهم أجمعين؛ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«انتظارُ الفرجِ من الله تعالى بالصَّبْر عبادة، ومَن رضي من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالقليل من الرزق، رضي الله ـ عزّ وجلَّ ـ منه بالقليل من العمل»**[3]. ورُوي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى ـ عنه أنه قال: من نُبْلِ الفقر أنَّك لا تجد أحدًا يعصِي الله ليفتقر. فأخذه محمود الورَّاق، فقال:

| | |
|---|---|
| **يا عائبَ الفَقْرِ ألاَ تزدجِر** | **عَيْبُ الغنَى أكثَرُ لو تَعْتَبِرْ** |
| **مِن شرفِ الفَقْرِ ومِن فَضْلِه** | **على الغنَى إن صحَّ منك النَّظَرْ** |
| **أنَّك تعصِي لتنالَ الغنَى** | **ولسْتَ تعصِي الله كي تفتقِرْ** |

---

(١) هو في كتاب «الجامع» لمعمر بن راشد (١١/ ٢٤٤)، وأورده ابن الجوزي في «زاد المسير» (٩/ ١٨٧).

(٢) لم أجده، ولكن أورده ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٤١٥).

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ، ولكن أخرج الترمذي نحوه بلفظ قريب (٣٥٧١)، وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ٦٢) (٤٦). وذكر السيوطي في «الجامع الصغير» أنه رواه ابن أبي الدنيا وابن عساكر عن علي.

وقال ابن المقفع:

**دليلك أنَّ الفـقـرَ خـيـرٌ من الغنَى ... وأنَّ قليلَ المالِ خـيـرٌ من المُثْـري**
**لقـاؤك مـخلوقًا عَـصَى الله بالغنَى ... ولم تَرَ مـخلوقًا عَـصى الله بالفـقـرِ**

وهذه الحال إنَّما تصحُّ لمن نَصَحَ نفسَه فأطاعته، وصدَقَها فأجابته، حتى لانَ قيادُها، وهانَ عنادُها، وعلِمت أنَّ من لم يقنَعْ بالقليل لم يقنَعْ بالكثير، كما كتب الحسن البصريّ إلى عمر بن عبد العزيز - رضي الله تعالى عنهما -: يا أخي، من استغنَى بالله اكتفَى، ومن انقطع إلى غيره تعنَّى[1]، ومن كان من قليل الدنيا لا يشبع، لم يغنه منها كثرة ما يجمع، فعليك منها بالكَفاف، وألزم نفسَك العفافَ، وإيَّاك وجمعَ الفُضُول؛ فإنَّ حسابه يطول. وقال بعضُ الحكماء: هيهات منك الغنى إن لم يُقْنعْك ما حَوَيْتَ.

فأما من أعرَضَت نفسه عن قبول نصحه، وجَمَحت به عن قناعة زهده، فليس إلى إكراهها سبيل، ولا إلى الحمل عليها وجه إلاَّ بالرياضة والمرون[2]، وأن يستنزلها إلى اليسير الذي لا تنفر منه، فإذا استقرَّت عليه، أنزلها إلى ما هو أقلّ منه، لتنتهيَ بالتدريج إلى الغاية المطلوبة، وتستقرَّ بالرياضة والمُرون على الحال المحبوبة. وقد تقدَّم قولُ الحكماء: إن المكروه يسهُلُ بالمُرون. فهذا حكم ما في الأمر الثاني من التقصير عن طلب الكفاية.

وأمَّا الأمر الثالث - فهو أن لا يقنعَ بالكفاية، ويطلبَ الزيادة والكثرة، فقد يدعو إلى ذلك أربعةُ أسباب:

أحدها - منازعة الشهوات التي لا تُنال إلاَّ بزيادة المال، وكثرة المادة؛ فإذا نازعته الشهوة، طلبَ من المال ما يوصلُه إليها، وليس للشهوات حدٌّ متناه، فيصير ذلك ذريعةً إلى أنَّ ما يطلبه من الزِّيادة غيرُ متناه، ومَن لم يتناه طلبه استدامَ كدَّه وتعبُه، ومن استدام به الكدُّ والتعب، لم يفِ التَّذاذُه بنيل شهواته، بما يعانيه من

(١) أي أصابته المشقة والعناء.
(٢) أي التمرين والترويض.

استدامة كدِّه وأتعابه، مع ما قد لزمه من ذمِّ الانقياد لمغالبة الشهوات، والتعرُّض لاكتساب التَّبِعات، حتَّى يصيرَ كالبهيمة التي قد انصرف طلبُها إلى ما تدعو إليه شهوتها؛ فلا تنْزَجر عنه بعقل، ولا تنكفّ عنه بقناعة. وقد رُوي عن عليّ، عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**مَنْ أراد الله به خيرًا حالَ بينَه وبين شهوته، وحالَ بينه وبين قلبه؛ وإذا أراد به شرًا وكَلَهُ إلى نفسه**»[1]. وقد قال الشاعر:

**وإنَّك إن أعطيْتَ بطنَكَ همَّهُ ... وفَرْجَك نالا مُنْتَهى الذَّمِّ أجمعَا**

والسبب الثاني - أن يطلبَ الزِّيادة، ويلتمسَ الكثرة؛ ليصرفها في وجوه الخير، ويتقرَّب بها في جهات البرِّ، ويصطنعَ بها المعروف، ويغيثَ بها الملهوف، فهذا أعذر، وبالحمد أحرى وأجدر، إذا انصرفت عنه تَبِعات المطالب، وتَوَقَّى شبُهات المكاسب، وأحسَنَ التقديرَ في حالتي فائدته وإفادته، على قدر الزمان، وبقدر الإمكان؛ لأن المال آلة المكارم، وعونٌ على الدِّين، ومُتألَّف للإخوان، ومن فقدَه من أبناء الدنيا، قلَّت الرغبة فيه، والرَّهبة منه، ومن لم يكن منهم بموضع رهبة ولا رغبة، استهانوا به.

وقد رَوَى عبدُ الله بن بُريدة عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أحساب أهل الدنيا هذا المال**»[2]. وقال مجاهد: الخير في القرآن كلُّه المال، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العاديات: ٨). يعني المال، و﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ (ص: ٣٢). يعني المال، ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ (النور: ٣٣)، يعني مالاً. وقال شعيب النبيّ - عليه السلام -: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ (هود: ٨٤). يعني المال.

وإنَّما سمَّى الله تعالى المالَ خيرًا إذا كان في الخير مصروفًا؛ لأنَّ ما أدى إلى الخير، فهو في نفسه خيرٌ؛ وقد اختلفَ أهلُ التأويل في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة: ٢٠١). فقال السُّدِّي وعبدُ الرحمن بن زيد: الحسنة في الدنيا: المال، وفي الآخرة: الجنَّة. وقال الحسن البصريُّ وسفيان الثَّوْريُّ: الحسنة في الدنيا: العِلْمُ والعبادة، وفي الآخرة: الجنة.

---

(١) لم أصل إليه.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦١)، والبيهقي في «الكبرى» (٣/ ٢٦٨)، والنسائي في «المجتبى» (٦/ ٦٤)، والدارقطني (٣/ ٣٠٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ١٧٧)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». وابن حبان (٢/ ٤٧٤).

وقال عبد الله بن عباس: الدَّراهم والدنانير خواتم الله في الأرض، لا تؤكَلُ ولا تُشْرَبُ، حيثُ قصدْتَ بها قضيْتَ حاجتك. وقال قيسُ بن سعد: اللهم ارزقني حَمدًا ومجدًا؛ فإنه لا حَمْدَ إلاَّ بفَعَال[1]، ولا مَجْدَ إلاَّ بمال. وقيل لأبي الزِّناد: لِمَ تحبُّ الدَّراهمَ وهي تدنيك من الدنيا؟ فقال: هي وإن أدنتني منها، فقد صانتني عنها.

وقال بعضُ الحكماء: مَن أصلحَ مالَه، فقد صان الأكرَمَين: الدِّين والعِرْض. وقيل في منثور الحكم: مَن استغْنَى كَرُمَ على أهله. ومرَّ رجلٌ من أرباب الأموال ببعض العلماء، فتحرَّك له وأكرمه. فقيل له بعد ذلك: أكانت لك إلى هذا حاجة؟ قال: لا، ولكني رأيتُ ذا المال مَهيبًا. وسأل رجل محمد بن عُمَير بن عُطارد وعتَّاب بن ورْقاء في عشر ديات؟ فقال محمد: عليَّ دِيَةٌ، وقال عتَّاب: الباقي عليَّ؛ فقال محمد: نعم العونُ على المجد اليسارُ. وقال الأحنف بن قيس:

فلو مُدَّ سَرْوِي بمالٍ كثيرٍ ... لَجُدْتُ وكُنْتُ له باذِلاَ[2]
فإنَّ المروءةَ لا تُستطاعُ ... إذا لم يكُنْ مالُها فاضِلاَ

وكان يقال: الدَّراهمُ مراهم؛ لأنَّها تداوِي كُلَّ جرح، ويطيب بها كلُّ صُلْح. وقال ابن الجلال:

رُزِقْتَ مالاً ولم تُرْزَقْ مُروءَتَهُ ... وما المروءةُ إلاَّ كَثْرَةُ المالِ
إذا أردْتُ رُقَى العلياءِ يُقعِدُني ... عَمَّا يُنَوِّه باسْمِي رِقَّةُ الحالِ

وقيل في منثور الحكم: الفَقْرُ مَخْذلة، والغِنَى مَجْذَلَة[3]. والبؤس مَرْذلة، والسؤال مَبْذلة[4]. وقال أوْس بن حَجَر:

---

(١) الفَعال: بفتح الفاء، العمل الحميد.

(٢) سروي: أي شرفي.

(٣) أي يؤدي إلى الجذل، وهو الفرح.

(٤) أي يؤدي إلى الابتذال، وهو إراقة ماء الوجه وقلة الحياء.

أقيمُ بدارِ الحَزْمِ ما دامَ حَزْمُها ... واحْـرِ إذا حالَتْ بأنْ أتحَوَّلاَ
فإنّي وَجَدْتُ النَّاسَ إلاّ أقلَّهُمْ ... خِفافَ عُهودٍ يُكْثِرُون التنقُّلاَ
بَني أمِّ ذي المالِ الكثيرِ يَرَوْنَهُ ... - وإن كان عبداً - سيِّدَ القوم جَحْفلاَ
وهُمْ لمقلِّ المالِ أولادُ عَلَّةٍ ... وإن كان مَحْضاً في العشيرة مُخْوِلا[(١)]

وقال بشر الضرير:

كَفَى حَزَنًا أني أرُوحُ وأغتَدِي ... وما لِي من مالٍ أصونُ به عِرْضِي
وأكثَرُ ما ألْقَى الصَّدِيقَ بمرحبًا ... وذلك لا يكفي الصَّديقَ ولا يُرْضِي

وقال آخر:

أجَلَّكَ قومٌ حين صِرْتَ إلى الغِنَى ... وكُلُّ غَنيٍّ في العيون جَليلُ
وليسَ الغِنَى إلاّ غنًى زَيَّنَ الفتَى ... عَشِيَّةَ يَقْرِي أو غَداةَ يُنيلُ[(٢)]

وقد اختلف الناس في تفضيل الغِنَى والفقر، مع اتفاقهم أنَّ ما أحوجَ مِن الفقر مكروه، وما أبطَرَ من الغِنَى مذمومٌ. فذهب قومٌ إلى تفضيل الغِنَى على الفقر؛ لأنّ الغنيَّ مقتدر، والفقير عاجز، والقدرة أفضَلُ من العجز، وهذا مذهبُ من غلب عليه حبُّ النباهة. وذهب آخرون إلى تفضيل الفَقْر على الغِنَى؛ لأنَّ الفقيرَ تاركٌ، والغنيَّ مُلابس، وتَرْكُ الدنيا أفضَلُ من مُلابَستِها؛ وهذا مَذهبُ مَن غَلَب عليه حبُّ السلامة. وذهب آخرون إلى تفضيل التوسُّط بين الأمرين، بأن يخرج عن حدِّ الفقْر إلى أدْنَى مراتب الغِنَى؛ ليصلَ إلى فضيلة الأمرين، ويسلَمَ من مَذَمَّة الحالَيْن. وهذا مذهبُ من يرى تفضيلَ الاعتدال، وأنَّ خيارَ الأمور أوساطُها، وقد مضى من شواهد كلِّ فريقٍ في موضعه، ما أغنَى عن إعادته.

**والسبب الثالث** - أن يطلبَ الزِّيادة، ويقتني الأموالَ ليدَّخِرَها لولده، ويخلِّفَها لورثته، مع شدَّة ضَنِّه على نفسه، وكفِّه عن صرف ذلك في حقِّه؛ إشفاقًا عليهم مِن كَدْح الطلب، وسُوء المُنقلب؛ وهذا شقيٌّ بجمعها، مأخوذٌ بوزرها، قد استحقَّ

(١) **أولاد علة**: أي أبناء ضرائر. **محضًا مخولاً**: أي وإن كان ذاك الفقير فيهم شريف النسب.
(٢) **يقري**: أي يُحسِن إلى الضيف.

اللَّومَ، واستوجب الذَّمَّ من وجوه لا تخفَى علـى ذي لبٍّ، منها: سوء ظنِّه بخالقه في أنه لا يرزقهم إلاَّ من جهته. وقد قـيل: قَتَلَ القُنوطُ صاحبه. وفي حسنِ الظن بالله تعالى راحة القلوب. وقـال عبد الحميد: كـيف تبقَى على حالتك والدَّهْرُ في إحالتك[1]. ومنها: الثِّـقة ببقاء ذلك علـى ولده مع نوائب الزمان ومصائبـه، وقد قيل: الدَّهْر حسود[2]، لا يأتي على شيء إلا غيَّره. وقـيل في منثور الحكم: المالُ مَلُول. وقال بعضُ الحكماء: الدنيا إن بقيت لك لم تبقَ لها.

ومنها: ما حُرِم من منافع ماله، وسُلِبَ من وفور حاله، وقد قيل: إنَّما مالُكَ لك، أو للوارث، أو للجـائحة[3]؛ فلا تكن أشـقى الثلاثة. وقال عـبد الحمـيد: اطْرَحْ كواذبَ آمالكَ، وكُنْ وارثَ مالك.

ومنها: مـا لحقه من شـقاء جَمْـعه، ونالَهُ من عناء كَدِّه، حـتى صار ساعـيًا محرومًا، وجاهدًا مذمومًا. وقـد قيل: رُبَّ مغبوطٍ بمسرةٍ وهي داؤه، ومرحومٍ من سَقَمٍ هو شِفاؤه، وقال الشاعر:

وَمَن كلَّفَـتْـهُ النَّفْسُ فَوْقَ كَفافِها ... فَمَـا ينقـضِي حـتَّى المماتِ عَنَاؤُهُ

ومنها: ما يؤاخَذُ به من وزره وآثامه، ويحاسَبُ عليه من تبعاته وإجرامه. وقد حُكي أنَّ هشام بن عبد الملك لما ثَقُلَ بكَى عليـه ولدُه، فقال لهم: جادَ لكم هشامٌ بالدنيا، وجدتُّم عليـه بالبكاء، وتَرَكَ لكم ما كَسَبَ، وتركتم عليه مـا اكتسَبَ، ما أسوأ حالَ هشام إن لم يغفر الله له! فأخَذَ هذا المعنى محمود الورَّاق، فقال:

تمتَّـعْ بمـالِكَ قَـبْـلَ المـمـاتِ ... وإلاَّ فـلا مـالَ إنْ أنتَ مِـتَّـا

شَـقِـيتَ بـه ثـم خَلَّفْـتَـه ... لغـيـركَ بُعْـدًا وسُـحـقًـا وَمَـقْـتَـا

فـجـادوا عليك بـزُورِ البُكـاءِ ... وَجُـدْتَ علـيـهـمْ بما قـد جَـمَـعتـا

وأرْهَنـتَـهُـم كُـلَّ مـا في يديك ... وَخَلَّوْك رَهْنًا بما قـد كَـسَـبـتـا

---

(1) أي في تغييرك وتبديل أحوالك.

(2) لا يصحُّ أن يوصفَ الدهرُ بما يعيب، لقـول رسول الله ﷺ: «قال الله عزَّ وجل: يؤذيني ابن آدم، يسبُّ الدهرَ، وأنا الدهرُ، بيدي الأمر، أقلِّب الليلَ والنهار». والحديث رواه البخاري (٤٥٤٩)، ومسلم (٢٢٤٦) (٢)، من حديث أبي هريرة.

(3) أي المصيبة التي تذهب بالمال.

وقد رُوي أنَّ العباس بن عبد المطلب جاء إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ولِّني. فقال النبي ﷺ: **«يا عباس يا عم النبيِّ، قليلٌ يكفيك خيرٌ من كثيرٍ يُرْديك؛ يا عبَاس، يا عمَّ النبيِّ، نفسٌ تنجيها خيرٌ من إمارة لا تحصيها؛ يا عباس، يا عمَّ النبيِّ، إنَّ الإمارة أوَّلها ندامَةٌ، وأوسَطُها مَلامةٌ، وآخرُها خِزْيٌ يومَ القيامة»**. فقال: يا رسول الله، إلاَّ مَن عَدَل. فقال رسول الله ﷺ: **«كيف تعدلون مع الأقارب»**[1].

وقال رجلٌ للحسن البصريّ: إني أخافُ الموت وأكرَهه. فقال: إنَّك خلَّفت مالك، ولو قدَّمْتَه لسرَّك اللحاقُ به. وقيل في منثور الحكم: كثرةُ مالِ الميت تُعَزِّي ورثته عنه. فأخذ هذا المعنى ابنُ الروميّ، فقال وزاد:

**أبقيتَ مالك ميراثًا لوارثِه ... فليْتَ شِعْرِيَ ما أبقَى لكَ المالُ؟**
**القَومُ بعدَكَ في حالٍ تَسُرُّهُمُ ... فكيفَ بعدَهُمُ حالَتْ بكَ الحالُ**
**ملُّوا البكاءَ فما يَبْكِيكَ مِن أحدٍ ... واستحكَم القَوْلُ في الميراثِ والقالُ**
**ألْهَتْهُمُ عنكَ دنيا أقبلَتْ لهمْ ... وأدبرَتْ عنك والأيامُ أحوالُ**

**والسبب الرابع** - أن يجمَع المالَ، ويطلبَ المكاثرة؛ استحلاءً لجمعه، وشغَفًا باحتجانه[2]، فهذا أسوأ الناس حالاً فيه، وأشدُّهم حرمانًا له، قد توجَّهَتْ إليه سائرُ الملاوم، حتى صار وبالاً عليه، ومَذَامَّ له، وفي مثله قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: ٣٤)، فقال النبيّ ﷺ: **«تبًا للذهب، وتبًا للفضة»**، فشقَّ ذلك على أصحاب النبيِّ ﷺ فقالوا: أيَّ مال نتخذ؟ فقال عمر - رضي الله تعالى عنه -: أنا أعلم لكم ذلك، فقال: يا رسولَ الله، إن أصحابك قد شقَّ عليهم فقالوا: أيَّ مال نتخذ؟ فقال: **«لسانًا ذاكرًا، وقلبًا شاكرًا، وزوجة مؤمنةً، تعين أحدَكم على دينه»**[3]. وروَى شَهْر بن حَوْشَب عن أبي أُمامة، قال: مات رجلٌ من أهل الصُّفَّة، فوُجد في مِئزره دينار. فقال النبي ﷺ: **«كَيَّة»**[4]. ثم مات آخر، فوُجد

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٣٦٦)، والطبراني في «الصغير» (٢/ ١٢١) (٨٩٠).
(٢) أي حيازته واحتواءه.
(٣) أورده الديلمي في «الفردوس» بمأثور الخطاب (١٤٩٥)، عن ابن عباس.
(٤) أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ١٢٥).

في مئزره ديناران، فقال النبيّ ﷺ : «كَيَّتان». وإنما ذكر ذلك فيهما وإن كان قد مات على عهده مَن ترك أموالاً جمةً، وأحوالاً ضخمةً، فلم يكن منه فيهم ما كان في هذين؛ لأنَّهما تظاهرا بالقناعة، واحتَجَنا ما ليس بهما إليه حاجة، فصار ما احتَجَناه وزراً عليهما، وعقابًا لهما، وقد قال الشاعر:

إذا كنْتَ ذا مالٍ ولم تكُ ذا نَدًى ... فأنتَ إذن والمُقْتِرون سواءُ
على أنَّ في الأموال يومًا تبَاعةً ... على أهلها والمُقْتِرُون بَراء[1]

وأُنشِدْت عن الرَّبيع للشافعيّ - رضي الله تعالى عنه -:

إنَّ الذي رُزق اليسارَ فلم يُصِبْ ... حمداً ولا أجراً لَغَيْرُ موفَّقِ
والجَدُّ يدني كُلَّ شيءٍ شاسع ... والجِدُّ يفتحُ كُلَّ بابٍ مغلَقِ[2]
وأحقُّ خَلْقِ الله بالهمِّ امْرؤٌ ... ذو همَّةٍ عليا وعيشٍ ضيِّقِ
ومِنَ الدَّليلِ على القضاء وكونِه ... بؤسُ اللبيبِ وطيبِ عيشِ الأحمقِ
فإذا سمِعْتَ بأنَّ مجدوداً حَوَى ... عُوداً فأوْرَقَ في يدَيْه فحقِّقِ[3]
وإذا سمِعْتَ بأنَّ محدوداً اتى ... ماءً ليشرَبَهُ فجفَّ فصدِّقِ[4]

وآفةُ مَنْ بُلِيَ بالجمع والاستكثار، ومُنِيَ بالإمساك والادِّخار، حتى انصرف عن رشده فغوى، وانحرفَ عن سَنَن قَصْدِه فَهَوَى، أن يستوليَ عليه حُبُّ المال، وبُعْدُ الأمل؛ فيبعثه حبُّ المال على الحرص في طلبه، ويدعوه بُعْدُ الأمل على الشُّحِّ به؛ والحرصُ والشُّحُّ أصل لكُلِّ ذَمٍّ، وسببٌ لكُلِّ لؤم؛ لأنَّ الشُّحَّ يمنَعُ من أداء الحقوق، ويبعَثُ على القطيعة والعقوق. ولذلك قال النبي ﷺ : «شَرُّ ما أُعطي العَبْدُ شُحٌّ هالعٌ[5]، وجُبْنٌ خالع[6]»[7]. وقال بعضُ الحكماء: الغنيُّ البخيلُ كالقويِّ الجبان.

وأمَّا الحِرْصُ فيسلُبُ فضائلَ النفس؛ لاستيلائه عليها، ويمنَعُ من التوفُّر على العبادة؛ لتشاغله عنها، ويبعَثُ على التورُّط في الشبهات؛ لقِلَّة تحرُّزه منها، وهذه

---

(١) تباعة: أي مسؤولية وحسابًا. (٢) الجَدّ: بالفتح أي الحظ. والجِدّ: أي الاجتهاد والدأب.
(٣) مجدوداً: أي ذا حظ. (٤) محدوداً: أي محروم قليل الحظ.
(٥) الشح: هو البخل، أي يجزع فيه العبد ويحزن.
(٦) أي كأنه يخلع فؤاده لشدته. (٧) مر تخريجه

الثلاث خصال هنَّ جامعات الرذائل، وسالبات الفضائل، مع أنَّ الحريص لا يستزيد بحرصه زيادةً على رزقه، سوى إذلال نفسه، وإسخاط خالقه. ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«الحريصُ الجاهد، والقَنوعُ الزَّاهد، يستوفيان أُكُلَهما غير منتقصٍ منه شيئًا، فعلام التهافت في النار»**(1). وقال بعضُ الحكماء: الحِرْصُ مفسدة للدِّين والمروءة، والله ما عرفت من وجه رجلٍ حرصًا فرأيت أن فيه مصطنعًا.

وقال آخر: الحريصُ أسير مهانة لا يُفَكُّ أسرُه. وقال بعضُ البلغاء: المقادير الغالبة لا تنال بالمغالبة، والأرزاق المكتوبة لا تنال بالشدَّة والمكالبة، فذلِّلْ للمقادير نفسك، واعلم بأنَّك غيرُ نائل بالحرص إلاَّ حظك. وقال بعضُ الأدباء: ربَّ حظٍّ أدركه غيرُ طالبه، ودرٍّ أحرزهُ غيرُ حالبه. وأنشدني بعضُ أهل الأدب لمحمد بن حازم:

**يا أسيرَ الطَّمَع الكا ... ذبِ من غلِّ الهَوَانِ**
**إنَّ عِزَّ اليأسِ خيرٌ ... لَكَ مِن ذُلِّ الأماني**
**سامحِ الدَّهْرَ إذا عَزَّ ... وخُذْ صَفْوَ الزَّمانِ**
**ربَّما أعْدَمَ ذو الحِرصِ ... وأَثْرَى ذو التواني**

وليس للحريص غاية مقصودة يقف عندها، ولا نهاية محدودة يقنع بها؛ لأنَّه إذا وَصَلَ بالحرص إلى ما أمَّل، أغراه ذلك بزيادة الحِرْص والأمل، وإذا لم يصِل رأى إضاعةَ العناء لومًا، والصَّبْر عليه حزمًا، وصارَ بما سلف من عنائه به أقوى رجاءً، وأبسَطَ أملاً. وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«يشيبُ ابنُ آدم ويبقى معه خَصْلتان: الحرص وطول الأمل»**(2). وقيل للمسيح ـ عليه السلام ـ: ما بالُ المشايخ أحرص على الدنيا من الشباب؟ قال: لأنهم ذاقوا من طعم الدنيا ما لم يذقه الشبابُ. ولو صَدَقَ الحريص نفسَه، واستنصَحَ عقلَه. لعلم أنَّ من تمام السعادة، وحسن التوفيق، الرِّضا بالقضاء، والقناعة بالقِسَم.

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«اقتصِدُوا في الطلب؛ فإنَّ ما رُزِقْتُموه أشدُّ طلبًا لكم منكم له، وما حُرِمتموه فلن تنالُوه، ولو حَرَصْتُم»**(3). ورُوي أنَّ جبريل

---

(1، 3) لم أصل إليه.

(2) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (3/368) وقال البخاري: «رواه شعبة عن قتادة فذكره وأخرجه مسلم من حديث شعبة».

ـ عليه السلام ـ، هبط على النبيِّ ﷺ، فقال: إنَّ الله تبارك وتعالى، يقرأ عليك السلام، ويقول لك: اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (طه: ١٣١)، فأمر النبيّ ﷺ مناديًا فنادى: **«من لم يتأدَّبْ بأدب الله تعالى، تقطَّعَتْ نفسُه على الدنيا حسرات»**[1].

وقيل: مكتوبٌ في بعض الكتب: رُدُّوا أبصاركم عليكم؛ فإنَّ لكم فيها شُغلاً. وقال مجاهد في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ (النحل: ٩٧). قال بالقناعة. وقال أكثم بن صيفيّ: مَن باع الحِرْصَ بالقناعة، ظفرَ بالغنى والمروءة، وقال بعضُ السلف: قد يخيب الجاهد الساعي، ويظفر الوادعُ الهادي. فأخذه البحتري، فقال:

**لم ألْقَ مقدوراً عَلَى اسْتِحْقَاقِهِ ... في الحظِّ إمّا ناقصًا أو زائدًا**

**وعَجِبْتُ للمحدُودِ يُحرَمُ ناصبًا ... كَلِفًا وللمجدُود يَغْنَمُ قاعدا**

**ما خَطْبُ مَن حُرِمَ الإرادة قاعدًا ... خَطْبَ الذي حُرِمَ الإرادة جاهدًا**

وقال بعض الحكماء: إنَّ من قَنِعَ كان غنيًا وإن كان مقترًا، ومن لم يقنَعْ كان فقيرًا وإن كان مكثرًا. وقال بعضُ البلغاء: إذا طلبْتَ العزَّ فاطلبه بالطَّاعة، وإذا طلبْتَ الغِنَى فاطلبه بالقناعة؛ فمن أطاع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، عزَّ نصره، ومن لزم القناعة زال فقره. وقال بعضُ الأدباء: القناعة عِزُّ المعسِر، والصَّدَقَةُ حِرْزُ الموسِر. وقال بعضُ الشعراء:

**إنِّي أرَى مَن لَه قُنُوع ... يدرك ما نال من تمنَّى**

**والرزقُ يأتي بلا عناءٍ ... وربما فاتَ مَنْ تعنَّى**

والقناعة قد تكون على ثلاثة أوجه:

**فالوجه الأول** ـ أن يقنَعَ بالبُلْغة من دنياه، ويصرفَ نفسه عن التعرُّض لما سواه، وهذا أعلى منازل أهل القناعة. وقال الشاعر:

**إذا شئتَ أن تحيا غنيًا فلا تكن ... على حالة إلاَّ رضيتَ بدونها**

---

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢٦٣٥)، كتاب «الزهد» لابن أبي عاصم (١/ ٢٢٦)، بلفظ «من لم يتعزَّ بالقرآن...».

وقال مالك بن دينار: أزهدُ الناس مَنْ لم تتجاوز رغبتُه من الدنيا بُلْغَتَه. وقال بعضُ الحكماء: الرِّضا بالكَفاف يؤدِّي إلى العفاف. وقال بعضُ الأدباء: رُبَّ ضيق أفضلُ من سَعة، وعناء خير من دَعَةٍ. وأنشدني بعضُ أهل الأدب، وذكر أنَّه لعَليِّ ابن أبي طالبَ - كرَّم الله وجهه -:

أفادتني القناعة كلَّ عزٍّ ... وأيُّ غنىً أعزُّ من القناعَهْ

فصيِّرْها لنفسكَ رأسَ مالٍ ... وصَيِّرْ بعْدَها التَّقوَى بضاعهْ

تَحَرَّزْ حين تغني عن بخيلٍ ... وتنعَمْ في الجنان بصبْرِ ساعَهْ

والوجه الثاني - أن تنتهيَ به القناعة إلى الكفاية، ويحذف الفضول والزيادة، وهذه أوسَطُ حالِ المقتنع. وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: **«ما مِن عبدٍ إلا بينَه وبين رزقه حجاب، فإن قنع واقتصَدَ أتاه رزقُه، وإن هتك الحجابَ لم يزد في رزقه»**[1]. وقال بعضُ الحكماء: طلبُ ما فَوْقَ الكفافِ إسرافٌ. وقال بعضُ البلغاء: من رضي بالمقدور، قنع بالميسور. وقال البحتري:

تَطْلبُ الأكثَرَ في الدنيا وقد ... تبلغُ الحاجةَ منها بالأقلّ

وأُنشِدْت لإبراهيم بن المدبَّر:

إنَّ القناعة والعفاف ... ليُغنيان عن الغِنَى

فإذا صَبَرْتَ عن المُنَى ... فاشْكُر فقد نِلْتَ المُنى

والوجه الثالث - أن تنتهيَ به القناعة إلى الوقوف على ما سنح، فلا يكره من أتاه وإن كان كثيرًا، ولا يطلب ما تعذَّر وإن كان يسيرًا. وهذه الحال أدنى منازل أهل القناعة؛ لأنَّها مشتركة بين رغبة ورهبة؛ أمَّا الرغبة فلأنه لا يكره الزيادة على الكفاية إذا سنحت؛ وأمَّا الرَّهبة فلأنه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة إذا تعذرت. وفي مثله قال ذو النون: من كانت قناعته سمينة، طابت له كُلُّ مَرَقة.

وقد روى الحسن بن الحسن بن عليّ، عن أبيه عن جدِّه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«الدنيا دُوَلٌ، فما كان منها لك أتاك على ضعفك، وما كان منها عليك لم**

---

(١) أورده في «الفردوس» (٢١٦٢)، عن جابر بلفظ: «بين العبد وبين رزقه حجاب». وفي «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٣٩).

**تدفعه بقوّتك، ومَنْ انقطع رجاؤه ممّا فات استراح بدنُه، ومَن رضي بما رزقه الله تعالى قرَّت عينُه»**[1].

وقال أبو حازم الأعرج: وجدْت الدنيا شيئين: شيئًا هو لي لن أعْجَلَه قبلَ أجله، ولو طلبته بقوَّة السموات والأرض. وشيئًا هو لغيري، وذلك مما لم أنلْه فيما مضى، ولا أنالُه فيما بقى؛ يُمنع الذي لي من غيري، كما يُمنع الذي لغيري مني، ففي أيِّ هذين أفني عمري؛ وأهلك نفسي. وقال أبو تمَّام الطائي:

**لا تأخذَنّي بالزَّمان فلَيْسَ لي ... تَبَعًا ولستُ على الزَّمان كَفيلا**
**مَن زَاحَفَ الأيام ثم عَبا لها ... غيرَ القناعةِ لم يَزَلْ ملفُولا**
**من كان مَرْعَى عَزْمِه وهمُومِه ... رَوْضُ الأماني لم يَزَلْ مهْزُولا**
**لو جاز سلطانُ القُنُوع وحُكْمُه ... في الخَلْق ما كان القليلُ قليلا**
**الرِّزْقُ لا تَكْمَدْ عليه فإنَّه ... يأتِي ولم تبعث إليه رَسُولا**

وأنشدني بعضُ أهل الأدب لابن الروميِّ:

**جَرَى قَلَمُ القَضَاءِ بما يكونُ ... فسيان التحرُّكُ والسكونُ**
**جنونٌ منكَ أن تسعَى لرزْقٍ ... ويُرْزَق في غشاوته الجنينُ**

ونحن نسأل الله تعالى أكرَم مسؤول، وأفضلَ مأمول، أن يحسنَ إلينا التوفيق فيما مَنَح، ويصرفَ عنَّا الرَّغبة فيما منَع، استكفافًا لتَّبعات الثروة، ومُوبقات الشهوة. رَوَى شَريك بن أبي نَمر، عن ابن الجذع، عن أعمامه وأجداده، عن النبيّ ﷺ، أنه قال: **«خيرُ أمتي الذين لم يُعْطَوْا حتى يَبْطَرُوا، ولم يُقَتَّرْ عليهم حتى يَسْألوا»**[2].

وقال أبو تمام الطائي:

**عندي من الأيَّام ما لو أنَّهُ ... أضحَى بشاربِ مُرْقِدٍ ما غَمَّضا**[3]
**لا تطلبَنَّ الرِّزق بَعْدَ شِمَاسِه ... فترُومَه سَبُعًا إذا ما غَيَّضا**[4]
**ما عُوِّض الصَّبْرَ امرؤ إلاَّ رأى ... ما فاته دُونَ الذي قد عُوِّضا**

---

(١) أورده الديلمي في «الفردوس» (٢/ ٢٣١) (٣١١٣).
(٢) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٨/ ٤٣٣) (٣٦٠٨).
(٣) المُرقِد: هو الدواء المنوم.
(٤) شِماسه: أي امتناعه وصعوبة تحصيله عليك، حتى كأنه سبع رابض في أجمته.

## الباب الخامس

# في أدب النفس

**اعلم:** أنَّ النفس مجبولة على شيم مهملة، وأخلاق مرسَلَة، لا يُستغنى بمحمودها عن التأديب، ولا يُكتفى بالمَرضيِّ منها عن التهذيب؛ لأنّ لمحمودها أضدادًا مقابلة، يُسْعدها هوى مطاع، وشهوة غالبة؛ فإنْ أُغفل تأديبها تفويضًا إلى العقل، أو توكلاً على أن تنقاد إلى الأحسن بالطبع، أعدمه التفويضُ دَرْك المجتهدين، وأعقَبَه التوكّلُ نَدَمَ الخائبين، فصار من الأدب عاطلاً، وفي صورة الجهل داخلاً؛ لأنَّ أكثر الأدب مكتسب بالتجربة، أو مستحسن بالعادة، ولكُلِّ قول مواضعه، وكُلُّ ذلك لا ينال بتوقيف العقل، ولا بالانقياد للطبع، حتى يُكتسبَ بالتجربة والمعاناة، ويستفادَ بالدُّرْبة والمعاطاة، ثم يكون العقل عليه قَيِّمًا، وزكيّ الطبع إليه مُسْلمًا، ولو كان العقل مغنيًا عن الأدب، لكان أنبياء الله تعالى عن آدابه مستغنين، وبعقولهم مكتفين. وقد رُوِي عن النبي ﷺ أنه قال: **«بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»**[1].

وقيل لعيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ: من أدَّبَكَ؟ قال: ما أدَّبني أحدٌ، ولكني رأيْتُ جَهْلَ الجاهل فاجتنبته. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إن الله تعالى جعل مكارم الأخلاق ومحاسنها وَصْلاً بينه وبينكم، فحسْب الرجل أن يتصل من الله تعالى بخلق منها، وقال أردشير بن بابَكَ: من فضيلة الأدب أنَّه ممدوح بكل لسان، ومتزيَّن به في كُلِّ مكان، وباقٍ ذكرُه على أيام الزمان.

وقال مهبود: شُبِّه العالم الشريف العديم الأدب بالبُنيان الخراب، الذي كلَّما علا سَمْكه[2]، كان أشدُّ لوحشته؛ وبالنهر اليابس الذي كلَّما كان أعرضَ وأعمقَ، كان أشدَّ لوعورته، وبالأرض الجيدة المعطَّلة التي كلَّما طال خرابُها ازداد نباتُها غيرُ المنتفَع به التفافًا، وصار للهوام[3] مسكنًا. وقال ابنُ المقفَّع: ما نحن إلى ما نتقوَّى

---

(١) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (١٠/ ١٩١) عن أبي هريرة، وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٢/ ١٩٢) (١١٦٥).

(٢) أي ارتفاعه. (٣) أي الحيوانات الضارة.

به على حواسنا من المطعم والمشرب، بأحوجَ منَّا إلى الأدب، الذي هو لقاح عقولنا، فإنَّ الحبَّة المدفونة في الثرى لا تقدر أن تطلُعَ زهرتُها ونضارتُها إلاَّ بالماء الذي يعودُ إليها من مستودعها. وحكَى الأصمعيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ، أنَّ أعرابيًا قال لابنه: يا بنيَّ، الأدب دعامةٌ أيَّدَ الله بها الألباب، وحليةٌ زيَّنَ الله بها عواطلَ الأحساب. فالعاقل لا يستغني وإن صحَّت غريزته عن الأدب المخرج زهرتَه، كما لا تستغني الأرض وإن عذُبَتْ تربتها عن الماء المخرج ثمرتَها.

وقال بعضُ الحكماء: الأدب صورة العقل، فصوِّر عقلك كيف شئت. وقال آخر: العقلُ بلا أدب كالشجر العاقر، ومع الأدب كالشجر المثمر. وقيل: الأدبُ أحدُ المَنصبَين. وقال بعضُ البلغاء: الفضل بالعقل والأدب، لا بالأصل والنسب؛ لأنَّ مَن ساد أدبهُ، ضاع نسبُه، ومن قلَّ عقلُه ضلَّ أصلُه. وقال بعضُ الأدباء: ذكِّ قلبك بالأدب، كما تذكَّى النار بالحطب، واتخذ الأدب غُنْمًا، والحرصَ عليه حظًا، يرتجيك راغبٌ، ويخاف صولَتَكَ راهبٌ، ويؤمَّلُ نفعُك، ويُرْجَى عدلُك. وقال بعضُ العلماء: الأدب وسيلة إلى كُلِّ فضيلة، وذريعة إلى كل شريعة. وقال بعضُ الفصحاء: الأدبُ يسترُ قبيحَ النَّسَبِ. وقال بعضُ الشعراء فيه:

**فما خَلَقَ مثلَ العقولِ ... ولا اكْتَسَبَ النَّاسُ مثلَ الأدَبْ**
**وما كَرَمُ المرءِ إلاَّ التُّقَى ... ولا حَسَبُ المرءِ إلاَّ النَّسَبْ**
**وفي العِلْم زينٌ لأهلِ الحِجا ... وآفةُ ذي الحِلْم طيشُ الغَضَبْ**

وأنشد الأصمعيُّ ـ رحمه الله ـ:

**وإن يكُ العقلُ مولوداً فلستُ أرَى ... ذا العَقْلِ مستغنياً عن حادثِ الأدَبِ**
**إنِّي رأيتهما كالماء مختلطًا ... بالتُّرب تظهر منه زَهْرة العُشُبِ**
**وكُلُّ من أخْطَأتْهُ في مواله ... غريزةُ العَقْلِ حاكَى البَهْمَ في الحسَبِ**

والتأديب يلزم من وجهين: **أحدهما** ـ ما لزم الوالد لولده في صغره.

**والثاني** ـ ما لزم الإنسان في نفسه عند نشوئه وكِبَره.

**فأما التأديب اللازم للأب:** فهو أن يأخذ ولده بمبادئ الآداب ليأنس بها، ويَنْشأ عليها، فيسهل عليه قبولُها عند الكبر، لاستئناسه بمبادئها في الصغر؛ لأن نشوء

الصغير على الشيء يجعله متطبعًا به، ومن أُغفل في الصغر، كان تأديبه في الكبر عسيرًا، وقد رُوي عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: **«ما نحلَ والدٌ ولدَهُ نِحْلةً أفضَلَ من أدبٍ حسنٍ يفيده إياه، أو جهلٍ قبيحٍ يكفُّه عنه، ويمنعه منه»**[1]. وقال بعضُ الحكماء: بادروا بتأديب الأطفال قبلَ تراكم الأشغال، وتفرُّق البال، وقال بعضُ الشعراء:

**أدِّبَ بَنيكَ صغارًا قبل كَبْرتهم ... فليس ينفع بعد الكبرة الأدب**
**إنَّ الغصونَ إذا قوَّمتها اعتدلَتْ ... ولا تلين إذا قوَّمتها الخُشُبُ**
**العلم في صغرٍ كالنقش في حجرٍ ... ما إن تُغيِّره الأزمان والحِقَبُ**
**قد ينفَعُ الأدبُ الأحداثَ في صغرٍ ... وليس ينفَعُ عندَ الشَّيبةِ الأدَبُ**

وقال آخر:

**ينشو الصغير على ما كان والده ... إنَّ الأصولَ عليها ينبُتُ الشَّجَرُ**

**وأمَّا الأدبُ اللازم للإنسان عند نشوئه وكبره:** فأدبان: أدب مواضعة واصطلاح، وأدب رياضة واستصلاح.

**فأما أدبُ المواضعة والاصطلاح:** فيؤخَذُ تقليدًا على ما استقرَّ عليه اصطلاح العقلاء، واتَّفَق عليه استحسانُ الأدباء، وليس لاصطلاحهم على وَضْعه تعليلٌ مستنبطٌ، ولا لاتفاقهم على استحسانه دليلٌ موجبٌ، كاصطلاحهم على مواضعات الخطاب، واتفاقهم على هيئات اللباس، حتى إنَّ الإنسان الآن إذا تجاوز ما اتفقوا عليه منها صار مجانبًا للأدب، مستوجبًا للذمِّ؛ لأنَّ فراق المألوف في العادة، ومجانبة ما صار متفقًا عليه بالمواضَعة، مفضٍ إلى استحقاق الذَّمِّ بالعقل، ما لم يكن لمخالفته علَّةٌ ظاهرةٌ، ومعنىً حادثٌ، وقد كان جائزًا في العقل أن يُوضَعَ ذلك على غير ما اتفَقوا عليه، فيرونه حسنًا، ويرون ما سواه قبيحًا، فصار هذا مشاركًا لما وَجَبَ بالعقل، من حيثُ توجُّهُ الذَّمِّ على تاركه، ومخالفًا له من حيثُ إنه كان جائزًا في العقل أن يوضَعَ على خلافه.

**وأمَّا أدبُ الرياضة والاستصلاح:** فهو ما كان محمولاً على حال لا يجوز في العقل أن يكونَ بخلافها، ولا أن يختلف العقلاء في صلاحها وفسادها؛ وما كان

---

(١) «المستدرك» (٧٦٧٩) بلفظ: **«أفضل من وضوء حسن»**.

كذلك فتعليله بالعقل مستنبَطٌ، ووضوح صحته بالدليل مرتبط، وللنفس على ما يأتي من ذلك شاهد، ألهمها الله تعالى إرشادًا لها. قال الله تعالى: ﴿ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾ (الشمس: ٨)، قال ابن عباس رضي الله عنهما: بيَّن لها ما تأتي من الخير، وتَذَرُ من الشرِّ. وسنذكر تعليلَ كُلِّ شيءٍ في موضعه؛ فإنَّه أولى به وأحق.

**فأوَّلُ مقدِّمات أدب الرياضة والاستصلاح:** أن لا يسبقَ إلى حسن الظن بنفسه، فيخفَى عنه مذمومُ شيمه، ومساوئ أخلاقه؛ لأن النفس بالشهوات آمرة، وعن الرُّشْد زاجرة، وقد قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** ﴾ (يوسف: ٥٣). وقال ﷺ: «**أعدى أعدائك نفسُك التي بين جنبيك، ثم أهلك، ثم عيالُك**»[١]. ودَعَتْ أعرابيَّةٌ لرجل فقالت: كَبَتَ[٢] الله كُلَّ عدوٍّ لك إلاَّ نفسك، فأخذه بعض الشعراء، فقال:

| | |
|---|---|
| **قلبي إلى ما ضرَّني داعِي** | **يُكَثِّر أسقامي وأوجاعي** |
| **كيفَ احْتِرَاسِي من عدوِّي إذا** | **كان عدوِّي بين أضلاعي** |

فإذا كانت النفس كذلك، فحسْنُ الظنِّ بها ذريعةٌ إلى تحكيمها، وتحكيمُها داعٍ إلى سَلاطَتها، وفساد الأخلاق بها؛ فإذا صرَفَ حُسْنَ الظنِّ عنها، وتوسَّمَها بما هي عليه من التسويف والمكر، فاز بطاعتها، وانحاز عن معصيتها. قال عمر بنُ الخطاب رضي الله عنه: العاجزُ مَن عَجَزَ عن سياسة نفسه. وقال بعض الحكماء: من ساس نفسَه سادَ ناسَهُ.

فأمَّا سوءُ الظنِّ بها، فقد اختلف الناس فيه؛ فمنهم من كرهه؛ لما فيه من اتهام طاعتها، وردِّ مناصحتها؛ فإنَّ النفسَ وإن كان لها مكرٌ يُرْدي، فلها نُصْحٌ يَهْدي، فلمَّا كان حُسْنُ الظَّنِّ بها يُعْمي عن مساويها، كان سُوءُ الظَّنِّ بها يُعمي عن محاسنها؛ ومن عَمِي عن محاسنِ نفسه، كان كَمَنْ عَمِيَ عن مساويها، فلَم ينف عنها قبيحًا، ولم يُهْدِ إليها حسنًا. وقد قال الجاحظ في كتاب «البيان»: يجب أن يكون في التهمة لنفسهَ معتدلاً، وفي حُسْن الظنِّ بها مقتصدًا؛ فإنه إن تجاوز مقدار الحقِ في التهمة ظَلَمَها، فأودعَها ذلة المظلومين، وإن تَجاوز بها الحقَّ في مقدار حُسنِ الظَّنِّ أودعَها تهاونَ الآمنين، ولكُلِّ ذلك مقدارٌ من الشغل، ولكُلِّ شُغل مقدارٌ من الوَهْن، ولكلِّ وهْنٍ مقدارٌ من الجهل.

---

(١) ذكر شطره الأول البيهقي في «الزهد الكبير» (٢/ ١٥٧). (٢) أي أذلَّ.

وقال الأحنفُ بن قيس: من ظَلَم نفسَه كان لغيره أظلم؛ ومن هدم دينه كان لمجده أهدم. وذَهَبَ قومٌ إلى أنّ سوءَ الظّنِّ بها أبلَغُ في صلاحها، وأوفَرُ في اجتهادها؛ لأنّ للنفس جورًا لا ينفك إلاّ بالسخط عليها، وغرورًا لا ينكشف إلا بالتهمة لها؛ لأنّها محبوبة تجور إدلالاً، وتغرّ مكرًا، فإن لم يُسِئ الظنَّ بها، غلَبَ عليه جَوْرُها، وتموّه عليه غرورُها، فصار بميسورها قانعًا، وبالشّبهة من أفعالها راضيًا. وقد قالت الحكماء: مَن رضي عن نفسه، أسخَطَ عليه الناس. وقال كُشَاجم:

لم أرضَ عن نفسي مخافَةَ سُخْطِها ... ورضا الفَتَى عن نفسِه إغضابُها

ولَوَ انّني عنها رضيتُ لقصَّرَتْ ... عمّا تزيدُ بمثله آدابُها

وتَبَيَّنَتْ آثارَ ذاك فأكثَرَتْ ... عَذْلي عليه فطال فيه عِتابُها

وقد استُحْسِن قولُ أبي تمام الطائيّ:

ويُسيء بالإحسان ظنًا لا كَمَنْ ... هُوَ بابْنِهِ وبِشِعْرِه مَفْتُونُ

فلم يروا إساءة ظنِّه بالإحسان ذمًّا، ولا استقلالَ عمله لؤمًا، بل رأوا ذلك أبلَغَ في الفضل وأبعَثَ على الازدياد. فإذا عَرَفَ من نفسه ما تُجِنّ[1]، وتَصوّر منها ما تُكِنّ، ولم يطاوعها فيما تحبّ إذا كان غيًا، ولا صرَفَ عنها ما تكرَهُ إذا كان رُشْدًا، فقد ملكها بعد أن كان في ملكها، وغلبها بعد أن كان في غَلَبتها.

وقد رَوَى أبو حازم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الشّديد من غلب نفسه»[2]. وقال عونُ بن عبد الله: إذا عَصَتْكَ نفسُكَ فيما كرِهَت، فلا تطعْها فيما أحبَّتْ، ولا يغرّنّكَ ثناءُ مَن جَهِلَ أمركَ. وقال بعضُ البلَغاء: مَن قويَ على نفسه، تناهى في القوّة، ومَن صَبَرَ عن شهوته، بالغ في المروّة، فحينئذ يأخذ نفسَه عند معرفة ما أكنّت، وخبرة ما أجنّت، بتقويم عوجِها، وإصلاح فاسدها. وقد رُوي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله، متى يعرف الإنسانُ ربَّه؟ قال: «إذا عَرَفَ نفسه»[3]. ثم يراعي منها ما صَلَحَ واستقام؛ من زَيْغٍ يَحْدُث عن إغفال، أو ميل يكون عن إهمال؛ ليتمَّ له الصّلاحُ، وتستديمَ له السّعادة فإن المغفَل بعد المعاناة ضائع، والمهمل بعد المراعاة ذائع.

---

(١) أي ما تخفي وتستر.

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٦/ ١٠٥)، وابن حبان (٢/ ٤٩٣) (١٠٢٢٩)، والطيالسي في «مسنده» (١/ ٣٢٩) (٢٥٢٥).

(٣) قال ابن تيمية: موضوع (المصنوع: ١/ ١٨٩).

وسنذكر من أحوال أدب الرياضة والاستصلاح، فصولاً تحتوي على ما يلزم مراعاته من الأخلاق، ويجب معاناته من الآداب، وهي ستة فصول متفرِّعة:

## الفصل الأول

## في مجانبة الكبر والإعجاب

لأنهما يسلُبان الفضائلَ، ويُكْسِبان الرذائلَ، وليس لمن استوليا عليه إصغاءٌ لنُصْحٍ، ولا قَبولٌ لتأديب؛ لأنَّ الكِبْرَ يكونُ بالمنزلة، والعُجْبَ يكون بالفضيلة، فالمتكبِّرُ يُجلُّ نفسَه عن رتبة المتعلِّمين، والمُعْجَب يستكثر فضلَه عن استزادة المتأدبين، فلذلك وجَبَ تقديم القول فيهما، بإبانة ما يُكْسِبانه من ذَمٍّ، ويوجبانه من لَوْمٍ، فنقول:

**أمَّا الكِبْرُ:** فَيُكسب المَقْت، ويُلهي عن التألُّف، ويوغر صدور الإخوان، وحسبُك بذلك سوءًا عن استقصاء ذَمِّه، ولذلك قال النبيّ ﷺ لعمِّه العباس: **«أنهاكَ عن الشِّرْك بالله والكِبْر؛ فإنَّ الله يحتجبُ منها»**[1]. وقال أردَشيرُ بن بابَك: ما الكبر إلاَّ فَضْل حُمْق، لم يدرِ صاحبُه أين يُذْهَب به، فيصرفه إلى الكبر، وما أشبه ما قال بالحق!. وحُكِي أن مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير نظر إلى المهلَّب بن أبي سُفْرة وعليه حُلة يسحبها، ويمشي الخُيَلاء، فقال: يا أبا عبد الله، ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسولُه، فقال المهلَّب: أما تعرفني؟ قال: بلَى أعرفك، أوّلُك نُطْفَةٌ مَذِرَة[2]، وآخرك جيفة قذرة، وحشوك فيما بين ذلك بَوْلٌ وعَذِرَةٌ. فأخذ ابنُ عوفَ هذا الكلام، فنظمه شعرًا، فقال:

عَجِبْتُ مِن مُعْجَبٍ بصُورتِهِ ... وكانَ بالأمس نُطْفَةً مَذِرَهْ
وفي غدٍ بعدَ حُسْنِ صُورتِه ... يَصيرُ في اللَّحْدِ جِيفةً قَذِرَهْ
وَهْوَ على تِيهِهِ ونَخْوَتِهِ ... ما بينَ ثَوْبَيْهِ يَحملُ العَذِرَهْ

وقد كان المهلَّبُ أفضلَ من أن تُخْدَعَ نفسُهُ بهذا الجواب، ولكنها زَلَّة من زلات الاسترسال، وخطيئة من خطايا الإدلال.

---

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٦٦٨) (٦/٢٠٨) عن سليمان بن يسار.
(٢) أي مَهينة.

فأمَّا الحُمق الصَّريح، والجهل القبيح، فهو ما حُكي عن نافع بن جُبَير بن مُطْعِم، أنه جلس في حلقة العلاء بن عبد الرحمن الحُرَقيّ وهو يقرئ الناس، فلمَّا فرغ قال[1]: أتدرون لِمَ جلَسْتُ إليكم؟ قالوا: جلسْتَ لتستمع، قال: لا، ولكن أردْتُ أن أتواضعَ لله بالجلوس إليكم. فهل يُرجَى من مثل هذا فَضْل، أو ينفَعُ فيه عَذْل؟! وقد قال ابنُ المعتز: لما عرف أهلُ النقص حالَهم عند ذوي الكمال، استعانوا بالكِبْر، ليعظِّم صغيراً، ويرفع حَقيراً، وليس بفاعل.

**وأمَّا الإعجاب:** فيُخفي المحاسن، ويظهرُ المساوئ، ويُكسب المذامَّ، ويصدُّ عن الفضائل. وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«إنَّ العُجْبَ ليأكل الحسنات كما تأكل النارُ الحَطَبَ»**[2]. وقال علي بن أبي طالب ـ كرَّم الله وجهه ـ: الإعجابُ ضدّ الصواب، وآفةُ الألباب. وقال بُزُرْجُمُهْر: النّعمة التي لا يحسَدُ صاحبها عليها: التواضع. والبلاء الذي لا يُرْحَم صاحبُه منه: العُجْب. وقال بعضُ الحكماء: عُجْبُ المرء بنفسه أحدُ حُسَّاد عقله. وليس لما يكسبه الكِبْر من المَقْت حدٌّ، ولا لما ينتهي إليه العُجْبُ من الجهل غاية، حتى إنه ليطفئ من المحاسن ما انتشر، ويسلُب من الفضائل ما اشتهر. وناهيك بسيئة تُحبط كُلَّ حسنة، وبمذَمَّة تهدمُ كُلَّ فضيلة، مع ما يثيره من حَنَق، ويُكْسِبه من حقد.

حكَى عُمر بنُ حفص قال: قيل للحجَّاج: كيفَ وجدْتَ منزلك بالعراق؟ قال: خير منزل، لو كان الله بلَّغني قتل أربعة، فتقرَّبْت إليه بدمائهم. قيل: ومَنْ هم؟ قال: مُقاتل بن مِسْمَع: وَلِيَ سَجِسْتان، فأتاه الناس، فأعطاهم الأموالَ، فلمَّا عُزِلَ دخل مسجدَ البَصرة، فبسط الناس له أرديتهم، فمشى عليها، وقال لرجل يماشيه: لمثل هذا فليعمل العاملون. وعبد الله بن زياد بن ظَبيان التَّيْميّ: حزَبَ[3] أهلَ البصرة أمرٌ، فخطَب خطبةً أوجز فيها، فنادَى الناسُ من أعراض المسجد: أكثَرَ الله فينا مثلك! فقال: لقد كلَّفْتُم الله شَطَطًا. ومُعْبَد بن زُرارة: كان ذات يوم جالسًا في طريق، فمرَّتْ به امرأة، فقالت له: يا عبدَ الله، كيفَ الطريقُ إلى موضع كذا؟ فقال: يا هَنَاهْ، مثلي يكونُ من عَبيد!.

---

(١) القائل نافع بن جبير.
(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥/ ٤٥٢) (٧٢٤٨)، عن يحيى بن معاذ.
(٣) أي أصابهم مكروه وشدة.

وأبو سَمَّال الأسديّ: أضَلَّ راحلته، فالتمسَها الناس، فلم يجدوها، فقال: والله لئن لم يَرُدُّ عليَّ راحلتي لا صلَّيْتُ له صلاةً أبدًا؛ فالتمسَها النَّاسُ، فوجدوها، فقالوا له: قد ردَّ الله راحلتك فصلِّ، فقال: إن يميني يمين مُصِرٍّ.

فانظُرْ إلى هؤلاء، كيفَ أفضَى بهم العُجْبُ إلى حُمْقٍ، صاروا به نكالاً في الأوَّلين، ومَثلاً في الآخرين. ولو تصوَّر المعجَبُ والمتكبِّرُ ما فُطِرَ عليه من جِبلَّة، وبُلِيَ به من مَهْنَة، لخَفَضَ جَناحَ نفسه، واستبدلَ لينًا من عُتُوِّه، وسكونًا من نفوره. وقال الأحنفُ بن قيس: عجبْتُ لمن جرَى في مجرى البَوْلِ مرتين، كيف يتكبَّر؟! وقد وصف بعضُ الشعراء الإنسان، فقال:

| | |
|---|---|
| يا مُظهِرَ الكِبْرِ إعجابًا بصُورتِهِ | انْظُرْ خَلاَكَ فإنَّ النتن تثريبُ |
| لو فكَّر الناسُ فيما في بطونهم | ما استشعرَ الكِبْرَ شُبَّانٌ ولا شِيبُ |
| هل في ابن آدم مثلُ الرأس مكرُمةً | بأربع هو في الأقذار مَضْرُوبُ[(١)] |
| أنفٌ يسيل وأذنٌ ريحُها سَهِكٌ | والعَيْنُ مُرْفَضَّةٌ والثغرُ ملعوبُ[(٢)] |
| يا بْنَ الترابِ ومأكولَ الترابِ غدًا | أقْصِرْ فإنَّك مأكُولٌ ومشروبُ |

وأحقُّ من كان للكِبْر مجانبًا، وللإعجاب مباينًا، مَن جلَّ في الدنيا قَدْرُه، وعظم فيها خطرُه؛ لأنَّه قد يستقلُّ بعالي همته كلَّ كثير، ويستصغر معها كُلَّ كبير. وقال محمد بن عليّ: لا ينبغي للشريف أن يرى شيئًا من الدنيا لنفسه خطيرًا، فيكون بها تائهًا. وقال ابن السمَّاك لعيسى بن موسى: تواضُعُكَ في شرفك أشرفُ لك من شرفك. وكان يقال: اسمان متضادَّان بمعنىً واحد: التواضعُ والشرف.

**وللكِبْر أسباب:** فمن أقوى أسبابه علوُّ اليد، ونفوذُ الأمر، وقلَّةُ مخالطة الأكفاء. وَحُكِي أنَّ قومًا مَشَوا خلفَ عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: أبعدوا عني خَفْقَ نعالكم؛ فإنَّها مفسدة لقلوب نَوْكَى الرجال. ومَشَوا خلفَ ابن مسعود، فقال: ارجعوا؛ فإنَّها ذلة للتابع، وفتنة للمتبوع.

وروى قيس بن أبي حازم أنَّ رجلاً أُتِيَ به للنبي ﷺ، فأصابته رِعدة، فقال

---

(١) أي مشتهر. (٢) سهك: أي رائحتها كريهة. مرفضة: أي تدمع. ملعوب: أي ذو لعاب.

له ﷺ : **«هوِّنْ عليك؛ فإنَّما أنا ابنُ امرأة كانت تأكُلُ القَديدَ»**[1] . وإنما قال ذلك ﷺ حسمًا لمواد الكبْر، وقَطْعًا لذرائع الإِعـجاب، وكَسْرًا لأشَر النفس، وتذليلاً لسطوة الاستعلاء. ومثل ذلك ما رُوِي عن عُمَرَ بنِ الخطاب ﵁، أنَّه نادى: الصلاةَ جامعةً؛ فلما اجتمَعَ الناس صَعدَ المنبرَ، فحمِدَ الله وأثنى عليه، وصلَّى على نبيه ﷺ ، ثم قال: أيُّها الناس، لقد رأيتُني أَرْعَى على خالات لي من بني مخزوم، فيقبضن لي القَبْضَةَ من التمر والزبيب، فأظلّ اليومَ وأي يوم؟ فقال له عبد الرحمن بن عوف: والله يا أميرَ المؤمنين! ما زِدْتَ على أن قصرت بنفسك. فقال له عمر ﵁: ويْحَك يا بْنَ عوف! إني خلوت، فحدثتني نفسي، فقالت: أنتَ أميرُ المؤمنين، فمن ذا أفضَل منك؛ فأردت أن أعرِّفَها نفسها.

**وللإعجاب أسباب:** فمن أقوى أسبابه كثرةُ مديح المتقرِّبين، وإطراءُ المتملِّقين، الذين جعلوا النِّفاق عادةً ومكسبًا، والتملُّقَ خديعةً وملعبًا، فإذا وجدوه مقبولاً في العقول الضعيفة، أغروا أربابها باعتقاد كذبهم، وجعلوا ذلك ذريعةً إلى الاستهزاء بهم. وقد رُوِي عن النبي ﷺ : أنه سمع رجلاً يزكِّي رجلاً فقال له: **«قطعت مطاه[2] ، لو سمعها ما أفلَحَ بعدها»**. وقال عمر بن الخطاب ﵁: المدحُ ذبحٌ. وقال ابن المقفّع: قابِلُ المَدْحِ كمادحِ نفسه. وقال بعضُ الحكماء: مَن رضي أن يمدَحَ بما ليس فيه، فقد أمكَنَ السَّاخرَ منه. ورُوِي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«إياكم والتمادحَ؛ فإنَّه الذبحُ؛ إن كان أحدكم مادحًا أخاه لا محالة، فليقل: أحسَبه، ولا أُزَكِّي على الله أحدًا»**[3]. وقيل فيما أنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من الكتب السالفة: عجبت لمن قيل فيه الخير وليس فيه، كيف يفرح؟ وعجبت لمن قيل فيه الشرُّ وهو فيه، كيف يغضب؟ وقال بعضُ الشعراء:

**يا جاهلاً غَرَّه إفراطُ مادِحِه ... لا يغلبَنْ جهلُ مَن أطراك عِلْمَكَ بكْ**
**أثنَى وقال بلا عِلْم أحاطَ بِه ... وأنتَ أعلَمُ بالمحصول مِن رِيَبِكْ**

---

(١) **القديد:** اللحم المجفف في الشمس. أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٠٦) عن جرير بن عبدالله، بزيادة «امرأة من قريش».

(٢) أي ظهره.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٧٣٣).

وهذا أمرٌ ينبغي للعاقل أن يضبطَ نفسه عن أن يستفزَّها، ويمنعها من تصديق المدح لها؛ فإنَّ للنفس ميلاً إلى حب الثناء، وسماع المدح. وقد قال الشاعر:

**يَهْوَى الثناء مبرِّزٌ ومقصِّرٌ ... حُبُّ الثناءِ طبيعةُ الإنسانِ**

فإذا سامح نفسَه في مدح الصَّبْوَة وتابَعَها على هذه الشهوة، تشاغل بها عن الفضائل الممدوحة، ولَهَا بها عن المحاسن الممنوحة، فصار الظاهرُ من مدحه كذبًا، والباطن من ذمِّه صدقًا، وعند تقابلها يكونُ الصِّدْقُ ألزَمَ الأمرين، وهذه خُدْعة لا يرتضيها عاقل، ولاَ ينخدع بها مميِّز. وليعلم أن المتقرِّب بالمدح يسرف مع القبول، ويكفَ مع الإباء؛ فلا يغلبه حسْنُ الظنِّ عَلَى تصديق مَدْحٍ هو أعرف بحقيقته، ولتكن تهمة المادح أغلب عليه، فقلَّ مدحٌ كان جميعُه صدقًا، وقلَّ ثناءٌ كان كلُّه حقًا، ولذلك كره أهلُ الفضل أن يطلقوا ألسنتهم بالثناء والمدح، تحرُّزًا من التجاوز فيه، وتنزيهًا عن التملُّق به. وقد رَوَى مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تكونوا عَيَّابين، ولا تكونوا لعَّانين، ولا متمادحين، ولا متماوتين»**[1].

وحكى الأصمعيّ أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان إذا مُدحَ قال: اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيرًا مما يحسبون، واغفرْ لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون. وقال بعضُ الشعراء:

**إذا المرء لم يمدَحْهُ حُسْنُ فِعالِه ... فمادحُه يهذي وإن كان مُفصِحًا**

وربما آل حُبُّ المَدْح بصاحبه إلى أن يصير مادحَ نفسه؛ إمَّا لتوهُّمه أنَّ الناس قد غفلوا عن فضله، وأخلُّوا بحقِّه، وإمَّا ليخدَعَهم بتدليس نفسه بالمدح والإطراء، فيعتقدون أنَّ قوله حَقٌّ متَّبَعٌ، وصِدْقٌ مستمَع. وإمَّا ليتلذَّذَ بسماع الثناء، ويُسرَّ نفسَه بالمدح والإطراء، كما يتغنَّى بنفسه طربًا إذا لم يسمع صوتًا مطربًا، ولا غناءً ممتعًا، ولأيٍّ ذلك كان فهو الجهل الصريح، والنقص الفاضح. وقد قال بعضُ الشعراء:

**وما شرفٌ أن يمدَحَ المرءُ نفسَه ... ولكنَّ أعمالاً تُذَمُّ وتُمدَحُ**
**وما كُلُّ حينٍ يصْدُقُ المرءَ ظنُّه ... ولا كلُّ أصحاب التجارة يربحُ**
**ولا كُلُّ مَن ترجو لغيبك حافظًا ... ولا كُلُّ من ضَمَّ الوديعة يصلحُ**

---

(١) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٩٤٠)، وأورده ابن المبارك في «الزهد» (٣٩١).

وينبغي للعاقل أن يسترشد إخوان الصِّدق الذين هم أصفياء القلوب، ومرايا المحاسن والعيوب، على ما ينبهونه عليه من مساويه التي صرفَه حُسْنُ الظنِّ عنها؛ فإنَّهم أمكن نظرًا، وأسلم فكرًا، ويجعلون ما ينبهونه عليه من مساويه عوضًا عن تصديق المدح فيه. وقد رَوَى أنس بن مالك، عن النبي ﷺ، أنه قال: «**المؤمنُ مرآة المؤمن، إذا رأى فيه عيبًا أصلحه**»[1]. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: رَحِمَ الله امرءًا أهدَى إلينا مساوينا، وقيل لبعض الحكماء: أتحبُّ أن تهدى إليك عيوبُك؟ قال: نَعَمْ، مِنْ ناصح.

ومما يقارب معنى هذا القول ما رُوي عن عمر رضي الله عنه، أنه قال لابن عباس رضي الله عنهما: من ترى أن نوليه حمص؟ قال: رجلاً صحيحًا منك، صحيحًا لك. قال: تكون أنت ذلك الرجل؟ قال: لا تنتفعُ بي مع سوء ظنِّي بك، وسوء ظنِّك بي. وقد قيل في منثور الحكم: مَن أظهر عيبَ نفسه فقد زكَّاها. فإذا قطع أسباب الكِبْر، وحسم موادَّ العُجْب، اعتاض بالكِبْر تواضعًا، وبالعُجْب توددًا، وذلك من أوكد أسباب الكرامة، وأقوى موادِّ النعم، وأبلغ شافع إلى القلوب، يعطفها إلى المحبة، ويثنيها عن البَغضة. وقد قال بعض الحكماء: مَن برئ من ثلاث نال ثلاثًا: من برئ من السَّرَف نال العزَّ، ومن برئ من البخل نال الشرف، ومن برئ من الكِبْر نال الكرامة.

وقال مصعب بن الزُّبير: التواضع مصايد الشرف. وقيل في منثور الحكم: من دام تواضعُه كثُر صديقُه، وقد تُحدث المنازل والولايات لقوم أخلاقًا مذمومة؛ يظهرها سوء طباعهم، ولآخرين فضائل محمودة، يبعث عليها زكي شيمهم؛ لأنَّ لتقلُّب الأحوال سَكْرةً تُظهر من الأخلاق مكنونَها ومن السرائر مخزونَها، لاسيما إذا هجمت من غير تدريج، وطرقت من غير تأهُّب. وقد قال بعضُ الحكماء: في تقلب الأحوال تعرف جواهر الرجال. وقال الفضل بن سهل: مَن كانت ولايته فوق قدره، تكبَّر لها، ومن كانت ولايته دون قدره، تواضع لها. وقال بعضُ البلغاء: الناس في الولاية رجلان: رجل يَجِلُّ عن العمل بفضله ومروءته، ورجل يجلُّ بالعمل لنقصه ودناءته؛ فمن جَلَّ عن عمله ازداد به تواضعًا وبشرًا، ومن جلَّ بعمله تلبَّس به تجبُّرًا وتكبُّرًا.

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٣٨) عن أبي هريرة، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٦٤) عن أنس بن مالك، وقال: رواه البزار والطبراني في «الأوسط».

## الفصل الثاني

# في حسن الخلق

رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ الله تعالى اختار لكم الإسلام دينًا، فأكرِمُوه بحسْنِ الخُلُق والسَّخاء؛ فإنَّه لا يكمل إلاَّ بهما»[١]. وقال الأحنف بن قيس: ألا أخبركم بأدوأ الدَّاء؟ قالوا: بلى. قال: الخلق الدنيّ، واللسان البذيّ. قال بعضُ الحكماء: مَنْ ساء خُلُقه ضاق رزقُه؛ وعلَّة هذا القول ظاهرة. وقال بعضُ البلغاء: الحَسَنُ الخُلُق مِنْ نفسه في راحةٍ، والنَّاسُ منه في سلامة، والسيئ الخُلُق الناسُ منه في بلاء، وهو من نفسه في عَناء. وقال بعضُ الحكماء: عاشِرْ أهلكَ بأحسن أخلاقِكَ؛ فإنَّ الثَّواء[٢] فيهم قليل. وقال بعضُ الشعراء:

إذا لم تتسعْ أخلاقُ قومٍ ... تضيق بهم فسيحاتُ البلادِ

إذا ما المرءُ لم يُخْلَقْ لبيبًا ... فليس اللبُّ عن قِدَمِ الولادِ

فإذا حسُنت أخلاقُ الإنسان كثُر مُصَافُوه، وقلَّ معادوه، فتسهَّلَت عليه الأمور الصعاب، ولانت له القلوبُ الغضاب، وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «حُسْنُ الخُلُق، وحُسْنُ الجوار يَعْمُرَان الدّيار ويزيدانِ في الأعمار»[٣]. وقال بعضُ الحكماء: في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق؛ وسببُ ذلك ما ذكرنا من كثرة الأصفياء المسعدين، وقلة الأعداء المُجْحِفين. ولذلك قال النبيّ ﷺ: «أحبُّكم إليَّ أحاسنكم أخلاقًا، الموطَّؤون أكنافًا، الَّذين يألفون ويُؤْلفون»[٤].

وحُسْنُ الخُلُق أن يكونَ سهل العريكة، ليِّن الجانب، طَلْقَ الوجه، قليلَ النُّفور، طيِّبَ الكلمة؛ وقد بيَّن رسولُ الله ﷺ هذه الأوصاف، فقال: «أهلُ الجنَّة كلُّ هَيْنٍ لَيْنٍ، سَهْلٍ طَلْقٍ»[٥]. ولما ذكرنا من هذه الأوصاف حدودٌ مقدَّرة، ومواضعُ مستحقة، كما قال الشاعر:

---

(١) موضوع: رواه الطبراني عن عمران بن حصين، انظر «ضعيف الجامع» (١/ ١٥٥١).

(٢) أي الإقامة والبقاء.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ١٥٩)، وأخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٥٣٥).

(٤) أخرجه البخاري (٣٥٤٩) (٣/ ١٣٧٢) عن ابن عمر.

(٥) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٨٩) (١/ ٧٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨١٢٤).

| | |
|---|---|
| **أصفُو وأكدُرُ أحياناً لمختبري** | **وليس مستحسناً صفوٌ بلا كَدَرِ** |

وليس يريد بالكدر البَذَاءَ وشراسة الخُلُق؛ فإنَّ ذلك ذمٌّ لا يستحسن، وعيب لا يُرْتَضى، وإنَّما يريدُ الكَفَّ والانقباضَ في موضعٍ يلامُ فيه المساعد، ويُذَمُّ فيه الموافق، وإذا كانت لمحاسن الأخلاق حدودٌ مقدَّرة، ومواضعُ مستحَقَّة؛ فإن تجاوز بها الحدَّ صارت مَلَقًا[1]، وإنْ عَدَلَ بها عن مواضعها صارت نفاقًا؛ والمَلَقُ ذُلٌّ، والنِّفاقُ لؤمٌ، وليس لمن وُسِمَ بهما ودٌّ مبرور، ولا أَثَرٌ مشكور.

وقد رَوَى حكيم، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**شَرُّ النَّاس ذو الوَجْهَيْن، الذي يأتي هؤلاء بوجْهٍ وهؤلاء بوجْه**»[2]. وروى مكحول عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون وجيهًا عند الله تعالى**»[3]. وقال سعيد بن أبي عروبة: لأن يكون لي نصْفُ وجْه ونصْفُ لسان، على ما فيهما من قُبْحِ المنظر، وعَجْزِ المَخْبَر، أحبُّ إليَّ من أن أكون ذا وجهين، وذا لسانين، وذا قولين مختلفين. وقال الشاعر:

| | |
|---|---|
| **خَلِّ النِّفاقَ لأهلِه** | **وعليكَ فالْتَمِس الطَّريقا** |
| **وارْغَبْ بنفسِكَ أن تُرَى** | **إلاَّ عدوًا أو صديقا** |

وقال إبراهيم بن محمد:

| | |
|---|---|
| **وكم مِن صديقٍ ودُّه بلسانِه** | **خَؤونٌ بظهرِ الغَيبِ لا يتَذمَّمُ** |
| **يضاحِكُني عُجْبًا إذا ما لقيتُه** | **ويُقْذِعُني منه إذا غِبْتُ أسهمُ**[4] |
| **كذلك ذو الوَجْهَيْن يرضيك شاهدًا** | **وفي غيبِه إن غابَ صابٌ وعَلْقَمُ**[5] |

وربما تغيَّر حُسْنُ الخُلُق والوِطاء إلى الشَّراسة والبذاء؛ لأسباب عارضة، وأمورٍ طارئة، تجعل اللِّينَ خشونةً، والوِطاء غلظةً، والطلاقةَ عُبُوسًا.

**فمن أسباب ذلك: الولاية** التي قد تُحدث في الأخلاق تغيُّرًا، وعلى الخلطاء

---

(١) أي توددًا وتلفظًا فوق ما ينبغي.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٦٢٦) (٦٧٥٧)، ومسلم (٤/ ٢٠١١) (٢٥٢٦).

(٣) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٨٦٨)، وأورده الديلمي في «الفردوس» (٧٧٣٨).

(٤) يقذعني: أي يشتمني ويرميني بالفحش. (٥) الصاب والعلقم اسمان لنبات مر الطعم.

تنكُّرًا؛ إمَّا من لؤم طبعٍ، وإمَّا من ضيق صَـدرٍ. وقد قيل: مَن تاه في ولايته، ذَلَّ في عزله. وقيل: ذُلُّ العَزْل يضحك من تيه الولاية.

**ومنها العَزْلُ**، فقد يسوء منه الخُلُق، ويضيق به الصدر؛ إمَّا لشدَّة أسف أو لقلَّة صَبْرٍ. حكى حميد الطويل: أنَّ عمَّار بن ياسر عُزل عن ولاية، فاشتَدَّ ذلكَ عليه، وقالَ: إني وجدتُها حُلوةَ الرَّضاعِ، مُرَّةَ الفطام.

**ومنها الغنى**، فقد تتـغيَّر به أخلاق اللئيم بطرًا، وتسـوء طرائقه أشرًا. ولذلك قيل: من نال استطال. وأنشد الرِّياشيّ:

**غـضـبـانُ يعلم أنَّ المالَ سـاق لـه ... مـا لم يسـقْـه لـه دينٌ ولا خُلُقُ**
**فـمـن يكن عن كـرام الناس يسـألني ... فـأكـرم النَّاسِ مَن كـانـت له وَرِقُ**[1]

وقال بعض الشعراء:

**لئـن تكن الدُّنـيـا أنالـتكَ ثروةً ... فأصبحْتَ ذا يُسْرٍ وقد كنْتَ ذا عُسْرِ**
**لقـد كـشَفَ الإثراءُ منكَ خـلائقًا ... مِن اللؤم كانت تحتَ ثَوْبٍ من الفقْرِ**

وبحسب ما أفسده الغنى، كذلك يصلحه الفقر.

كتب قتيبةُ بن مسلم إلى الحجَّاج أنَّ أهل الشام قد التاثوا[2] عليه، فكتب إليه: أن اقطع عنهم الأرزاق. ففعل، فـساءت حالهم، فاجتمعـوا إليه فقالوا: أقِلْنا[3]، فكتب إلى الحجاج فيهم، فكتب إليه: إن كنت آنست منهم رشدًا، فأجْرِ عليهم ما كُنتَ تجري. واعْلَمْ أنَّ الفقـر جندُ الله الأكبر، يُذلُّ به كُلَّ جبَّارٍ عنيـد يتكبَّر، وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«لولا أنَّ الله تعالى أذَلَّ ابنَ آدم بثلاث ما طأطأ رأسه لشيء: الفقر والمرض والموت»**.

**ومنها: الفقر**، فقد يتغيَّر به الخُلُق؛ إمـا أنفَةً من ذُلِّ الاستكانة، أو أسفًا على فائت الغنى؛ ولذلك قال النبيّ ﷺ: **«كاد الفقـرُ أن يكونَ كُفْرًا، وكاد الحسَدُ أن يغلبَ القدر»**[4]. وقال أبو تمام الطائي:

---

(١) الورق: الدراهم المضروبة. (٢) أي: أفسدوا عليه بعض أمره.
(٣) أي: اصفح عنا.
(٤) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٥٨٥)، وقال في «تحفة الأحوذي»: «ضعيف جدًا».

واعجَبُ حالاتِ ابنِ آدمَ خُلْقه ... يَضِلُّ إذا فكَّرْتَ في كُنْهِه الفِكَرُ
فَيفْرَحُ بالشَّيء القليل بقاؤه ... ويجزَعُ ممَّا صار وهْوَ له ذُخْرُ

وربَّما تسلَّى من هذه الحالة بالأماني، وإن قلَّ صدقها، فقد قيل: قلَّما تصدق الأمنية، ولكن قد يعتاضُ بها سَلْوة من همٍّ، أو مسرَّة برجاء، وقد قال أبو العتاهية:

حرِّكْ مناك إذا اغتممت ... فإنَّهن مراوحُ

وقال آخر:

إذا تمنيتُ بتُّ الليلَ مغتبطًا ... إنَّ المُنَى رأسُ أموالِ المفاليس

**ومنها الهموم:** التي تُذْهل اللب، وتَشغَل القلب، فلا تتسع لاحتمال، ولا تقوى على صَبْر، فقد قيل: الهمُّ كالسُّمِّ. وقال بعضُ الأدباء: الحزن كالدَّاء المخزون في فؤاد المحزون. وقال بعض الشعراء:

همومُك بالعيش مقرونةٌ ... فما تقطَعُ العيشَ إلاَّ بهمّ
إذا تمَّ أمرٌ بدا نقصُه ... ترقب زوالاً إذا قيل تمّ
إذا كنْتَ في نعمةٍ فارْعها ... فإنَّ المعاصي تزيل النِّعمْ
وحام عليها بشُكْر الإله ... فإنَّ الإله سريعُ النقمْ
حلاوة دنياكَ مسمومةٌ ... فما تأكلُ الشهدَ إلا بسُمّ
فكم قدَرٍ دبَّ في مهلة ... فلم يعلم الناس حتَّى هَجَمْ

**ومنها الأمراض:** التي يتغيَّر بها الطبع، كما يتغيَّر بها الجسم، فلا تبقى الأخلاق على اعتدال، ولا يقدر معها على احتمال. وقد قال المتنبي:

آلةُ العَيْش صحَّةٌ وَشَبابٌ ... فإذا وَلَّيا عن المرء وَلَّى
وإذا الشَّيخُ قالَ أُفٍّ فما مَلَّ ... حَيَاةً وَلَكِن الضَّعْفَ مَلاَّ
وإذا لم تجدْ من النَّاس كُفْوًا ... ذاتُ خِدْرٍ أرادتَ المَوْتَ بَعْلا
أبدًا تَسْتَردُّ ما تَهَبُ الدُّنيا ... فيا لَيْتَ جُودَها كان بُخْلا

**ومنها عُلُوُّ السِّنِّ، وحدوثُ الهَرَم:** لتأثيره في آلة الجسد؛ كذلك يكون تأثيره في

أخلاق النفس، فكما يضعف الجسدُ عن احتمال ما كان يطيقه من الأثقال؛ فكذلك تعجز النفسُ عن احتمال ما كانت تصبر عليه من مخالفة الوِفاق، ومضض الشقاق، وكذلك ما ضاهاه. قال منصور النَّمرِيّ:

**ما كنْتُ أوفى شبابي كُنْهَ عِزَّتهِ حتَّى مضَى فإذا الدنيا له تَبَعُ**
**أصبحتِ لم تَطعَمي ثُكلَ الشَّباب ولم تَشْجَيْ بغصَّته فالعذرُ لا يقعُ**
**ما كان أقصَرَ أيامَ الشباب وما أبقَى حلاوةَ ذكراه التي تدَعُ**
**ما واجَهَ الشيبَ من عين وإن رمقتْ إلاَّ لها نبوةٌ عنهُ ومرتدَعُ**
**قد كدْتَ تقضي على فَوْتِ الشَّباب أسىً لولا يعزِّيك أن العمر منقطعُ**

فهذه سبعة أسباب، إنْ أحدثت سوء خلق كان عامًا، وهاهنا سبب خاص يُحْدِث سوء خلق خاص، وهو البغض الذي تَنْفر منه النفس، فتُحدث نفورًا عن المبغض، فيؤول إلى سوء خُلُق يخصه دون غيره، فإذا كان سوء الخلق حادثًا لسبب، كان زواله مقرونًا بزوال ذلك السبب، ثم بالضدّ.

## الفصل الثالث

## في الحياء

**اعلم:** أنَّ الخير والشرَّ معان كامنةٌ تعرف بسمات دالة، كما قالت العرب في أمثالها: تخبر عن مجهوله مرآته. وكما قال سَلْم بن عَمرو الشاعر:

**لا تسأل المرءَ عن خلائقه في وجهه شاهدٌ من الخَبَرِ**

**فسمة الخير:** الدَّعة والحياء، **وسمة الشرّ:** القَحَّة والبَذَاء، وكَفَى بالحياء خيرًا أن يكون على الخير دليلاً، وكفَى بالقَحَّة والبذاء شرًا أن يكونا إلى الشرّ سبيلاً. وقد رَوَى حسان بن عطية، عن أبي أَمَامة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«الحياءُ والعيُّ شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شُعبتان من النفاق»**(1). ويشبه أن يكون العيّ في معنى الصمت، والبيان في معنى التشدّق، كما جاء في الحديث الآخر: **«إنَّ أبغضكم إليَّ الثرثارون المتفيهقون المتشدِّقون»**(2).

---

(1) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (17) (1/ 51)، والترمذي (2027) (4/ 375)، وأحمد (22366) (5/ 269).

(2) أخرجه أحمد (4/ 193)، والترمذي (4/ 370) (2018)، والطبراني في «الكبير» (2588).

ورَوَى أبو سَلَمة، عن أبي هريرة ﷺ، أن رسـول الله ﷺ قال: **«الحيـاءُ من الإيمان، والإيمانُ في الجنة، والبَذاءةُ من الجفـاء، والجفـاءُ في النار»**[1]. وقال بعضُ الحكماء: مَن كساه الحياء ثوبه، لم يَرَ النَّاسُ عيبه، وقال بعضُ البلغاء: حياةُ الوجه بحيائه، كـما أنَّ حياة الغَرْس بمائه، وقال بعضُ البلغاء العلمـاء: يا عجبًا! كيف لا تستحي مِن كثرة ما لا تستحي، وتتقي من طول ما لا تتقي؟! وقال بعض الشعراء، وهو صالح بن عبد القدوس:

| | |
|---|---|
| **إذا قلَّ مـاءُ الوَجْـهِ قلَّ حـيـاؤهُ** | **ولا خـيـرَ في وَجْـهٍ إذا قلَّ مـاؤهُ** |
| **حـيـاءَك فـاحْـفَظْه عليك وإنَّمـا** | **يدلُّ على فـعل الكريم حـيـاؤُهُ** |

وليس لمن سُلِبَ الحياءَ صادٌّ عن قبيح، ولا زاجرٌ عن محظور، فهو يُقْدِم على ما يشـاء، ويأتي ما يهوَى، وبذلـك جاء الخبـر؛ رَوَى شُعْبـة، عن منصور، عن رِبْعيّ، عن أبي مَسـعود البدريّ قال: قـال رسول الله ﷺ: «إنَّ مما أدرك النَّاسَ من كلام النبوَّة الأولى: **يا بْنَ آدم! إذا لم تستحْيِ فاصْنَعْ ما شئت»**[2]. وليس هذا القولُ إغـراءً بفعل المعاصي عند قلَّة الحـياء، كمـا توهمه بعضُ مَن جهل مـعاني الكلام، ومواضعات الخطاب. وفي مثل هذا الخبر قولُ الشاعر:

| | |
|---|---|
| **إذا لم تخشَ عـاقـبـةَ الليـالي** | **ولم تسـتـحْيِ فـاصْنَعْ مـا تشـاءُ** |
| **فـلا والله مـا في العـيش خـيـرٌ** | **ولا الدنيـا إذا ذهب الحـيـاءُ** |
| **يعـيشُ المرءُ مـا اسـتـحـيـا بخـيـر** | **ويبـقَى العـودُ مـا بقى اللَّحـاءُ** |

واخـتلف أهلُ العلم في مـعنى هذا الخبـر؛ فقـال أبو بكر مـحمـد بن عليّ الشَّاشيّ في «أصول الفقه»: معنى هذا الحـديث أنَّ من لم يستحي دعاه تَرْكُ الحياءِ إلى أن يعملَ ما يشاءُ، لا يردَعُه عنه رادعٌ، فليستحي المرء، فإنَّ الحياء يردَعُه.

وسمـعت مَن يحكي عن أبي بكر الرَّازي من أصحاب أبي حنيـفة، أن المعنى فيـه: إذا عُرِضت عليك أفعالك التـي هممْتَ بفعلها فلـم تستحْيِ منها، لحسنها

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١/ ٤٤٥)، والترمذي (٢٦١٥)، والحاكم (١/ ١١٨)، وقال: «وله شاهد ثاني على شرط مسلم». وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٩٦)، وأبوداود (٤٧٩٧)، وأحمد (٥/ ٢٧٣).

وجمالها، فاصنَعْ ما شئت منها؛ فجعل الحياء حكَمًا على أفعاله؛ وكلا القولَيْن حَسَنٌ؛ والأولُ أشبه؛ لأنَّ الكلام خرَجَ من النبيِّ ﷺ مخرج الذَّمِّ لا مخرج المدح. لكن قد جاء الحديث بما يضاهي القولَ الثاني، وهو قولُه ﷺ: **«ما أحببْتَ أن تسمعَه أذناك فأْتِه، وما كرِهْتَ أن تسمعَه أذناك فاجتنبه»**[1].

ويجوز أن يحمل هذا الحديث على المعنى الصريح فيه، ويكون التأويل الأول في الحديث المتقدم أصحَّ؛ إذ ليس يلزم أن تكون أحاديثُ رسول الله ﷺ كلُّها متفقةَ المعاني، بل اختلافُ معانيها أدخَلُ في الحكمة، وأبلَغُ في الفصاحة؛ إذا لم يضادّ بعضُها بعضًا. واعْلَمْ أنَّ الحياء في الإنسان قد يكون من ثلاثة أوجه: **أحدها:** حياؤه من الله تعالى. **والثاني:** حياؤه من الناس. **والثالث:** حياؤه من نفسه.

فأما حياؤه من الله تعالى، فيكون بامتثال أوامره، والكف عن زواجره.

رَوَى ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«استحيُوا مِنَ الله - عزَّ وجلَّ - حقَّ الحياء»**، فقيل: يا رسول الله؛ فكيف نستحي من الله - عزَّ وجلَّ - حقَّ الحياء؟ قال: **«مَنْ حَفِظَ الرأسَ وما حَوَى، والبَطْنَ وما وَعَى، وتَرَكَ زِينَةَ الحياةِ الدُّنيا، وذَكَرَ المَوْتَ والبِلَى، فقد استحيا مِن الله حقَّ الحياء»**[2]. وهذا الحديث من أبلغ الوصايا.

**وقال أبو الحسن الماورديّ - مصنف الكتاب -:** رأيتُ رسولَ الله ﷺ في المنام ذاتَ ليلة، فقلت: يا رسولَ الله، أوصني. فقال: «استَحي من الله - عزَّ وجلَّ - حقَّ الحياءَ، ثم قال تغيَّر النَّاس». قلْتُ: وكيفَ ذلك يا رسولَ الله؟ قال: **«كنْتُ أنظرُ إلى الصبيِّ، فأرى في وجهه البشْرَ والحياءَ، وأنا أنظرُ إليه اليومَ، فلا أرى ذلك في وجهه»**.

ثم تكلَّم بعد ذلك بوصايا وعظات تصوَّرتُها، وأذهلني السرورُ عن حفظها، ووددت أني لو حفظتها. فلم يبدأ بشيءٍ ﷺ قبل الوصية بالحياء من الله تعالى، وجعَل ما سلَبه الصبي مِن البِشْر والحياءَ سببًا لتغيُّر الناس، وخصَّ الصبيَّ؛ لأن ما يأتيه بالطبع، من غير تكلُّف؛ فصلَّى الله على مَن هدَى أمته، وتابع إنذارها، وقطع أعذارَها، وواصَل تأديبها، وحفظَ تهذيبها، وجعل لكل عصرٍ حظًا من زواجره، ونصيبًا من أوامره. أعان الله على قَبولها بالعمل، وعلى استدامتها بالتوفيق.

---

(١) لم أصل إليه.

(٢) **حسن**: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٨٧)، والترمذي (٢٤٥٨)، والحاكم (٤/ ٣٥٩)، وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي».

وقد رُوي أنَّ علقمة بن عُلاثة قال: يا رسولَ الله، عظني. فقال رسولُ الله ﷺ: «استحْيِ من الله تعالى استحياءك مِن ذوي الهيبة مِن قومك»[1]، وهذا النوع من الحياء يكون من قوَّة الدِّين، وصحة اليقين. ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «قلَّة الحياء كفر»[2]. يعني من الله تعالى؛ لما فيه من مخالفة أوامره. وقال ﷺ: «الحياءُ نظامُ الإيمان، فإذا انحلَّ نظامُ الشيء، تبدَّد ما فيه وتفرَّق»[3].

وأمَّا حياؤه من الناس، فيكون بكفِّ الأذى وترك المجاهرة بالقبيح، وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مِنْ تَقْوَى الله اتِّقاءُ النَّاس»[4]. ورُوي أن حُذَيفة بن اليمان أتَى الجمعة فوجَدَ النَّاسَ قد انصرفوا، فتنكَّبَ الطريق عن الناس، وقال: لا خير فيمن لا يستحي من الناس. وقال بشار بن بُرْد:

ولقد أصْرِفُ الفؤادَ عن الشيءِ ... حياءً وحبُّه في السَّوادِ

أمْسِكُ النَّفْسَ بالعفاف وأمْسِي ... ذاكرًا في غَدٍ حديثَ الأعادي

وهذا النوعُ من الحياء قد يكون من كمال المروءة وحُبِّ الثناء، ولذلك قال ﷺ: «مَن ألقى جلْبابَ الحياءِ فلا غِيبةَ له»[5]، يعني والله أعلم: لقلة مروءته، وظهور شهوته. وروى الحسن عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من مروءة الرجل مَمشاه، ومَدْخله، ومَخْرجه، ومَجْلِسه، وإلفه، وجليسه»[6].

وقال بعضُ الشعراء:

وربَّ قبيحةٍ ما حالَ بيني ... وبين ركوبها إلاَّ الحياءُ

إذا رُزِقَ الفتَى وجهًا وَقاحًا ... تقلَّبَ في الأمور كما يشاءُ

وقال آخر:

إذا لم تصُنْ عِرْضًا ولم تخشَ خالقًا ... وتستحْيِ مخلوقًا فما شئتَ فاصْنَعِ

---

(١، ٣، ٤، ٦) لم أصل إليه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٢١٣) عن سعيد بن المسيب عن النبي ﷺ.

(٥) البيهقي في «الكبرى» (١٠/ ٢١٠)، وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٤٢٦) (١/ ٢٦٣) وقال البيهقي وهذا أيضًا ليس بالقوي.

**وأما حياؤه من نفسه**، فيكون بالعفة وصيانة الخلوات. وقد قال بعضُ الحكماء: ليكن استحياؤك من نفسك أكثرَ من استحيائك من غيرك. وقال بعض الأدباء: من عمل في السرِّ عملاً يستحي منه في العلانية، فليس لنفسه عندَه قدر. ودعا قومٌ رجلاً كان يألف عشرتهم، فلم يجبهم، وقال: إنِّي دخلت البارحة في الأربعين، وأنا أستحي من سنِّي. وقال بعض الشعراء:

**فسِرِّي كإعلاني وتلك خليقتي … وظُلْمَةُ ليلي مثلُ ضَوْءِ نهاريا**

وهذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس، وحُسْنِ السريرة، فمتى كمل حياءُ الإنسان من وجوهه الثلاثة، فقد كَمَلت فيه أسباب الخير، وانتفت عنه أسباب الشر، وصار بالفضل مشهورًا، وبالجميل مذكورًا. وقال بعضُ الشعراء:

**وإنِّي لَيَثنيني عن الجهل والخَنا … وعن شتم ذي القربَى خلائقُ أربعُ**
**حياءٌ وإسلامٌ وتقوى وأنَّني … كريمٌ ومثلي مَن يضرُّ وينفَعُ**

وإنْ أخلَّ بأحد وجوه الحياء لَحَقَه من النقص بإخلاله، بقدر ما كان يلحقه من الفضل بكماله. وقد قال الرِّيَاشيِّ: يقال إنَّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يتمثَّل بهذا الشعر:

**وحاجةٍ دون أخرى قد سنحْتَ لها … جَعَلْتَها للتي أخفيْتَ عنوانا**
**وإنني لأرَى مَنْ لا حياءَ له … ولا أمانةَ وَسطَ القَوْم عُرْيانا**

## الفصل الرابع

## في الحلم والغضب

رَوَى محمد بن حارث الهلاليّ، أنَّ جبريل نزل على النبيِّ ﷺ، فقال: يا محمَّد، إني أتيتك بمكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩)[1]. وروى سفيان بن عيينة أن النبيَّ ﷺ حين نزلت هذه الآية: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. قال: **«يا جبريل، ما هذا؟ قال: لا أدري حتى أسألَ العالِمَ، ثم عاد جبريلُ وقال: يا محمد، إنَّ ربك**

---

(١) لم أصل إليه.

**يأمرك أن تصلَ من قطعَكَ، وتعطي من حَرَمَكَ، وتعفوَ عمن ظلمك»**[1]. وروى هشام عن الحسن: أن النبي ﷺ قال - حين نزلت الآية: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ -: **«أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم؟ كان إذا خرج من منزله قال: اللهم إني قد تصدقت بعرضي على عبادك»**[2]. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن الله تعالى يحب الحليم الحيي، ويبغض الفاحش البذي»**[3]. وقال - عليه الصلاة والسلام -: **«من حلُم سادَ، ومن تفهم ازداد»**. وقال بعض العلماء: الحلم أرفع من العقل؛ لأن الله تسمى بالحلم، ولم يتسمَّ بالعقل. وقال بعض الأدباء: من غرس شجرة الحلم، اجتنى شجرة السلم. وقال بعض البلغاء: ما ذَبَّ عن الأعراض كالصفح والإعراض. وقال بعض الشعراء:

**أحبُّ مكارمَ الأخلاق جُهْدِي ... وأكره أن أعيبَ وأن أُعابا**
**وأصفَحُ عن سِبابِ النَّاس حلْمًا ... وشرُّ النَّاس من يَهْوَى السِّبابا**
**وَمَن هابَ الرِّجالَ تهيَّبُوه ... وَمَن حَقَرَ الرِّجالَ فلن يُهابا**

فالحلم من أشرف الأخلاق، وأحقِّها بذوي الألباب؛ لما فيه من سلامة العِرض، وراحة الجسد، واجتلاب الحمد. وقد قال علي بن أبي طالب - كرّم الله وجهه -: أوّل عِوض الحليم عن حِلمه، أنّ الناس أنصارُه.

**وحدُّ الحلْم**: ضبطُ النفس عند هيجان الغضب، وهذا يكون عن باعث وسبب.

**وأسباب الحلْم الباعثة على ضبط النفس عشرة:**

أحدها - **الرحمة للجهال**، وذلك من خيرٍ يوافق رِقَّةً، وقد قيل في منثور الحكم: من أوكد أسباب الحلم رحمةُ الجهال. وقال أبو الدَّرداء رضي الله عنه لرجل أسمعه كلامًا: يا هذا، لَا تُغْرِقَن في سبِّنا، ودَعْ للصلح موضعًا؛ فإنا لا نكافئ من عصى الله فينا، بأكثر مِنْ أنْ نطيعَ الله فيه. وشتم رجل الشعبيَّ، فقال: إن كُنْتُ كما

---

(١) ذكره ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٣٠٦)، وقال: رواه الطبراني مرسلاً وابن مردويه موصولاً من حديث جابر: «لما نزلت: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾. سأل جبريل فقال: لا أعلم حتى أسأله، ثم رجع فقال: إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي..إلخ، الحديث.

(٢) أخرجه الديلمي في «الفردوس» (١/ ٣٩٥).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٩٦) (١٠٤٤٢).

قلْتَ فغَفَرَ الله لـي، وإن لم أكن كما قلْتَ فغَفَرَ الله لك. واغـتاظت عائشة ﵂ على خادم لهـا، ثم رجعت إلى نفسهـا، فقالت: لله درُّ التقـوى، ما تركتْ لذي غيظ شفـاءً. وقسم معاوية ﵁ قُطُفًا، فـأعطى شيخًا من أهل دمـشق قطيفة فلم تعجبه؛ فحلف أن يضرب بها رأسَ معـاوية، فأتاه فأخبره، فقال له معاوية: أوفِ بنذرك، وليرفُقِ الشيخُ بالشيخ.

والثاني من أسبابه- **القدرة على الانتصار**، وذلك من سعة الـصدر، وحسن الثقة. وقـد روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«إذا قدرت على عدوك، فاجعل العفو عنه شكرًا للقدرة عليه»**[(1)]. وقال بعض الحكماء: ليس من الكرم عقوبة من لا يجد امتناعًا من السطوة. وقال بعض البلغاء: أحسن المكارم عفو المقتدر، وجُود المفتقر.

والثـالث من أسـبـابه- **الترفُّع عن السِّبـاب**، وذلك من شـرف النفس، وعلوِّ الهمَّة، كما قالت الحكماء: شرف النفس أن تحمل المكاره، كما تحمل المكارم. وقد قيل: إن الله تعالى سمى يحيى ـ عليه السلام ـ سيِّدًا؛ لحلمه. وقد قال الشاعر:

**لا يبلـغ المجـد أقـوامٌ وإن كـرمـوا ... حـتـى يذلوا ـ وإن عـزُّوا ـ لأقـوام**

**ويُشـتَـمـوا فَـتَـرَى الألوانَ مُـسْـفـرةً ... لا صَـفْـحَ ذُلٍّ ولكن صـفـح أحـلام**

والرابع من أسـبـابه- **الاسـتـهـانة بالمسيء**، وذلك عن ضـرب مـن الكبـر والإعجـاب، كما حُكي عن مُـصْعَب بن الزبير: أنه لما وَلِيَ العـراق، جلَسَ يومًا لعطاء الجند، وأمـر منادِيَه فنـادَى: أين عمـرو بن جُـرْمـوز؟ وهو الذي قـتل أباه الزبير، فقيل له: أيها الأمير، إنه قد تباعد في الأرض، فقال: أَوَ يظنُّ الجاهل أنِّي أُقِيـده بأبي عبـد الله، فليظهر آمنًا، وليـأخذ عطاءه مـوفَّرًا. فعـدَّ النَّاسُ ذلك من مستحسن الكِبْر. ومثل ذلك قولُ بعض الزعماء في شعره:

**أوَ كـلـمـا طـنَّ الـذُّبـابُ طـردْتُـه ... إنَّ الـذُّبـابَ إذَنْ عَـلـيَّ كـريم**

وأكثرَ رجلٌ من سب الأحنف وهو لا يجيبه، فقال: والله ما منعه من جوابي إلا هواني عليه. وفي مثله يقول الشاعر:

---

(1) لم أصل إليه.

نجـــا بك لؤمُك مَنْجَى الذُّبابِ      حَــمَــتْـــه مــقـــاذيرُه أن يُنَالا

وأسمع رجلٌ ابنَ هبيرة، فأعرض عنه، فقال له الرجل: إياك أعني، فقال له: وعنك أُعرِض. وفي مثله يقول الشاعر:

فــاذهب فــأنت طليقُ عِـرْضك إنَّه      عِـــرضٌ عَـــزَزْتَ به وانت ذليلُ

وقال عمرو بن علي:

إذا نطق الســفـيــه فـلا تجـبْـهُ      فــخـيــرٌ من إجـابتـه السكوتُ

سكَتُّ عن الســفــيــه فظن اني      عَـيِـيتُ عن الجـواب ومـا عـيـيتُ

والخامس من أسبابه - **الاستحياء من جزاء الجواب**، وهذا يكون من صيانة النفس، وكمال المروءة. وقد قـال بعض الحكماء: احتمال السفيـه خير من التحلِّي بصورته، والإغضاء عن الجاهل خير من مـشاكلته. وقال بعضُ الأدباء: ما أفحشَ حليمٌ، ولا أوحش كريم. وقال لَقيط بن زُرَارة:

وقُلْ لبني سـعـدٍ فـمـا لي ومـا لكُم      تُرقّـون منِّي مـا اسـتَطَعْتُ وأُعْـتقُ

أغـــرَّكُمُ اني بأحــسن شــيــمــةٍ      بصــيــرٌ واني بالفــواحش أخــرقُ

وإنْ تكُ قـد فـاحـشْـتَني فـقـهـرتني      هنيـئًـا مـريئًـا انت بالفـحش احـذَقُ

والسـادس من أسبـابه - **التـفـضل على السـاب**، فهـذا يكون من الكرم، وحبِّ التألف، كما قيـل للإسكندر: إن فلانًا وفلانًا ينقِّصانك ويَثْلبانك، فلو عاقـبتهما، فقال: هما بعد العقوبة أعذر في تنقصي وثَلْبي، فكان هذا تفضُّلاً منه وتألُّفًا. وقد حكي عن الأحنف بن قـيس أنه قال: مـا عاداني أحـد قطُّ، إلا أخذْت فـي أمره بإحدى ثلاث خصـال: إن كان أعلى مني عرفت له قـدره، وإن كان دوني رفعت قدري عنه، وإن كان نظيري تفضَّلْت عليه، فأخذه الخليل، فنظمه شعرًا، فقال:

سـألْزِمُ نفسي الصفح عن كل مذنبٍ      وإن كـــثـــرت منـه إليَّ الجـــرائمُ

فـــمـــا النـاس إلا واحــد من ثلاثةٍ      شــريف ومــشـروف ومِـثـلٌ مـقــاومُ

فـأمـا الذي فـوقي فـأعـرف قـدرهُ      واتْبَـعُ فـــيـــــه الحقَّ والحقّ لازمُ

وأمـــا الذي دوني فـــأحلُم دائبًـــا      أصـــونُ به عـــرضي وإن لام لائمُ

وأمـا الذي مـثلي فـإن زلَّ أو هَفـا      تفـضَّلتُ إن الفـضل بالفـخـر حـاكمُ

والسابع من أسبابه- **استكفاف السابّ، وقطع السِّباب**، وهذا يكون من الحزم، كما حكي أن رجلاً قال لضرار بن القعقاع: والله لو قلت واحدة لسمعْت عشرًا، فقال له ضرار: والله لو قلتَ عشرًا لم تسمعْ واحدة. وحكي أن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - قال لعامر بن مرة الزُّهري: من أحمق الناس؟ قال: من ظنَّ أنه أعقل الناس، قال: صدقْتَ، فمن أعقل الناس؟ قال: من لم يتجاوز الصَّمْتَ في عقوبة الجُهَّال. وقال الشعبيُّ: ما أدركتُ أمي فأبرَّها، ولكن لا أسب أحدًا فيسبَّها. وقال بعض الحكماء: في إعراضِك صون أعراضِك. وقال بعضُ الشعراء:

**وفي الحلم رَدْعٌ للسفيه عن الأذى ... وفي الخرق إغراء فلا تَكُ أخرقا**

**فتندم إذ لا تنْفَعَنْك ندامةٌ ... كما ندم المغبون لما تفرَّقا**

وقال آخر:

**قل ما بدا لك من زور ومن كذبِ ... حلمي أصمُّ وأذني غيرُ صمَّاءِ**

والثامن من أسبابه- **الخوف من العقوبة على الجواب**، وهذا يكون من ضعف النفس، وربما أوجبه الرأي، واقتضاه الحزم، وقد قيل في منثور الحكم: الحلم حجابُ الآفات. وقال الشاعر:

**ارفُق إذا خِفت من ذي هفوة خُرُقًا ... ليس الحكيمُ كمن في أمره خُرُق**

والتاسع من أسبابه- **الرعاية ليد سالفة، وحرمة لازمة**، وهذا يكون من الوفاء، وحسن العهد، وقد قيل في منثور الحكم: أكرم الشيَم أرعاها للذمم. وقال الشاعر:

**إنَّ الوفاء على الكريم فريضة ... واللؤم مقرون بذي الإخلافِ**

**وترى الكريم لمن يعاشر منصفًا ... وترى اللئيم مجانب الإنصاف**

والعاشر من أسبابه- **المكرُ، وتوقُّع الفرص الخفية**، وهذا يكون من الدهاء. وقد قيل في منثور الحكم: من ظهر غضبه قلَّ كيده. وقال بعض الأدباء: غضب الجاهل في قوله، وغضب العاقل في فعله. وقال بعض الحكماء: إذا سكتَّ عن الجاهل فقد أوسعته جوابًا، وأوجعته عقابًا. وقال إياس بن قتادة:

**تعاقب أيدينا ويحلم رأينا ... ونشتم بالأفعال لا بالتكلُّم**

وقال بعض الشعراء:

**ولَلَكفُّ عن شتم اللئيم تكرُّمًا ... أضرُّ له من شتمه حين يُشتمُ**

فهذه عشرة أسباب تدعو إلى الحِلْم، وبعض الأسباب أفضل من بعض، وليس إذا كان بعض أسبابه مفضولاً به، ما يقتضي أن تكون نتيجته من الحلم مذمومة، وإنما الأَوْلى بالإنسان أن يدعوه للحلم أفضلُ أسبابه، وإن كان الحلم كله فضلاً، وإن عَرِيَ عن هذه الأسباب كان ذلاً، ولم يكن حلمًا؛ لأننا قد ذكرنا في حد الحلم أنه ضبط النفس عند هيجان الغضب، فإذا فقد الغضب لسماع ما يغضب، كان ذلك من ذُلِّ النفس، وقلَّة الحميَّة. ولذلك قالت الحكماء: ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة مواطن؛ لا يُعرف الجواد إلاَّ في العُسرة، والشجاع إلاَّ في الحرب، والحليم إلاَّ في الغضب. وقال الشاعر:

**ليست الأحلام في حال الرِّضا ... إنما الأحلامُ في حال الغضبْ**

وقال آخر:

**من يدَّعي الحلم أَغْضِبْهُ لتعرفهُ ... لا يُعرف الحلم إلاَّ ساعةَ الغضبِ**

وأنشد النابغة الجعديّ بحضرة رسول الله ﷺ:

**ولا خير في حلم إذا لم يكن له ... بوادرُ تحمي صفوهُ أن يُكدَّرا**

**ولا خير في جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا**

فلم ينكر ﷺ قوله عليه. ومن فقد الغضب في الأشياء المغضبة، حتى استوت حالتاه قبل الإغضاب وبعده، فقد عَدِم من فضائل النفس الشجاعةَ والأنفةَ والحميةَ والغيرةَ والدفاع والأخذ بالثأر؛ لأنها خصال مركَّبة من الغضب، فإذا عدمها الإنسان هان بها، ولم يكن لباقي فضائله في النفوس موضع، ولا لوفور حلمه في القلوب موقع، وقد قال المنصور: إذا كان الحلم مَفْسَدةً كان العفو مَعْجزةً[1]. وقال بعض الحكماء: العفو يُفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم. وقال عمرو بن العاص: أكرموا سفهاءكم؛ فإنهم يَقُونكم العار والشَّنار. وقال مصعب بن الزبير: ما قلَّ سفهاء قومٍ إلا ذلُّوا. وقال أبو تمام الطائي:

---

(١) أي عجزًا.

والحرب تَرْكَبُ رأسها في مشهدٍ   عُدِلَ السفيهُ به بألفِ حليمِ

وليس هذا القول إغراءً بتحكيم الغضب، والانقياد إليه عند حدوث ما يغضب، فيكسب بالانقياد للغضب من الرذائل أكثر مما يسلبه عدم الغضب من الفضائل، ولكن إذا ثار به الغضب عند هجوم ما يغضبه، كف سَوْرته بحزمه، وأطفأ ثائرته بحلمه، ووكَلَ من استحق المقابلة إلى غيره، ولن يعدم مسيءٌ مكافئًا، كما لن يعدم محسنٌ مجازيًا. والعرب تقول: دخل بيتًا ما خرج منه. أي إن خرج منه خيرٌ دخلَه خير، وإن خرج منه شرٌّ دخله شرّ. وأنشد ابن دُريد عن أبي حاتم:

إذا أمن الجهالُ جهلَك مرةً   فعرضك للجهال غُنْمٌ من الغُنْمِ
فعُمَّ عليه الحلْمَ والجهلَ والْقَهُ   بمنزلةٍ بين العداوة والسِّلْمِ
إذا أنت جاريْتَ السَّفيه كما جرى   فأنت سفيه مثله غيرُ ذي حِلْمِ
ولا تَعْضِبَنْ عِرْضَ السفيه وداره   بحلم فإن أعيا عليك فبالصُّرْمِ(١)
فيرجوك تاراتٍ ويخشاك تارةً   ويأخذ فيما بين ذلك بالحزمِ
فإن لم تجد بُدًا من الجهل فاستعنْ   عليه بجُهَّالٍ فذاك من العَزْمِ

وهذه من أحكم أبيات وجدتها في تدبير الحِلْم والغضب. وهذا التدبير إنَّما يستعمَل فيما لا يجد الإنسان بدًا من مقارنته، ولا سبيل إلى اطراحه ومتاركته؛ إما لخوف شرِّه، أو للزوم أمره؛ فأما مَنْ أمكن اطراحه، ولم يضر إبعاده، فالهوانُ به أولى، والإعراض عنه أصوب، فإذا كان على ما وصفت استفاد بتحريك الغضب فضائله، وأمن بكف نفسه عن الانقياد له رذائله، وصار الحلم مدبرًا للأمور المغضبة، بقدر ما يعتريه نقص بعدم الغضب، ولا يلحقه زيادة بفقد الحلم، ولو عَزَبَ عنه الحلم حتى انقاد لغضبه، ضل عنه وجه الصواب فيه، وضعف رأيه عن خبرة أسبابه ودواعيه، حتى يصير بليدَ الرأي، مغمور الرويَّة، مقطوع الحجة، مسلوب العزاء، قليل الحيلة، مع ما يناله من أثر ذلك في نفسه وجسده، حتى يصير أضر عليه مما غضب له. وقد قال بعض الحكماء: من كثر شططه كثر غلطه.

(١) العضب: هو الطعن. الصرم: القطع، يريد الشدة والحزم في معاملة السفيه.

وروي أن سلمان قال لعليّ ﷺ: ما الذي يباعدني عن غضب الله - عزّ وجلّ -؟ قال: ألاّ تغضب. وقال بعض السلف: أقرب ما يكون العبد من غضب الله - عزّ وجلّ - إذا غضبَ. وقال بعض البلغاء: من ردّ غضبه، هدّ من أغضبه. وقال بعضُ الأدباء: ما هيّجَ جأشك[1] كغيظ أجاشك. وقال رجل لبعض الحكماء: عظني، قال: لا تغضب. فينبغي لذي اللُّبِّ السَّويّ، والحَزْمِ القويّ، أن يتلقّى قوّة الغضب بحلمه فيصدّها، ويقابلَ عواديَ شرّته بحزمه فيردّها، ليحظَى بانجلاء الحَيْرة، ويسعَدَ بحميد العاقبة. وقال بعَض الأدباء: في إغضائك راحة أعضائك.

وسببُ الغضب هجومُ ما تكرهه النفسُ ممن دونها؛ وسببُ الحزن هجومُ ما تكرهه النفسُ ممن فوقها، والغضبُ يتحرك من داخل الجسد إلى خارجه، والحزن يتحرّك من خارج الجسد إلى داخله، فلذلك قَتَلَ الحزنُ ولم يقتل الغضبُ؛ لبروز الغضب، وكُمون الحزْن؛ وصار الحادث عن الغضب السَّطْوةُ والانتقام لبروزه، والحادثُ عن الحزن المرضُ والأسقام لكُمونه، ولذلك أفضى الحزن إلى الموت، ولم يفضِ إليه الغضب؛ فهذا فرق ما بينَ الحزن والغضب.

واعلم، أن لتسكين الغضب - إذا هجم - أسبابًا، يُستعان بها على الحلم: منها: أن يذكر الله - عزّ وجلّ -، فيدعوه ذلك إلى الخوف منه، يبعثه الخوف منه على الطاعة له، فيرجع إلى أدبه ويأخذ بندبه، فعند ذلك يزول الغضب. قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ (الكهف: ٢٤). قال عكرمة: يعني إذا غضبت. وقال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ (الأعراف: ٢٠٠).

ومعنى قوله: يَنْزَغَنَّكَ: أي يغضبنك، فاستعذ بالله، ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ يعني أنه سميع بجهل مَن جهلَ، عليمٌ بما يُذْهِبُ عنك الغضبَ.

وذكر أنّ في التوراة مكتوبًا: يا بْنَ آدم، اذكرني حين تغضبُ، أذكركَ حين أغضبُ، فلا أمحقك فيمن أمحَق. وحُكي أنّ بعض ملوك الفرس كتب كتابًا، ودفعه إلى وزير له، وقال: إذا غضبتُ فناولْنيه، وكان فيه: ما لكَ والغَضَبَ، إنما أنت بشر، ارحم مَنْ في الأرض يرحمْكَ من في السماء. وقال بعضُ الحكماء: مَن ذكر قدرة الله لم يستعملْ قدرته في ظلم عباد الله. وقال عبد الله بن مسلم بن

(١) الجاش: هو القلب أو النفس.

محارب لهارون الرشيد: يا أمير المؤمنين، أسألكَ بالذي أنتَ بين يديه أذلُّ مني بين يديك، وبالذي هو أقدرُ على عقابك منك على عقابي، لَمَا عَفَوْتَ عنِّي، فعفا عنه لَمَّا ذكَّره قدرة الله تعالى عليه.

ورُوي «أنَّ رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ القَسْوةَ، فقال: **«اطَّلع في القبور، واعتبر بالنشور»**[1]. وكان بعضُ ملوك الطوائف إذا غضب، أُلْقي عنده مفاتيحُ تُرب الملوك، فيزول عنه غضبه. ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مَن أكثرَ من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير.

**ومنها: أن ينتقل عن الحالة التي هو فيها إلى حالةٍ غيرها،** فيزولَ عنه الغضبُ بتغيُّر الأحوال، والتنقُّلِ من حالٍ إلى حال، وكان هذا مذهبَ المأمون إذا غضبَ أو شتم، وكانت الفرس تقول: إذا غضب القائمُ فليَجْلِسْ، وإذا غضبَ الجالس فلْيَقُمْ.

**ومنها: أن يتذكَّر ما يؤول إليه الغضبُ مِن النَّدم، ومَذمة الانتقام.**

كتب أبرويز إلى ابنه شيرويه: إنَّ كلمةً منك تسفكُ دمًا، وإنَّ أخرى منك تَحقِن دمًا، وإنَّ نفاذ أمرك مع ظهور كلامك، فاحترس في غضبك من قولك أن تخطئ، ومن لونك أن يتغيَّر، ومن جسدك أن يخفَّ؛ فإنَّ الملوك تعاقبُ قدْرةً، وتعفو حلمًا. وقال بعضُ الحكماء: الغضبُ على مَن لا تملك عجزٌ، وعلى من تملك لؤم. وقال بعض الأدباء: إيَّاك وعزَّةَ الغضب؛ فإنَّها تُفْضي إلى ذلِّ العذر. وقال بعض الشعراء:

**وإذا ما اعترَتْكَ في الغَضَبِ العزَّةُ ... فاذْكُرْ تذلُّلَ الاعتذارِ**

**ومنها: أن يذكرَ ثوابَ العفو،** وجزاء الصفح، فيقهر نفسه على الغضب، رغبةً في الجزاء والثواب، وحذرًا من استحقاق الذَّمِّ والعقاب. رُوي عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: **«ينادي منادٍ يوم القيامة: مَنْ له أجر على الله - عزَّ وجلَّ - فليقم، فيقوم العافون عن الناس**، ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (الشورى: ٤٠)[2]. وقال رجاء بن حَيْوة لعبد الملك بن مروان في أسارى ابن

(١) أورده الديلمي في «الفردوس» (١٧٦٧) (١/ ٤٣٤) بلفظ قريب ولم أقف عليه بلفظه.
(٢) أخرجه ابن حجر في «لسان الميزان» (٥٩ ١٠).

الأشعث: إن الله تعالى قد أعطاك ما تحبُّ من الظفر، فأعطِ الله ما يحبُّ من العفو. وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«الخيرُ ثلاثُ خصالٍ، مَن كُنَّ فيه فقد استكمل الإيمان؛ مَن إذا رضي لم يُدخلْه رضاه في باطلٍ، وإذا غضِبَ لم يخرِجْه غضبُه من حقٍّ، وإذا قدرَ عفا»**[1].

وأسمَعَ رجلٌ عُمَرَ بن عبد العزيز كلامًا، فقال عمر: أردتَ أن يستفزَّني الشيطان؛ لعزَّة السلطان، فأنالُ منك اليوم ما تناله منِّي غدًا، انصرفْ رحمك الله.

**ومنها: أن يذكر انعطافَ القلوب عليه**، وميلَ النُّفوسِ إليه، فلا يرى إضاعَةَ ذلك بتنفير الناس عنه، وبعدهم منه، فيكفّ عن متابعة الغضب، فيرغب في التألُّف وجميل الثناء. رَوَى ابنُ أبي ليلى، عن عطية، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما ازداد أحد بعفوٍ إلاَّ عزًّا، فاعفوا يُعزِّكم الله»**[2]. وقال بعضُ البلغاء: ليس مِن عادة الكرام سرعةُ الانتقام، ولا مِن شروط الكرم إزالةُ النعم.

وقال المأمون لإبراهيم بن المهديّ: إنِّي شاورت في أمرك، فأشاروا عليَّ بقتلك، إلاَّ أنِّي وجدتُ قدرك فوقَ ذنبك، فكرهْت القتْلَ للازم حُرْمتك.

فقال: يا أمير المؤمنين، إن المشير أشار بما جَرَتْ به العادة في السياسة، إلاَّ أنك أبيتَ أن تطلبَ النَّصْر إلاَّ من حيثُ عُوِّدْتَه من العفو، فإن عاقبتَ فلكَ نظيرٌ، وإن عفَوتَ فلا نظيرَ لك، وأنشأ يقول:

| | |
|---|---|
| **البِرُّ بي منك وطَّا العذرَ عندكَ لي** | **فيما فعلتُ فلم تعذل ولم تلمِ** |
| **وقام علمُك بي فاحتجَّ عندك لي** | **مقامَ شاهدٍ عَدْلٍ غيرِ مُتَّهَمِ** |
| **لئن جحدْتُكَ معروفًا مننتَ به** | **إنِّي لفي اللؤم أحظى منك بالكرمِ** |
| **تعفو بعدلٍ وتسطو إنْ سَطَوْتَ به** | **فلا عدمتُكَ مِن عافٍ ومنتقمِ** |

---

(١) نقل في «شرح الجامع الصغير» عن الحافظ الهيثمي قوله: فيه بشر بن الحسين، وهو كذاب، فكان ينبغي للمصنف حذفه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢٢٧٠).

## الفصل الخامس

# في الصدق والكذب

قال الله تعالى وهو أصدقُ القائلين: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٦١). وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (النحل: ١٠٥). ورُوي عن النبيِّ ﷺ، أنه قال للحسن بن عليِّ رضي الله عنهما: «دَعْ ما يُريبك إلى ما لا يُريبك؛ فإنَّ الكذبَ ريبة، والصِّدق طُمأنينة»[١]. وروي عنه ﷺ أنه قال: «رَحِمَ الله امرءًا أصلح من لسانه، وأقصر من عنانه، وألزم طريقَ الحقِّ مِقْوَلَه[٢]، ولم يعوِّد الخَطَل مِفصَلَه»[٣]. وروى صفوان بن سليم قال: قيلَ للنبيِّ ﷺ: أيكون المؤمن جبانًا؟ قال: «نعم»، قيل: أفيكون بخيلاً؟ قال: «نعم»، قيل: أفيكون كذابًا؟ قال: «لا»[٤].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ (البقرة: ٤٢). أي لا تخلطوا الصِّدق بالكذب. وقيل في منثور الحكم: الكذَّاب لص؛ لأنَّ اللصَّ يسرِقُ مالك، والكذَّاب يسرق عقلك. وقال بعضُ الحكماء: الخَرَسُ خيرٌ من الكذب، وصدْقُ اللسان أوَّلُ السَّعادة. وقال بعضُ البلغاء: الصادق مصان جليل، والكاذب مُهان ذليل. وقال بعضُ الأدباء: لا سيفَ كالحقِّ، ولا عونَ كالصدق وقال بعض الشعراء:

وما شيءٌ إذا فكَّرْتَ فيه ... بأذهبَ للمروءة والجمالِ
من الكذبِ الذي لا خيرَ فيه ... وأبعد بالبهاء من الرِّجالِ

والكذبُ جماعُ كُلِّ شرٍّ، وأصلُ كُلِّ ذمٍّ، لسوء عواقبه، وخبث نتائجه؛ لأنه يُنتج النَّميمة، والنَّميمة تنتج البغضاء، والبغضاء تؤول إلى العداوة، وليس مع العداوة أمنٌ ولا راحة، ولذلك قيل: مَن قَلَّ صِدْقُه قلَّ صديقُه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٨)، وصححه الألباني، وانظر «الإرواء» (١٢).
(٢) المقول: اللسان.
(٣) لم أصل إليه. الخطل: الكلام الفاسد أو الفاحش، والمفصل: اللسان.
(٤) أخرجه مالك «الموطأ» (١٧٩٥)، عن صفوان بن سليم.

والصدْقُ والكذب يدخلان الأخبارَ الماضية، كما أنَّ الوفاء والخُلْفَ يدخلان المواعيدَ المستقبلة؛ فالصِّدق هو الإخبار عن الشيء على ما هو عليه، والكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه، ولكلٍّ واحد منهما دواعٍ؛ فدواعي الصِّدق لازمة، ودواعي الكذب عارضة؛ لأنَّ الصدق يدعو إليه عقلٌ موجبٌ، وشرعٌ مؤكِّدٌ؛ فالكذب يمنع منه العقل، ويصدُّ عنه الشرع؛ ولذلك جاز أن تستفيض الأخبار الصادقة؛ حتى تصيرَ متواترةً، ولم يجز أن تستفيض الأخبارُ الكاذبة؛ لأنَّ اتفاق الناس في الصدق والكذب إنما هو لاتفاق الدواعي، فدواعي الصِّدْق يجوز أن يتفق الجَمْعُ الكثير عليها، حتى إذا نقلوا خبرًا، وكانوا عددًا ينتفي عن مثلهم المواطأة، وقع في النفس صدقه؛ لأنَّ الدواعي إليه نافعة، واتفاقُ الناس في الدواعي النافعة ممكن، ولا يَجوز أن يتفق العددُ الكثير الذي لا يمكن مواطأة مثلهم على نقلِ خبر يكون كذبًا؛ لأنَّ الدواعيَ إليه غيرُ نافعة، وربما كانت ضارَّة؛ وليس في جاري العادة أن يتفق الجمعُ الكثير على دواعٍ غيرِ نافعة؛ ولذلك جاز اتفاق الناس على الصِّدق؛ لجواز اتفاق دواعيهم، ولم يجز أن يتفقوا على الكذب لامتناع دواعيهم. وإذا كان للصدق والكذب دواعٍ، فلابدَّ من ذكر ما سنح به الخاطر من دواعيهما.

أما دواعي الصدق: **فمنها العقل**؛ لأنه موجبٌ لقبْح الكذب، لاسيما إذا لم يجلبْ نفعًا، ولم يدفَعْ ضررًا. والعقل يدعو إلى فعلِ ما كان مستحسنًا، ويمنع من إتيانَ ما كان مستقبحًا، وليس ما استحسنَ من مبالَغات الشعراء حتى صارت كذبًا صراحًا، استحسانًا للكذب في العقل، كالذي أنشدنيه الأزدي لبعض الشعراء:

| | |
|---|---|
| **توهَّمه فِكْري فأصبحَ خَدُّه** | **وفيه مكانَ الوَهْمِ من فِكرتي أثْرُ** |
| **وصافحه كفِّي فآلم كَفَّه** | **فَمِنْ لَمْسِ كَفِّي في أنامله عَقْرُ** |
| **ومرَّ بقلبي خاطرًا فجرحته** | **لم أرَ شيئًا قطُّ يجرحه الفِكْرُ** |

وكقول العبَّاس بن الأحنف، وإن كان دون هذه المبالغة:

| | |
|---|---|
| **تقولُ وقد كتبْتُ دَقيقَ خَطِّي** | **إليها لم تجنَّبْتَ الجَليلاَ** |
| **فقلْتُ لها نَحِلْتُ فصار خطِّي** | **مساعدةً لكاتبه نحيلاَ** |

لأنه خرج مَخْرج المبالغة في التشبيه والاقتدار على صنعة الشعر، وإن شواهد

الحال تخرجه على تلبيس الكذب، فلذلك استُحسن في الصنعة، ولم يستقبَحْ في العقل، وإن كان الكذب مستقبحًا فيه.

**ومنها: الدِّين**؛ الوارد باتباع الصدق وحظر الكذب؛ لأنَّ الشرْع لا يجوز أن يَرِد بإرخاص ما حظره العقل، بل قد جاء الشرع زائدًا على ما اقتضاه العقل من حظر الكذب؛ لأنَّ الشرع ورد بحظر الكذب وإن جرَّ نفعًا، أو دَفَعَ ضررًا، والعقل إنما حظر ما لا يجلب نفعًا ولا يدفع ضررًا.

**ومنها: المروءة**؛ فإنَّها مانعة من الكذب، باعثة على الصدق؛ لأنَّها قد تمنع من فعل ما كان مستكرهًا، فأولى أن تمنع من فعل ما كان مستقبحًا.

**ومنها، حبُّ الثناء والاشتهار بالصدق**؛ حتى لا يُرَدَّ عليه قول، ولا يلحقه ندم، وقد قال بعض البلغاء: ليكن مرجعك إلى الحقِّ، ومنزَعُك إلى الصدق؛ فالحقُّ أقوى معين، والصِّدْقُ أفضل قرين. وقد قال بعض الشعراء:

**عوِّدْ لسانكَ قَوْلَ الصِّدْقِ تحظَ بهِ ... إنَّ اللسانَ لما عوَّدْتَ مُعتادُ**

**مُوَكَّلٌ بتقاضِي ما سَنَنْتَ لَهُ ... في الخير والشرِّ فانْظُرْ كيفَ ترتادُ**

**وأمَّا دواعي الكذبَ: فمنها اجتلاب النفع**، واستدفاع الضرِّ؛ فيرى أنَّ الكذبَ أسلمُ وأغنَم، فيرخص لنفسه فيه اغترارًا بالخُدَع، واستشفاقًا للطَّمع، وربما كان الكذبُ أبعدَ لما يؤمِّل، وأقربَ لما يخاف؛ لأنَّ القبيحَ لا يكون حسنًا، والشرَّ لا يصير خيرًا، وليس يجنى من الشوك العنب، ولا من الكرم الحنظل.

وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**تحرَّوا الصِّدْقَ، وإنْ رأيتم أنَّ فيه الهَلَكة؛ فإنَّ فيه النجاة، وتجنَّبوا الكَذِبَ، وإنْ رأيتم أنَّ فيه النجاة، فإنَّ فيه الهَلَكة**»[1].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لأنْ يضعني الصِّدْق - وقلَّما يضع - أحبُّ إليَّ من أن يرفعني الكذبُ، وقلَّما يفعل. وقال بعضُ الحكماء: الصِّدْقُ منجيك وإنْ خفته، والكذبُ مرديك وإن أمنته. وقال الجاحظ: الصِّدق والوفاء توأمان، والصَّبْر والحلم توأمان، فيهنَّ تمامُ كُلِّ دين، وصلاحُ كُلِّ دنيا، وأضدادهنَّ سببُ كُلِّ فرقة، وأصلُ كُلِّ فساد.

**ومنها: أن يُؤْثِر أن يكون حديثه مستعذبًا**، وكلامه مستظرفًا، فلا يجد صدقًا

---

(١) أخرجه هناد في «الزهد» (٢/ ٦٣٥) (١٣٧٥). عن مجمع بن يحيى.

يَعذُب، ولا حديثًا يستظرف، فيستحليَ الكذبَ الذي ليست غرائبه مُعوزة، ولا طرائفه معجزة. وهذا النوع أسوأ حالاً مما قبل؛ لأنّه يصدُرُ عن مهانة النفس، ودناءة الهمَّة. وقد قال الجاحظ: لم يكذبْ أحدٌ قطٌ إلاَّ لصغر قدر نفسه عنده. وقال ابن المقفَّع: لا تتهاونْ بإرسال الكَذْبة من الهزل؛ فإنَّها تسرع إلى إبطال الحقِّ.

**ومنها: أن يقصَدَ بالكذب التشفِّيَ من عدوِّه،** فيَسَمُه ويصمه بقبائحَ يخترعها عليه، ويصفُه بفضائحَ ينسبُها إليه؛ ويرى أن معرَّة الكذب غُنُمٌ، وأن إرسالها في العدوِّ سَهْمٌ وسمٌ، وهذا أسوأ حالاً من النوعين الأولين؛ لأنَّه قد جمع بين الكذب المُعرِّ(1) والشرِّ المضرِّ، ولذلك ورد الشرع بردِّ شهادة العدوِّ على عدوِّه.

**ومنها:** أن تكون دواعي الكذب قد ترادفَتْ عليه حتى ألِفَها، فصار الكذبُ له عادةً، ونفسُه إليه منقادةً، حتى لو رام مجانبةَ الكذب عَسر عليه؛ لأنَّ العادة طبْعٌ ثان. وقد قالت الحكماء: من استحلى رَضاع الكذب عَسُر فِطامه. وقيل في منثور الحِكَم: لا يلزم الكذب شيء إلا غلب عليه.

**واعلم:** أنَّ للكذَّاب قبل خبرته أمارات دالة عليه:

**فمنها: أنك إذا لقنته الحديث تلقنه،** ولم يكن بين ما لقنته وبين ما أورده فرق عنده.

**ومنها: أنك إذا شكَّكته فيه تشكك،** حتى يكاد يرجع فيه، ولولاك ما تخالجه الشك فيه.

**ومنها: أنك إذا رددت عليه قوله حَصِرَ وارتبك،** ولم يكن عنده نصرة المحتجين، ولا برهان الصادقين. ولذلك قال عليّ بن أبي طالب ـ كرَّم الله وجهه ـ: الكذبُ كالسَّراب.

**ومنها:** ما يظهر عليه من ريبة الكذَّابين، وينمُّ عليه من ذلة المتوهمين؛ لأنَّ هذه أمور لا يمكن الإنسان دفعها عن نفسه لما في الطبع من إثارتها. ولذلك قالت الحكماء: العينان أنمُّ من اللسان. وقال بعضُ البلغاء: الوجوه مرايا تريك أسرارَ البرايا. وقال بعضُ الشعراء:

**تريك أعينُهم ما في صدورهِم ... إنَّ العيونَ يؤدِّي سرَّها النَّظَرُ**

(1) أي الذي فيه إثم.

وإذا اتَّسم بالكذب نُسبت إليه شواردُ الكذبِ المجهـولة، وأضيفتْ إلى أكاذيبه زيادات مفتعلة، حتى يصير الكاذب مكذوبًا عليه، فيجمع بين معرَّة الكذب منه، ومضرَّة الكذب عليه. وقد قال الشاعر:

حَسْبُ الكَذُوبِ من البليّةِ ... بعضُ ما يُحكى عليهْ
فإذا سمِعت بكذْبةٍ ... مِن غيره نُسبَتْ إليهْ

ثم إنه إن تحرَّى الصِّدْقَ اتُّهم، وإن جانبَ الكَذِبَ كُذِّبَ، حتى لا يُعتقدَ له حديثٌ مصدَّق، ولا كذب مستنكر. وقد قال الشاعر:

إذا عُرِف الكذَّاب بالكذْبِ لم يكَدْ ... يُصدَّقُ في شيءٍ وإن كان صادقًا
ومن آفة الكذَّاب نسيانُ كِذْبه ... وتلقاه ذا حِفظٍ إذا كان حاذقًا

وقد وردت السُّنَّة بإرخاص الكذب في الحرب، وإصلاح ذات البَين، على وجه التورية والتأويل، دون التصريح به؛ فإنَّ السنة لا يجوز أن تَردَ بإباحة الكذب؛ لما فيه من التنفير، وإنما ذلك على طريق التورية والتعريض، كما سُئل رسولُ الله ﷺ، وقد تطرَّفَ برداء، وانفرد عن أصحابه، فقال له رجل: ممن أنت؟ قال: من ماء[1]، فورَّى عن الإخبار بنسبه بأمر محتملٍ، فظنَّ السائل أنه عنى القبيلة المنسوبة إلى ذلك، وإنما أراد رسولُ الله ﷺ أنه من الماء الذي يُخلق منه الإنسان، فبلغ ما أحبَّ من إخفاء نفسه، وصدق في خبره.

وكالذي حُكي عن أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، أنه كان يسير خلفَ رسول الله ﷺ، حين هاجر معه، فتلقَّاه العرب وهم يعرفون أبا بكر، ولا يعرفون رسول الله ﷺ، فيقولون: يا أبا بكر مَنْ هذا؟ فيقول: هاد يهديني السبيل، فيظنون أنه يعني هداية الطريق، وهو إنما يريدُ هدايةَ سبيل الخير، فصدق في قوله، وورَّى عن مراده. وقد رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«إن في المعاريض لمندوحةً عن الكذب»**[2].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن في المعاريض ما يكفي أن يَعفَّ الرجلُ عن

---

(١) لم أصل إليه.

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٥٧) وقال الألباني: أثر صحيح، وانظر: «صحيح الأدب المفرد» والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢/١١٩) (١٠١٠)، عن عمران بن حصين.

الكذب. وقال بعضُ أهل التأويل في قوله تعالى: ﴿لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ (الكهف: ٧٣). لم ينس، ولكنه معاريض الكلام. وقال ابن سيرينَ: الكلامُ أوسعُ من أن يُصرَّح فيه بالكذب.

**واعلم:** أنَّ من الصدق ما يقومُ مقامَ الكذب في القبح والمعرَّة، وزيد عليه في الأذى والمَضَرَّة؛ وهي الغيبة، والنميمة، والسعاية.

**فأما الغيبة:** فإنَّها خيانة وهتك ستر، يحدثان عن حسد وغَدْر؛ قال الله تعالى: ﴿وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ (الحجرات: ١٢). يعني أنه كما لا يحل أن يأكل لحم أخيه ميتًا، لا تحل غيبته حيًا. وروي أنَّ امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ، وجعلتا تغتابان الناس، فأُخبر بذلك النبيّ ﷺ، فقال: **«صامتا عمّا أحل لهما، وأفطرتا على ما حُرِّم عليهما»**[1]. وروت أسماء بنت يزيد، قالت: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ ذَبَّ عن لحم أخيه بظهر الغيب، كان حقًا على الله - عزَّ وجلَّ - أن يُحرِّم لحمه على النار»**[2].

وقال عديّ بن حاتم: الغيبة رَعْي اللئام، وكان الحسن البصري - رحمه الله تعالى - يقول: الغيبةُ فاكهة النساء. وقال رجل لابن سيرينَ - رحمه الله -: إني اغتبتك فاجعلني في حلٍّ، فقال: ما أحبُّ أن أحلَّ لك ما حرم الله عليك. وقال ابن السمَّاك: لا تُعِن النَاس على عَيبك بسوء غَيبك. وقال الشاعر:

**لا تلتمِسْ من مَساوي الناس ما سَتَروا ... فيهتكَ الله ستراً عن مساويكا**

**واذكر محاسنَ ما فيهم إذا ذُكروا ... ولا تعِبْ أحداً منهم بما فيكا**

وربما عَذَرَ المغتابُ نفسَه بأنه يقول حقًا، ويُعلِنُ فسقًا، ويستشهد بما رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«ثلاثة ليست غيبتهم بغيبة: الإمام الجائر، وشارب الخمر، والمعلنُ بفسقه»**[3]؛ فيبعد من الصواب، ويجانب الأدبَ؛ لأنه وإن كان بالغيبة صادقًا، فقد هتك سترًا كان بصَونه أولى، وجاهَرَ من أسرَّ وأخفى؛ وربما دعا المغتابَ ذلك إلى إظهار ما كانَ يستره، والمجاهرة بما كان يَضمُرُه، فلم يُفِدْه ذلك إلاَّ فساد أخلاقه، من غير أن يكون فيه صلاحٌ لغيره.

---

(١) لم أقف عليه بلفظه، وبلفظ قريب أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٣/ ١٤٧) عن عبيد.
(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ٤٦١)، عن أسماء بنت يزيد.
(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في «الزهد» (١/ ٢٨٨) عن الحسن.

وقد قيل لأنوشروان: ما الذي لا خير فيه؟ قال: ما ضرَّني ولم ينفعْ غيري، أو ضرَّ غيري ولم ينفعني، فلا أعلم فيه خيرًا.

وقيل في منثور الحكم: لا تبدِ من العيوب ما ستره علاَّمُ الغيوب. وقد روى العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة ﷺ، قال: سُئل رسول الله ﷺ عن الغيبة فقال: **«هي أن تقول لأخيك ما فيه؛ فإن كنتَ صادقًا فقد اغتبته، وإن كنتَ كاذبًا فقد بَهَتَّه»**[1]. وقال عبد الرحمن بن زيد في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ (الحجرات: ١١). إنه استهزاءُ المسلم بمن أعلن بفسقه. ودخلت امرأة على النبي ﷺ تستفتيه، فلما خرجت قالت عائشة ﷺ: يا رسول الله، ما أقصرها! فقال: **«مَهْلاً، إياكِ والغيبةَ»**، فقالت: يا رسول الله، إنما قلْتُ ما فيها. قال: **«أجل، ولولا ذلك لكان بُهتانًا»**[2]. وسئل بعض الأدباء عن صفة اللئيم؟ فقيل: اللئيم إذا غاب عابَ، وإذا حضر اغتابَ. فأما الخبرُ فمحمول على الإنكار لأفعال هؤلاء، ولا يكون الإنكارُ غيبةً؛ لأنه نهي عن منكر، وفرق بين إنكار المجاهر وغيبة المساتر.

**وأمَّا النميمة**: فهي أن تجمع إلى مَذمّة الغيبة رداءةً وشرًا، وتضمّ إلى لؤمها دناءة وغدرًا، ثم تؤول إلى تقاطع المتواصلين، وتباعد المتقاربين، وتباغض المتحابين. وقد رَوَى شَهْرُ بن حَوْشَب، عن أسماء بنت يزيد، عن النبيِّ ﷺ، أنه قال: **«ألا أخبركم بشراركم»**؟ قالوا: بلى يا رسولَ الله، قال: **«مِن شراركم المشَّاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبَّة، الباغون العيوبَ»**[3]. وروى محمد بن عمرو، عن أبي سَلَمة، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ملعونٌ ذو الوجهين، ملعون ذو اللسانين، ملعون كلُّ شغَّار، ملعون كلُّ قتَّات، ملعون كلُّ منَّان»**[4].

الشَّغَّار: المحرِّش بين الناس يُلقي بينهمُ العداوة. والقتَّات: النَّمَّام. وقيل:

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (١١/ ٤٠٥) (٦٥٢٨) عن عبيد.

(٢) لم أقف عليه بلفظه، لكن ورد عن عائشة: «لو مزجت بماء البحر لمزجته». وورد في أبي داود (٤/ ٢٦٩) (٨٧٥)، والترمذي (٤/ ٦٦).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٠٠) (٧٧٠٦)، والحارث في «زوائد الهيثمي» (٢/ ٩٦٧) (١٠٧٠).

(٤) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢٣٣٧).

النمام هو الـذي يكون مع القوم يتحـدَّثون، فينمّ حـديثهم. والقـتَّات: هو الذي يستمع عليهم وهم لا يعلمون، فينم حديثهم. والمنَّان: هو الذي يصنع الخيرَ ويَمُنّ به. وقيل فـي منثور الحكم: النَّمـيمة سـيف قاتل. وقـال بعضُ الأدباء: لم يمش ماشٍ شرٌّ من واشٍ[1].

**فأما السِّعاية**: فهي شرُّ الثلاثة؛ لأنَّها تجمَعُ إلى مَذمّـة الغيبة، ولؤم النَّميمة، التغريرَ بالنفوس والأموال، والقَدْحَ في المنازل والأحوال. ورَوى ابنُ قتيبة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«الجنَّة لا يدخلها دَيُّوث ولا قلاَّع»**[2].

الدَّيوث: هو الذي يجمع بين الرجال والنساء، سُمي بذلك لأنه يُدَيِّثُ بينهم. والقَـلاَّع: هو السـاعي الذي يقع في الناس عند الأمـراء، سُـمي بذلك لأنه يأتي الرجل المتمكن عند الأمير، فلا يزال يقع فيه حتى يَقْلَعه.

وقال بعض الحكمـاء: الساعي بين منزلتين قبـيحتين؛ إمَّا أن يكون قـد صَدَق فقد خـان الأمانة، وإما أن يكون قد كذب فخـالف المروءة. وقال بعضُ الحكماء: الصِّدْق يزين كُلَّ أحدٍ إلا السُّعاة؛ فـإنَّ السَّاعي أذمُّ وآثم ما يكون إذا صَدَق. وقال بعضُ البلغاء: النَّميـمَة دناءةٌ، والسعاية رداءةٌ، وهما رأسُ الغَـدْر، وأساسُ الشرِّ، فتجنَّبْ سُبُلَهـما، واجتنبْ أهلهما. ووقَّع الفضلُ بن سهل على قـصة ساعٍ سعى إليه: نحن نرى قبولَ السِّعاية شرًا منها؛ لأنَّ السعاية دلالة، والقبول إجازة، فاتقوا السَّاعـيَ؛ فإنه إن كان في سـعايتـه صادقًـا، كان في صـدقه آثمًا؛ إذ لم يـحفَظ الحُرْمَةَ، ولم يستُرْ العَوَرةَ. وقال الإسكندر لرجلٍ سعى إليه برجلٍ: أتحبُّ أن نقبل منك ما تقول فيه على أن نقبل منه ما يقول فيك؟ قال: لا. قال: فكُفَّ عن الشرِّ يُكَفَّ عنك الشرّ. ورُويَ أن الله تعـالى أوحى إلى موسى ـ عليـه السلام ـ أنَّ في بلدك سـاعيًـا، ولستُ أمْطرُكَ وهو في أرضك. فقـال: يا رب، دُلَّني عليه حـتى أخرجه. فقال: يا موسى، أكرهُ النَّميمةَ وأنمُّ؟!.

---

(١) الوشاية هي النميمة بكذب.

(٢) أخرجه الطيالسي في «مسنده» (١/ ٨٩) (٦٤٢)، والربيع في «مسنده» (١/ ٢٨٩) (٧٤٣).

## الفصل السادس

# في الحسد والمنافسة

**اعلم:** أنَّ الحسد خُلُقٌ ذميم، مع إضراره بالبدن؛ وإفساده للدِّين، حتى لقد أمر الله تعالى بالاستعاذة من شرّه. فقال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (الفلق: ٥). وناهيك بحال ذلك شرًّا.

ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «**دَبَّ إليكم داءُ الأمم قبلَكم: البغضاءُ والحسد، هي الحالقة؛ حالقةُ الدِّين، لا حالقة الشعر، والذي نفسُ محمَّد بيده، لا تؤمنوا حتى تَحابُّوا، ألا أنبئكم بأمرٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السَّلامَ بينكم**»[(١)].

فأخبر ﷺ بحال الحسد، وأنَّ التحابُب ينفيه، وأنَّ السلام يبعث على التحابب، فصار السلام إذن نافيًا للحسد، وقد جاء كتاب الله تعالى بما يوافق هذا القول، وقال الله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤). حكى مجاهد أنَّ معناه: ادْفَعْ بالسلام إساءة المسيء. وقال الشاعر:

**قد يلبَثُ النَّاس حينًا ليس بينَهمُ ... وُدّ فيزرعه التَّسليمُ واللَّطَفُ**

وقال بعضُ السلف: الحسدُ أوَّلُ ذنب عُصي الله به في السماء، يعني حسد إبليسَ لآدمَ - عليه السلام -؛ وأولُ ذَنْب عُصِيَ الله به في الأرض، يعني حَسَد ابن آدم لأخيه حتى قتلَه. وقال بعضُ الحكماء: مَن رضي بقضاء الله تعالى لم يُسخطْه أحدٌ، ومَن قنعَ بعطائه لم يدخُلْه حسَدٌ. وقال بعضُ البلغاء: الناسُ حاسَدٌ ومحسود، ولكل نعمة حسود.

وقال بعضُ الأدباء: ما رأيتُ ظالمًا أشبه بمظلومٍ من الحسود؛ نَفَس دائمٌ، وهمٌّ لازم، وقلب هائم؛ فأخذه بعضُ الشعراء فقال:

**إن الحسودَ الظَّلومَ في كُرَبٍ ... يخاله مَن يراه مظلومَا**

**ذا نَفَسٍ دائمٍ على نَفَس ... يظهر منها ما كان مكتومَا**

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ١٦٧) (١٤٣٠) عن الزبير بن العوام، والترمذي (٢٥١٠)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ٢٣٢).

ولو لم يكن من ذمّ الحسد إلاّ أنّه خُلُقٌ دنيء، يتوجَّه نحو الأكفاء والأقارب، ويختص بالمخالط والمصاحب، لكانت النزاهة عنه كرمًا، والسَّلامة منه مَغنَمًا، فكيف وهو بالنفس مُضرّ، وعلى الهمّ مُصِرّ، حتى ربما أفضى بصاحبه إلى التلف، من غير نكاية في عدوّ، ولا إضرار بمحسود.

وقد قال معاوية رضي الله عنه: ليس في خصال الشرّ أعدلُ من الحسد، يقتلُ الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود. وقال بعضُ الحكماء: يكفيك من الحاسد أنه يغتمّ في وقت سرورك. وقيل في منثور الحكم: عقوبةُ الحاسد من نفسه. وقال الأصمعيّ: قلت لأعرابي: ما أطولَ عُمرك؟ قال: تركْتُ الحسَدَ فبقيت. وقال رجل لشُريح القاضي: إني لأحسدك على ما أرى من صبرك على الخصوم، ووقوفك على غامض الحُكم. فقال: ما نفعك الله بذلك ولا ضرَّني. وقال عبدُ الله بن المعتزّ:

| | |
|---|---|
| اصبرْ على كيد الحسودِ | فإنّ صبرَكَ قاتلُهْ |
| فالنّارُ تأكلُ بعضَها | إنْ لم تجدْ ما تأكلُهْ |

**وحقيقة الحسد:** شدَّةُ الأسى على الخيرات تكون للناس الأفاضل، وهو غيرُ المنافسة، وربما غلط قومٌ فظنّوا أنّ المنافسة في الخير هي الحسد، وليس الأمر على ما ظنّوا؛ لأنّ المنافسة طلبُ التشبُّه بالأفاضل من غير إدخال ضررٍ عليهم، والحسدُ مصروف إلى الضرر؛ لأنّ غايته أن يعدَم الأفاضل فضلهم، من غير أن يصير الفضل له، فهذا الفرق بين المنافسة والحسد، فالمنافسة إذن فضيلةٌ لأنها داعية إلى اكتساب الفضائل، والاقتداء بالأخيار الأفاضل. وقد رُوي عن النَّبي ﷺ أنه قال: «المؤمنُ يغبطُ، والمنافقُ يحسد»[1]. وقال الشاعر:

| | |
|---|---|
| نافسْ على الخيرات أهلَ العُلا | فإنّما الدُّنيا أحاديثْ |
| كُلُّ امرئٍ في شأنه كادحٌ | فوارثٌ منهم وموروثْ |

واعلم: أن دواعي الحسد ثلاثة:

---

(١) أورده العجلوني «كشف الخفاء» (٢٦٩٤)، وهو من كلام الفضيل، وقال في «المصنوع» (١٥٦/١)، رقم (٢٦٨)، حديث: «المؤمن يغبط والمنافق يحسد» هو من كلام الفضيل.

**أحدها** - بُغْضُ المحسود، فيأسَى عليه بفضيلة تظهر، أو مَنْقبَة تُشكَر، فيثير حسدًا قد خامر بُغضًا، وهذا النوع لا يكون عامًّا وإن كان أضرَّها؛ لأنه ليس يُبغضُ كُلَّ الناس.

**والثاني** - أن يظهر من المحسود فضلٌ يعجز عنه الحاسد فيكره تقدُّمَه فيه، واختصاصه به، فيثير ذلك حسدًا لولاه لكَفَّ عنه، وهذا أوسطُها؛ لأنَّه لا يحسد الأكفاءَ ومن دنا، وإنما يختص بحسد مَن علا، وقد يمتزج بهذا النوع ضربٌ من المنافسة، ولكنَّها مع عجز، فلذلك صارت حسدًا.

**والثالث** - أن يكونَ في الحاسد شُحٌّ بالفضائل، وبُخْلٌ بالنِّعم، وليست إليه فيَمنَعَ منها، ولا بيده فَيَدْفع عنها، لأنَّها مواهب قد مَنَحها الله مَن شاء، فيسخط على الله - عزَّ وجلَّ - في قضائه، ويحسد على ما منح من عطائه، وإن كانت نعم الله - عزَّ وجلَّ - عنده أكثرَ ومنَحه عليه أظهرَ. وهذا النوع من الحسد أعمُّها وأخبثُها؛ إذ ليس لصاحبه راحة، ولا لرضاه غاية؛ فإن اقترن بشرٍّ وقدرة، كان بُورًا[1] وانتقامًا، وإن صادف عجزًا ومَهانةً كان جَهدًا وسقامًا. وقد قال عبدُ الحميد: الحسود مِن الهمِّ كساقي السّمِّ، فإذا سَرَى سمُّه، زال عنه همُّه.

**واعلم**: أنه بحسب فضلِ الإنسان، وظهور النعمة عليه، يكون حَسَدُ الناس له؛ فإنْ كثُر فضلُه كثر حسَّاده، وإنْ قلَّ قلُّوا؛ لأنَّ ظهور الفضل يثير الحسد، وحدوث النعمة يضاعف الكَمَد، ولذلك قال النبيُّ ﷺ: **«استعينوا على قضاء الحوائج بسترها، فإنَّ كُلَّ ذي نعْمَةٍ محسود»**[2]. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما كانت لله على أحد نعمة إلاَّ وَجد لها حاسدًا. ولو كان الرجل أقومَ من القِدْح[3] لما عَدِم غامزًا، وقد قال الشاعر:

**إن يحسدوني فإنِّي غيرُ لائمهم ... قبلي مِن الناس أهل الفضلِ قد حُسِدوا**

**فدام لي ولهم ما بي وَما بِهِمُ ... وماتَ أكثرُنا غيظًا بما يجدُ**

---

(١) أي هلاكًا.

(٢) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٧٠٨) (١/ ٤١٢) عن معاذ بن جبل.

(٣) القِدح قطعة من الخشب تُعمل مستقيمة، وكان العرب في جاهليتهم يستعملون القداح في الميسر ونحوه.

وربما كان الحسد منبّهًا على فضل المحسود ونقص الحسود، كما قال أبو تمام الطائي:

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طُويَتْ أتاح لها لسانَ حسودِ

لولا اشتعال النار فيما جاورَتْ ... ما كان يُعرفُ طيبُ عَرْفِ العُودِ

لولا التخوُّف للعواقب لم يزلْ ... للحاسدِ النُّعمى على المحسودِ

فأما ما يستعمله مَنْ كان غالبًا عليه الحسد، وكان طبعه إليه مائلاً، لينتفي عنه ويُكفاه، ويسلم من ضرره وعَدْواه، فأمور هي له حَسْم، إن صادفَها عَزْم.

**منها:** اتباع الدِّين في اجتنابه، والرجوع إلى الله - عزَّ وجلَّ - في ندبه وآدابه؛ فيقهر نفسه على مذموم خُلُقها، وينقلها عن لئيم طبعها، وإن كان نقل الطباع عَسِرًا، لكن بالرياضة والتدريج يسهل منها ما استصعب، ويُحبَّب منها ما أتعَبَ، وإنَ تقدم قولُ القائل: مَنْ ربَّه خَلَقَه كيف يُخَلَّى خُلُقَه! غير أنه إذا عانى تهذيبَ نفسه، تظاهر بالتخلُّق دون الخُلُق، ثم بالعادة يصير كالخُلُق. قال أبو تمام الطائيّ:

فلم أجِدِ الأخلاقَ إلاَّ تخلُّقًا ... ولم أجِدِ الإفضالَ إلاَّ تَفَضُّلا

**ومنها:** العقل الذي يستقبح به من نتائج الحسد ما لا يرضيه، ويستنكف من هُجْنة مساويه، فيذلل نفسه أَنَفَةً، ويقهرها حميَّةً؛ فتذعن لرشدها، وتجيب إلى صلاحها. وهذا إنما يصحّ لذي النفس الأبيَّة، والهمة العليَّة وإن كان ذو الهمَّة يجلّ عن دناءة الحسد. وقد قال الشاعر:

أبى له نفسان نفسٌ زكيَّة ... ونفس إذا ما خافت الظلْمَ تَشْمُس

**ومنها:** أن يستدفع ضرره، ويتوقَّى أثره، ويعلم أن مكانته في نفسه أبلغ، ومن الحسد أبعد؛ فيستعمل الحزم في دفع ما كده وأكمده؛ ليكون أطيبَ نفسًا، وأهنأ عيشًا. وقد قيل: العجب لِغَفْلَة الحسَّاد، عن سلامة الأجساد! وقد قال الشاعر:

بصيرٌ بأعقابِ الأمورِ كأنَّما ... يرى بصواب الرأي ما هو واقعُ

**ومنها:** ما يرى نفور الناس عنه، وبُعْدهم منه، فيخافهم؛ إمَّا على نفسه من

عداوة، أو على عرضه من ملامة، فيتألَّفهم بمعالجة نفسه، ويراهم إن صلَحوا أجدَى نفعًا، وأخلَصَ ودًّا. وقال ابن العميد:

**دَاوَى جَوىً بَجَوىً وليس بحازمٍ — من يستكفُ النار بالحلفاء[1]**

وقال المؤمَّل بن أُمَيْل:

**لا تحسِبوني غنيًا عن مودَّتكم — إنِّي إليكم وإن أيسرت مفتقرُ**

**ومنها:** أن يساعد القضاء، ويستسلم للمقدور؛ ولا يرى أن يغالب قضاء الله، فيرجع مغلوبًا، ولا أن يعارضه في أمره، فيُرد محرومًا مسلوبًا ومحزونًا. وقد قال أردشير بن بابَك: إذا لم يساعدنا القضاء ساعدناه. وقال محمود الورَّاق:

**قدر الله كائنٌ — حين يقضي وُرودُهُ**

**قد مضى فيك علمه — وانتهى ما يريده**

**وأخو الحزم حزمه — ليس مما يزيده**

**فأرِدْ ما يكون إنْ — لم يكن ما تريدُهُ**

فإن أظفرتْه السعادة بأحد هذه الأسباب، وهَدَته المراشدُ إلى استعمال الصواب، سلِم من سقامه، وخلَص من غَرامه، واستبدل بالنقص فضلاً، واعتاض من الذم حمدًا، ولَمَن استنزل نفسه عن مذمة، وصرفها عن لائمة، هو أظهر حزمًا، وأقوى عزمًا، ممن كفته النفس جهادها، وأعطته قيادها؛ ولذلك قال علي ابن أبي طالب ﷺ: خياركم كل مُفْتَنٍ توَّاب. وإن صدَّته الشقوة عن مراشده، وأضلَّه الحرمان عن مقاصده، فانقاد للطبع اللئيم، وغلب عليه الخلق الذميم، حتى ظهر حسده، واشتد كمده، فقد باء بأربع مذامّ:

إحداهن ـ حسرات الحسد، وسَقَام الجسد، ثم لا يجد لحسرته انتهاءً، ولا يؤمل لسَقَامه شفاءً، وقال ابن المعتزّ: الحسد داء الجسد.

---

(١) الجوى: الحُرقة وشدة الوجد. الحَلفاء: نبت يستعمل في إيقاد النار.

والثانية - انخفاض المنزلة، وانحطاط المرتبة؛ لانحراف الناس عنه، ونفورهم منه. وقد قيل في منثور الحكم: الحسود لا يسود.

والثالثة - مَقْتُ الناس له حتى لا يجد فيهم محبًا، وعداوتُهم له حتى لا يرى فيهم وليًا، فيصير بالعداوة موتورًا[1]، وبالمقت مزجورًا؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**شر الناس من يبغض الناس ويبغضونه**»[2].

والرابعة - إسخاط الله تعالى في معارضته، واجتناء الأوزار في مخالفته؛ إذ ليس يرى قضاء الله عدلاً، ولا لنعَمه من الناس أهلاً؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**إنَّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النارُ الحطبَ**»[3]. وقال عبد الله بن المعتز: الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له، بخيل بما لا يملكه، طالب ما لا يجده؛ وإذا بُلي الإنسان بمن هذه حاله من حساد النعم وأعداء الفضل، استعاذ بالله من شره، وتوقَّى مصارع كيده، وتحرز من غوائل حسده، وبَعُد عن ملابسته وإدنائه؛ لعَضْل[4] دائه، وإعواز دوائه، فقد قيل: حاسد النعمة لا يرضيه إلا زوالها. وقال بعض الحكماء: من ضَرَّ بطبعه فلا تأنس بقُربه؛ فإن قلب الأعيان صعب المرام، وقال عبد الحميد: أسد تقاربه خير من حسود تراقبه. وقال محمود الورَّاق:

**أعطيت كلَّ الناس من نفسي الرضا ... إلا الحسود فإنه أعياني**

**ما إن لي ذنبًا إليه علِمْتُه ... إلا تظاهُرُ نعمةِ الرحمان**

**وأبى فما يرضيه إلا ذِلَّتي ... وذهاب أموالي وقطع لساني**

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**ثلاث لا يسلم أحد منهنَّ: الطِّيَرَة، وسوء الظن، والحسد؛ فإذا تطيَّرت فلا ترجع، وإذا ظننت فلا تُحَقِّق، وإذا حسدتَ فلا تَبْغِ**»[5].

---

(1) الموتور: هو الذي أصابته مصيبة أو نزل به مكروه.

(2) لم أقف عليه بلفظه، وإنما أخرج الطبراني في «الكبير» (10/ 310) بلفظ قريب، والحارث في «مسنده» (2/ 967) (1075).

(3) أخرجه أبوداود (4/ 276) (4903)، عن أبي هريرة، وابن ماجه (2/ 1408) (4210).

(4) أي لشدته.

(5) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» بلفظ «لا يعجزهن» (2/ 63) (1172)، وأورده في «الجامع» لمعمر بن راشد (10/ 403).

## فصل

وأما آداب المواضعة والاصطلاح:

## فضربان.

أحدهما - ما تكون المواضعة في فروعه، والعقل موجب لأصوله.

والثاني - ما تكون المواضعة في فروعه وأصوله، وذلك متضحٌ في الفصول التي نذكرها إذا سُبِرَتْ، وهي ثمانية:

### الفصل الأول

### في الكلام والصمت

اعلم: أن الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضمائر، ويخبر بمكنونات السرائر، لا يمكن استرجاع بوادره، ولا يُقْدَرُ على ردِّ شوارده؛ فَحُقّ على العاقل أن يحترزَ من زَلَلِه بالإمساك عنه، أو بالإقلال منه. روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**رحم الله من قال خيراً فغنم، أو سكت فسلم**»[(١)].

وقال ﷺ لمعاذ: «**يا معاذ، أنت سالم ما سكتَّ، فإذا تكلمت فعليك أو لك**»[(٢)].

وقال عليّ بن أبي طالب - كرَّم الله وجهه -: اللسان معيارٌ أطاشَه الجهل، وأرجَحَه العقل. وقال بعضُ الحكماء: الزَم الصَّمتَ تعدَّ حكَيمًا؛ جاهلاً كنت أو عليمًا. وقال بعضُ الأدباء: سَعِد مَن لسانه صَموتٌ، وكلامه قُوت. وقال بعضُ العلماء: منْ أعْوز ما يتكلَّمُ به العَاقلُ، ألاَّ يتكلَّمُ إلاَّ لحاجته، أو لحُجَّته، ولا يفكِّر إلاَّ في عاقبته، أو في آخرته. وقال بعضُ البلغاء: الزم الصَّمْتَ؛ فإنَّه يكْسبكَ صَفْو المحبَّة، ويؤَمِّنك سوءَ المَغَبَّة، ويُلْبسكَ ثوبَ الوقار، ويكفيكَ مُؤْنة الاعتذَار. وقال بعضُ الفصحاء: اعقلِ لسانك إلاَّ عن حقٍّ توضحه، أو باطلٍ تدحَضُه، أو حكمةٍ تنشرها، أو نعمةٍ تشكُرُها. وقال الشاعر:

**رأيت العِزَّ في أدبٍ وعَقْلٍ ... وفي الجهل المذلَّةُ والهوانُ**
**وما حُسْنُ الرِّجال لهم بحسنٍ ... إذا لم يُسْعِدِ الحُسْنَ البيانُ**

---

(١) أخرجه ابن حنبل (١/ ٢٠) (٩)، وهناد في «الزهد» (٢/ ٥٣٥) (١١٠٦).

(٢) أورده الديلمي في «الفردوس» (١/ ٣٩٢) (١٥٨٠) عن معاذ بن جبل.

كَفى بالمرء عيبًا أن تراه     له وَجْهٌ وليس له لسان

**واعلم**: أنَّ للكلام شروطًا، لا يسلم المتكلِّم من الزلل إلاَّ بها، ولا يعرى من النقص إلاَّ بعد أن يستوفيها، وهي أربعة:

**فالشرط الأول** ـ أن يكون الكلامُ لداعٍ يدعو إليه، إمَّا في اجتلاب نَفْعٍ، أو دَفْع ضرر.

**والشرط الثاني** ـ أن يأتي به في موضعه، ويتوخَّى به إصابة فرصته.

**والشرط الثالث** ـ أن يقتصر منه على قدر حاجته.

**والشرط الرابع** ـ أن يتخيَّر اللفظ الذي يتكلَّم به.

فهذه أربعة شروط، متى أخلَّ المتكلِّم بشرطٍ منه فقد أوهَنَ فضيلة باقيها. وسنذكر من تعليل كُلِّ شرطٍ منها ما ينبئ عن لزومه.

**فأما الشرط الأول** ـ وهو الداعي إلى الكلام، فلأن ما لا داعي له هَذَيان، وما لا سبب له هُجْر[1]، ومن سامح نفسَه في الكلام إذا عَنَّ، ولم يراعِ صحَّة دواعيه، وإصابة معانيه، كان قولُه مرذولاً، ورأيه معلولاً، كالذي حكَى ابنُ عائشة: أن شابًا كان يجالس الأحنف ويطيل الصَّمْت، فأعجَبَ ذلك الأحنف، فخلَت الحلقة يومًا، فقال له الأحنف: تكلَّم يا بْنَ أخي؛ فقال: يا عم، أرأيت لو أنَّ رجلاً سقط من شُرْفَة هذا المسجد هل كان يضره شيء؟ فقال: يا بْنَ أخي، ليتنا تركناك مستورًا، ثم تمثَّل الأحنفُ بقول الأعور الشَّنِّي:

وكائنْ تَرَى من صامتٍ لكَ مُعْجِبٍ     زيادَتُه أو نقصُه في التكلُّمِ
لسانُ الفَتَى نِصفٌ ونِصفٌ فؤادهُ     فلم يَبْقَ إلاَّ صورةُ اللَّحْمِ والدَّمِ

وكالذي حُكِي عن أبي يوسف الفقيه: أنَّ رجلاً كان يجلس إليه، فيطيل الصَّمت، فقال له أبو يوسف: ألا تسأل؟ قال: بلى، متى يفطرُ الصائم؟ قال: إذا غربت الشمس. قال: فإن لم تغرب الشمس إلى نصف الليل؟ قال فتبسَّم أبو يوسف ـ رحمه الله ـ، وتمثَّل ببيتي الخَطَفي جدِّ جرير:

عجِبْتُ لإزراءِ العَيِيِّ بنفسِه     وصَمْتِ الذي قد كان بالقول أعلما
وفي الصَّمت سَترٌ للعَيِيِّ وإنما     صحيفةُ لُبِّ المرء أن يتكلَّما

---

(١) **الهجر**: بالفتح والضم: الكلام أو الهذيان.

ومما أُطْرِفُكَ به عني: أني كنت يومًا في مجلسي بالبصرة، وأنا مقبل على تدريس أصحابي؛ إذ دخل عليَّ رجل مسنّ، قد ناهز الثمانين أو جاوزها، فقال لي: قد قصدتُك بمسألة اخترتك لها. فقلت: اسأل عافاك الله، وظننته يسألُ عن حادث قد نزل به. فقال: أخبرني عن نجم إبليس، ونجم آدم، ما هو؟ فإنَّ هذين لعظم شأنهما لا يُسأل عنهما إلاَّ علماء الدِّين، فعجبت وعجب مَن في مجلسي من سؤاله، وبدر إليه قوم منهم بالإنكار والاستخفاف، فكففتهم عنه، وقلت: هذا لا يَقْنع مع ما ظهر من حاله إلاَّ بجواب مثله، فأقبلت عليه وقلت له: يا هذا، إنَّ المنجمين يزعمون أن نجوم الناس لا تُعرَف إلاَّ بمعرفة مواليدهم، فإن ظفرْت بمن يَعرف ذلك فاسأله. فحينئذ أقبل عليَّ وقال: جزاك الله خيرًا، ثم انصرف مسرورًا. فلمَّا كان بعد أيام عاد وقالَ: ما وجدْت إلى وقتي هذا من يَعرف مولد هذين.

فانظر إلى هؤلاء كيف أبانوا الكلام عن جهلهم، وأعربوا بالسؤال عن نقصهم؛ إذ لم يكن لهم داعٍ إليه، ولا روية فيما تكلَّموا فيه، ولو صدر عن رويَّة، ودعا إليه داعٍ، لسَلِموا من شَيْنه، وبرئوا مِنْ عَيْبه؛ ولذلك قال النبيّ ﷺ: **«لسانُ العاقل مِن وراء قلبه، فإذا أراد الكلام رجع إلى قلبه، فإن كان له تكلَّمَ، وإن كان عليه أمسَكَ؛ وقَلْبُ الجاهل مِن وراء لسانه، يتكلَّم بكُلِّ ما عرض له»**[1].

وقال عمر بن عبد العزيز: من لم يعدّ كلامه من عمله كثُرت خطاياه. وقال بعضُ الحكماء: عقلُ المرء مخبوء تحت لسانه. وقال بعضُ البلغاء: احبْس لسانك قبلَ أن يطيلَ حبَسَكَ، أو يتلفَ نَفْسَك، فلا شيءَ أولى بطول حَبْسٍ من لسانٍ يقصر عن الصواب، ويسرع إلَى الجواب. وقال أبو تمام الطائيّ:

**ومِمَّا كانت الحكماء قالتْ لسانُ المَرْءِ مِن تَبَعِ الفؤادِ**

وكان بعضُ الحكماء يحسم الرُّخْصة في الكلام، ويقول: إذا جالست الجهال فأنصتْ لهم، وإذا جالسْتَ العلماء فأنصت لهم؛ فإن في إنصاتك للجهال زيادة في الحلم، وفي إنصاتك للعلماء زيادة في العلم.

وأما الشرط الثاني ـ وهو أن يأتي بالكلام في موضعه؛ لأن الكلام في غير

(١) أورده البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٦٩٤)، بلفظ قريب جدًا، وأورده العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» حساب المؤمن (٣/١٠٧).

حينه لا يقعُ موقع الانتفاع به، وما لا ينفع من الكلام فقد تقدَّم القول فيه بأنه هَذَيان وهُجْر؛ فإن قدَّم ما يقتضي التأخير كان عَجَلة وخُرْقًا[1]، وإن أخَّر ما يقتضي التقديم كان توانيًا وعجزًا، لأن لكل مقام قولاً، وفي كل زمان عملاً، وقد قال الشاعر:

**تَضَعُ الحديثَ على مواضِعِه    وكلامُها من بعدها نَزْرُ**

وأمَّا الشرط الثالث - وهو أن يقتصر منه على قدر حاجته؛ فإن الكلام إن لم ينحصر بالحاجة، ولم يقدَّر بالكفاية، لم يكن لحدِّه غاية، ولا لقدره نهاية، وما لم يكن من الكلام محصورًا، كان إمَّا حَصَرًا إن قَصُر، أو هذرًا إن كَثُر.

ورُوِي أنَّ أعرابيًا تكلَّم عند رسول الله ﷺ وطوَّل، فقال النبيّ ﷺ: **«كم دون لسانك من حجاب»**[2]؟ قال: شفتاي وأسناني. قال: **«فإن الله - عزَّ وجلَّ - يكره الانبعاق[3]، فنضَّرَ الله وَجْهَ امرئٍ أوجَزَ في كلامه، واقتصرَ على حاجته»**.

وحُكِي أن بعضَ الحكماء رأى رجلاً يكثر الكلام ويقلّ السكوت، فقال: إن الله تعالى إنَّما خلق لك أذنين ولسانًا واحدًا، ليكون ما تسمعه ضعفَ ما تتكلَّم به. وقال بعضُ الحكماء: من كثُر كلامُه كثُرت آثامه. وقال ابن مسعود: أنذركم فُضُولَ المنطق. وقال بعضُ البلغاء: كلامُ المرء بيان فضله، وتَرْجمان عقله، فاقصره على الجميل، واقتصرْ منه على القليل؛ وإياكَ وما يُسْخط سلطانك، أو يوحش إخوانك؛ فمن أسخط سلطانه تعرَّض للمنيَّة، ومن أوحَشَ إخوانه تبرَّأ من الحرية. وقال بعضُ الشعراء:

**وَزِنِ الكَلامَ إذا نطقْتَ فإنَّما    يبدي عيوبَ ذوي العيوبِ المنطقُ**

ولمخالفة قدر الحاجة من الكلام حالتان: تقصيرٌ يكون حَصَرًا[4]، وتكثير يكون هَذَرًا؛ وكلاهما شَيْن، وشَيْن الهذَر أشنَعُ، وربما كان في الغالب أخوف. قال

---

(١) **الخرقُ**: الجهل والحمق أو هو ضد الرفق.

(٢) **لم أجده**. كذلك أورده الغزالي في «الإحياء» من دون إسناد (٣/ ٩٦).

(٣) **الانبعاق**: هو الاندفاع في الكلام بشدة.

(٤) أي عجزًا عن الكلام.

النبي ﷺ: «وهل يكبّ الناس عَلَى مناخرهم في نار جهنم إلاّ حصائدُ ألسنتهم»[1].

وقال بعض الحكماء: مَقْتَلُ الرجل بين فكَّيْه. وقال بعض البلغاء: الحصَر خيرٌ من الهذَر؛ لأن الحصَر يُضعفُ الحُجَّة، والهذَر يتلفُ المُهْجة؛ وقد قال الشاعر:

رأيتُ اللسانَ عَلَى أهلِه ... إذا ساسهُ الجهلُ ليثًا مُغِيرَا

وقال آخر:

أيا رُبَّ ألسنةٍ كالسيوفِ ... تقطّعُ أعناقَ أصحابِها

وما ينتقصْ من سِبابِ الرجالِ ... يَزِدْ في بهاها وألبابِها

وقد ذهب بعضهم إلى أن الكلام إذا كثُر عن قدر الحاجة، وزاد عَلَى حدِّ الكفاية، وكان صوابًا لا يشوبه خَطَل، وسليمًا لا يعتوره زَلَل، فهو البيانُ، والسِّحْر الحلال. وقال سليمان بن عبد الملك، وقد ذُمَّ الكلامُ في مجلسه: كلاَّ؛ إنَّ مَن تكلَّم فأحسنَ، قدرَ عَلَى أن يسكُت فيُحسن، وليس كُلُّ مَن سكَتَ فأحسن، قَدَر عَلَى أن يتكلَّم فيُحسن. ووصف بعضُهم الكاتبَ، فقال: الكاتبُ مَن إذا أخذ شِبرًا كفاه، وإذا وَجدَ طُومارًا[2] أملاه. وأنشد بعضهم في خطباء إياد:

يَرمُون بالخُطبِ الطِّوالِ وتارةً ... وَحيَ الملاحظِ خيفةَ الرقباءِ

وقال الهيثم بن صالح لابنه: يا بنيَّ إذا أقللت من الكلام، أكثرتَ من الصَّواب. فقال: يا أبت، فإن أنا أكثرتُ وأكثرْتُ؟ يعني كلامًا وصوابًا. فقال: يا بنيَّ، ما رأيت موعوظًا أحقَّ بأن يكونَ واعظًا منك. وأُنشدْتُ لأبي الفتح البُستيّ:

تكلَّم وسدِّد ما استَطَعْتَ فإنما ... كلامُكَ حَيٌّ والسُّكوت جمادُ

فإن لم تجدْ قولاً سَديداً تقولُهُ ... فصمْتُكَ عن غيرِ السَّدادِ سَدادُ

وقيل لإياس بن معاوية: ما فيكَ عيبٌ إلاّ كثرة الكلام. فقال: أفتسمعون صوابًا أو خطأ؟ قالوا: لا، بل صوابًا. قال: فالزِّيادة من الخير خيرٌ. وقال أبو عثمان الجاحظ: للكلام غايةٌ، ولنشاط السامعين نهاية، وما فَضَل عن مقدار الاحتمال، ودعا إلى الاستثقال والملال، فَذلك الفاضلُ هو الهذَر. وصدق أبو عثمان؛ لأنَّ الإكثار منه وإن كان صوابًا، يُملّ السامع، ويُكلّ الخاطر، وهو

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٤٧) (٣٥٤٨).

(٢) أي صحيفة للكتابة.

صادر عن إعجاب به، لولاه قصَّر عنه؛ ومن أُعجِبَ بكلامه استرسل فيه، والمسترسِلُ في الكلام كثير الزلَل، دائمُ العِثار.

وقال بعض الحكماء: من أُعجبَ بقوله أُصيب بعقله، وليس لكثرة الهذر رجاء يقابل خوفه، ولا نفع يوازي ضَرَره؛ لأنه يخاف من نفسه الزَّلل، ومن سامعيه السآمة والملل؛ وليس في مقابلة هذين حاجة داعية؛ ولا نفعٌ مرجوّ. وقد رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«أبغضكم إليّ المتفيهق[1] المِكثار، والمِلْحُ المهذار»[2]**.

وسأل رجل حكيمًا، فقال: متى أتكلم؟ قال: إذا اشتهيتَ الصَّمْتَ، فقال: متى أصمُت؟ قال: إذا اشتهيْتَ الكلام. وقال الشاعر:

**الصَّمتُ زينٌ والسُّكوت سلامة ... وإذا نطقت فلا تكن مهذارًا**

**فلئن ندمت على سكوتك مرَّة ... فلتندَمَنَّ على الكلام مرارًا**

وقال جعفر بن يحيى: إذا كان الإيجاز كافيًا، كان الإكثار عيًّا، وإذا كان الإكثارُ واجبًا، كان التقصير عجزًا. وقيل في منثور الحكم: إذا تمَّ العقل نقَصَ الكلام. وقال بعضُ الأدباء: مَن أطال صَمته، اجتلبَ من الهيبة ما ينفعُه، ومن الوحشة ما لا يضره. وقال بعضُ البلغاء: عيٌّ تسلم منه، خيرٌ من منطق تندَم عليه؛ فاقتصرْ من الكلام على ما يقيمُ حجَّتكَ، وإياك وفُضُولَه؛ فإنَّه يُزِلّ القَدَم، ويُورثُ النَّدَمَ. وقال بعضُ الفصحاء: فمُ العاقل مُلْجَم، إذا همَّ بالكلام أحجَم؛ وفَمُ الجاهل مُطْلق، كلما شاء أطلَق. وقال بعضُ الشعراء:

**إنَّ الكلام يَغُرُّ القومَ جَلْوَتُهُ ... حتَّى يَلِجَّ بهِ عِيٌّ وإكثارُ**

**وأما الشرط الرابع** ـ وهو اختيارُ اللفظ الذي يتكلَّم به، فلأنَّ اللسان عُنوان الإنسان، يُترجم عن مجهوله، ويُبرهن عن مَحصوله، فيلزم أن يكون بتهذيب ألفاظه حَريًا، وبتقويم لسانه مَليًا. رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال لعمِّه العباس رضي الله عنه: **«يعجبني جمالك»**. قال: وما جمالُ الرجل يا رسولَ الله؟ قال: **«لسانه»**.

وقال خالد بن صفوان: ما الإنسان لولا اللسان؟ هل هو إلا بهيمة مُهمَلة، أو صورة مُمَثَّلة. وقال بعضُ الحكماء: اللسان وزيرِ الإنسان. قال بعضُ الحكماء: كلام الرجل وافر أدبه. وقال بعضُ البلغاء: يُستدَلّ على عقل الرجل بقوله، وعلى أصله بفعله. وقال بعضُ الشعراء:

---

(١) المتفيهق: هو الذي يتكلف في كلامه.

(٢) أي الذي يقع في الهذر، وهو كثرة الكلام والهذيان فيه.

وإنَّ لســـانَ المَرْءِ مـــا لم تَكُنْ لَهُ حَـــصـــاةٌ عَلَى عَـــوْراتِه لَدَليلُ

وليس يصحّ اختيار الكلام، إلاَّ لمن أخذ نفسه بالبلاغة، وكلفها لزومَ الفصاحة، حتَّى يصير متدربًا بها، معتادًا لها، فلا يأتي بكلام مستكرَه اللفظ، ولا مختلّ المعنى؛ لأنَّ البلاغة ليست معاني مفردة، ولا ألفاظًا عارية؛ وإنَّما البلاغة أن تكون المعاني الصحيحة مستودَعة في ألفاظٍ فصيحة؛ فتكون فصاحة الألفاظ مع صحة المعاني هي البلاغة.

وقد قيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: اختيارُ الكَلام، وتصحيحُ الأقسام. وقيل للروميّ: ما البلاغة؟ قال: حُسْن الاختصار عند البديهة، والغَزارة يوم الإطالة. وقيل للهنديّ، فقال: الفصْل مِن الوصل. وقيل للعربيّ، فقال: ما حَسُنَ إيجازُه، وقلَّ مجازُه، وقيل للبدويّ، فقال: ما دون السِّحْر، وفوقَ الشعر، يفُتُّ الخَرْدل، ويَحُطّ الجندل. وقيل للحَضَرِيّ، فقال: ما كثُر إعجازُه، وتناسب صدورُه وأعجازُه.

وقال ابن المقفع: البلاغة قلة الحصَر، والجراءة على البَشَر. وسأل الحجاجُ ابنَ القِرِّيَّة: عن الإيجاز؟ قال: أن تقولَ فلا تُبطئ، وأن تصيبَ فلا تخطئ. ثم قال: أقلني. قال: قد فعلتُ. قال: هو ألا تبطئ ولا تخطئ. وقال الشاعر:

خَـيْـرُ الـكلامِ قـلـيـلٌ عَلى الكَثيرِ دليلُ
والعِيُّ معنى قصيرٌ يحويه لفظٌ طويلُ
وفي الكلام فُضُولٌ وفيه قالٌ وقيلُ

وأمَّا صحة المعاني: فتكون من ثلاثة أوجه:

أحدها - إيضاحُ تفسيرها، حتى لا تكونَ مشكلَةً ولا مُجْمَلَة.

والثاني - استيفاءُ تقسيمها، حتى لا يدخلَ فيها ما ليس منها، ولا يخرج عنها ما هو فيها.

والثالث - صحَّة مقابلاتها؛ والمقابلة تكون من وجهين:

أحدهما - مقابلة المعنى بما يوافقه، وحقيقة هذه المقاربةُ؛ لأنّ المعاني تصير متشاكلة.

والثاني - مقابلته بما يضادّه، وهو حقيقة المقابلة. وليس للمقابلة إلاَّ أحد هذين الوجهين: الموافقة في الائتلاف، أو المضادَّة مع الاختلاف.

**فأما فصاحة الألفاظ:** فتكون بثلاثة أوجه:

أحدها - مجانبة الغريب الوحشيّ، حتَّى لا يَمُجَّه سمع، ولا ينفرَ منه طبع.

والثاني - تنكُّب اللفظ المستبذل، والعدولُ عن الكلام المسترذَل، حتى يستسقطه خاصّيٌّ، ولا ينبو عن فهمه عاميّ، كما قال الجاحظ في كتاب «البيان»: أما أنا فلم أرَ قومًا أمثلَ طريقةً في البلاغة من الكُتَّاب؛ وذلك أنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعِّرًا وحشيًا، ولا ساقطًا عاميًّا.

والثالث - أن يكون بين الألفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة.

**أما المطابقة:** فهو أن تكون الألفاظ كالقوالب لمعانيها، فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها. وقال بِشْر بن المُعتَمِر في وصيته في البلاغة: إذا لم تجد اللفظةَ واقعة موقعها، ولا صائرة إلى مستقرّها، ولا حالّة في مركزها، بل وجدتَها قَلِقَةً في مكانها، نافرةً عن موضعها، فلا تُكرِهْها على القرار في غير موضعها، فإنَّك إن لم تتعاطَ قريضَ الشعر الموزون، ولم تتكلَّفْ اختيارَ الكلام المنثور، لم يَعِبْك بتَرْك ذلك أحدٌ؛ وإذا أنت تكلفتهما، ولم تكن حاذقًا فيهما، عابَكَ مَنْ أنتَ أقلُّ عيبًا منه، وأزرَى عليك من أنتَ فوقَه.

**وأما المناسبة:** فهو أن يكون المعنى يليق ببعض الألفاظ؛ إما لعُرْف مستعمَل، أو لاتفاق مستحسَن، حتى إذا ذُكِرت تلك المعاني بغير تلك الألفاظ، كانت نافرةً عنها، وإن كانت أفصَحَ وأوضَحَ؛ لاعتياد ما سواها. وقال بعضُ البلغاء: لا يكون البليغ بليغًا، حتى يكون معنى كلامه أسبقَ إلى فهمك، من لفظه إلى سمعك.

وأمَّا معاطاة الإعراب، وتجنُّب اللحن، فإنّما هو من صفات الصواب، والبلاغة أعلى منه رتبةً، وأشرف منزلة، وليس لمن لحَنَ في كلامه مَدخَلٌ في الأدباء، فضلاً عن أن يكونَ في عِداد البلغاء والفصحاء.

واعلَم: أنَّ للكلام آدابًا إنْ أغفلها المتكلِّم، أذهَبَ رونَقَ كلامه، وطَمَس

بهجة بيانه، ولَهَا الناسُ عن محاسن فضله؛ بمساوئ أدبه، فعدلوا عن مناقبه، بذكر مثالبه.

**فمن آدابه:** ألاَّ يتجاوزَ في مَدْحٍ، ولا يسرفَ في ذمٍّ، وإن كانت النَّزاهة عن الذَّمِّ كرمًا، والتجاوز في المدح مَلَقًا[١] يصدر عن مَهانة؛ والسرَف في الذم انتقام يصدر عن شرّ، وكلاهما شَيْن، وإن سَلم من الكذب. يُروَى أنه لما قَدِم على رسول الله ﷺ وفدُ تميم، سأل رسولُ الله ﷺ عمرو بن الأهتم، عن قيس ابن عاصم، فمدحه، فقال قيس: والله يا رسول الله، لقد علم أني خيرٌ مما وصف، ولكن حسدني، فذمَّه عمرو، وقال: والله، يا رسولَ الله، لقد صدَقْتُ في الأولى، وما كذبْتُ في الأخرى؛ لأني رَضيتُ في الأولى، فقلْتُ أحْسَنَ ما علمتُ، وسَخطْتُ في الأخرى، فقلْتُ أقبَحَ ما علمتُ. فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ من البيانَ لسحرًا**»[٢]. على أنَّ السَّلامة مِن الكذب في المدح والذَّمّ متعذرة، لاسيما إذا مدح تقرُّبًا، وذمَّ تحنُّقًا[٣].

وحُكيَ عن الأحنف بن قيس، أنه قال: سهرت ليلتي أفكر في كلمة أُرضي بها سلطاني ولا أُسخط بها ربِّي، فما وجدْتها. وقال عبد الله بن مسعود: إنَّ الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج وما معه دينه. قيل: وكيف ذلك؟ قال: يُرضيه بما يُسْخط الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. وسمع ابن الروميِّ رجلاً يصف رجلاً، ويبلغ في مدحه، فأنشأ يقول:

| | |
|---|---|
| **إذا ما وصفْتَ امْرءًا لامرئ** | **فلا تَغْلُ في وصفه واقْصِدِ** |
| **فإنَّك إن تَغْلُ الظُّنُون** | **فيه إلى الأمد الأبعدِ** |
| **فَيَضْؤُل من حيث عَظَّمْتَه** | **لِفَضْل المَغيب على المَشْهَدِ** |

**ومن آدابه:** ألاَّ تبعثَه الرَّغبة والرهبة على الاسترسال في وعد أو وعيد، يعجز عنهما، ولا يقدر على الوفاء بهما؛ فإنَّ مَنْ أطلق بهما لسانه، وأرسل فيهما عنانه، ولم يستثقلْ من القول ما يستثقله من العمل، صار وعدُه نَكْثًا، ووعيدُه عجزًا.

---

(١) أي تزلفًا كاذبًا.

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٣٤) (٤٧٤٩)، ومسلم (١٤٣٧) عن ابن عمر.

(٣) أي يبالغ في الذم لشدة غيظه.

وقد حُكي أنَّ سليمان بن داود - عليهما السلام - مرَّ بعصفور يدور حولَ عصفورة، فقال لأصحابه: هل تدرون ما يقولُ لها؟ قالوا: لا، يا نبيَّ الله، قال: إنه يخطُبُها لنفسه، ويقول لها: زوِّجيني نفسَك، أسكنْك أيَّ غُرَف دِمَشْقَ شئت. قال سليمان: كذب العصفور؛ فإن غرف دمشق مبنيةٌ بالصخور، لا يقدر أن يسكنها هناك، ولكن كُلُّ خاطبٍ كاذب.

**ومن آدابه:** أنه إن قال قولاً حقَّقه بفعله، وإذا تكلَّم بكلامٍ صدَّقه بعمله؛ فإنَّ إرسالَ القول اختيار، والعملَ به اضطرار، ولأنْ يفعلَ ما لم يقُل، أجملُ من أن يقولَ ما لم يفعل. وقال بعضُ الحكماء: أحسَنُ الكلام ما لا يُحتاج فيه إلى كلام؛ أي يكتفي بالفعل من القول. وقال محمود الورَّاق:

**القولُ ما صدَّقه الفعلُ والفعلُ ما وكَّده العَقْلُ**
**لا يثبتُ القَوْلُ إذا لم يكن يُقِلُّه من تحته الأصلُ**

**ومن آدابه:** أن يراعيَ مخارج كلامه، بحسب مقاصده وأغراضه، فإن كان ترغيبًا قرنه باللين واللُّطف، وإن كان ترهيبًا خلَطه بالخشونة والعُنْف؛ فإنَّ لينَ اللفظ في الترهيب، وخُشُونته في الترغيب، خروجٌ عن موضعهما، وتعطيلٌ للمقصود بهما، فيصير الكلام لَغْوًا، والغرض المقصود لَهْوًا. وقد قال أبو الأسود الدُّؤَلي لابنه: يا بُنيَّ، إذا كنت في قوم فلا تتكلَّم بكلامِ مَن هو فوقَك فيمقتوك، ولا بكلام مَن هو دونك فيزدروك.

**ومن آدابه:** ألاَّ يرفع بكلامه صوتًا مستكرهًا، ولا ينزعِجَ له انزعاجًا مستهجنًا، وليكفَّ عن حركة تكون طَيْشًا، وعن إشارة تكون عيًا؛ فإنَّ نقصَ الطيش أكثرُ من فضل البلاغة. وقد حُكي أنَّ الحجَّاج قال لأعرابيٍّ: أخطيبٌ أنا؟ قال: نعم، لولا أنك تكثر الردَّ، وتشير باليد، وتقول: أما بعد.

**ومن آدابه:** أن يتجافى هُجْر القول، ومستقبَح الكلام، ولْيعدل إلى الكتابة عمَّا يُستقبَحُ صَريحُه، ويُسْتَهْجَنُ فصيحُه، ليبلُغَ الغرضَ ولسانُه نَزِه، وأدبُه مَصُون. وقد قال محمدُ بن عليّ في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (الفرقان: ٧٢)، قال: كانوا إذا ذكروا الفروج كنوا عنها. وكما أنه يصون لسانه عن

ذلك، فهكذا يصون عنه سمعه، فلا يسمع خنًا، ولا يصغي إلى فحش؛ فإنَّ سماعَ الفحش داعٍ إلى إظهاره، وذريعةٌ إلى إكثاره؛ وإذا وُجِد عن الفحش معرِضًا، كفَّ قائلُه، وكان إعراضه أحدَ النَّكَرين، كما أنَّ سماعَه أحدُ الباعثَين.

وأنشدني أبو الحسن ابن أبي الحارث الهاشميّ:

**تَحَرَّ مِنَ الطُّرْقِ أوساطَها وعَدِّ عنِ الموضعِ المشتَبِهْ**
**وسَمْعَكَ صُنْ عَنْ قبيحِ الكلامِ كَصَوْنِ اللسانِ عنِ النُّطقِ بِهْ**
**فإنَّكَ عندَ استماعِ القبيحِ شريكٌ لقائلِهِ فانتَبِهْ**

ومما يجْري مَجْرَى فُحْشِ القَوْل وهُجْره، في وجوب اجتنابه، ولزوم تنكُّبه، ما كان شنيعَ البديهة، مستنكَرَ الظاهر، وإن كان عَقب التأمّل سليمًا، وبعد الكشف والروية مستقيمًا، كالذي رواه الأزدي عن الصُّولِيّ لبعض المتكلّفين من الشعراء:

**إنَّني شيخٌ كبيرٌ وكافرٌ باللهِ سِيري**
**أنتَ رَبِّي، وإلهي رازق الطفل الصغير**

يريد بقوله «**كافر**»: أي لابس؛ لأن الكَفْر التغطية، ولذلك سُمِّي الكافر بالله كافرًا؛ لأنه قد غَطَّى نعمة الله بمعصيته. وقوله: «**بالله سيري**»: أقسم عليها بالله أن تسير. وقوله: «**أنتَ ربِّي**»: يعني ربِّي ولَدَك، من التربية؛ و«**إلهي رازق الطفل الصغير**»، كما أنه رازق الجَلْد الكبير. فانظر إلى هذا التكلُّف الشنيع، والتعمُّق البشيع؛ ما اعتاضَ من حيث البديهة إذا سلم بعد الفكر والرَّوِيَّة، إلاَّ لوْمًا إن حسُن فيه الظن، أو ذمًّا إن قوي فيه الارتياب، وقلَّما يكون ذلك إلاَّ من خليعٍ بَطِرٍ، أو مُرتاب أشِر. فأمَّا الحديث المرويّ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**لا تصلُّوا على النبيّ**»[1]. فخارج من هذا النوع من التلبيس، وفي تأويله وجهان:

أحدهما - أنه أراد النَّهي عن الصلاة في المكان المرتفع المحدودب، مأخوذ من النَّبْوَة.

والثاني - أنه أراد الطريق، ومنه سُمِّي رسلُ الله أنبياء؛ لأنَّهم الطرق إليه، وإنما زال عنه التلبيس؛ إذ قاله رسولُ الله ﷺ، وإن كان من قول غيره تلبيسًا شنيعًا؛ لأنَّ موضوع خطابه، وشواهد أحواله، يصرفان كلامَه عن التجوُّز

(١) لم أصل إليه.

والاسترسال في أمرٍ أو نهيٍ إلى ما لا يجوز أن يَرِد به شرعٌ، وينهى عنه نبيٌّ، وليس يمتنع ذلك في غيره، ولذلك افترق وجوده منه ومن غيره.

**ومن آدابه:** أن يجتنبَ أمثالَ العامة الغوغاء، ويتخصَّص بأمثال العلماء والأدباء؛ فإنَّ لكل صنف من الناس أمثالاً تشاكلهم، فلا تجد لساقطٍ إلاَّ مَثَلاً ساقطًا، وتشبيهًا مستقبَحًا، كما قال الصَّنَوْبَريّ:

**وللسُّقَّاط أمثالٌ فمنها ... تمثُّلهم لذي الشيء المريبِ**
**إذا ما كنتَ ذا بَوْلٍ صحيحٍ ... ألا فاضْربْ به وَجْهَ الطَّبيبِ**

ولذلك علتان:

إحداهما - أنَّ الأمثال من هواجس الهِمَم، وخَطَرات النفوس، ولم يكن لذي الهمَّة الساقطة إلاَّ مَثَلٌ مرذول، وتشبيه معلول.

والثانية - أنَّ الأمثال مستخرجةٌ من أحوال المتمثِّلين بها، فبحسب ما هم عليه تكون أمثالهم. فلهاتين العلتين وقع الفَرْقُ بين أمثال الخاصة، وأمثال العامّة، وربما ألف المتخصِّص مَثَلاً عاميًا، أو تشبيهًا رَكيكًا؛ لكثرة ما يطرقُ سمعَه من مخالطة الأَراذل، فيسترسل في ضربه مثلاً، فيصير به في الناس مَثَلاً؛ كالذي حُكِي عن الأصمعيّ: أنَّ الرشيد سأله يومًا عن أنساب بعض العرب، فقال: على الخبيرِ سقطْتَ يا أميرَ المؤمنين. فقال له الفضلُ بن الربيع: أسقَطَ الله جَنْبَيْكَ! أتخاطبُ أميرَ المؤمنين بمثل هذا الخطاب! فكان الفضلُ بن الربيع مع قلَّة علمه، أعلَم بما يستعمل من الكلام في محاورة الخلفاء، من الأصمعيّ الذي هو واحدُ عَصْرِه، وقَرِيعُ دَهْرِه.

وللأمثال من الكلام مواقعُ في الأسماع، وتأثيرٌ في القلوب، لا يكاد الكلام المرسَلُ يبلغ مَبلغها، ولا يؤثر تأثيرها؛ لأنَّ المعاني بها لائحة، والشواهد بها واضحة، والنفوس بها وامقة[1]، والقلوب بها واثقة، والعقول لها موافقة؛ ولذلك ضرب الله الأمثالَ في كتابه العزيز، وجعلَها من دلائل رسله، وأوضَحَ بها الحجَّة على خَلْقه؛ لأنَّها في العقول معقولة، وفي القلوب مقبولة، ولها أربعة شروط:

(١) أي متعلقة مُحبة.

أحدها ـ صحةُ التَّشبيه، وإصابة التمثيل.

والثاني ـ أن يكونَ العلم بها سابقًا، والكُلُّ عليها موافقًا.

والثالث ـ أن يُسْرِعَ وصولها للفهم، ويُعَجِّل تصوُّرَها في الوَهْم، من غير ارتياء في استخراجها، ولا كدٍّ في استنباطها.

والرابع ـ أنْ تناسبَ حال السامع، لتكون أبلغ تأثيرًا، وأحسَنَ موقعًا. فإذا اجتمعت في الأمثال المضروبة هذه الشروط الأربعة، كانت زينةً للكلام، وجلاء للمعاني، وتَدَبُّرًا للأفهام.

## الفصل الثاني

# في الصبر والجزع

اعلم: أن من حسن التوفيق، وأمارات السعادة، الصَّبْرُ على الملمَّات والرفق عند النوازل، وبذلك نزل الكتاب، وجاءت السنة؛ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠). يعني اصْبِروا على ما افترض الله عليكم، وصابروا عدوَّكم. (ورابطوا): فيه تأويلان:

أحدهما ـ رابطوا على الجهاد.

والثاني ـ رابطوا على انتظار الصلوات.

روى أبو هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أدلُّكم على ما يُحبط الله به الخطايا، ويرفعُ به الدَّرَجات**»؟ قالوا: بلى، يا رسولَ الله. قال: «**إسباغُ الوضوء عند المكاره، وكثرةُ الخُطا إلى المساجد، وانتظارُ الصَّلاة بعد الصَّلاة، فذلكم الرِّباط**»[1]. فنزل الكتاب بتأكيد الصَّبر، فيما أمر به ونَدَبَ إليه، وجعلَه من عزائم التَّقوى، فيما افترضه وحثَّ عليه. ورُوِي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**الصَّبْرُ سَتْرٌ من الكروب، وعَوْنٌ على الخطوب**»[2]. وقال عليّ بن أبي طالب ـ كرَّم الله وجهه ـ: الصَّبْرُ مَطيةٌ لا تكبو، والقناعةُ سيفٌ لا ينبو. وقال عبدُ الحميد: لم أسمعْ أعجَبَ من قولِ عُمَرَ بن الخطاب ﷺ: لو أنَّ الصَّبْرَ والشكر بعيران، ما باليت أيَّهما ركِبت. وقال عبد الله بن عباس ﷺ: أفضَلُ العُدَّة الصَّبر على الشدَّة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥١). (٢) لم أصل إليه.

وقال بعضُ البلغاء: من خير خلالك الصَّبرُ على اختلالك. وقيل في منثور الحكم: مَن أحبَّ البقاء، فليُعدَّ للمصائب قلبًا صبورًا. وقال بعضُ الحكماء: بالصَّبر على مواقع الكُرْه تُدْرَك الحظوظ. وقال بعض الشعراء، وهو عبيد بن الأبرص:

**صَبِّرِ النفسَ عندَ كلِّ مُلمٍّ ... إنَّ في الصَّبْرِ حيلةَ المُحتالِ**

**لا تَضيقَنَّ في الأمورِ فَقَدْ تُكْشَفُ ... غَمَّاؤُها بغيرِ احتيالِ**

**ربَّما تَجْزَعُ النُّفوسُ مِنَ الأمْرِ ... له فَرْجَةٌ كَحَلِّ العِقَالِ**

وقال ابن المقفع في كتاب «اليتيمة»: الصَّبْرُ صَبْران؛ فاللئام أصبَرُ أجسامًا، والكرام أصبَرُ نفوسًا، وليس الصَّبْرُ الممدوح صاحبُه، أن يكون الرجلُ قويَّ الجسد على الكدِّ والعمل؛ لأنّ هذا من صفات الحَمير، ولكن أن يكونَ للنفس غَلوبًا، وللأمور متحمِّلاً، ولجأشه عند الحفاظ مُرْتَبِطًا.

**واعلم:** أنَّ الصَّبْرَ على ستة أقسام، وهو في كل قسمٍ منها محمود:

**فأول أقسامه وأوْلاها:** الصَّبْرُ على امتثال ما أمر الله تعالى به، والانتهاء عمَّا نَهَى الله سبحانه عنه؛ لأنَّ به تَخلُص الطَّاعة، وبخلوص الطَّاعة يصحُّ الدِّين، وتؤدَّى الفروضُ، ويُستَحَقُّ الثواب، كما قال في مُحْكَم الكتاب: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠). وقال النبيّ ﷺ: **«الصَّبْرُ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد»**[١].

وليس لمن قلَّ صبرهُ على طاعة الله تعالى حظٌّ من برٍّ، ولا نصيبٌ من صَلاح. ومن لم يَرَ لنفسه صَبْرًا، يكسبها ثوابًا، ويدفع عنها عقابًا، كان مع سوء الاختيار بعيدًا من الرشاد، حقيقًا بالضَّلال. وقد قال الحسن البَصْريّ ـ رحمه الله تعالى ـ: يا من يطلب من الدنيا ما لا يلحقه، أترجو أن تلحقَ من الآخرة ما لا تطلبه؟ وقال أبو العتاهية:

**أراكَ امْرءًا ترجُو مِنَ الله عَفْوَهُ ... وأنتَ على ما لا يُحبُّ مُقيمُ**

**تَدُلُّ على التَّقوى وأنتَ مُقَصِّرٌ ... فيا مَنْ يُداوِي النَّاسَ وَهْوَ سَقيمُ**

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١٧٢) (٣٠٤٣٩)، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٧١) (٤٠)، وأورده الديلمي في «الفردوس» (٢/ ٤١٤) (٣٨٤٠).

وهذا النوع من الصبر إنما يكون لفَرْط الجَزَع، وشدَّة الخوف؛ فإنَّ من خاف الله - عزَّ وجلَّ - صبَرَ على طاعته؛ ومن جَزِع من عقابه، وَقَفَ عند أوامره.

والقسم الثاني - الصبر على ما تقتضيه أوقاته؛ من رَزِيَّة قد أجهدَه الحزن عليها، أو حادثة قد استكدَّه الكمَدُ والهمُّ بها؛ فإنَّ الصَّبر عليها يُعْقبه الراحة منها، ويكْسِبه المَثُوبة عنها، فإنْ صبر طائعًا، وإلاَّ احتمل هَمًّا لازمًا، وصبرَ كارهًا آثمًا.

ورُوِي عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«يقول الله تعالى: من لم يرضَ بقضائي، ويصبِرْ على بلائي، فلْيَخْتَرْ رَبًا سِوَايَ»**[1]. وقال عليّ بن أبي طالب - كرَّم الله وَجْهه - للأشعث بن قيس: إنَّك إن صَبَرْتَ جرى عليك القلَمُ وأنتَ مأجور؛ وإن جَزِعْتَ جرى عليك القلم وأنت مأزور. فذكر ذلك أبو تمام في شعره، فقال:

**وقال عليٌّ في التَّعازي لأشْعَثٍ ... وخافَ عليه بَعْضَ تلكَ المآثِمِ**

**أتصبِرُ للبلْوَى عَزَاءً وَحِسْبَةً ... فتُؤْجَرَ أو تَسلُو سُلُوَّ البهائِمِ**

وقال شَبِيب بن شَيبة للمهديّ: إنَّ أحقَّ ما تصبر عليه، ما لم تجد إلى دفعه سبيلاً، وأنشد:

**ولئنْ تُصِبْكَ مُصيبةٌ فاصْبِرْ لها ... عَظُمَتْ مصيبةُ مُبتلَى لا يَصْبِرُ**

وقال آخر:

**تصبَّرْتُ مغلوبًا وإنِّي لموجَعٌ ... كما صَبَرَ الظمآنُ في البلدِ القَفْرِ**

**وليس اصْطِباري عنك صَبْر استطاعةٍ ... ولكنَّه صَبْرٌ أمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ**

والقسم الثالث - الصَّبْرُ على ما فات إدراكه من رغبة مرجوَّة، وأعوزَ نَيْلُه من مسرَّة مأمولة؛ فإنَّ الصبر عنها يُعقب السلوَّ منها؛ والأسفُ بعد اليأس خُرْق.

ورُوِي عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«من أُعطيَ فشكر، ومُنِع فصبرَ، وظُلِم فغفرَ، وظَلَمَ فاستغفرَ، فأولئك لهم الأمنُ وهم مهتدُون»**[2].

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٠٧)، والأوسط (٧/ ٢٠٢)، (٨/ ١٩٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠٠)، بزيادة «بقضائي وقدري».

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦٦١٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٤٣١). عن عبد الله بن سخبرة عن النبي ﷺ قال الترمذي في رواية حديث لسخبرة: «ضعيف الإسناد لا يعرف لعبد الله ولا لأبيه كبير شيء» قلت: جزم به ابن أبي خيثمة وابن حبان وغيرهم، وانظر: «تهذيب التهذيب» (٣/ ٤٥٤).

وقال بعض الحكماء: اجعَلْ ما طلبته من الدنيا فلم تنلْه، مثل ما لم يخطر ببالك فلم تَقُلْه. وقال بعضُ الشعراء:

**إذا ملك القضاءُ عليك أمرًا فليس يَحُلُّه غيرُ القضاءِ**
**فما لكَ والمُقامُ بدار ذُلٍّ ودارُ العزِّ واسعةُ الفضاءِ**

وقال بعضُ الحكماء: إن كنْتَ تجزع على ما فات من يدك، فاجْزَعْ على ما لا يصل إليك. فأخذه بعضُ الشعراء، فقال:

**لا تُطِلِ الحُزْنَ على فائتٍ فقلَّما يُجْدي عليكَ الحَزَنْ**
**سِيَّان محزونٌ على فائتٍ ومُضمِرٌ حزنًا لما لم يَكُنْ**

**والقسم الرابع** - الصبر فيما يُخشَى حدوثه من رَهبة يخافها، أو يحذَر حلولَه من نكبة يخشاها، فلا يتعجَّلْ هَمَّ ما لم يأت؛ فإنَّ أكثر الهموم كاذبة، وإنَّ الأغلبَ من الخوف مدفوع. وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**بالصَّبْر يُتَوقَّعُ الفَرَجُ، ومن يُدْمِنْ قَرْعَ بابٍ يَلِج**»[1]. وقال الحسن البصريّ - رحمه الله -: لا تحملَنَّ على يومكَ همَّ غدك، فحسبُ كُلِّ يومٍ همُّه. وأنشدَ الجاحظُ لحارثة بن بدر:

**إذا الهمُّ أمسَى وَهْوَ داءٌ فأَمْضِهِ ولسْتَ بمُمْضيه وأنتَ تُعادِلُهْ**
**ولا يَنْزِلَنْ أَمْرُ الشَّديدة بامْرِئٍ إذا همَّ أمرٌ أَعْوَقَتْه عَوَاذِلُهْ**
**وقلْ لفؤادٍ إن نَزَا بكَ نَزْوَةً منَ الرَّوْعِ: أَفْرِخْ، أكثَرُ الهمِّ باطلُهْ**[2]

**والقسم الخامس** - الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها، وينتظره من نعمة يأمُلُها؛ فإن أدهشه التوقُّع لها، وأذهلَه التطلُّع إليها، انسدَّت عليه سُبُل المطالب، واستفزَّه تسويلُ المطامع، فكان أبعد لرجائه، وأعظم لبلائه؛ وإذا كان مع الرَّغبة وقورًا، وعند المطلب صَبورًا، انجلَتْ عنه عَمايةُ الدَّهَش، وانجابَت عنه حَيرة الوَلَه، فأبصرَ رُشْدَه، وعرَفَ قصدَه. وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**الصَّبر ضياء**»[3]. يعني - والله أعلم - أنه يكشف ظُلَم الحَيرة، ويوضِّحُ حقائقَ الأمور.

---

(١) لم أصل إليه.
(٢) افرخ: يُقال: أَفْرَخَ فؤاده: انكشف عنه الفزع.
(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي طالب الأشعري.

وقال أكثم بن صيفي: من صبَر ظَفِر. وقال ابنُ المقفّع: كان مكتوبًا في قصر أردشير: الصبر مفتاح الدَّرْك. وقال بعضُ الحكماء: بحسن التأنِّي تسهُل المطالب. وقال بعضُ البلغاء: من صبَرَ نال المُنَى، ومن شكَر حَصَّنَ النُّعْمَى. وقال محمد ابن يسير:

إنَّ الأمورَ إذا انْسدَّتْ مطالبُها ... فالصَّبْرُ يَفْتَحُ منها كُلَّ ما ارْتَتَجا[1]
لا تَيْأَسَنَّ وإنْ طالَتْ مُطالَبَةٌ ... إذا اسْتَعَنْتَ بصَبْرٍ أن تَرَى فَرَجا
أخلِقْ بذي الصَّبْرِ أن يَحْظَى بحاجَتِه ... ومُدْمِنِ القَرْعِ للأبوابِ أن يَلِجَا

**والقسم السادس** - الصَّبْر على ما نزل من مكروه، أو حلَّ من أمرٍ مَخوف، فبالصبر في هذا تنفتح وجوه الآراء، وتُسْتدفَع مكايد الأعداء؛ فإنَّ مَن قَلَّ صبرُه، عَزَبَ[2] رأيه، واشتدَّ جزعه، فصار صريعَ همومه، وفريسةَ غُمُومه. وقد قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان: ١٧).

ورُوِي عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«إن استَطَعْتَ أن تعملَ لله بالرِّضا في اليقين فافْعَلْ، وإن لم تستطعْ فاصْبِرْ؛ فإنَّ في الصَّبرِ على ما تكره خيرًا كثيرًا، واعلَمْ أنَّ النَّصْرَ مع الصَّبر، والفَرَجَ مَع الكَرْبِ، واليُسْرَ مع العُسْرِ»**[3].

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: الصَّبْرُ مُستأصِل الحدْثان[4]، والجَزَعُ من أعوان الزَّمان[5]. وقال بعضُ الحكماء: بمفتاح عزيمة الصَّبر تُعالَجُ مغاليق الأمور. وقال بعض البلغاء: عند انسداد الفُرَج، تبدو مطالع الفَرَج. ورَوَى ابنُ عباس رضي الله عنهما، أنَّ سليمان بن داود - عليهما السلام -، لما استكدَّ[6] شياطينه في البناء، شكَوا ذلك إلى إبليسَ - لعنه الله -، فقال: ألستم تذهبون فُرَّغًا وترجعون مشاغيلَ؟ قالوا: بلى. قال: ففي ذلك لكم راحة. فبلغ ذلك سليمان - على نبينا وعليه السلام -،

---

(١) أي أُغلق. (٢) أي ضلَّ.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٦٣٠٣)، وهناد في «الزهد» (٥٣٦) (١/ ٣٠٤).

(٤) الحدثان: نوائب الدهر ومصائبه.

(٥) الجزع: نقيض الصبر، يريد أن الجزع لا يفيد صاحبه ولا يعينه بل يعين الزمان عليه.

(٦) أي: استفرغ جهدهم وأتعبهم.

فشغلهم ذاهبين وراجعين، فشكَوْا ذلك إلى إبليس - لعنه الله -، فقال: ألستم تستريحون بالليل؟ قالوا: بلى. قال: ففي هذا راحة لكم نصفَ دهركم. فبلغ ذلك سليمان - عليه السلام -، فشغلهم بالليل والنهار، فشكَوا ذلك إلى إبليس - لعنه الله -، فقال: الآن جاءكم الفرَج. فما لبثوا أن أصيبَ سليمان - عليه السلام - ميتًا على عصاه.

فإذا كان هذا في نبيٍّ من أنبياء الله، يعمل بأمره، ويقف على حدِّه، فكيف بما جرت به الأقدار من أيد عادية، وساقه القضاء من حوادث نازلة، هل تكونُ مع التناهي إلاَّ منقرضةً، وعندَ بلوغ الغاية إلاَّ منحسرة؟! وأنشد بعض الأدباء لعثمان ابن عفان ﷺ.

**خليليَّ لا والله ما من مُلِمَّةٍ تَدُومُ على حَيٍّ وإن هي جَلَّتِ**
**فإنْ نَزَلَتْ يومًا فلا تخضَعَنْ لها ولا تُكثِر الشكوَى إذا النَّعلُ زَلَّتِ**
**فكم من كريم قد بُلِي بنوائبٍ فصابَرها حتَّى مضت واضمحلَّتِ**
**وكم غَمْرةٍ هاجت بأمواج غَمْرةٍ تلقيتُها بالصَّبْر حتَّى تَجَلَّتِ**
**وكانتْ عَلَى الأيام نفسي عزيزةً فلمَّا رأتْ صَبري عَلَى الذُّلِّ ذلَّتِ**
**فقلْتُ لها يا نفسُ موتي كريمةً فقد كانت الدنيا لنا ثم وَلَّتِ**

ولتسهيل المصائب وتخفيف الشدائد أسباب، إذا قارنَتْ حَزْمًا، وصادفَتْ عزْمًا، هان وقعُها، وقلَّ تأثيرُها وضَرَرُها.

**فمنها:** استشعارُ النفس بما تعلمه من نزول الفناء، وتقضِّي المَسار[1]، وأنَّ لها آجالاً مُنصرمةً، ومُدداً منقضيةً، إذ ليس للدنيا حال تدوم، ولا لمخلوق فيها بقاء. وَرَوَى ابنُ مسعود ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: **«ما مَثَلي ومَثَلُ الدُّنيا إلاَّ كمثل راكبٍ، مال إلى ظلِّ شجرةٍ في يوم صائف، ثمَّ راح وتركها»**[2].

وسُئل عليّ بنُ أبي طالب ﷺ عن الدنيا، فقال: تَغُرّ وَتَضُرّ وتُمرّ. وسأل بعضُ خلفاء بني العباس جليسًا له عن الدنيا، فقال: إذا أقبلَتْ أدبرَتْ. وقال عمرو بن عُبيد: الدنيا أَمَدٌ، والآخرة أبَد. وقال أنوشِروان: إن أحببْتَ ألاَّ تغتمَّ، فلا تَقْتَنِ ما به تهتمُّ. فأخذَه بعضُ الشعراء، فقال:

---

(١) أي انتهاء المسرات.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٣٢٧)، بلفظه، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٧٨٥٩)، بلفظ: «... إنما مثلي...».

ألم ترَ أنَّ الدهرَ مِن سوءِ فِعْلِه يُكدِّرُ ما أعطى ويسلُبُ ما أَسْدَى
فمنْ سرَّه ألاّ يَرَى ما يسوؤه فلا يتَّخِذْ شيئًا يَخافُ لهُ فَقْدَا

وأنشد بعضُ الحكماء:

لحكيمنا بِقْراطَ خيرُ قضيَّةٍ ووصيَّةٍ تنفي الهمومَ الرُّكَّدَا
قال الهمومُ تكونُ مِن طَبعِ الوَرَى في لُبْث ما في طبعه أن يَنْفَدا
فإذا اقتنيْتَ مِن الزجاجةِ قابلاً للكسر فانكسرَتْ فلا تَكُ مُكْمَدَا

وأنشدني بعضُ أهل العلم لسعيد بن مُسلم:

إنَّما الدنيا هِبَاتٌ وَعَوارٍ مُسْتَرَدَّهْ[1]
شِدَّةٌ بَعْدَ رَخاءٍ وَرَخَاءٌ بَعْدَ شِدَّهْ

ولما قُتل بزرجمهر وجد في جيب قميصه رقعةٌ فيها مكتوب: إذا لم يكن جَدٌّ[2] ففيم الكدُّ؟ وإن لم يكن للأمر دوام، فَفيم السرورُ؟ وإذا لم يُرِدِ الله دوامَ مُلْك، ففيم الحيلةُ؟ وقال ابنُ الروميّ:

رأيتُ حَياةَ المرءِ رَهْنًا بموتِه وصحتَهُ رَهْنًا كذلك بالسُّقْم
إذا طابَ لي عَيْشٌ تنغَّصَ طِيبُه بِصِدْقِ يقيني أنْ سيذهَبُ كالحُلْم
وَمَن كان في عيشٍ يراعي زوالَهُ فذلك في بؤس وإن كان في نُعْم

ومنها: أن يتصوّر انجلاء الشدائد، وانكشافَ الهموم، وأنَّها تتقدَّر بأوقات لا تنصرم قبلَها، ولا تستديم بعدها، فلا تَقْصُرُ بجزَع، ولا تطول بصبْر، وأنَّ كُلَّ يوم يمرّ بها، فهو يذهب منها بشَطْر، ويأخذ منها بنصيب، حتى تنجليَ وهو عنها غافل. وحُكِي أنَّ الرشيد حَبَس رجلاً، ثم سأل عنه بعد زمان، فقال للموكَّل به: قُلْ له: كُلُّ يوم يمضي من نعيمك، يمضي من بؤسي مثلُه، والأمرُ قريب، والحُكم لله تعالى. فأخذ هذا المعنى بعضُ الشعراء، فقال:

لو أنَّ ما أنتمُ فيه يَدُومُ لكُمْ ظننْتُ ما أنا فيه دائمًا أبدَا
لكنَّني عالم أنّي وأنكمُ سَنَسْتَجِدُّ خلافَ الحالتَيْن غدَا

---

(١) عوارٍ: جمع عاريَّة، وهي ما يُستعار ثم يُردّ إلى صاحبه. (٢) أي حظ.

وأُنشدتُ لبعض الشعراء:

عواقبُ مكروهِ الأمورِ خيارُ ... وأيامُ ضُرٍّ لا تدومُ قِصارُ
وليس بباقٍ بؤسُها ونعيمُها ... إذا كرَّ ليلٌ ثم كرَّ نهارُ

وأنشد عمر بن الخطاب ﷺ حين حضرته الوفاة:

ألم ترَ أنَّ ربَّكَ ليس تُحْصَى ... أياديه الحديثةُ والقديمهْ
تَسَلَّ عن الهمومِ فليس شيءٌ ... يُقيمُ ولا همومُك بالمقيمهْ
لعلَّ الله ينظرُ بعدَ هذا ... إليكَ بنظرةٍ منه رَحيمهْ

ومنها: أن يَعلَم أنَّ فيما وُقِيَ من الرزايا، وكُفِي من الحوادث، ما هو أعظم من رزيته، وأشدُّ من حادثته، ليَعلم أنه ممنوحٌ بحسن الدفاع، ولذلك قال النبي ﷺ: «إن لله تعالى في أثناء كلِّ محنةٍ منْحةً»[1]. وقيل للشَعبيِّ في نائبة: كيف أصبحْتَ؟ قال: بين نعمتين: خير منشورٍ، وشرٍّ مستور. وقال بعضُ الشعراء:

لا تَكْرَهِ المكروهَ عندَ حُلولِهِ ... إنَّ العواقبَ لم تَزَلْ متباينهْ
كم نعمةٍ لا تستقلُّ بشكرها ... لله في طَيِّ المكارهِ كامنَهْ

ومنها: أن يتأسَّى بذوي الغِيَر[2]، ويتسلَّى بأُولي العِبَر، ويعلم أنهمُ الأكثرون عَدَدًا، والأسرعون مَدَدًا، فيستجدُّ من سَلوة الأسى، وحُسن العَزَاء، ما يخفِّفُ شَجْوَهُ[3]، ويُقلُّ هلَعه. وقال عمر بن الخطاب ﷺ: الصَقُوا بذَوي الغِيَر، تتسعْ قلوبكم. وعلى مثل ذلك كانت مراثي الشعراء؛ قال البُحْتُريّ:

فلا عَجَبٌ للأُسْدِ إنْ ظَفِرَتْ بها ... كِلابُ الأعادي مِنْ فَصيحٍ وأعْجَمِ
فَحرْبَةُ وحْشيٍّ سَقَتْ حَمْزَةَ الرَّدَى ... ومَوْتُ عليٍّ مِن حُسامِ ابنِ مُلْجَمِ

وقال أبو فراس:

المرءُ بين مصائبٍ لا تنقضي ... حتَّى يُوارَى جسمُه في رَمْسِهِ
فمُؤَجَّلٌ يلقَى الرَّدَى في أهلِهِ ... ومُعَجَّلٌ يلْقَى الرَّدى في نَفْسِهِ

---

(١) لم أصل إليه. (٢) أصحاب المصائب. (٣) أي همه وحزنه.

**ومنها**: أن يعلم أنَّ النعم زائرة، وأنَّها لا محالة زائلة، وأنَّ السرور بها إذا أقبلَتْ، مَشُوبٌ بالحذَر من فراقها إذا أدبرَتْ، وأنَّها لا تمزج بإقبالها فَرَحًا، حتى تُعقب بفراقها تَرَحًا؛ فعلى قدر السرور يكون الحُزن. وقد قيل في منثور الحِكَم: المفروحُ به هو المحزون عليه، وقيل: مَنْ بَلَغَ غايةَ ما يحبُّ، فليتوقَّعْ غايةَ ما يكرَه. وقال بعضُ الحكماء: مَن عَلِم أنَّ كل نائبة إلى انقضاء، حَسُن عزاؤه عند نزول البلاء. وقيل للحسن البَصْريِّ ـ رحمه الله ـ: كيف ترى الدنيا؟ قال: شغلني توقُّع بلائها عن الفرح برَخائها. فأخذه أبو العتاهية، فقال:

**تزيدُه الأيامُ إن أقبلَتْ ... شدَّةَ خَوفٍ لتصاريفها**
**كأنَّها في حال إسعافها ... تُسْمِعُه وَقعَةَ تخويفها**

**ومنها**: أن يعلَمَ أن سروره مقرون بمساءة غيره، وكذلك حزنه مقرون بسرور غيره؛ إذ كانت الدنيا تنتقل من صاحب إلى صاحب، وتصل صاحبًا بفراق صاحب، فتكون سرورًا لمن وصلته، وحزنًا لمن فارقته؛ وقد قال النبيّ ﷺ: **«ما قُرِعَتْ عصًا على عَصًا، إلاَّ فَرِحَ لها قوم، وحَزِنَ آخرون»**[1]. وقال البُحْتريّ:

**مَتَى أرَتِ الدُّنيا نَبَاهةَ خاملٍ ... فلا تَرْتَقِبْ إلاَّ خُمُولَ نَبِيهِ**

وقال المتنبي:

**بذَا قَضَتِ الأيامُ ما بينَ أهْلِها ... مَصَائبُ قومٍ عندَ قَوْمٍ فوائدُ**

وأنشد بعض أهل الأدب:

**ألا إنَّما الدُّنيا غَضَارَةُ أيكةٍ ... إذا اخْضَرَّ منها جانبٌ جفَّ جانبُ**
**فلا تفرحَنْ منها لشيء تفيدُه ... سيذهبُ يومًا مثلَ ما أنتَ ذاهبُ**
**وما هذه الأيام إلاَّ فجائعٌ ... وما العيشُ واللَّذاتُ إلاَّ مصائبُ**

**ومنها**: أن يعلَمَ أنَّ طوارقَ الإنسان مِن دلائلِ فضله، ومِحَنَه من شواهدِ نُبْله، وذلك لإحدى علَّتين:

١ ـ إمَّا لأنَّ الكمال مُعْوِز، والنقص لازم، فإذا تواتر الفضل عليه، صار النقص

---

(١) لم أصل إليه.

فيما سواه، وقد قيل: مَن زاد في عقله نَقَصَ من رزقه. ورُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ما انْتُقِصَتْ جارحةٌ من إنسان إلاّ كانت ذَكاءً في عقله»(٢). وقال أبو العتاهية:

مـا جـاوَزَ المرءُ من أطرافـه طَرَفًـا ... إلاّ تـخـوَّنه النقـصـانُ مِن طَرَفِ

وأنشدني بعضُ أهل الأدب لإبراهيم بن هلال الكاتب:

إذا جـمَـعَتْ بين امْـرَأَيِنِ صِناعـةٌ ... فـأحـبـبْتَ أن تدري الذي هُوَ أحْذَقُ

فلا تتفقّدْ منهما غيرَ ما جرَتْ ... به لهـمـا الأرزاقُ حين تفـرَّقُ

فـحـيثُ يكونُ النَّقْصُ واسعٌ ... وحيثُ يكون الفضْلُ فالرِّزق ضيِّقُ

٢ ـ وإما لأنَّ ذا الفضل محسود، وبالأذى مقصود، فهو لا يسلم من تِرَةِ مُعادٍ، واشتطاطِ مناوٍ، وقد قال الصَّنَوْبَرِيُّ:

مِحَنُ الفتَى يُخْبِرْنَ عن فَضْلِ الفتَى ... كـالنَّار مـخـبـرةً بفـضْلِ العَنْبَـرِ

وقلّما تكون محنةُ فاضلٍ إلاّ من جهة ناقص، وبلْوَى عالم إلاّ على يد جاهل، وذلك لاستحكام العداوة بينهما بالمباينة، وحدوث الانتقام لأجل التقدّم، وقد قال الشاعر:

فـلا غَـرْوَ أن يُمْنَى عليمٌ بجـاهلٍ ... فـمِنْ ذَنَبِ التِّنِّينِ تنكسِفُ الشَّمسُ

**ومنها:** ما يعتاضُه من الارتياض بنوائب عَصْره، ويستفيدُه من الحُنكة ببلاء دَهْره، فيصلُب عودُه، ويكملُ بأدنى شدَّته ورخائه، ويتّعظ بحالتي عَفْوه وبلائه. حكي عن ثعلب، قال: دخلْتُ على عُبيد الله بن سليمان بن وَهْب وعليه خِلَع الرِّضا بعد النَّكبة؛ فلما مَثَلْتُ بين يديه قال لي: يا أبا العباس، اسمع ما أقول:

نـوائـبُ الـدهـر أدَّبـتـنـي ... وإنَّـمـا يُـوعَـظُ الأديـبُ

قـد ذُقْتُ حُلْوًا وذُقْتُ مُـرًّا ... كـذاكَ عـيشُ الفـتَى ضُـروبُ

لم يمضِ بؤسٌ ولا نَعـيـمٌ ... إلاّ ولي فـيـهـمـا نصـيبُ

كـذاكَ مَنْ صَاحَبَ الليالي ... تـغـذُوه مـن دَرِّها الخطوبُ

---

(١) لم أصل إليه.

فقلت: لمن هذه الأبيات؟ قال: لي.

ومنها: أن يختبرَ أمورَ زمانه، ويتنبه على صلاح شأنه، فلا يغترَّ برخاء، ولا يطمَع في استواء، ولا يؤمِّلَ أن تبقى الدنيا على حالة، أو تخلوَ من تقلُّب واستحالة؛ فإنَّ مَن عرف الدنيا وخبُرَ أحوالَها، هان عليه بؤسُها ونعيمُها. وأنشد بعض الأدباء:

إنّي رأيْتُ عواقبَ الدُّنيا ... فتركْتُ ما أهوَى لما أخشَى

فكَرْتُ في الدنيا وعالَمِها ... فإذا جميعُ أمورِها تَفْنَى

وبلَوْتُ أكثرَ أهلها فإذا ... كُلُّ امرئٍ في شأنه يَسْعَى

أسنَى منازلِها وأرفعُها ... في العزِّ أقربُها من المَهْوَى

تعفو مَساويها محاسِنَها ... لا فَرْقَ بينَ النعْيِ والبشرى[1]

ولقد مررْتُ على القبور فما ... ميَّزْتُ بينَ العبدِ والمولَى

أتُراكَ تذكر كم رأيتَ من ... حيٍّ ثم رأيتَهمْ موتَى

فإذا ظفرَ المصابُ بأحد هذه الأسباب، تخففت عنه أحزانه، وتسهّلَتْ عليه أشجانه، فصار وَشيكَ السَّلْوة، قليلَ الجزَع، حسنَ العَزاء. قال بعضُ الحكماء: من حاذر لم يَهْلع، ومن راقب لم يجزَعْ، ومن كان متوقِّعًا لم يكن متوجِّعًا. وقال بعضُ الشعراء:

ما يكونُ الأمرُ سهلاً كلُّه ... إنما الدنيا سرورٌ وحُزُونْ

هَوِّنِ الأمرَ تعِشْ في راحةٍ ... قلَّما هوَّنتَ إلاَّ سيهونْ

تطلبُ الرَّاحةَ في دارِ العَنا ... ضَلَّ مَنْ يطلبُ شيئًا لا يكونْ

فإنْ أغفل نفسه عن دواعي السَّلْوة، ومنعها من أسباب الصَّبْر، تضاعف عليه من شدَّة الأسَى، وهمِّ الجزع، ما لا يُطيق صبرًا عليه، ولا يجد سُلُوًا عنه. وقال ابن الرومي:

إنَّ البلاءَ يُطاقُ غيرَ مضاعفٍ ... فإذا تضاعفَ صار غيرَ مُطاقِ

---

(١) تعفو: أي تُزيل معالمها فلا يبقى سوى آثارها.

فإذا ساعده جَزَعُه بالأسباب الباعثة عليه، وأمدَّه هَلَعُه بالذَّرائع الدَّاعية إليه، فقد سعَى في حَتْفه، وأعانَ على تَلَفه.

**فمن أسباب ذلك:** تذكُّر المصاب حتى لا يتناساه، وتصوُّره حتى لا يعزُبُ عنه، ولا يجدُ من التذكار سَلْوَة، ولا يخلط مع التصوُّر تعزية، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تستفزوا الدُّموع بالتذكّر. وقال الشاعر:

**ولا يبعث الأحزانَ مثلُ التذكر**

**ومنها:** الأسَفُ وشدَّة الحسرة، فلا يرى من مُصابه خَلَفًا، ولا يجد لمفقوده بدلاً، فيزداد بالأسف وَلَهًا، وبالحسرة هَلَعًا، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ (الحديد:٢٣). وقال بعضُ الشعراء:

**إذا ابتليتَ فثِقْ بالله وارْضَ به ... إنَّ الذي يكشِفُ البَلْوَى هو اللهُ**

**إذا قَضَى الله فاسْتسلمْ لقدرتهِ ... ما لامرئٍ حيلةٌ فيما قضَى اللهُ**

**اليأسُ يَقْطَعُ أحيانًا بصاحبه ... لا تيأسنَّ فإنَّ الصانعَ اللهُ**

**ومنها:** كثرةُ الشكوَى، وبثُّ الجزَع، وقد قيل في قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ (المعارج:٥). إنَّه الصَّبْر الذي لا شكوى فيه ولا بثّ. روَى أنس بن مالك أنَّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «**ما صَبَرَ من بَثَّ**»[1]. وحكى كعبُ الأحبار، أنه مكتوب في التوراة: مَن أصابته مصيبة فشكا إلى الناس، فإنما يشكو ربه. وحُكي أنَّ أعرابية دخلت من البادية، فسمعَتْ صوارخ في دار، فقالت: ما هذا؟ فقيل لها: مات لهم إنسان. فقالت: ما أراهم إلاَّ من ربِّهم يستغيثون، وبقضائه يتبَرَّمون، وعن ثوابه يرغبون. وقد قيل في منثور الحكَم: مَنْ ضاق قلبُه اتَّسَع لسانه. وأنشَدَ بعضُ أهل العلم:

**لا تُكثِر الشَّكوى إلى الصَّديقِ ... وارْجِع إلى الخالق لا المخلوقِ**

**لا يخرُجُ الغريقُ بالغريقِ**

وقال بعض الشعراء:

---

(١) الحديث بتمامه: «من كنوز البر: كتمان المصائب، وما صبر من بث»، موضوع، رواه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ٤٢).

لا تشكُ دَهْرَك ما صَحَحْتَ به ... إن الغِنَى هو صِحَّةُ الجِسْم
هَبْكَ الخليفةَ كنْتَ منتفعًا ... بغضارة الدنيا مع السَّقَم

**ومنها:** اليأسُ من جَبْر مُصابه، ودَرْك طلابه[1]، فيقترن بحزن الحادثة قنوطُ الإياس، فلا يبقى معهما صبْر، ولا يتَّسع لهما صَدْر. وقد قيل: المصيبة بالصَّبر أعظم المصيبتين. وقال ابن الروميّ:

اصبري أيَّتها النَّفْسُ ... فإنَّ الصَّبْرَ أحْجى[2]
رُبَّما خاب رجاءٌ ... وأتى ما ليسَ يُرْجَى

وأنشدني بعض أهل العلم:

أتحسبُ أنَّ البؤسَ للحرِّ دائمٌ ... ولو دام شيء عدَّه النَّاس في العَجَبْ
لقد عَرَّفَتْك الحادثاتُ ببؤسِها ... وقد أدَّبَتْ إن كان ينفعُك الأدَبْ
ولو طلب الإنسانُ مِن صَرْف دَهره ... دوامَ الذي يخشَى لأعياه ما طلَبْ

**ومنها:** أن يَعْزَى[3] بملاحظة من حيطت سلامتُه، وحُرِست نعمته، حتى التحفَ بالأمن والدَّعَة، واستمتع بالثروة والسَّعَة، ويرى أنه قد خُصَّ من بينهم بالرَّزيَّة بعد أن كان مساويًا، وأُفرِد بالحادثة بعد أن كان مكافيًا، فلا يستطيع صَبْرًا على بَلْوى، ولا يلتزم شكرًا على نُعْمَى، ولو قابل بهذه النظرة ملاحظة مَن شاركه في الرَّزية، وساواه في الحادثة، لتكافأ الأمران، فهان عليه الصَّبْرُ، وحان منه الفرح، وأُنشدت لامرأة من العرب:

أيُّها الإنسانُ صَبْرًا ... إنَّ بعدَ العُسْر يُسرا
كم رأينا اليومَ حُرًا ... لم يكن بالأمس حُرًا
ملك الصبرَ فأضحى ... مالكًا خيرًا وشرًا
اشربِ الصَّبْرَ وإن كانَ ... مِن الصَّبْرِ أَمَرًّا[4]

---

(١) أي ما يطلبه. (٢) أي أليق بالعاقل. (٣) أي يحرص ويهتم.

(٤) الصَّبْر: أصلها الصبر بالكسر، وسكنت الباء لضرورة الشعر، والصبِر دواء مر.

وأُنشدت لبعض أهل الأدب:

**يُراعُ الفتى للخطْبِ تبدو صدورُه ... فيأسَى وفي عُقباه يأتي سرورُهُ**

**ألم تَرَ أنَّ الليلَ لمَّا تراكمتْ ... دُجاه بدا وجهُ الصَّباح ونورُهُ**

**فلا تصحبنَّ اليأسَ إن كنتَ عالمًا ... لبيبًا فإنَّ الدَّهْرَ شتَّى أمورُهُ**

واعلم: أنه قلَّ مَن صبَّر على حادثة، وتماسك في نكبة، إلاَّ كان انكشافُها وشيكًا، وكان الفرج منه قريبًا.

أخبرني بعضُ أهل الأدب أنَّ أبا أيوبَ الكاتب حُبس في السجن خمسَ عشرةَ سنةً حتى ضاقت حيلته، وقلَّ صبرُه، فكتبَ إلى بعض إخوانه يشكو له طول حبسه وقلَّة صبره، فردَّ عليه جوابَ رقعته بهذا:

**صَبْرًا أبا أيوبَ صَبْرَ مُبَرَّحٍ ... فإذا عجزْتَ عن الخطوب فمنْ لَها؟**

**إن الذي عَقَدَ الذي انعقدتْ له ... عُقَدُ المكاره فيك يَملكُ حَلَّها**

**صَبْرًا فإنَّ الصَّبْرَ يعقبُ راحةً ... ولعلَّها أن تنجلي ولعلَّها**

فأجابه أبو أيوب يقول:

**صَبَّرتني ووعظتني وأنا لها ... ستنجلي بَلْ لا أقولُ لعلَّها**

**ويَحُلُّها مَن كان صاحبَ عَقْدِها ... كَرَمًا به إذ كان يملكُ حَلَّها**

قال: فلم يلبث بعد ذلك في السجن إلاَّ أيامًا، حتى أطلق مُكَرَّمًا. وأنشد ابنُ دُريد عن أبي حاتم:

**إذا اشتملَتْ على اليأس القلوبُ ... وضاقَ لما به الصَّدْرُ الرَّحيبُ**

**وَأَوْطَنَتِ المكارهُ واطْمأنَّتْ ... وأرسَتْ في مكامنها الخطوبُ**

**ولم تَرَ لانكشافِ الضُّرِّ وَجْهًا ... ولا أغنَى بحيلته الأريبُ**

**أتاكَ على قُنوطٍ منكَ غَوْثٌ ... يَمُنُّ به اللطيفُ المستجيبُ**

**وكُلُّ الحادثاتِ إذا تناهَتْ ... فموصولٌ بها الفَرَجُ القريبُ**

## الفصل الثالث

# فـي المشـورة

**اعلم:** أنّ من الحزم لكُلِّ ذي لُبّ، ألاّ يُبرِمَ أمرًا، ولا يُمْضِيَ عزمًا، إلاّ بمشورة ذي الرأي الناصح، ومطالعة ذي العقل الراجح، فإنّ الله تعالى أمر بالمشورة نبيَّه ﷺ، مع ما تكفَّل به من إرشاده، ووعد به من تأييده، فقال تعالى: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾ (آل عمران: ١٥٩).

قال قتادة: أمرَه بمشاورتهم تألُّفًا لهم، وتطييبًا لأنفسهم. وقال الضحاك: أمره بمشاورتهم، لَمَا علم فيها من الفضل. وقال الحسن البصريّ ـ رحمه الله تعالى ـ: أمره بمشاورتهم ليستنَّ به المسلمون، ويَتْبَعَهُ فيها المؤمنون، وإن كان عن مشورتهم غنيًا. ورُوِي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**المشورةُ حِصْنٌ من الندامة، وأمانٌ من الملامة**»[(١)].

وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ: نعم المُوَازرة المشاورة، وبئس الاستعداد الاستبداد. وقال عمر بن الخطاب ﷺ: الرجال ثلاثة: رجل تَرِدُ عليه الأمور فيصدرها برأيه؛ ورجل يشاور فيما أشكل عليه، وينزل حيث يأمره أهل الرأي؛ ورجل حائر بائر[(٢)]، لا يأتمر رُشْدًا، ولا يطيع مُرشدًا.

وقال عمر بن عبد العزيز: إن المشورة والمناظرة بابا رحمةٍ، ومفتاحا بَرَكةٍ، لا يضلُّ معهما رأي، ولا يُفقد معهما حَزْم.

وقال سيفُ بن ذي يَزَن: مَنْ أُعْجِبَ برأيه لم يشاورْ، ومن استبدَّ برأيه كان من الصواب بعيدًا. وقال عبد الحميد: المشاوِر في رأيه ناظر من ورائه.

وقيل في منثور الحكم: المشاورة راحة لك، وتعب على غيرك. وقال بعضُ الحكماء: الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنَى برأيه. وقال بعضُ الأدباء: ما خابَ من استخار، ولا ندمَ من استشار. وقال بعضُ البلغاء: من حَقِّ العاقلِ أن يضيف إلى رأيه آراء العقلاء، ويجمع إلى عقله عقول الحكماء، فالرأي الفذّ[(٣)] ربما زلّ، والعقل الفَرْدُ ربما ضلّ. وقال بشار بن بُرد:

---

(١) أورده في «فيض القدير» بلفظ: «المشاورة حصن» الحديث (١/ ٢٧٥)، على أنه قول علي ﷺ.

(٢) أي فاسد هالك. (٣) أي المنفرد.

إذا بلغ الرأيُ المشورةَ فاستعنْ ... برأي نَصيحٍ أو نَصيحةِ حازمِ
ولا تَجْعَلِ الشُّورَى عليكَ غَضاضةً ... مكانُ الخَوافي قُوَّةٌ للقوادمِ[1]

فإذا عزم على المشاورة ارتاد لها من أهلها مَنْ قد استُكملت فيه خمسُ خصال:

إحداهنَّ - عقلٌ كامل، مع تجربة سالفة، فإنه بكثرة التجارب تصح الرويَّة، وقد روَى أبو الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ، أنه قال: «استرشدوا العاقل تَرْشُدوا، ولا تعصُوه فتندموا»[2]. وقال عبد الله بن الحسن لابنه محمد: احذرْ مُشاوَرة الجاهل وإن كان ناصحًا، كما تحذر عداوة العاقل إذا كان عدوًا، فإنه يُوشك لأن يُورِّطَك بمشاورته، فيسبق إليك مكرُ العاقل، وتوريطُ الجاهل.

وقيل لرجل من عبس: ما أكثرَ صوابَكُم؟ قال: نحن ألفُ رجل، وفينا حازم، ونحن نطيعه، فكأنا ألف حازم. وكان يقال: إياك ومشاورةَ رجلين: شابٌّ معجَب بنفسه، قليل التجارب في غيره؛ أو كبير قد أخذ الدَّهرُ من عقله، كما أخذ من جسمه، وقيل في منثور الحكم: كل شيء يحتاج إلى العقل، والعقل يحتاج إلى التجارب، ولذلك قيل: الأيام تَهتك لك عن الأستار الكامنة. وقال بعض الحكماء: التجاربُ ليست لها غاية، والعاقل منها في زيادة. وقال بعضُ الحكماء. مَن استعان بذوي العقول، فاز بدَرْك المأمول. وقال أبو الأسود الدؤلي:

وما كُلُّ ذي لبٍّ بمؤتيكَ نصحَهُ ... ولا كُلُّ مؤتٍ نصحَه بلبيبِ
ولكنْ إذا ما استُجمِعا عندَ صاحبٍ ... فحُقَّ له مِن طاعةٍ بنصيبِ

والخصلة الثانية - أن يكونَ ذا دين وتُقىً، فإنَّ ذلك عمادُ كُلِّ صلاحٍ، وبابُ كُلِّ نجاح، ومَن غلَب عليه الدِّين، فهو مأمون السريرة، موفَّق العزيمة. روَى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أراد أمرًا فشاوَرَ فيه امرءًا مسلمًا، وفَّقه الله لأرشد أموره»[3].

والخصلة الثالثة - أن يكون ناصحًا ودودًا؛ فإنّ النصح والمودَّة يَصدقان الفكرة، ويَمْحضان الرأي. وقد قال بعضُ الحكماء: لا تشاور إلاَّ الحازمَ غير

(١) القوادم: الريش في مُقدَّم جناح الطائر، والخوافي: ريش تخفيه القوادم.
(٢) انظر: «كنز العمال» (٧١٨٠).
(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» (٨٣٣٣)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الحسود، واللبيبَ غير الحقود؛ وإياك ومشاورةَ النساء؛ فإنَّ رأيَهن إلى الأفْن[١]، وعَزْمَهُن إلى الوَهْن. وقال بعضُ الأدباء: مَشُورة المشْفِق الحازم ظَفَرٌ، ومشورة غيرِ الحازم خَطَرٌ. وقال بعضُ الشعراء:

اصْفُ ضَميراً لمن تعاشرُهُ ... واسْكُن إلى ناصح تشاورُهُ
وارضَ من المرء في مودَّتِه ... بما يُؤدِّي إليكَ ظاهِرُهُ
مَنْ يكْشِفِ الناسَ لا يجدْ أحداً ... يصحُّ منهم له سرائرُهُ
أوْشَكَ ألاَّ يدومَ وصْلُ أخٍ ... في كلِّ زَلاَّتِه تُنَافِرُهُ

**والخصلة الرابعة** ـ أن يكون سَليم الفكر، من همّ قاطع، وغمٍّ شاغل؛ فإنّ مَنْ عارضَتْ فكْرَه شوائبُ الهمَوم، لا يسلم له رأي، ولا يستقيم له خاطر، وقد قيل في منثور الحكم: كُلُّ شيء يحتاج إلى العقل، والعقل يحتاج إلى التجارب. وقيل: بترداد الفكر تنجاب لك الغمرة، وكان كسرى إذا دَهَمَه أمر، بعث إلى مَرَازبته فاستشارهم، فإن قَصَّروا في الرأي، ضرب قَهارمته، وقال: أبطأتم بأرزاقهم، فأخطؤوا في آرائهم. وقال صالح بن عبد القدوس:

ولا مُشِيرَ كذي نصح ومقدُرَةٍ ... في مُشكل الأمر فاخترْ ذاكَ منتصحا

**والخصلة الخامسة** ـ ألاَّ يكونَ له في الأمر المستشار غَرَضٌ يتابعه، ولا هوىً يساعده؛ فإنَّ الأغراض جاذبة، والهوى صادّ؛ والرأيُ إذا عارضه الهوى، وجاذبته الأغراض فسد. وقد قال الفضل بن العباس بن عُتبةَ بن أبي لهب:

وقد يُحْكِم الأيام مَن كان جاهلاً ... ويُرْدِي الهوى ذا الرأي وَهْو لبيبُ
ويُحْمَدُ في الأمر الفتَى وَهْو مخطئٌ ... ويُعذَل في الإحسان وَهْوَ مُصيبُ

**فإذا استكملت هذه الخصال الخمس في رجلٍ، كان أهلاً للمشورة، ومعدنًا للرأي، فلا تعدلْ عن استشارته، اعتمادًا على ما تتوهَّمه من فضلِ رأيك، وثقةً بما تستشعره من صِحَّة رَوِيَّتك؛ فإنَّ رأيَ غيرِ ذي الحاجة أسلم، وهو من الصواب أقرب؛ لخلوص الفكر، وخلُوِّ الخاطر، مع عدَم الهوى، وارتفاع الشهوة.**

(١) أي الفساد والضعف.

وقد رُويَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«رأس العقل بعد الإيمان بالله، التودد إلى الناس، وما استغنى مستبدّ برأيه، وما هلك أحدٌ عن مَشُورة؛ فإذا أراد الله بعبدٍ هَلَكَة كان أوَّلَ ما يهلكه رأيُهُ»**[١]. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: الاستشارةُ عين الهداية، وقد خاطر مَنِ استغنى برأيه، وقال لقمان الحكيم لابنه: شاورْ مَن جَرَّب الأمور؛ فإنَّه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغَلاء، وأنت تأخذه مَجَّانًا. وقال بعضُ الحكماء: نصْفُ رأيك مع أخيك، فشاوره ليكملَ لك الرأي. وقال بعضُ الأدباء: من استغنى برأيه ضَلّ، ومَن اكتفَى بعقله زلّ. وقال بعضُ البلغاء: الخطأ مع الاسترشاد أحمدُ من الصَّواب مع الاستبداد. وقال الشاعر:

**خليليّ ليس الرأيُ في صدرِ واحدٍ ... أشيرَا عليَّ اليوم ما تَرَيَانِ**

ولا ينبغي أن يصوّر في نفسه أنه إن شاور في أمره، ظهر للناس ضعفُ رأيه، وفسادُ رَوِيَّته، حتى افتقر إلى رأي غيره؛ فإنَّ هذه معاذير النَّوْكَى[٢]، وليس يُرادُ الرأيُ للمباهاة به، وإنَّما يُراد للانتفاع بنتيجته، والتحرّز من الخطأ عند زلله، وكيف يكون عارًا ما أدَّى إلى صواب، وصَدَّ عن الخطأ. وقد رُوِي عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«لَقِّحوا عقولكم بالمذاكرة، واستعينوا على أموركم بالمشاورة»**[٣].

وقال بعضُ الحكماء: مِنْ كمال عقلك استظهارُك على عقلك. وقال بعضُ البلغاء: إذا أشكلَتْ عليكَ الأمور، وتغيَّر لك الجُمهور، فارْجع إلى رأي العقلاء، وافْزَع إلى استشارة العلماء، ولا تأنفْ مِنَ الاسترشاد، ولا تستنكفْ مِنَ الاستمداد، فَلأَن تسألَ وتسلَم، خيرٌ لك من أن تستبدَّ وتندَم. وينبغي أن تُكثِر من استشارة ذوي الألباب، لاسيما في الأمر الجليل، فقلَّما يضلُّ عن الجماعة رأي، أو يذهب عنهم صواب؛ لأنَّ إرسالَ الخواطر الثاقبة، وإجالةَ الأفكار الصادقة، لا يعزُب عنها ممكن، ولا يخفَى عليها جائز، وقد قيل في منثور الحكم: مَنْ أكثَرَ المشورة لم يعدَمْ عند الصواب مادحًا، وعند الخطأ عاذرًا، وإن كان الخطأ من الجماعة بعيدًا. فإذا استشار الجماعة، فقد اختلف أهلُ الرأي في اجتماعهم عليه، وانفراد كُل واحدٍ منهم به.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٢/ ٢٠)، وانظر «الموضوعات» لابن الجوزي.
(٢) أي الحمقى.
(٣) لم أصل إليه.

**فمذهب الفُرْس:** أنَّ الأوْلَى اجتماعهم على الارتياء[1]، وإجالة الفكر، ليذكُرَ كُلٌّ واحد من الجماعة ما قدحه خاطره، ونتجه فكرُه، حتى إذا كان فيه قَدْح عُورض، أو تَوَجَّهَ عليه ردٌّ نُوقض، كالجدَل الذي تكون فيه المناظرة، وتقع فيه المنَازعة والمشاجرة؛ فإنه لا يبقَى فيه مع اجتماع القرائح عليه خَلَلٌ إلاَّ ظهر، ولا زلَل إلا بان.

**وذهب غيرهم من أصناف الأمم إلى:** أنَّ الأوْلَى استسرار كُلٍّ واحد بالمشورة، ليجيلَ كُلٌّ واحد منهم فكرَه في الرأي، طمعًا في الحُظوة بالصواب؛ فَإنَّ القرائح إذا انفردت استكدَّها الفكر، واستفرغَها الاجتهاد، وإذا اجتمعت فوَّضت، وكان الأول من بدائهما مَتبوعًا. ولكُلٍّ واحدٍ من المذهبين وجه، ووجه الثاني أظهر.

**والذي أراه في الأولى:** غير هذين المذهبين على الإطلاق، ولكن ينظر في الشورَى، فإن كانت في حال واحدة: هل هي صواب أم خطأ؟ كان اجتماعهم عليها أَوْلى؛ لأنَّ ما تردَّد بين أمرين، فالمراد منه الاعتراض على فساده، أو ظهور الحجَّة في صلاحه، وهذا مع الاجتماع أبلغ، وعند المناظرة أوضح. وإن كانت الشورَى في خَطْبٍ قد استبهم صوابه، واستعجَم جوابه، من أمور خافية، وأحوال غامضة، لم يَحصُرْها عدد، ولم يجمعها تقسيم، ولا عُرِف لها جواب فيكشف عن خطئه وصوابه؛ فالأوْلَى في مثله: انفرادُ كُل واحد بفكره، وخلُوُّه بخاطره، ليجتهد في الجواب، ثم يقع الكشف عنه: أخطأ هو أم صواب؟ فيكون الاجتهاد في الجواب منفردًا، والكشف عن الصواب مجتمعًا؛ لأنَّ الانفراد في الاجتهاد أوضح، والاجتماع على المناظرة أبلغ، فهكذا هذا.

وينبغي أن يسلَم أهلُ الشورَى من حسد أو تنافُس، فيمنَعَهم من تسليم الصواب لصاحبه، ثم يَعرض المستشير ذلك على نفسه، مع مشاركتهم في الارتياء والاجتهاد، فإذا تصفَّح أقاويلَ جميعهم، كَشَفَ عن أصولها وأسبابها، وبحث عن نتائجها وعواقبها، حتى لا يكون في الأمر مقلِّدًا، ولا في الرأي مفوِّضًا؛ فإنه يستفيد بذلك ـ مع ارتياضه بالاجتهاد ـ ثلاث خصال:

**إحداهن ـ** معرفة عقله، وصحة رَوِيّته.

**والثانية ـ** معرفة عقل صاحبه، وصَواب رأيه.

---

(١) أي: المشاورة ومداولة الرأي.

**والثالثة** ـ وضوح ما استعجَم من الرأي، وافتتاح ما أُغلِق من الصواب.

فإذا تقـرَّر له الرأي أمضاه، ولا يؤاخـذهم بعواقب الإكـداء فيه، فـإنَّما على الناصح الاجتهاد، وليس عليه ضَمان النُّجْح، لاسـيما والمقاديرُ غالبة، ومتى عُرف منه تعقُّب المشير، وُكلَ إلى رأيه، وأُسلم إلى نفسه، فصار فردًا لا يُعان برأي، ولا يُمدّ بمشورة، وقد قالت الفرس في حكَمهـا: أضعفُ الحيلة خيرٌ من أقوى الشدّة، وأقل التأنّي خيرٌ من أكثر العَجَلة، والدَّوْلَة رسـولُ القضاء المُبرَم، وإذا استبدَّ الملك برأيه عَـميت عليـه المَراشد، وإذا ظَـفر برأي من خـاملٍ لا يراه للرأي أهلاً، ولا للمشورة مستوجبًا، اغتنمه عفوًا؛ فإنَّ الرأي كالضَّالَّة تؤخذ أين وُجدَتْ، ولا يَهُون لمهانة صاحبه فـيُطْرح؛ فإنَّ الدرَّة لا يضعها مَهانةُ غائصـها، والضالَّة لا تُتْرَك لذلَّة واجدهـا. وليس يُراد الرأي لمكان المشيـر به، فيـراعَى قدرُه، وإنَّمـا يُراد لانتـفاع المستشير، وأنشد أبو العَيناء عن الأصمعي:

**النُّصْحُ أرخَصُ مـا بـاعَ الرِّجـالُ فـلا ... تَـرْدُدْ علـى ناصحٍ نُصْـحًـا ولا تَلُمِ**
**إنَّ النَّصـائحَ لا تـخـفَى مـناهجُـهـا ... علـى الرِّجـالِ ذوي الألبـاب والفَـهَمِ**

ثم لا وجه لمن تقرَّر له رأي أن يَني[(١)] في إمضائه؛ فإنَّ الزمان غادر، والفُرَص منتهـزة، والثقة عجـز. وقيل لملك زالَ عنه ملكُه: مـا الذي سَلَبك مُلْكَك؟ قال: تأخيري عملَ اليوم إلى الغَدِ. وقال الشاعر:

**إذا كـنْتَ ذا رأيٍ فـكُنْ ذا عـــزيـمـةٍ ... ولا تكُ بـالتَّـرْداد للرأي مُـفْـسِـدا**
**فـإنـي رأيْتُ الرَّيْثَ في العَـزْم هُجْنَةً ... وإنفـاذَ ذي الـرأي الـعــزيمةَ أرشَـدَا**

وينبغي لمن أُنزِل منزلة المستشار، وأُحِلَّ مَحَلَّ النَّاصح المُوادّ، حتى صار مأمولَ النُّجْح، مَرْجُـوَّ الصَّواب، أن يؤدِّيَ حَقَّ هذه النِّعْـمة بإخلاص الـسريرة، ويكافئ على الاستـسلام ببـذل النُّصح، فقد رُوِي عن الـنبيِّ ﷺ أنه قال: «**إنَّ من حقِّ المسلم على المسلم إذا استنصحه أن ينصحه**»[(٢)]. وربما أبطرتْه المشاورة، فـأُعجب

---

(١) أي يضعف ويتردد.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٤/١٨) (٤٠٧٦)، عن زياد بن أنعم، وهناد في «الزهد» (١٠٢٤) (٢/٤٩٨).

برأيه، فاحذره في المشاورة، فليس للمعجَب رأي صحيح، ولا رَويَّة سليمة، وربما شحَّ الرأي؛ لعداوة أو كِبْر أو حسَد، فوَرَّى[1] أو مكَر، فاحذر العدوّ، ولا تثقْ بحسود، ولا عُذرَ لمن استشاره عدوٌّ أو صديق أن يكتمَ رأيًا وقد استُرْشد، ولا يخونَ وقد اؤتُمن. روَى محمد بن المنكدر عن عائشة ﵂: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «المستشيرُ مُعان، والمستشار مؤتمن»[2]. وقال سليمان بن يزيد:

وأجِبْ أخاك إذا استشارك ناصحًا ... وعلى أخيكَ نصيحةٌ لا تَرْدُدِ

ولا ينبغي أن يُشيرَ قبل أن يُستشار إلاَّ فيما مسّ، ولا أن يتبرَّع بالرأي إلاَّ فيما لزم، فإنه لا ينفكُّ من أن يكونَ رأيًا مُتَّهمًا أو مُطَّرحًا، وفي أيٍّ هذين كان وَصْمة، وإنما يكون الرأي مقبولاً إذا كان عن رغبة وطلب، أو كان لباعث وسبب. روَى أبو بلال العِجْليّ، عن حُذيفة بن اليمان، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «قال لقمان لابنه: يا بنيَّ، إذا استُشْهِدت فاشْهَدْ، وإذا استُعِنْتَ فأعِن، وإذا استُشِرْتَ فلا تعجَل حتى تنظر». وقال بَيْهسُ الكلابيّ:

مِنَ النَّاس مَنْ إن يَستشِرْك فتجتهدْ ... له الرأيَ يستغششْك ما لاَ تُتَابِعُهْ

فلا تمنَحنَّ الرأيَ مَن ليس أهلَه ... فلا أنتَ محمودٌ ولا الرأيُ نافعُهْ

## الفصل الرابع

## في كتمان السر

اعلم: أنَّ كتمان الأسرار من أقوى أسباب النجاح، وأدوم لأحوال الصلاح، رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «استعينوا على الحاجات بالكتمان، فإنَّ كُلَّ ذي نعمة محسود»[3]. وقال عليّ بن أبي طالب ـ كرَّم الله وجهه ـ: سرُّك أسيرُك، فإنَّ تكلَّمْتَ به صِرْتَ أسيرَه. وقال بعضُ الحكماء لابنه: يا بنيّ، كُنْ جوادًا بالمال في

---

(1) يقال: ورّى الخبر أي ستره وأظهر غيره.

(2) أورده ابن عبد البر في «التمهيد» (8/ 37).

(3) أخرجه الطبراني في «الصغير» (1186)، بلفظ «إنجاح»، وأبو نعيم في «الحلية» (6/ 96)، وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (1/ 410)، عن جابر بن عبد الله.

موضع الحقّ، ضَنينًا بالأسرار عن جميع الخَلْق؛ فإنَّ أحمدَ جودِ المرء الإنفاقُ في وجه البرّ، والبخلُ بمكتوم السرّ. وقال بعضُ الأدباء: من كتم سِرَّه، كان الخِيار إليه، ومَنْ أفشاه كان الخِيارُ عليه. وقال بعضُ البلغاء: ما أسرَّك! ما كتمتَ سِرَّك!. وقال بعضُ الفصحاء: ما لم تغيّبْه الأضالع[1]، فهو مكشوف ضائع، وقال بعض الشعراء، وهو أَنَس بن أسيد:

| | |
|---|---|
| **ولا تُفْشِ سِرَّك إلاَّ إليكَ** | **فإنَّ لكل نصيح نصيحا** |
| **فإنّي رأيتُ وُشاةَ الرِّجالِ** | **لا يتركونَ أديمًا صحيحًا** |

وكم من إظهار سرّ أراق دمَ صاحبه، ومنَع من نيل مَطالبه، ولو كتمه كان من سطواته آمنًا، وفي عواقبه سالمًا، ولنجاحِ حوائجه راجيًا.

وقال أَنُوشِرْوان: مَنْ حصَّن سرَّه، فله بتحصينه خَصلتان: الظفر بحاجته، والسلامة من السَّطَوَات. وإظهار الرجل سرّ غيره أقبحُ من إظهاره سرّ نفسه، لأنه يبوء بإحدى وَصْمَتَين: إمَّا الخيانة إن كان مؤتَمنًا، أو النميمة إن كان مستودَعًا. فأمَّا الضررُ فربما استويا فيه، أو تفاضلا، وكلاهما مذموم، وهو فيهما ملوم. وفي الاسترسال بإبداء السر دلائل على ثلاثة أحوال مذمومة:

**أحدها** ـ ضيق الصدر، وقلة الصبر، حتى إنه لم يتَّسع لسر، ولم يقدِر على صبر. وقال الشاعر:

| | |
|---|---|
| **إذا المرءُ أفشَى سرَّه بلسانِه** | **ولامَ عليه غيرَه فهْوَ أحْمَقُ** |
| **إذا ضاقَ صَدْرُ المرءِ عن سرِّ نفسِه** | **فصدرُ الذي يُسْتَودَعُ السرَّ أضيقُ** |

**والثاني** ـ الغفلة عن تحذّر العقلاء، والسهو عن يقظة الأذكياء. وقد قال بعض الحكماء: انفرد بسرِّك، ولا تُودعْه حازمًا فيزلّ، ولا جاهلاً فيخون.

**والثالث** ـ ما ارتكبه من الغَرَر، واستعمله من الخَطَر. وقد قال بعض الحكماء: سرُّك من دمك، فإذا تكلَّمْتَ به فقد أرَقْته.

**واعلم**: أنَّ من الأسرار ما لا يُستغنَى فيه عن مطالعة صديق مُساهم، واستشارة ناصح مسالم، فليختر العاقلُ لسره أمينًا، إن لم يجدْ إلى كتمه سبيلاً، وليتحرَّ في

---

(١) كناية عن الصدر الذي هو موضع السر.

اختيـار مَن يأتمنه عليه ويَستـودعه إياه، فليس كُلُّ من كان على الأموال أمـينًا كان على الأسرار مؤتمنًا، والعـفَّة عن الأموال أيسَرُ من العفَّـة عن إذاعة الأسرار؛ لأنَّ الإنسان قد يُذيعُ سرَّ نفـسه بمبادرة لسانه، وسَقَط كلامه، ويشحُّ باليـسير من ماله، حفظًا له، وضَنًا به، ولا يرى ما أذاع من سره كَبيرًا، في جنب ما حفظه من يسير مـاله، مع عظَم الضرر الـداخل عليه؛ فـمن أجل ذلك كـان أمناءُ الأسرار أشـدَّ تعذُّرًا، وأقلَّ وجودًا مـن أمناء الأموال، وكان خفظ المال أيسَـرَ من كتم الأسرار، لأنَّ أحْراز[1] الأموال منيعة، وأحراز الأسرار بارزة، يذيعـها لسانٌ ناطق، ويشيِّعها كلام سـابق، وقال عمر بـن عبد العزيز ﷺ: القلـوب أوعية الأسرار، والشـفاه أقفالها، والألسن مفاتيحها، فليحفظ كلُّ امرئ مِفتاح سرِّه.

**ومن صفات أمين السر:** أن يكونَ ذا عقلٍ صادٍّ، ودين حاجز، ونُصْح مبذول، ووُدّ موفـور؛ وكتـومًا بالطبع؛ فـإن هذه الأمور تمنع من الإذاعة، وتُـوجِبُ حفظ الأمانة، فـمَنْ كملت فـيه فهـو عَنْقاء مُـغْرِب[2]. وقيل في منثـور الحكَم: قلوبُ العقـلاء حصونُ الأسـرار. وليحذر صـاحبُ السر أن يُودِعَ سره مـن يتطلع إليه، ويؤثر الوقوف عليـه؛ فإنَّ طالب الوديعة خائن، وقـيل في منثور الحكم: لا تُنكح خاطبَ سِرِّك. وقال صالح بن عبد القدّوس:

**لا تُذعْ سِـــــرًا إلى طـالبِــــهِ ... منك فـالطـالبُ للســرِّ مُـذيعُ**

ولْيـحذَرْ كثـرةَ المستـودَعين لِسرِّه؛ فـإنَّ كثـرتهم سببُ الإذاعـة، وطريقٌ إلى الإشاعة؛ لأمرين:

**أحدهما** ـ أن اجتمـاع هذه الشروط في العدد الكثير مُعْـوِز، ولابدَّ إذا كَثُروا من أن يكون فيهم مَن أخلَّ ببعضها.

**والثاني** ـ أنَّ كُلَّ واحد منهم يجد سـبيلاً إلى نفي الإذاعة عن نفـسه، وإحالة ذلك على غيـره، فلا يضافُ إليـه ذنب، ولا يتوَجَّـه عليه عَتْب. وقـد قال بعضُ الحكماء: كلما كثر خُزَّان الأسرار، ازدادت ضَيَاعًا. وقال بعضُ الشعراء:

(١) الحرز: الموضع الحصين.
(٢) عَلَم لطائر عظيم معروف الاسم مجهول الجسم، يُضرب به المثل في عزته ونُدرة وجوده.

وسِرُّكَ ما كان عند امْرِئٍ　　وسِرُّ الثَّلاثةِ غَيْرُ الخَفِي

وقال آخر:

فلا تنطِق بسرِّكَ كلُّ سرٍّ　　إذا ما جاوز الاثنين فاشِ

وقال آخر:

إذا جاوز الاثنين سرٌّ فإنَّه　　ببثٍّ وتكثيرِ الوشاة قمين(١)

وقال آخر:

إذا ضاق صدْرُ المرءِ عن سرِّ نفسه　　فصدر الذي يُستودَع السرَّ أضيق

ثم لو سلم من إذاعته، لم يسلم من إدلالهم واستطالتهم؛ فإنّ لمن ظفر بسرٍّ من فَرْط الإدلال، وكثرة الاستطالة، ما إن لم يحجزه عنه عقلٌ، ولم يكفَّه عنه فضلٌ، كان أشدَّ من ذُلِّ الرِّقِّ، وخُضوع العَبْد. ولذلك قال بعضُ الحكماء: من أفشى سرَّه كثُر عليه المتأمِّرون، فإذا اختار، وأرجو أن يوفَّق للاختيار، واضطُرّ إلى استيداعِ سره، وليته كُفي الاضطرار، وَجَبَ على المستودَع له أداءُ الأمانة فيه، بالتحفُّظ والتناسي له، حتى لا يخطُرَ له ببال، ولا يدور له في خَلَد، ثم يرى ذلك حُرْمةً يَرْعاها، ولا يُدلّ إدْلال اللئام.

حُكي أنَّ رجلاً أسَرَّ إلى صديق له حديثًا، ثم قال له: أفهمت؟ قال: بل جهلت. قال: أحفظْتَ؟ قال: بل نسيت. وقيل لرجل: كيف كتمانُك للسرِّ؟ قال: أجحد المخبِر، وأحلِف للمستخبِر. وقال بعضُ الشعراء:

ولو قَدَرْتُ على نسيان ما اشتملَتْ　　مني الضُّلوع على الأسرار والخَبَرِ

لكنْتُ أوَّلَ مَن ينسَى سرائرَهُ　　إذ كنتُ مِنْ نَشْرِها يومًا على خَطَر

وحُكِي أن عبد الله بن طاهر، تذاكر النَّاسُ في مجلسه حِفْظَ السرّ، فقال عبد الله:

ومُسْتَودِعي سِرًا تضمَّنْتُ سرَّه　　فأودَعْتُه من مُسْتَقَرِّ الحَشَى قَبْرا

فقال ابنه عبيد الله وهو صبي:

وما السرُّ في قلبي كثاوٍ بحُفْرَةٍ　　لأني أرَى المدفون ينتظر الحَشْرا

ولكنَّني أخفيه عنِّي كأنني　　من الدَّهر يومًا ما أحطْتُ به خُبْرا

---

(١) أي خليق وجدير.

## الفصل الخامس

# في المزاح والضحك

**اعلم:** أنَّ المزاح إزاحةٌ عن الحقوق، ومَخْرَجًا إلى القطيعة والعقوق، يصِمُ المازحَ، ويؤذي المُمازَح.

**فوصْمة المازح:** أن يُذهب عنه الهيبة والبهاء، ويُجَرِّئَ عليه الغَوغاء والسفهاء.

**وأما أذية الممازَح:** فلأنه معقوق بقولٍ كَريه، وفعلٍ مُمِضّ، إنْ أمسَكَ عنه أحزن قلبه، وإن قابل عليه جانب أدبه، فَحُقّ على العاقل أن يتقيَه، ويُنزِّه نفسه عن وَصمة مَساويه. وقد رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**المزاح استدراج من الشيطان، واخْتِدَاع من الهَوَى**»[1]. وقال عمر بن عبد العزيز: اتقوا المزاح؛ فإنه حَمْقة تُورثُ ضغينة. وقال بعض الحكماء: إنما المزاح سِباب، إلاَّ أن صاحبه يضحك. وقيل: إنَّما سُمِّيَ المزاح مُزاحًا؛ لأنه يُزيح عن الحقّ. وقال إبراهيم النَّخَعيّ: المزاح من سَخَف أو بَطَر. وقيل في منثور الحكم: المزاح يأكل الهيبة، كما تأكل النار الحطب. وقال بعض الحكماء: من كثُر مُزاحه زالت هيبته؛ ومن كثر خلافه طابت غيبته. وقال بعض البلغاء: مَن قلَّ عقله، كثُرَ هَزْلُه.

وذكر خالد بن صفوان المُزاح، فقال: يَصُكُّ أحدهم صاحبَهُ بأشدّ من الجندل، ويُنْشِقُه أحْرفَ من الخَرْدَل، ويُفْرِغ عليه أحرَّ من المِرْجَل، ثم يقول: إنما كنت أمازحك. وقال بعض الحكماء: خيرُ المزاح لا يُنال، وشرُّه لا يُقال؛ فنظَمَه النَّيسابوري في قصيدته الجامعة للآداب، وزاد فقال:

شَرُّ مُزَاحِ المرءِ لا يُقالُ ... وخَيْرُه يا صَاحِ لا يُنالُ
وقَدْ يُقالُ كَثْرة المُزاحِ ... من الفتى تدعو إلى التلاحِي
إنَّ المُزَاحَ بدؤهُ حَلاوَهْ ... لكنَّما آخرُه عَدَاوَهْ
يحتَدُّ منه الرَّجلُ الشَّريفُ ... ويجتري بسُخفِه السَّخيفُ

---

(١) لم أصل إليه.

وقال أبو نواس:

| | |
|---|---|
| خَلِّ جَنبيكَ لِرام | وامْضِ عنه بسلام |
| مُتْ بداء الصَّمْتِ خَيْرٌ | لك من داء الكلام |
| إنَّما السَّالم مَنْ أَلْجَمَ | فاهُ بلجام |
| ربما استُفْتِح بالمَزْح | مغاليقُ الحِمام |
| والمنايا آكلاتٌ | شارباتٌ للأنام |

**واعلم**: أنه قلَّما يَعْرَى من المُزاح من كان سهلاً، فالعاقل يتوخَّى بمُزاحه إحدى حالتين، لا ثالثة لهما:

**إحداهما** - إيناسُ المصاحَبين، والتودُّد إلى المخالطين، وهذا يكون بما أَنِسَ من جميل القول، وبسَط من مستحسن الفعل. كما قال سعيد بن العاص لابنه: اقتصدْ في مُزاحك؛ فإنَّ الإفراط فيه يُذْهب البهاء، ويجرِّئ عليك السفهاء، وإن التقصير فيه يفُضُّ عنك المؤنسين، ويُوحش منك المصاحبين.

**والحالة الثانية** - أن ينفيَ بالمزاح ما طرأ عليه من سَأَم، أو حدث به من همٍّ، فقد قيل: لابدَّ للمصدور[1] أن ينفُثَ. وأُنشدت لأبي الفتح البُستي:

| | |
|---|---|
| أفِدْ طَبْعَكَ المَكْدُود بالجِدِّ راحَةً | تَجِمُّ عَلِّلْهُ بشيءٍ مِن المَزْحِ |
| ولكن إذا أعطَيْتَه المَزْحَ فلْيَكُنْ | بمقدارِ ما يُعطَى الطَّعامُ مِنَ المِلْحِ |

وقد كان النبيّ ﷺ يمزحُ على هذا الوجه؛ روي عنه ﷺ أنه قال: «**إني لأمزَحُ ولا أقولُ إلاَّ حقًا**»[2]؛ فمن مُزاحه ﷺ ما رُوِيَ أنَّ عجوزًا من الأنصار أتته، فقالت: يا رسولَ الله، ادعُ لي بالمغفرة. فقال: «**أما علمتِ أنَّ الجنة لا يدخلُها العجائز**»؟ فصرَخَتْ، فتبسَّم رسول الله ﷺ، وقال: «**أمَا قرأتِ قولَ الله عزَّ وجلَّ**: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ (الواقعة: ٣٥-٣٦)».

وأتته أخرى في حاجة لزوجها، فقال لها: «**ومَنْ زَوْجُك**»؟ فقالت: فلان، فقال لها: «**الذي في عينه بياض**»؟ فقالت: لا، فقال: «**بلى**»، فانصرفَتْ عَجْلَى إلى

(١) أي من يشتكي من صدره ألمًا.
(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١/ ٢٩٨) (٩٩٥)، (٦٧٦٤) عن ابن عمر.

زوجها، وجعلَتْ تتأمَّل عينيه، فقال لها: ما شأنُك؟ فقالت: أخبرني رسولُ الله ﷺ أن في عينيكَ بياضًا. فقال: أما ترين بياض عينيَّ أكثرَ من سوادهما؟![1].

وأتى رجلٌ عليَّ بن أبي طالب، كرَّم الله وجهه، فقال: إني احتلمت على أمي، فقال: أقيموه في الشمس، واضربوا ظلَّه الحدَّ.

وسُئل الشعْبِيّ عن أكل لحم الشيطان، فقال: نحن نرضى منه بالكَفَاف. وقيل له: ما اسم امرأة إبليسَ لعنه الله؟ قال: ذلك نكاحٌ ما شهدناه. وقال رجل لغلام: بكم تعمل معي؟ قال: بطعامي. فقال له: أَحسن قليلاً، قال: فأصوم الاثنين والخميس. وحكي عن أبي صالح ابن حسان ـ وكان محدِّثًا ـ أنه قال يومًا لأصحابه مازحًا: أفقه الناس وضَّاح اليَمن في قوله:

| | |
|---|---|
| إذَا قُلْتُ هاتِي نَوِّلِيني تَبَسَّمَتْ | وقالَتْ مَعَاذَ اللهِ مِن فِعْلِ ما حَرُمْ |
| فما نَوَّلَتْ حتَّى تضرَّعْتُ عِنْدَها | وأنبأتُها ما رَخَّصَ الله في اللَّمَمْ |

فأمَّا الخروج إلى حَدّ الخلاعة فهُجْنة ومَذَمَّة، كالذي حُكِي عن أبي معاوية الضرير ـ وكان محدِّثًا ـ أنه خرج يومًا إلى أصحابه، وهو يقول:

| | |
|---|---|
| فإذا المِعْدَةُ جاشَتْ | فارمِها بالمِنْجَنِيقِ |
| بثلاثٍ مِن نبيذٍ | ليسَ بالحلوِ الرَّقِيقِ |

أمَا تَرى كيف طَرَّقَ بخلاعته التُّهَمَةَ على نفسه بهذا المُزاح، فيما لعله بريء منه، وبعيد عنه. وقد كان أبو هُريرة ﷺ مسترسلاً في مُزاحه؛ حكى ابنُ قتيبة في «المَعارِف»: أنَّ مَرْوان ربما كان يستخلفه على المدينة، فيركب حمارًا قد شُدَّ عليه بَرْذَعَة، فيسير، فيلقَى الرجل، فيقول: الطريقَ الطريقَ، قد جاء الأمير، وربما أتى الصِّبْيانَ وهم يلعبون بالليل لُعْبَةَ الأعراب، فلا يشعرون حتَّى يُلْقِيَ نفسَه بينهم، ويضربَ برجله، فيفزَع الصِّبْيان فينفرون.

وهذا خروج عن القدْر المستسمَح به، ويوشك أن يكونَ لهذا الفعل منه تأويل سائغ. وقد كان صُهيب بن سِنان مَزَّاحًا، فقال له النبيّ ﷺ: **«أتأكلُ تمرًا وبك**

---

(١) لم أصل إليه.

رمَد»؟[1]، فقال: يا رسول الله، إنما أمضغُ على الناحية الأخرى. وإنما استجاز صُهَيْب أن يَعْرِض لرسول الله ﷺ بالمزْح في جوابه؛ أنَّ استخباره ﷺ قد كان يتضمَّن المَزْحَ، فأجابه عن استخباره بما وافقه من المزح، مساعدةً لغرضه، وتقرُّبًا من قلبه، وإلاَّ فليس لأحد أن يجعلَ جوابَ رسول الله ﷺ، مَزْحًا؛ لأنَّ المزْحَ هَزْلٌ، ومَنْ جَعَلَ جوابَ رسول الله ﷺ، المبيِّن عن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أحكامَه، المؤدِّي إلى خَلْقه أوامرَه؛ هزلاً ومَزْحًا، فقد عَصَى الله ورسولَه؛ وصُهيبٌ كان أطوعَ لله ولرسوله من أن يكونَ بهذه المنزلة؛ فقد قال ﷺ: «**أنا سابق العرب، وصُهيب سابق الروم، وسَلْمان سابق الفُرْس؛ وبلالٌ سابق الحَبَش**»[2].

ومن مستحسَن المَزح، ومُسْتَسْمح الدُّعابة، ما حكى الزُّبير بن بكار، عن الكِنْديِّ: أنَّ القُشَيْرِيَّ وقَفَ عليه شيخٌ من الأعراب، فقال: يا أعرابيّ، ممن أنت؟ قال: من بني عُقَيلٍ؛ فقال: من أي عُقَيل؟ قال: من بني خفاجة. فأنشأ القُشَيريّ يقول:

**رأيتُ شيخًا من بني خَفاجَهْ**

فقال الأعرابيّ: ما شأنه؟ فقال:

**لَهُ إذا جَنَّ الظَّلامُ حاجَهْ**

قال الأعرابيّ: ما هي؟ قال:

**كحاجة الدِّيك إلى الدَّجَاجَهْ**

فاستغرب الأعرابيّ، وقال: قاتَلك الله! ما أعرفَكَ بسرائر القوم!.

فانظر كيف بلغ بهذا المزح غايته، ولسانُه نَزِه، وعِرْضُه مصون. وهذا غاية ما يَتَسَامَحُ به الفضلاء من الخلاعة. وإن كان مستكره الفَحْوَى، والنزاهة عن مثله أولى. ولْيَحْذَر أن يسترسل في ممازحة عدوٍّ، فيجعَلَ له طريقًا إلى إعلان المساوئ هَزْلاً وهو مُجدٌّ، ويفسح له في التشفِّي مَزْحًا وهو محقّ. وقد قال بعض الحكماء: إذا مازحتَ عدوَّك، ظهرتْ له عيوبُك.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٣٩٩)، من حديث صهيب. والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٣٠٤)، وابن ماجه في «السنن» (٣٤٤٣).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٣٢١) عن أنس، والطبراني في «الكبير» (١٠٦٢).

**وأمَّا الضَّحِك:** فإنَّ اعتيادَه شاغلٌ عن النظر في الأمور المهمَّة، مُذْهِلٌ عن الفكر في النوائب الملمة. وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار، ولا لمن وُسم به خطَرٌ، ولا مقدار، روَى أبو إدريسَ الخَوْلانيّ، عن أبي ذَرّ الغفَاريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إياكَ وكثرةَ الضَّحِك، فإنَّه يُميت القلب، ويَذْهَب بنور الوجْه»**[1].

وقد حكي عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ (الكهف:٤٩). أنَّ الصغيرةَ الضحكُ، والكبيرةَ القَهْقَهة. وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: مَن كثُر ضَحِكُه قلَّتْ هيبته. وقال عليّ بن أبي طالب ـ كرَّم الله وجهه ـ: إذا ضحكَ العالمَ ضَحْكة، مَجَّ من العلم مَجَّة. وقيل في منثور الحكم: ضَحكة المؤمن غَفْلة من قلبه.

والقولُ في الضحك كالقول في المُزاح: إنْ تجافاه الإنسان نفر عنه، وأوحشَ منه، وإنْ ألفه كانت حاله ما وصفنا. فليكن بدلُ الضحك عند الإيناس تبسُّمًا وبشرًا. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: التبسُّم دُعابة، وهذا أبلغ في الإيناس من الضحك الذي قد يكون استهزاءً وتعجُّبًا، وليس يُنْكَرُ منه المَرَّةُ النادرة؛ لطارئ استغفَلَ النفسَ عن دفعه. هذا رسولُ الله ﷺ وهو أملَكُ الخَلْق لنفسه، قد تبسَّمَ حتى بدَت نواجذه، وإنما كان ذلك منه ﷺ على الوجه الذي ذكرناه.

### الفصل السادس

## في الطيرة والفأل

**اعلم:** أنه ليس شيء أضرَّ بالرأي، ولا أفسَدَ للتدبير، من اعتقاد الطِّيَرة[2]، ومَن ظَنَّ أنَّ خُوَار بقَرة، أو نَعيبَ غُراب، يردُّ قضاءً، أو يدفَعُ مقدورًا، فقد جَهِل. وقد رُوِي عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«لا عَدْوَى، ولا طِيَرة، ولا هامةَ، ولا صَفَر»**[3].

**فالعدْوَى:** ما يظنُّه النَّاس من تعدِّي العِلَل والأمراض، فأخبَرَ أنها لا تُعْدِي، فقيل: يا رسولَ الله، إنا نرى النُّقْبَة من الجَرَب في مِشْفَر[4] البعير، فيعدي إلى جميعه. فقال ﷺ: **«فما أعدَى الأول»**[5].

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٩) بهذا اللفظ، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٢٤٣).
(٢) الطِّيرة: التفاؤل بالشيء أو التشاؤم به.
(٣) رواه أبوداود (٣٩١١) باب في الطيرة.
(٤) أي شَفَته. (٥) أخرجه البغدادي في «تاريخ بغداد» (١١/ ٦٨) ـ رقم (٥٨٦٧).

وأمَّا **الهامَة**: فهو ما كانت العرب في الجاهليـة تعتقده، من أن القتيل إذا طُلَّ دَمُه[(١)]، فلم يُدْرَكْ بثأره، صـاحت هامته[(٢)] في القبر: اسْقُـوني. قال الزِّبرقان بن بدر يعنيها:

**يا عَمْرُو إلاَّ تَدَعْ شَتْمِي ومَنْقَصَتي — أضرِبْكَ حتَّى تقولَ الهامَةُ اسقوني**

وقال إبراهيم بن هَرْمة:

**وكيفَ قد صاروا عظامًا وأَقْبُرًا — يَصيحُ صَدَاها بالعَشِيِّ وَهَامُها**

**تفانَوْا ولم يَبْقَوْا وَكُلُّ قَبيلةٍ — سَريعٌ إلى وِرْدِ الفَنَاءِ كِرامُها**

وأمَّا **الصَّفَر**: فهو كالحية، يكون في الجوف يصيب الماشية والناس، وهو أعْدَى عندهم من الجَرَب، وفيه يقول الشاعر:

**لا يُمْسِكُ السَّاقَ مِنْ أيْنٍ ولا وَصَبٍ — ولا يَعَضُّ عَلَى شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ[(٣)]**

ورَوَى أبو هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا ظننتم فلا تُحَقِّقوا، وإذا حَسَدتم فلا تَبْغُوا، وإذا تطيرتم فامْضُوا، وعلى الله فتوكَّلُوا**»[(٤)]. وقال الشاعر:

**طَيرةُ الناس لا تردُّ قضاءً — فاعذِرِ الدَّهْرَ لا تَشُبْهُ بلَوْمِ**

**أيّ يوم تخصُّه بسُعودٍ — والمنايا ينزلنَ في كُلِّ يومِ**

**ليس يومٌ إلاَّ وفيه سُعود — ونُحوس تجري لقومٍ وقومِ**

وقد كانت الفرسُ أكثَرَ الناس طِيَرة، وكانت العرب إذا أرادت سفرًا، نفَّرت أوَّل طائر تلقاه، فإن طار يَمْنَةً سارت وتَيَمَّنت، وإذا طار يَسْرة، رجعت وتشاءمت، فنهى النبيّ ﷺ عن ذلك، وقال: «**أقِرُّوا الطيرَ عَلَى وُكُناتها**[(٥)]»[(٦)].

---

(١) أي أُهدر.

(٢) الهامة من طيور الليل، وكانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لم يؤخذ بثأره تصير هامة.

(٣) شرسوفه: أي أحشائه.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» عن أبي هريرة (١٨/ ١٩).

(٥) أي أماكنها وأوكارها، نهى عن زجر الطير بحثًا عن الحظ.

(٦) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٦٥)، عن أم كرز، وأبوداود في «السنن» (٢٤٥٢)، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ٣١١).

وحكَى عِكْرِمة، قـال: كنَّا جلوسًا عند ابن عـباس رضي الله عنهما، فمـرَّ طائر يصيح، فقال رجلٌ منَ القوم: خير. فقال ابنُ عباس: لا خيرٌ ولا شرّ. وقال لَبيد:

**لَعَمْرُك ما تدري الضَّواربُ بالحصَى ولا زاجراتُ الطَّيرِ ما اللهُ صَانعُ**[1]

**واعلم:** أنَّه قلَّما يخلو من الطِّيَرة أحدٌ، لاسيما مَنْ عارضته المقاديرُ في إرادته، وصدَّه القـضاءُ عن طِلْبتـه، فهو يرجـو واليأسُ عليه أغلب، ويأمل والخـوفُ إليه أقرب، فإذا عـاقه القضاءُ، وخـانه الرَّجاءُ، جعَلَ الطِّيَـرة عُذْرَ خيبتـه، وغَفَلَ عن قضاء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومشيئتـه، فهو إذا تطيَّرَ من بَعدُ أحجم عن الإقدام، ويَئس من الظَّفَر، وظنَّ أنَّ القياس فيه مُطَّرِد، وأنَّ العِبْرة فـيه مستمرة، ثم يصير ذلك له عادة، فلا يَنجح له سعي، ولا يتم له قصد.

فأمَّا مَـنْ ساعدته المقادير، ووافـقه القضاء، فـهو قليلُ الطِّيَرَة لإقدامـه، ثقةً بإقباله، وتعويلاً على سعـادته، فلا يصُدُّه خوف، ولا يكفُّه حذر، ولا يؤوب إلاَّ ظافرًا، ولا يعود إلا مُنْجَـحًا؛ لأنَّ الغُنْم بالإقدام، والخيبةَ مع الإحـجام، فصارت الطِّيَرَةُ من سمات الإدبار، واطراحها من أمارات الإقبال.

فينبغي لمن مُنِيَ بها وبُلي، أن يصـرفَ عن نفسه وساوسَ النَّوْكَى[2]، ودواعي الخَيبة، وذرائع الحِرمان، ولا يجعل للشـيطان سلطانًا في نقض عزائمه، ومعارضة خالقـه، ويعلم أنَّ قضاء الله تعـالى عليه غالب، وأنَّ رزق العـبد له طالب، وأنَّ الحركة سبب، فلا يَثْنيه عنها مـا لا يضرُّ مخلوقًا، ولا يدفع مقْدورًا، ولْيَمْضِ في عزائمه، واثقًا بالله تعالى إن أُعْطِيَ، وراضيًا به إن مُنِع.

فـقـد رَوَى أبو هريرة قال: قـال رسـول الله ﷺ: **«إن في الإنسـان ثلاثة: الطِّيَـرَة والظنّ، والحسدَ؛ فمُخْرِجه من الطِّيَرة ألاَّ يرجعَ، ومُخْرِجُه من الظنِّ ألاَّ يُحقِّقَ، ومُخْرِجُه من الحسد ألاَّ يبغي»**[3]. ورُوي عنه ﷺ أنه قال: **«كفَّارة الطِّيَرة التوكُّلُ على الله تعالى»**.

---

(١) الضرب بالحصى عمل كان يقوم به العرَّافون، فيما يزعمونه اطِّلاعًا على الغيب.

(٢) أي الحمقى.

(٣) أخرجه الترمذي في «التحفة» (٦/ ٥٥)، وأخرجه الديلمي في «الفردوس» (٦/ ١٣٦) (٤٣٦٧).

وقيل في منثور الحكم: الخيرَة في ترك الطِّيرة، وَلْيَقُلْ إن عارضه في الطِّيَرة ريبٌ، أو خامره فيها وهم، ما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«مَنْ تطيَّر فليقل: اللهم لا يأتي بالخيرات إلاَّ أنت، ولا يدفع السيئات إلاَّ أنت، ولا حولَ ولا قوَّة إلا بالله»**[1]. ورُوي أنَّ رجلاً جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنا نزلنا داراً وكثُر فيها عددنا، وكثُرت فيها أموالنا، ثم تحوَّلنا منها إلى أخرى، فقلَّت فيها أموالنا، وقلَّ فيها عددنا؛ فقال النبي ﷺ: **«ذَرُوها وهي ذميمة»**[2].

وليس هذا القولُ منه ﷺ على وجه الطِّيَرة، ولكن على وجه التبرُّك بما فارق، وترك ما استوحش منه إلى ما أَنِس به.

**فأما الفأل**: ففيه تقوية للعزم، وباعث على الجدِّ، ومعونة على الظَّفر؛ فقد تفاءل رسولُ الله ﷺ في غزواته وحروبه، ورَوَى أبو هريرة أنَّ رسول الله ﷺ سمعَ كلمةً فأعجبته، فقال: **«أخذْنا فألَك من فيك»**[3].

فينبغي لمن تفاءل أن يتأوَّل الفألَ بأحسن تأويلاته، ولا يجعلَ لسُوء الظنِّ على نفسه سبيلاً، فقد قال النبيِّ ﷺ: **«إنَّ البلاءَ مُوَكَّل بالمنطق»**[4].

حُكي أن يوسف - عليه السلام - شكا إلى الله تعالى طولَ الحَبْس، فأوحَى الله تعالى إليه: يا يوسُف، أنتَ حَبَسْتَ نفسَك حيثُ قُلْت: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف:٣٣). ولو قلْتَ: العافِيةُ أحبُّ إليَّ لعُوفيت. وحُكي أنَّ المُؤَمَّل بن أُمَيْل الشاعر لما قال يوم الحِيرةَ:

**شَفَّ المُؤَمَّلَ يومَ الحِيرة النظرُ ... ليتَ المؤمَّلَ لم يُخْلق له بَصَرُ**

---

(١) أخرجه أبوداود (٣٩١٩)، بلفظ: «فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا...»، الحديث. وأخرجه البيهقي في «الكبرى» (٨/ ١٣٩)، باب العافية والطيرة - بلفظ: «فإذا رأيت من الطيرة ما تكره فقل: اللهم لا يأتي بالحسنات...» الحديث.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» بلفظ قريب (٦/ ١٠٤) (٥٦٣٩)، وبلفظه ذكره المقدسي في «المختارة» (٤/ ٣٦٤).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٨٨)، وأبوداود في «السنن» (٣٥٤٧)، والطبراني في «الأوسط» (٩١٣٢). عن أبي هريرة.

(٤) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ١٦١) (٢٢٧) (٢٢٨).

فعمي، فأتاه آتٍ في منامه، فقال له: هذا ما طلبت.

وحُكي أنَّ الوليد بن يزيدَ بن عبد الملك تفاءل يومًا في المصحَف، فخرج له قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (إبراهيم:١٥)، فمزَّق المصحف، وأنشأ يقول:

| | |
|---|---|
| أتُوعِدُ كلَّ جبَّارٍ عنيدِ | فها أنا ذاكَ جبَّارٌ عنيدُ |
| إذا ما جئْتَ ربَّكَ يَوْمَ حَشْرٍ | فقلْ يا ربِّ خَرَّقَنِي الوليدُ |

فلم يلبَثْ إلا أيامًا حتَّى قُتِلَ شرَّ قِتْلة، وصُلب رأسُه على قَصْره، ثم على سُور بلده، نعوذُ بالله من البغي ومَصَارِعه، والشيطان ومصايِده، وهو حسبُنا وعليه توكلنا، وإليه ننيب.

## الفصل السابع

## في المروءة

**اعلم:** أنَّ من شواهد الفضْل ودلائل الكرم: المروءة التي هي حِلية النفوس، وزينة الهِمم. والمروءة: مُراعاة الأحوال إلى أن تكون على أفضلها، حتى لا يظهَر منها قبيح عن قصد، ولا يتوجَّه إليها ذمّ باستحقاق. رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**من عامَل الناس فلم يظلمْهم، وحدَّثهم فلم يَكْذبهم، ووعدَهم فلم يُخْلِفْهم، فهو ممن كَمُلت مُروءته، وظهرت عدالته، ووجَبتْ أخوَّته**»[1]. وقال بعضُ البلغاء: من شرائط المروءة: أن يتعفَّف العبد عن الحرام، ويتصلَّف[2] عن الآثام، وينصفَ في الحكم، ويكفَّ عن الظلم، ولا يطمَع فيما لا يستحقّ، ولا يستطيلَ على من لا يَسْتَرِقّ، ولا يُعينَ قويًا على ضعيف، ولا يؤثِرَ دَنِيًا على شريف، ولا يُسرَّ بما يَعْقُبه الوِزرُ والإثم، ولا يفعلَ ما يُقَبِّح الذكر والاسم. وسئل بعض الحكماء عن الفرق بينَ العقلِ والمروءة؟ فقال: العقل يأمرك بالأنفع، والمروءة تأمُرك بالأجمل.

ولن تجدَ الأخلاق على ما وصفنا من حدّ المروءة منطبعة، ولا عن المراعاة مستغنية، وإنَّما المراعاة هي المروءة، لا ما انطبعَتْ عليه النفوس من فضائل

(١) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٥٤٣) عن علي بن أبي طالب.

(٢) أي يترفع ويبتعد.

الأخلاق؛ لأنَّ غُرور الهوَى، ونازعَ الشهـوة يصرفان النفسَ أن تركبَ الأفضل من خلائقها، والأجملَ من طرائقها، ولو سلمت منهما ـ وبعيدٌ أن تسلمَ ـ لَمَا استكملت شرفَ الأخلاق طبعًا، ولا استغنَتْ عن تهذيبها تكلُّفًا وتصنُّعًا. قال الشاعر:

**مَنْ لك بالمحضِ وليس محضُ ... يخبُثُ بعضٌ ويطيبُ بعضُ**[1]

ثم لو استكمل الفضلَ طبعًا، وفي المُعْوِز أن يكون مُستَكمَلاً، لكان في المستحسن من عادات دهره، والموضوع من اصطلاح عصره؛ من حقوق المروءة وشروطها، ما لا يَتَوَصَّل إليه إلاَّ بالمعاناة، ولا يُوقف عليه إلاَّ بالتفقُّد والمراعاة.

فثبت أنَّ مراعاة النفس على أفضل أحوالها هي المروءة، وإذا كان كذلك فليس ينقادُ له مع ثِقَل كُلَفها، إلاَّ من تسهَّلَتْ عليه المشاقّ رغبةً في الحمد، وهانت عليه الملاذّ حذرًا من الذمّ، ولذلك قيل: سيِّد القوم أشقاهم. وقال أبو تمام الطائي:

**والحمدُ شَهْدٌ لا يُرَى مُشتارُهُ ... يَجنيه إلاَّ من نَقيعِ الحنظلِ**[2]

**غُلٌّ لحامِلِه ويحسِبه الذي ... لم يُوهِ عاتِقَه خفيفَ المَحْمَلِ**

وقد لحَظ المتنبي ذلك في قوله:

**لولاَ المَشَقَّةُ سادَ الناسُ كُلُّهُمُ ... الجودُ يُفقِرُ والإقدامُ قَتَّالُ**

وله أيضًا:

**وإذَا كانتِ النُّفُوسُ كِبارًا ... تعِبَتْ في مُرادها الأجسامُ**

والداعي إلى استسهال ذلك شيئان: **أحدهما**: عُلُوّ الهمة، **والثاني**: شرف النفس.

أمَّا **علوّ الهمَّة**: فلأنه باعث على التقدُّم، وداعٍ إلى التخصيص، أنفَةً من خمول الضَّعة، واستنكارًا لَمهانة النقص، ولذلك قال النبيّ ﷺ: «**إن الله يحبُّ معاليَ الأمور وأشرافها، ويكره دَنِيَّها وسَفْسافها**»[3]. ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه قال: لا تصغُرن هممُكُم؛ فإنِّي لم أرَ أقعَدَ عن المكرُمات من صِغَرِ

---

(١) المحض: الخالص. (٢) مشتاره: أي الذي يجني العسل من الشَّهْد.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣/ ٢١٠) (٢٩٤٠)، عن سهل بن سعد الساعدي، والبيهقي (١٠/ ١٩١)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٥/ ٣٣٢) (٢٦٦١٧) بألفاظ متقاربة.

الهمم. وقال بعضُ الحكماء: الهمَّة راية الجَدّ. وقال بعضُ البلغاء: علوّ الهمَم بذْر النِّعم. وقال بعضُ العلماء: إذا طلب رجلان أمرًا، ظفر به أعظمُهما مُروءةً. وقال بعضُ العلماء: مَن ترك التماسَ المعالي بسوء الرجاء، لَم ينَلْ جسيمًا.

**وأما شرف النفس:** فإنَّ به يكون قبولُ التأديب واستقرار التقويم والتهذيب؛ لأنَّ النفس ربما جمحت عن الأفضل وهي به عارفة، ونفرت عن التأديب وهي له مستحسنة؛ لأنَّها عليه غيرُ مطبوعة، وله غيرُ ملائمة، فتصير منه أنفر، ولضدِّه المُلائم آثَرَ. ولذلك قيل: ما أكثر من يَعرف الحقَّ ولا يطيعه! وإذا شَرُفت النفس كانت للآداب طالبةً، وفي الفضائل راغبةً، فإذا مازجَها صارت طبعًا ملائمًا، فنما واستقرَّ. فأمَّا من مُنِيَ بعلوّ الهمَّة، وسُلب شرفَ النفس، فقد صار عُرْضة لأمر أعوزته آلته، وأفسدته جهالته، فصار كضرير يروم تعلُّم الكتابة، وأخْرَسَ يريد الخُطبة، فلا يزيده الاجتهادُ إلاَّ عجزًا، والطلبُ إلاَّ عَوَزًا؛ ولذلك قال النبي ﷺ: **«ما هَلَكَ امرؤٌ عَرَفَ قدرَه»**[1]. وقيل لبعض الحكماء: مَنْ أسوأُ الناس حالاً؟ قال: من بَعُدتْ همَّته، واتَّسعَت أُمنيتُه، وقَصُرت آلته، وقلَّت مقدرته، وقال أُفْنُون التَّغْلبيّ:

**ولا خيرَ فيما يَكْذِبُ المرءُ نَفْسَهُ ... وَتَقْوَالِهِ للشَّيءِ ياليتَ ذا لِيَا**
**لَعَمْرُكَ ما يَدري امْرُؤٌ كيفَ يتَّقي ... إذا هُوَ لم يَجْعَلْ له الله واقيا**

وقال بعضُ الحكماء: تجنَّبوا المُنَى؛ فإنَّها تذهَب ببهجة ما خُوِّلتم، وتستصغرون بها نعمة الله عندكم. وقيل في منثور الحكم: المُنَى من بضائع النَّوْكَى، فإنْ صادف بهمته حظًا نال به أمَلاً، كان فيما ناله كالمغتصب، وفيما وصل إليه كالمتغلِّب؛ إذ ليس في الحظوظ تقديرٌ لحقّ ولا تمييز لمستحقّ، وإنَّما هي كالسحاب الذي يمسك[2] من منَابت الأشجار، إلى مَغاويص البحار[3] وينزل حيثُ صادف من خبيث وطيب؛ فإن صادف أرضًا طيبةً نفع؛ وإن صادف أرضًا خبيثةً ضَرَّ، كذلك الحظُّ إن صادف نفسًا شريفة نفع، وكان نعمة عامة؛ وإن صادف نفسًا دنية ضرَّ، وكان نقمة طامَّة.

---

(١) لم أصل إليه. (٢) أي يحمل المطر.
(٣) أي أماكن الغوص فيها.

حُكِي أنَّ موسى بن عمـران ـ عليه السلام ـ دعا على قـوم بالعذاب، فأوحَى الله إليه: قد مَـلَّكتُ سفلَتَهَا عَلَى عليَـتهَا، فقـال: يا رب، كنتُ أحبُّ لهم عذابًا عاجلاً، فأوحى الله تعالَى إليه: أو لَيسَ هذا كلَّ العذاب العاجل الأليم.

فأما شـرفُ النفس إذا تجرَّد عن علوّ الهمة، فإنَّ الفـضل به عاطل، والقدْر به خامل، وهو كـالقوَّة في الجَلْد الـكَسل، أو الجبان الفـشل، تضيع قـوَّته بكَسَله، وجَلَدُه بفَشَله، وقـد قيل في مَنثور الحكم: مَن دام كسلُه خـابَ أمله. وقال بعض الحكماء: نكح العـجزُ التواني فخرج منـهما النَّدامة، ونكح الشؤم الـكَسَل فخرج منهما الحرمان، وقال بعضُ الشعراء:

| | |
|---|---|
| إذا أنتَ لم تعـرفْ لنفـسِكَ حـقَّـهـا | هوانًا بهـا كـانت على الناس أهونَا |
| فنفـسَكَ أكـرمْـهـا وإنْ ضـاقَ مَـسْكَنٌ | عليك لهـا فـاطلُبْ لنفـسِك مَـسْكَنا |
| وإيَّـاكَ والـسُّـكْـنَـى بمـنـزل ذلَّـةٍ | يُعَـدّ مسيـئًا فيـه من كـان مُحْسِنا |

وشرفُ النفس مع صغر الهـمة أولى من علوّ الهمَّة مع دناءة النفس؛ لأنَّ من عَلَتْ همّته مع دناءة نفـسه، كان متعدِّيًا إلـى طلب ما لا يستحقُّه، ومـتخطّيًا إلى التماس ما لا يستوجبه؛ وَمَن شرفت نفسه مـع صغر همّته، فهو تارك لما يستحقّه، ومقصِّرٌ عـمَّا يجبُ له، وفضلُ ما بين الأمرين ظاهر، وإن كان لكـل واحد منهما من الذم نصيب. وقد قـيل لبعض الحكماء: ما أصـعبُ شيءٍ على الإنسان؟ قال: أن يعرفَ نفسـه، ويكتم الأسرار. فإذا اجتمع الأمران، واقـترن بشرف النفس علوّ الهمـة، كان الفـضلُ بهمـا ظاهرًا، والأدب بهمـا وافرًا، ومـشاقّ الحـمد بينهـما مستسهلة، وشروط المروءة بينهما متأتية. وقد قال الحصين بن المنذر الرَّقاشيّ:

| | |
|---|---|
| إنَّ المروءةَ ليس يدركُـهـا امـرؤ | ورِثَ المكارمَ عن أبٍ فـأضـاعَـهـا |
| أمـرَتْهُ نفسٌ بالدَّناءة والخَنَا | ونهـتْـه عن سُبُل العُـلا فـأطاعَـهـا |
| فـإذا أصـابَ مـن المكارم خَـلَّة | يَبني الكريمُ بهـا المكارمَ باعَـهـا |

**واعلم**: أن حقوق المروءة أكثر من أن تُحصَى، وأخفى من أن تظهر، لأنَّ منها ما يقوم في الـوهم حِسًا، ومنها ما يقـتضيه شـاهد الحال حَدْسًا، ومنهـا ما يظهر

بالفعل، ويخفى بالتغافل، فلذلك أعوز استيفاء شروطها، إلا جُمَلاً يتنبَّه الفاضل عليها بفطنته، ويستدل العاقل عليها بفطرته، وإن كان جميع ما تضمنه كتابنا هذا من حقوق المروءة وشروطها، وإنما نذكر في الفصل الأشهر من قواعدها وأصولها، والأظهرَ من شروطها وحقوقها، محصورًا في تقسيم جامع، وهو ينقسم قسمين:

**أحدهما:** شروط المروءة في نفسه. **والثانية:** شروطها في غيره.

**فأمَّا شروطها في نفسه:** بعد التزام ما أوجبه الشرع من أحكامه ـ فيكون بثلاثة أمور وهي: العفة، والنزاهة، والصِّيانة.

**فأمَّا العفة، فنوعان: أحدهما:** العفّة عن المحارم، **والثاني:** العفة عن المآثم.

**فأما العفّة عن المحارم** فنوعان: **أحدهما:** ضبط الفَرْج عن الحرام، **والثاني:** كفُّ اللسان عن الأعراض.

فأما ضبط الفَرْج عن الحرام، فلأن عدمه مع وعيد الشرع وزاجر العقل مَعَرَّة فاضحة وهُتْكة[1] داحضة، ولذلك قال النبيّ ﷺ: **«من وُقِيَ شَرَّ ذَبْذبه ولَقْلَقه وقَبْقبه فقد وُقِي»**[2].

يريد بذبذبه: الفَـرْجَ، وبلقلقه: اللسان، وبقَـبْقبـه: البَطْن. ورُوِي عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«أَحَبُّ العَفَافِ إلى الله تعالى عفافُ الفَرْج والبطن»**[3]. وحُكِي أن معاوية رضي الله عنه سأل عمرًا عن المروءة، فقال: تقوى الله تعالى، وصلة الرحم. وسأل المغيرةَ فقال: هي العفة عمَّا حرَّم الله تعالى؛ والحرفة فيما أحله الله تعالى. وسأل يزيدَ فقال: هي الصبرُ على البلوى، والشكر على النُّعْمَى، والعفوُ عند القدرة. فقال معاوية: أنت منِّي حقًّا. وقال أنوشرْوان لابنه هُرْمُز: مَن الكامل المروءة؟ فقال: مَن حصَّن دينه، ووصلَ رحمه، وأكرم إخوانه. وقال بعضُ الحكماء: مَن أحبَّ المكارم اجتنبَ المحارم. وقيل: عارُ الفضيحة يكدِّر لذتها.

---

(١) أي فضيحة.

(٢) **موضوع**: انظر «كشف الخفاء» للعجلوني (٢/ ٣٣٩)، و«الفوائد المجموعة» للشوكاني (١/ ٦٥٤).

(٣) لم أصل إليه.

وقد أنشدني بعضُ أهل الأدب، للحسين بن عليّ رضي الله عنهما:

**الموتُ خيرٌ من ركوبِ العارِ والعارُ خيرٌ من دخول النار**

**واللهُ مِن هذا وهذا جارِي**[1]

والداعي إلى ذلك شيئان: **أحدهما**: إرسال الطرف، **والثاني**: اتباع الشهوة. وقد رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال لعلي بن أبي طالب - كرّم الله وجهه -: **«يا علي، لا تُتْبِع النَّظرة النظرة؛ فإنَّ الأولى لك، والثانيةَ عليك»**[2]. وفي قولَه: **«لا تتبع النظرة النظرة»**، تأويلان:

**أحدهما** - لا تتبع نظرَ عينيك نظرَ قلبك.

**والثاني** - لا تتبع النظرة الأُولى التي وقعت سهوًا بالنظرة الثانية التي تُوقعها عمدًا. وقال عيسى ابن مريم - عليه السلام -: إياكم والنَّظرةَ بعد النظرة؛ فإنَّها تزرع في القلب الشهوة، وكفى بها لصاحبها فتنة. وقال عليّ بن أبي طالب - كرَّم الله وجهه -: العيونُ مصايد الشيطان. وقال بعض الحكماء: مَن أرسل طرفه، استدعى حتفه. وقال بعضُ الشعراء:

**وكنْتَ متى أرسلْتَ طرفَك رائدًا لقلبك يومًا أتعبتْكَ المناظرُ**

**رأيتَ الذي لا كلُّه أنتَ قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنتَ صابرُ**

**وأمَّا الشهوة**: فهي خادعة العقول، وغادرة الألباب، ومُحَسِّنة القبائح، ومُسوِّلة الفضائح، وليس عطَبٌ إلاَّ وهي له سبب وعليه ألبُ، ولذلك قال النبي ﷺ: **«أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه وجبَتْ له الجنة، وحُفِظ من الشيطان: مَن ملك نفسه حين يرغَبُ، وحين يشتهي، وحين يغضب»**[3].

وقهرُها عن هذه الأحوال، يكون بثلاثة أمور:

أحدها - غضُّ الطَّرْف عن إثارتها، وكفُّه عن مساعدتها؛ فإنَّه الرائد المحرِّك،

---

(١) يعني مُجيره ومنقذه.

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٢٧٧٧)، الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢١٢)، والبيهقي في «الكبرى» (٧/ ٩٠) وحسنه الألباني.

(٣) ذكره الحكيم الترمذي كما في «كنز العمال» (٤٣٤١٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والقائد المُهلك. رَوَى سعيد بن سنان، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «**تقبَّلوا إليَّ بستٍّ أتقبَّلْ إليكم بالجنة**». قالوا: وما هي يا رسولَ الله؟ قال: «**إذا حدَّثَ أحدكم فلا يكذب، وإذا وَعَد فلا يخلف، وإذا اؤتُمِن فلا يخن، غُضُّوا أبصارَكم، واحْفَظُوا فروجَكم، وكُفُّوا أيديَكم**»[1].

**والثاني** ـ ترغيبها في الحلال عوضًا، وإقناعُها بالمباح بدلاً؛ فإنَّ الله تعالى ما حرَّم شيئًا وأغنى عنه بمباح من جنسه؛ إلاَّ لما علمه من نوازع الشهوة، وتركيب الفطرة؛ ليكون ذلك عونًا على طاعته، وحاجزًا عن مخالفته. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما أمَرَ الله تعالى بشيءٍ إلاَّ وأعان عليه، ولا نهى عن شيء إلاَّ وأغنَى عنه.

**والثالث** ـ إشعار النفس تقوى الله تعالى في امتثال أوامره، واتقاؤه في اجتناب زواجره، وإلزامها ما ألزم من طاعته، وتحذيرها ما حذَّر من معصيته، وإعلامُها أنه لا يخفى عليه ضمير، ولا يعزُب عنه قطمير، وأنه يجازي المحسنَ، ويكافئ المسيء، وبذلك نزلتْ كتبُه، وبلَّغت رسلهُ. روى ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ آخر ما نزل من القرآن: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ (البقرة: ٢٨١). وآخر ما نزل من التوراة: «إذا لم تستحِ فاصنَعْ ما شئت». وآخر ما نزل من الإنجيل: «شرُّ الناس مَن لا يبالي أن يراه الناس مُسيئًا». وآخر ما نزل من الزَّبور: «مَن يزرَعْ خيرًا يحصدْ زرعه غبطةً». فإذا أشعَرها ما وصفت، انقادت إلى الكفّ، وأذعنت بالاتقاء، فسَلِم دينُه، وظهرت مُروءته، فهذا شرط.

**وأمَّا كفُّ اللسان عن الأعراض:** فلأن عدمه مَلاذ السفهاء، وانتقام الغَوغاء، وهو مستسهل الكُلَف. وإذا يَقْهر نفسَه عنه برادع كافٍّ وزاجرٍ صادٍّ تلبَّط بمعارّه[2] وتخبَّط بمضارّه[3]. وظنَّ أنه لتجافي الناس عنه حمى يُتَّقى، ورتبة تُرْتَقى فهلك وأهلك. ولذلك قال النبيّ ﷺ: «**ألا إنَّ دماءَكم وأموالكم وأعراضكم حرامٌ عليكم**»[4]. فجمع بين الدم والعِرض؛ لما فيه من إيغار الصدور، وإبداء الشرور

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٦٢)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٩٩)، وأبو يعلى (٤٢٥٧).
(٢) أي سقط صريعًا بآثام اللسان وآفاته.
(٣) أي تحمل أوزاره فبطل بها عمله.
(٤) أخرجه مسلم والطبراني في «الكبير» (٤/ ٣٤) (٣٥٧٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٣٣)، والنسائي في «الكبرى» (٢/ ٤٢٢).

وإظهار البَذاء، واكتساب الأعداء، ولا يبقى مع هذه الأمور وزن لمومِق[1]، ولا مروءة لملحوظ، ثم هو بها موتور وموزور، ولأجلها مهجور مزجور. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«شرُّ الناس مَنْ أكرمه الناس اتقاءَ لسانه»**[2]. وقال بعضُ الحكماء: إنما يهلك الناس بفضول الكلام، وفضول المال.

وما قَدَح في الأعراض من الكلام نوعان:

**أحدهما** - ما قَدَح في عِرْض صاحبه، ولم يتجاوزه إلى غيره، وذلك شيئان: الكذب، وفحش القول.

**والثاني** - ما تجاوزه إلى غيره، وذلك أربعة أشياء: الغيبة، والنَّميمة، والسِّعاية، والسَّبّ بقذف أو شتم؛ وربَّما كان السبُّ أنكاها للقلوب، وأبلَغها أثرًا في النفوس؛ ولذلك زَجَرَ الله عنه بالحدّ تغليظًا، وبالتفسيق تشديدًا وتصعيبًا، وقد يكون ذلك لأحد شيئين: إمَّا انتقام يصدر عن سَفَه، أو بَذاء يحدُث عن لؤم. وقد رَوَى أبو سَلَمة عن أبي هريرة، أنَّ النبي ﷺ قال: **«المؤمنُ غِرٌّ كريم، والفاجر خِبٌّ لئيم»**[3]. وقال ابنُ المقفَّع: الاستطالة لسان الجهالة، وكفُّ النفس عن هذه الحال بما يصدُّها من الزواجر أسلم، وهو بذي المروءة أجملُ؛ فهذا شرط.

وأمَّا العفَّة عن المآثم فنوعان:

**أحدهما** - الكفُّ عن المجاهرة بالظلم.

**والثاني** - زجر النفس عن الإسرار بخيانة.

فأمَّا المجاهرة بالظلم: فعُتُوٌّ مهلك، وطُغيان مُتْلِف، وهو يؤول إن استمرَّ إلى فتنة أو جَلاء.

أما الفتنة في الأغلب: فتحيط بصاحبها، وتنعكس على البادئ بها، فلا تنكشف إلا وهو بها مصروع، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر: ٤٣). ورُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«الفتنة نائمة، فمن أيقظَها**

---

(١) أي محبوب.

(٢) لم أقف عليه بلفظه، ولكن أصله في البخاري (٥/ ٢٢٥٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٠٢) (٢٥٩١).

(٣) «مسند أحمد» (٢/ ٣٩٤) (٩١٠٧).

**صار طعامًا لها»**. وقال جعفر بن محمد: الفتنة حَصادُ الظالمين. وقال بعضُ الحكماء: صاحبُ الفتنة أقربُ شيءٍ أجَلاً وأسوأ شيءٍ عَمَلاً. وقال بعضُ الشعراء:

**وكنتَ كَعَنْزِ السَّوءِ قامَتْ لحَتْفها ... إلى مديةٍ تحتَ الثَّرى تستثيرُها**

وأما الجَلاء: فقد يكون من قوة الظالم، وتطاول مدته، فيصير ظلمه مع المُكنَة جلاءً وفناءً، كالنار إذا وقعت في يابس الشجر، فلا تُبقي معها مع تمكُّنها شيئًا، حتى إذا أفْنَتْ ما وجدت اضمحلَّتْ وخَمَدَتْ، فكذا حال الظالم: مُهلك ثم هو هالك. والباعث على ذلك شيئان: الجراءة والقَسوة، ولذلك قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «**اطلبُوا الفَضْلَ والمعروفَ عند الرُّحماء من أمتي، تعيشوا في أكنافهم**»[1].

والصادُّ عن ذلك: أن يَرَى آثارَ الله تعالى في الظالمين؛ فإنَّ له فيهم عِبَرًا، ويتصوَّر عواقب ظلمهم؛ فإنَّ فيها مُزدَجرًا. وقد روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**مَن أصبَحَ ولم يَنْوِ ظُلْمَ أحدٍ، غَفَرَ الله له ما اجترم**»[2]. ورَوَى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا عليّ، اتَّقِ دَعْوَةَ المظلوم، فإنَّه إنما يسأل الله حَقَّه، وإن الله لا يمنع ذا حقٍّ حقَّه**»[3]. وقيل في منثور الحكَم: ويلٌ للظالم من يوم المظالم. وقال بعضُ البلغاء: من جار حُكمه أهلكه ظلمُه. وقال بعضُ الشعراء:

**وما مِنْ يَدٍ إلاَّ يدُ الله فوقَها ... ولا ظالم إلاَّ سَيُبْلَى بظالم**

**وأمَّا الإسرار بالخيانة**: فضَعَةٌ[4]، لأنه بذُلّ الخيانة مُهين، ولقلة الثقة به مستكين. وقد قيل في منثور الحكَم: من يَخُنْ يَهُنْ. وقال خالد الرَّبَعيّ: قرأت في بعض الكتب السالفة: أنَّ مِمَّا تُعَجَّلُ عقوبته ولا تؤخَّر: الأمانة تُخان، والإحسانُ يُكفَر، والرَّحِمُ تُقْطَع، والبغيُ على الناس؛ ولو لم يكن من ذم الخيانة إلاَّ ما يجده الخائن في نفسه من المذلة، لكفاه زاجرًا؛ ولو تصورَّ عُقْبَى أمانته، وجَدْوَى ثقته،

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» بلفظ آخر (٤٧١٧)، وأورده الهيثمي في «الزوائد» (٨/ ١٩٥).
(٢) أورده ابن حجر في «لسان الميزان» (٧٦٥).
(٣) أورده الديلمي في «الفردوس» (٨٣٢٢).
(٤) أي دناءة.

لعلم أنَّ ذلك من أربح بضائع جاهه، وأقوى شفعاء تقدُّمه، مع ما يجدُه في نفسه من العِزّ، ويقابَل عليه من الإعظام. وقد رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«أدِّ الأمانة إلى مَن ائتمنك. ولا تَخُنْ من خانك»**[1].

ورَوَى سعيد بن جُبَيْر، قال: لمَّا نزلت هذه الآية: ﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ (آل عمران: ٧٥). يعنون أنَّ أموال العرب حلالٌ لهم؛ لأنَّهم من غير أهل الكتاب. قال رسول الله ﷺ: **«كذب أعداء الله! ما من شيء كان في الجاهلية إلاّ وهو تحت قدميَّ، إلاّ الأمانة؛ فإنَّها مؤداة إلى البَرّ والفاجر»**[2].

ولا يجعل ما يتظاهر به من الأمانة زورًا، ولا ما يُبديه من العفة غُرورًا، فينهتك الزور، وينكشف الغُرور، فيكون مع هَتْكه التدليس أقبح، ولمعرَّة الرياء أفضح، وقد رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«لا تزالُ أمتي بخير ما لم ترَ الأمانة مَغْنَمًا، والصَّدَقَةَ مَغْرَمًا»**[3]. وقال بعضُ الحكماء: من التمس أربعًا بأربع، التمس ما لا يكون: مَن التمسَ الجزاءَ بالرِّياء التمسَ ما لا يكون، ومن التمسَ مودَّة الناس بالغلظة التمس ما لا يكون؛ ومن التمس وفاء الإخوان بغير وفاء التمس ما لا يكون؛ ومن التمس العلم براحة الجسد التمس ما لا يكون.

**والداعي إلى الخيانة شيئان:** المهانة، وقلة الأمانة، فإذا حسمهما عن نفسه بما وصَفْت، ظهرت مروءته. فهذا شرط قد استوفينا به أقسام العفّة.

**وأمَّا النزاهة فنوعان: أحدهما:** النزاهة عن المطامع الدنيّة. **والثاني:** النزاهة عن مواقف الرِّيبة.

**فأما المطامع الدنية:** فلأن الطمع ذل، والدَّنَاءة لؤم، وهما أدفع شيء للمروءة. وقد كان النبيّ ﷺ يقول في دعائه: **«اللهم إنِّي أعوذ بك من طَمَعٍ يَهدي إلى طَبَعٍ»**[4][5]. وقال بعضُ الشعراء:

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٣)، عن أبي هريرة، وأبو داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤).

(٢) لم أصل إليه.

(٣) بغير هذا اللفظ في «زوائد الهيثمي» (١/ ٣٨٦)، و«الأوسط» للطبراني (٢/ ١٠٥).

(٤) طبع: أي دَنَس وشَين.

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٣٢).

**لا تخضعنَّ لمخلوقٍ على طَمَعٍ ... فإنَّ ذلك نقصٌ منكَ في الدِّينِ**
**واسترزقِ الله ممَّا في خزائنه ... فإنَّما هو بين الكاف والنونِ**

والباعث على ذلك شيئان: الشَّرَه، وقلَّة الأنَفَة، فلا يقنع بما أُوتي - وإن كان كثيرًا - لأجل شرَهه، ولا يستنكفُ مما مُنِع - وإن كان حقيرًا - لقلَّة أَنَفته.

وهذه حال من لا يرى لنفسه قَدْرًا؛ ويرى المالَ أعظم خَطَرًا، فيرى بَذْلَ أهون الأمرين لأجلهما مَغْنمًا، وليس لمن كان المال عنده أجلّ، ونفسه عليه أقلّ، إصغاءٌ لتأنيب ولا قَبُولٌ لتأديب، ورُوي أنَّ رجلاً قال: يا رسول أوصني. قال: «**عليك باليأس مما في أيدي النَّاس، وإيَّاكَ والطمَعَ؛ فإنَّه فقر حاضر. وإذا صَلَّيت صلاةً فصَلِّ صلاةَ مُوَدِّع، وإياكَ وما يُعْتَذَرُ منه**»[1]. قال بعضُ الحكماء: عزُّ النزاهة أشرف من سرور الفائدة. وقال بعض الشعراء:

**وَمَن كانت الدُّنيا مُناهُ وهمَّهُ ... سَبَتْهُ المُنَى واستعبدَتْهُ المطامعُ**

وحسم هذه المطامع شيئان: اليأس، والقناعة. وقد رَوَى عبد الله بن مسعود، عن النبيِّ أنه قال: «**إنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعي: أنَّ نَفْسًا لن تموتَ حتَّى تستوْفِيَ رِزْقَها؛ فاتقوا الله وأَجْمِلُوا في الطَّلَب، ولا يحملنَّكم إبطاءُ الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله تعالى؛ فإنَّ الله - عزَّ وجلَّ - لا يُدْرَك ما عنده إلاَّ بطاعته**»[2]. فهذا شرط.

**وأمَّا مواقفُ الرِّيبة**: فهي التردُّد بين منزلتي حَمْدٍ وذمٍ، والوقفُ بين حالتي سلامة وسقمٍ، فتتوجه إليه لائمة المتوهمين، وينالهُ ذلَّةُ المريبين، وكفى بصاحبها موقفًا، إن صحَّ افتضح، وإن لم يصحَّ امتُهِنَ. وقد قال النبي ﷺ: «**دَعْ ما يَريبك إلى ما لا يَريبك**»[3]. وسُئل محمد بن عليٍّ عن المروءة؟ فقال: ألاَّ تعملَ في السرِّ عملاً تستحي منه في العلانية. وقال حسان بن أبي سنان: ما وجدْتُ شيئًا هو أهون من الورع. قيل له: وكيف ذلك؟ قال: إذا ارْتَبْتُ بشيءٍ تركته.

---

(١) أخرجه الشيباني في «الآحاد والمثاني» (٤/ ٢٤٦) (٢٢٤٩)، وابن حجر في «الإصابة» (٣/ ٩٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٧٩) (٣٤٣٣٢)، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «القناعة» كما في «فتح الباري» (١/ ٢٠).

(٣) مر تخريجه

والداعي إلى هذه الحال شيئان: الاسترسال، وحسنُ الظن. والمانع منهما شيئان: الحياء والحذر. وربما انتفت الرِّيبة بحسن الثقة، وارتفعت التُّهَمَةُ بطول الخبرة. كالذي حُكي عن عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ: أنه رآه بعضُ الحَواريّين، وقد خرج من منزل امرأة ذات فجور، فقال: يا رُوح الله! ما تصنع هاهنا؟ فقال: الطبيب إنما يداوي المرضَى. ولكن لا ينبغي أن يجعل ذلك طريقًا إلى الاسترسال، وليكن الحذرُ عليه أغلبَ وإلى الخوف من تصديق التُّهم أقربَ، فما كُلُّ ريبة ينفيها حُسْنُ الثقة.

هذا رسولُ الله ﷺ، وهو أبعدُ خَلْق الله من الرِّيَب، وأصونُهم من التُّهم، وقف مع زوجته صفية ذات ليلة على باب المسجد يحادثها، وكان معتكفًا، فمرَّ به رجلان من الأنصار، فلما رأياه أسرعا، فقال لهما: «**على رِسْلِكما، إنها صَفية بنت حُيَيٍّ**»[1]. فقالا: سبحان الله! أَوفيك شكٌّ يا رسولَ الله؟! فقال: «**مَهْ، إنَّ الشيطانَ يجري من أحدِكُم مَجْرى لحمه ودمه، فخَشيتُ أن يَقْذِفَ في قلبيكما سُوءًا**». فكيف بمَنْ تخالجت فيه الشكوك، وتقابلت فيه الظنون؟! فهل يَعرَى في مواقف الرِّيَب من قادحٍ محقّق، ولائم مصدّق. وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا لم يَشْقَ المرءُ إلاَّ بما عمِل، فقد سَعِد**»[2]. وإذا استعمل الحزم، وغلَّب الحذر، وترك مواقفَ الرِّيب، ومظانَّ التُّهم، ولم يقف موقف الاعتذار ولا عذر لمختار لم يختلج في نزاهة شك ولم يقدَحْ في عرضه إفْك. وقد قال الشاعر:

**أصُونُكَ أن أَدُلَّ عليك ظنًا ... لأنَّ الظنَّ مِفتاحُ اليَقينِ**

وقال سهل بن هارون: مؤونة التوقّف أيسَرُ من تكلُّف التعسُّف. وقال بعضُ الحكماء: مَن حسُنَ ظنُّه بمن لا يخافُ الله تعالى فهو مخدوع. وأنشدني بعضُ أهل الأدب، لأبي بكر الصُّوليّ ـ رحمه الله ـ، قولَه:

**أحسنتُ ظنِّي بأهلِ دهري ... فحسْنُ ظنِّي بهم دَهاني**

**لا آمَنُ الناسَ بعدَ هذا ... ما الخوفُ إلاَّ مِنَ الأمانِ**

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٠٧)، ومسلم (٢١٧٥).

(٢) لم أصل إليه.

فهذا شرط قد استوفينا فيه نَوْعَي النزاهة.

**وأمَّا الصِّيانة**: وهي الثالث من شروط المروءة فنوعان: **أحدهما**: صيانة النفس بالتماس كفايتها، وتقدير مادتها، **والثاني**: صيانتها عن تحمّل المِنَن، والاسترسال في الاستعانة. فأمَّا التماس الكفاية، وتقدير المادة، فلأن المحتاج إلى الناس كَلٌّ مهتَضم، وذليل مستثقَل، وهو لما فُطِر عليه محتاج إلى ما يستمدّه؛ ليقيم أَوَدَ نفسه، ويدفع ضرورة وقته، ولذلك قالت العرب في أمثالها: كلبٌ جَوَّال خيرٌ من أسد رابض. وما يستمده نوعان: لازم، ونَدْب؛ فأما اللازم فما أقام بالكفاية، وأفضى إلى سَدّ الخَلة؛ وعليه في طلبه ثلاثة شروط:

**أحدها** ـ استطابته من الوجوه المباحة، وتوقِّي الوجوه المحظورة؛ فإنَّ المواد المحرّمة مستخبثة الأصول، ممحوقة المحصول، إن صرَفها في برٍّ لم يؤجَر، وإن صرفها في مدح لم يشكر، ثم هو لأوزارها محتقِب[1]، وعليها معاقَب. وقد قال رسول الله ﷺ: **«لا يعجبْك رجل كسَب مالاً من غير حلِّه، فإن انفقه لم يُقَلْ منه، وإن أمسكه فهو زاده إلى النار»**[2]. وقال بعضُ الحكماء: شرُّ المال ما لزمكَ إثمُ مَكْسَبه، وحُرِمْتَ أجْرَ إنفاقه.

ونظر بعضُ الخوارج إلى رجل من أصحاب السلطان يتصدَّق على مِسكين، فقال: انظر إليهم حسناتهم من سيئاتهم. وقال عليُّ بن الجَهْم:

**سَرَّ مَنْ عاش مالُه فإذا حاسَبَه الله سَرَّهُ الإعدامُ**

والثاني ـ طلبه من أحسن جهاته، التي لا يلحقه فيها غَضٌّ، ولا يتدنَّس له بها عِرْض؛ فإنَّ المال يراد لصيانة الأعراض، لا لابتذالها، ولعزِّ النفوس، لا لإذلالها. وقال عبد الرحمن بن عوف ﷺ: يا حبذا المالُ أصونُ به عرضي، وأُرضِي به ربي. وقال أبو بشر الضرير:

**كفَى حَزَنًا أنّي أروحُ وأغتدي ... وما لِيَ من مالٍ أصُون به عِرْضي**
**وأكثر ما ألقَى صديقي بمرحَبًا ... وذلك لا يكفي الصَّديقَ ولا يُرْضِي**

---

(١) أي محتمل. (٢) لم أصل إليه.

وسئل ابن عائشة عن قول النبيّ ﷺ: «اطلبوا الحوائجَ من حِسان الوجوه»[1]، فقال: معناه مِنْ أحسن الوجوه التي تحلّ.

والثالث ـ أن يتأنّى في تقدير مادته، وتدبير كفايته، بما لا يلحقه خَلَل، ولا يناله زَلَل؛ فإنّ يسير المال مع حسن التقدير وإصابة التدبير، أجدى نفعًا وأحسن موقعًا من كثيره مع سوء التدبير وفساد التقدير، كالبَذْر في الأرض؛ إذا رُوعي يسيره زكا، وإن أُهمل كثيره اضمحَلَّ، وقد قال محمد بن عليّ: الكمال في ثلاثة: العفَّة في الدِّين، والصبر على النوائب، وحسن التدبير في المعيشة. وقيل لبعض الحكماء: فلان غني، فقال: لا أعرف ذلك ما لم أعرفْ تدبيرَه في ماله.

فإذا استكمل هذه الشروط فيما يستمدُّ من قدر الكفاية، فقد أدَّى حقَّ المروءة في نفسه. وسئل الأحنف بن قيس عن المروءة، فقال: العفَّة والحرفة. وقال بعض الحكماء لابنه: يا بنيّ، لا تكن على أحد كَلاًّ؛ فإنَّك تزداد بذلك ذُلاًّ، واضرب في الأرض عَوْدًا وبَدْءًا، ولا تأسفَنَّ لمال كان فذهب، ولا تعجزَنَّ عن الطلَب لوصَب ولا نَصَب؛ فهذا حال اللازم. وقد كان ذوو الهمم العَلِيّة، والنفوس الأبية، يرون ما وصل إلى الإنسان كسبًا أفضَلَ مما وصل إليه إرثًا؛ لأنه في الإرث في جَدْوى غيره، وبالكسب مُجْدٍ إلى غيره؛ وفرقٌ ما بينهما في الفضل ظاهر. وقال كشاجم:

لا أستلذُّ العيشَ لم أدأبْ له ... طَلَبًا وسَعْيًا في الهواجر والغَلَسْ
وأرى حرامًا أن يُوَاتيني الغِنَى ... حتَّى يحاوِلَ بالعَنَاء ويُلْتَمَسْ
فاصرِفْ نوالَكَ عن أخيك مُوَفَّرًا ... فالليث ليس يُسِيغُ إلا ما افترس

وأمَّا النَّدْب: فهو ما فَضَلَ عن الكفاية، وزاد على قدر الحاجة؛ فإنَّ الأمر فيه معتبر بحال طالبه: فإن كان ممن تقاعد عن مراتب الرؤساء، وتقاصر عن مطاولة النظراء، وانقبَضَ عن منافسة الأكْفاء، فحسبُه ما كفاه، فليس في الزِّيادة إلا شرَهٌ، ولا في الفُضُول إلاَّ نَهَمٌ، وكلاهما مذموم. ولذلك قال النبيّ ﷺ: «خيرُ الرزْق

---

(1) أخرجه أحمد (1/ 387)، والطبراني في «الكبير» (11110) (10/ 107) وفي «المستدرك» (2/ 5).

ما يكفي، وخيرُ الذكرِ الخفيّ»[1]. وقال عليّ بن أبي طالب ـ كرَّم الله وجهه ـ: الدنيا كَلٌّ على العاقل. وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: المستغني عن الدنيا بالدنيا، كمطفئ النار بالتِّبْن. وقال بعضُ الحكماء: اشترِ ماءَ وجهك بالقناعة، وتَسَلَّ عن الدنيا بتجافيها عن الكرام.

وإن كان ممن قد مُني بعلوّ الهمم، وتحرَّكت فيه أريحيّة الكرم، وآثر أن يكون مرأسًا ومقدَّمًا، وأن يُرَى في النفوس مُعَظَّمًا ومفخَّمًا، فالكفاية لا تُقلُّه حتى يكونَ مالُه فاضلاً، ونائلُه فائضًا؛ فقد قيل لبعض العرب: ما المروءةُ فيكم؟ قال: طَعامٌ مأكول، ونائل مَبْذول، وبِشرٌ مقبول. وقد قال الأحنف بن قيس:

فلوْ مُدَّ سَرْوِي بمالٍ كثيرٍ ... لجُدْتُ وكنْتُ له باذلاً[2]

فإنَّ المروءة لا تستطاعُ ... إذا لم يكن مالُها فاضلاً

وقال أُحَيْحة بن الجُلاح:

رزقت مالاً ولم أرزق مروءته ... وما المروءة إلا كثرة المالِ

إذا أردت مساماةً تقاعَد بي ... عمَّا ينوِّه باسمي رقة الحال

وأمَّا صيانتها عن تحمّل المِنَن، والاسترسال في الاستعانة، فلأنَّ المنة في استرقاق الأحرار تُحْدث ذلَّةً في الممنون عليه، وسَطوةً في المانّ به؛ والاسترسال في الاستعانة تثقيل، ومَن ثَقُل على الناس هان، ولا قَدْر عندهم لُمهان.

وقال رجل لعمر بن الخطاب ﷺ: خدَمَك بنُوك، فقال: أغناني الله عنهم. وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ لابنه الحسن، في وصيته: يا بنيّ، إن استطعت ألاَّ يكونَ بينك وبين الله ذو نعمة فافعَلْ، ولا تكن عبدَ غيرك، وقد جعلك الله حُرًّا؛ فإنَّ اليسير من الله تعالى أكرمُ وأعظمُ من الكثير من غيره، وإن كان كلٌّ منه كثيرًا. وقال زياد لبعض الدَّهاقين: ما المروءة فيكم؟ قال: اجتناب الرِّيَب؛ فإنه لا ينبُل

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٨٤)، (٣٤٣٧٧)، وأورده الديلمي في «الفردوس» (٢/ ١٨٠) (٢٩٠٧) عن أنس.

(٢) سروي: يريد شرفه ومكانته.

مُريب، وإصلاح الرجل مـالَه؛ فإنَّه من مُروءته، وقيامه بحـوائجه وحوائج أهله؛ فإنَّه لا ينبُل مَن احتاج إلى أهله، ولا من احتاج أهلُه إلى غيره، وأنشد ثعلب:

**مَنْ عَفَّ خفَّ على الصَّديق لقاؤه ... وأخـو الحـوائج وجـهُـه مملولُ**

**وأخـوكَ مَن وَفَّـرت مـا في كـيسـه ... فـإذا عَـبِـثْتَ بـه فـأنتَ ثقـيـلُ**

وإن كان الناس لُحمةً[1] لا يستغنـون عن التعاون، ولا يستقلـون عن المساعدة والتظافر؛ فـإنَّما ذلك تعـاونُ ائتلاف، يتكافـئون فيـه ولا يتفـاضلون، وربما كان المستـعين فيه مـفضَّلاً، والمُـعين مستـفضَلاً، كـاستعـانة السلطان بجنده، والمزارع بأكَرَته[2]، فليس من هذا بدّ، ولا لأحد عنه غنى، وإنما الذي يتـصوَّنُ عنه الكرام تعاوُن التفضيل، فينقبضـون عن أن يستعِينوا؛ لئلا يكونَ عليهم يدٌ، ويُسارعون أن يُعينـوا، لأن يكون لهم يد؛ ومَن أقدَم من غـير اضطرار على الاسـتعانـة بجاه أو بمال، فقد أوْهَى مروءته، واستبـذل صيانته، ومن دعاه الاضطرار ـ لنائب ألَمَّ، أو حادث هَجَم ـ إلى الاستعـانة بمن يتنفس به من خناق كَربه، ويتخلَّص به من وَثاق نوائبه، فلا لوم على مـضطرّ. فإن أغناه الاستعانة بالجاه عن الاسـتعانة بالمال، فلا عُذر له في التعـرُّض للمال، ويعدِل إلى وُلاة الأمور؛ فـإنَّ الحوائج عندهم أنجح، وهي عليهم أسهل، وهم لذلك مندوبون، فهم لا يجدون لهم مساويًا ولْيصبرَنّ على إبطائهم، فإنَّ تراكم الأمور عليهم يشغَلُهم، إلا عن الملحِّ الصَّبور، ولذلك قيل: قدِّم لحاجتك بعـض لَجَاجتك[3]. وقد تقدَّم من قـول الحكماء: ريح السلطان على قومٍ نسيمٌ، وعلى قومٍ سمـومٌ. وقال عبد الله بن المعتز: من صحب السـلطان فليصبر على قسوته، كصبر الغوّاص على ملوحة بحره. وقال أبو سارّة سُحَيْم بن الأعرف:

**نَعُـــدُّ قَـــرَابةً ونَعُـــدُّ صِــهْــرًا ... ويَسْــعَــدُ بالقَــرَابةِ مَنْ رَعــاهـا**

**ومــــا زُرنـاكَ من عَــــدَمٍ ولكِنْ ... يَهَشُّ إلى الإمـــارة مَنْ رَجـــاهـا**

**وأيـاً مـــا فَـــعَلْتَ فــإنَّ نفــسِي ... تَعُــدُّ صَــلاحَ نفــسِك مِنْ غِنَاهـا**

---

(١) أي قرابة.

(٢) الأكَرَة: جمع أكّار، وهو الحرّاث الذي يعمل في الأرض.

(٣) أي إلحاحك وإصرارك.

فإن تعذَّر عليه صلاحُ حاله إلا بمالٍ يستعين به على نوائبه، كان له مع الضرورة فُسْحة فيه، لكن إن وجدَه قَرْضًا مردودًا لم يأخذه صِلةً وجودًا؛ فإنَّ القرض مستسمَح به في المروءات؛ هذا رسولُ الله ﷺ - مع ما أعلى الله من قدره وفضله على خلقه - قد اقترض، ثم قَضى فأحسَن؛ وقال ﷺ: **«من أعياه رزقُ الله تعالى حلالاً، فليَسْتَدِنِ على الله وعلى رسوله»**[١]. وقال ﷺ: **«المستدينُ تاجرُ الله في أرضِه»**[٢]. وقال البحتري:

**إن لم يكن كُثْرٌ فكُلُّ عطيةٍ ... يَبْلُغُ بها باغي الرِّضا بَعْضَ الرِّضَا**
**أو لا تكن هِبَةٌ فَقَرْضٌ يُسِّرَتْ ... أسْبَابُهُ وكَواهِبٍ مَنْ أقْرَضَا**

ولئن كان الدَّين رِقًّا، فهو أسهلُ من رِقّ الإفضال. وقد رُوِي عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: مَن أراد البلقاء ولا بقاء، فليباكر الغَدَاء، وليخفِّف الرداء. قيل: وما خفة الرداء من البقاء؟ قال: قِلَّة الدَّيْن؛ فإنْ أعوزه ذلك إلا استسماحًا، فهو الرِّق المذلّ. ولذلك قيل: لا مُرُوَءة لمُقِلّ. وقال بعضُ الحكماء: مَن قبل صلتك فقد باعك مروءته، وأذلَّ لقدرك عِزَّه وجلالته. والذي يتماسك به الباقي من مُروءة الراغبين، واليسير التافه من صيانةَ السائلين وإن لم يبقَ لذي رَغبة مروءة، ولا لسائل تصوّن أربعة أمور، هي جَهْدُ المضطر:

**أحدُها** - أن يتجافى ضَرَعَ السائلين، وأُبَّهة المستقلين، فيذلّ بالضَّرَع، ويُحْرَم بالأُبَّهة، وليكن من التجمُّل على ما يقتضيه حالُ مثله من ذوي الحاجات. وقد قيل لبعض الحكماء: متى يَفْحُشُ زوال النعم؟ قال: إذا زال معها التجمُّل. وأنشد بعضُ أهل الأدب لعليّ بن الجَهْم:

**هي النفسُ ما حَمَّلْتَها تَتَحمَّلُ ... ولِلدَّهرِ أيامٌ تجورُ وتَعْدِلُ**
**وعاقبةُ الصبرِ الجميلِ جَمِيلةٌ ... وأحسَنُ أخلاقِ الرِّجالِ التفضُّلُ**
**ولا عارَ أنْ زالتْ عن الحرِّ نِعْمةٌ ... ولكِنَّ عارًا أن يَزُولَ التَّجَمُّلُ**

---

(١) لم أصل إليه.

(٢) لم أصل إليه.

**والثاني** - أن يقتصر في السؤال على ما دعته إليه الضرورة، وقادته إليه الحاجة، ولا يجعل ذلك ذريعة إلى الاغتنام، فيُحرَمَ باغتنامه، ولا يعذر في ضرورته. وقد قال بعض الحكماء: من ألِف المسألة ألِفه المنع.

**والثالث** - أن يَعْذِر في المنع، ويَشكُرَ على الإجابة؛ فإنَّه إن مُنِع فعمَّا لا يملك، وإن أجيبَ فإلى ما لا يستحقّ. فقد قال النَّمِر بن تَوْلَب:

**لا تَغْضَبَنَّ عَلَى امرئٍ في ماله ... وَعَلَى كرائمِ صُلْبِ مالكَ فاغْضَبِ**

**والرابع** - أن يعتمد على سؤال مَنْ كان للمسألة أهلاً، وكان النُّجْح عنده مأمولاً، فإن ذوي المُكنة كثير، والمعين منهم قليل. وكذلك قال النبي ﷺ: **«الخير كثير، وقليلٌ فاعلُه»**[1].

والمرجو للإجابة مَن تكاملت فيه خصالُها وهي ثلاث:

**إحداهن** - كرم الطبع؛ فإنَّ الكريم مساعد، واللئيم معاند، وقد قيل: المخذول من كانت له إلى اللئام حاجة.

**والثانية** - سلامة الصدر؛ فإنَّ العدوَّ ألْبٌ[2] على نكبتك، وحَرْبٌ في نائبتك. وقد قيل: من أوْغَرْتَ صدره استدعيت شرَّه؛ فإنْ رقَّ لك بكرم طبعه، ورحمك بحسن ظَفَره، فأعظِم بها مِحنة أن يصير عدوُّك راحمًا لك! وقد قال الشاعر:

**وحَسْبُكَ مِن حادثٍ بامرئٍ ... تَرَى حاسديه لَهُ راحمينا**

**والثالث** - ظهور المُكْنة؛ فإنَّ مَنْ سأل ما لا يمكن فقد أحال، وكان كمستنهض المسجون، ومستسعف المديون، وكان بالردّ خليقًا، وبالحرمان حقيقًا. وقد قال عليّ - كرم الله وجهه -: مَنْ لا يعرفْ «لا» حتى يقال له «لا» فهو أحمق. ووصَّى عبد الله ابن الأهتم ابنه فقال: يا بنيّ، لا تطلب الحوائج إلى غير أهلها، ولا تطلبْها في غير حينها، ولا تطلب ما لست له مستحقًا؛ فإنك إن فعلْتَ ذلك كنْتَ حقيقًا بالحِرْمَان. وقال الشاعر:

---

(١، ٢) لم أصل إليه.

ولا تسألنَّ امرءاً حاجةً يحاولُ من ربِّها مثلَها
فيتركَ ما كنتَ حمَّلتَه ويبدأ بحاجته قبلَها

فهذا ما يختص بشروط المروءة في نفسه.

**وأما شروط المروءة في غيره فثلاثة:** المؤازرة، والمياسرة، والإفضال.

**فأما المؤازرة فنوعان: أحدهما:** الإسعاف بالجاه. **والثاني:** الإسعاف في النوائب.

**فأما الإسعاف بالجاه:** فقد يكون من الأعلى قدراً، والأنفذ أمْراً، وهو أرخصُ المكارم ثمنًا، وألطفُ الصنائع مَوْقعًا، وربما كان أعظمَ من المال نفعًا، وهو الظلّ الذي يلجأ إليه المضطرّون، والحمَى الذي يأوي إليه الخائفون، فإن وطَّأه[1] اتسع بكثرة الأنصار والشيَع، وإن قَبضه انقطع بنفور الغاشية والتَّبع[2]، فهو بالبذل يَنْمِي ويزيد، وبالكفّ ينقص ويَبِيد، فلا عذر لمن مُنح جاهًا أن يبخل به، فيكونَ أسوأ حالاً من البخيل بماله؛ لأن البخيل بماله قد يُعِدّه لنوائبه، ويستبقيه للذّته، ويكنزه لذريّته. وبضدّ ذلك مَن بخلَ بجاهه؛ لأنّه قد أضاعه بالشحّ، وبدّده بالبخل، وحَرَمَ نفسه غنيمةَ مُكْنَته، وفُرْصَة قُدرته، فلم يُعقبه إلاّ ندمًا على فائت، وأسفًا على ضائع، ومقتًا يَستحكم في النفوس، وذمًّا ينتشر في الناس. وقد رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«الخَلْقُ كلُّهم عيالُ الله، وأحبُّ خَلْق الله تعالى إليه، أنفعهم لعياله»**[3]. وقال بعضُ الحكماء: اصْنَع الخير عند إمكانه يبقَ لكَ حمدُه عند زوال أيامه؛ وأحسِنْ والدَّولَةُ لك، يُحْسَنْ إليك والدَّولة عليك؛ واجعل زمانَ رخائك عُدّةً لزمان بلائك. وقال بعضُ البلغاء: من علامة الإقبال اصطناعُ الرِّجال. وقال بعضُ الأدباء: بَذْلُ الجاه أحدُ الحباءين[4]. وقال ابنُ الأعرابيّ: العرب تقول: مَن أمَّلَ شيئًا هابه، ومَن جهل شيئًا عابَه. وبَذْلُ الجاه قد يكون من كرم النفس وشكر النِّعمة، وضدُّه من ضدِّه، وليس بَذل الجاه لالتماس الجزاء بذلاً مشكورًا، وإنما هو بائع جاهه، ومعاوِضٌ على نعم الله تعالى وآلائه، فكان بالذّم أحقّ.

---

(١) أي يسَّره وسهَّلة. (٢) أي ابتعاد من يلوذ بجاهه عنه.
(٣) أخرجه الطبراني (١٠/ ٨٦) (١٠٠٣٣)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٣٧).
(٤) الحباء: العطاء، ولعله يريد بالحباء الآخر عطاء المال والمتاع.

وأنشد بعضُ الأدباء لعليٍّ بن عباس الروميّ:

**لا تَبــذل العُــرْفَ حينَ تَبــذلُهُ ... كـمشـتـري الحـمـد أو كـمعـتـاضـهْ**
**بل تَفــعلُ العُــرْفَ حين تَفــعلُه ... لجــوهرِ العُــرفِ لا لأعــرَاضِــهْ**

وعلى من أَسْعد بجاهـه ثلاثة حقوق، يستكثر بها الشكر، ويسـتمدُّ بها المزيد من الأجر:

**أحدُها** ـ أن يستسهل المعـونة مسرورًا، ولا يستثقلَهـا كارهًا، فيكون بنعم الله تعالى مـتبرِّمًـا، ولإحسـانه متسـخطًا؛ فقد رُوِيَ عن الـنبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ عَظُمت نعمـة الله تعـالى عليـه، عَظُمت مـؤونة الناس عليـه، فـمن لم يحـتمل تلك المؤونة، عرَّض تلك النِّعمة للزوال**»[1].

**والثاني** ـ مجانبـة الاستطالة، وترك الامتنان؛ فإنهمـا من لؤم الطبع، وضيق الصدر، وفـيهمـا هدم الصنيع وإحبـاط الشكر. وقد قيل للحكيـم اليونانيّ: من أضيـقُ الناس طريقًا، وأقلُّهم صـديقًا؟ قـال: مَن عاشـر الناس بعـبوسِ وجـهه، واستطال عليهم بنفسه.

**والثالث** ـ ألاَّ يقرن بمشكور سعيه تقريعًـا بذنب، ولا توبيخًا على هَفْوة، فلا يفي مَضَضُ التوبيخ بإدراك النُّجْح، ويصير الشكر وَجْدًا[2]، والحمد عيبًا، ولذلك قال النبيّ ﷺ: «**أقيلوا ذوي الهيئات**[3] **عَثَراتِهم إلا الحدود**»، وقال النَّـابغة الجَعْديّ:

**ألَم تَعْلَمـا أنَّ الملامـَةَ نَفْـعُـهـا ... قـليلٌ إذا مـا الشيءُ ولَّى فـأدبَرا**

**وأمـا الإسعـاف في النوائب:** فلأنَّ الأيام غـادرة، والنوازل عاثـرة، والحوادث عارضة، والنوائب راكضة؛ فلا يَعْذِر فـيها إلاَّ عليم، ولا يستنقذه منها إلاَّ سليم. وقد قال عديّ بن زيد:

---

(١) «تاريخ بغداد» (٢٦٢٦).
(٢) أي حزنًا أو غضبًا.
(٣) أي أهل المروءة ومَنْ عليهم سيما الفضل والصلاح.

كفى زاجراً للمرء أيامُ دَهْرِهِ ... تروحُ له بالواعظاتِ وتغتدي

فإذا وَجدَ الكريم مصابًا بحوادث دهره، حثّه الكرم، وشكر النعم، على الإسعاف فيها بما استطاع سبيلاً إليه، ووجَدَ قدرة عليه. رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «**خيرٌ من الخير معطيه، وشرٌ من الشرِّ فاعلهُ**»[1]. وقيل لبعض الحكماء: هل شيءٌ خيرٌ من الذهب والفضة؟ قال: مُعطيهما.

**والإسعاف في النوائب نوعان:** واجبٌ، وتبرّع.

**فأمَّا الواجب:** فما اختص بثلاثة أصناف، وهم: الأهل، والإخوان، والجيران.

**فأمَّا الأهل:** فلمماسة الرَّحم، وتعاطف النسب، وقد قيل: لم يسُدْ من احتاج أهلهُ إلى غيره. وقال حسّان بن ثابت رضي الله عنه:

**وإنَّ امْــرءًا نالَ الغِنى ثم لم يَنَلْ ... قريبًا ولا ذا حاجةٍ لَزَهيدُ**

**وإنَّ امرءًا عادَل الرِّجالَ على الغِنى ... ولم يَسْألِ اللهَ الغِنَى لحَسُودُ**

**وأمَّا الإخوان:** فلمُسْتحكم الوُدّ، ومتأكّد العهد، وسُئل الأحنف بن قيس عن المروءة فقال: صِدْق اللسان، ومواساة الإخوان، وذكرُ الله تعالى في كُلِّ مكان. وقال بعض حُكَماء الفرس: صفة الصَّديق أن يبذلَ لك مالَه عند الحاجة، ونَفْسَه عند النكبة، ويحفظك عند المغيب. ورأى بعض الحكماء رجلين يصطحبان ولا يفترقان، فسأل عنهما، فقيل: هما صديقان، فقال: ما بالُ أحدهما غني، والآخر فقير؟!

**وأمَّا الجار:** فلدنوِّ داره، واتصال مَزاره؛ وقد قال عليّ بن أبي طالب - كرَّم الله وجهه -: ليس حُسْنُ الجوار كفَّ الأذى، بل الصبر على الأذى. وقال بعض الحكماء: من أجار جارَه، أعانه الله وأجاره. وقال بعضُ البلغاء: مَن أحسَنَ إلى جاره فقد دلَّ على حسن نجَاره[2]. وقال بعضُ الشعراء:

وللجار حقٌ فاحترز من أذاته ... **وما خيرُ جارٍ لا يَزَلُ لك مُؤذيَا**

---

(1) لم أصل إليه.

**(٢) النجار:** الأصل والحسب.

فيجب في حقوق المروءة وشروط الكرم في هؤلاء الثلاثة، تحمُّل أثقالهم، وإسعافهم في نوائبهم، ولا فسحة لذي مروءة مع ظهور المُكْنة، أن يكلَهم إلى غيره، أو يلجئهم إلى سؤاله، وليكن سائلَ نَفسه عنهم؛ فإنهم عيال كرمه، وأضيافُ مروءته، فكما أنه لا يحسُن أن يُلْجِئ عيالَه وأضيافَه إلى الطلَب والرَّغبة، فهكذا مَن عالَه كرمُه، وأضافته مروءتُه. وقدَ قال بعضُ الشعراء:

**حقٌ على السَّيد المرجوِّ نائلُهُ ... والمستَجارُ به في العُرْبِ والعَجَمِ**

**ألاَّ يُنيلَ الأقاصِي صَوْبَ راحته ... حتى يَخُصَّ به الأدنى مِن الخَدَمِ**

**إنَّ الفراتَ إذا جاشَتْ غواربُه ... رَوَّى السَّواحلَ ثم امتدَّ في الأمم**

**وأمَّا التبرع:** ففيمن عدا هؤلاء الثلاثة، من البُعَداء الذين لا يُدْلُون[1] بنسب، ولا يتعلَّقون بسبب؛ فإنْ تبرع بفضل الكرم، وفائض المروءة، فنهض في حوادثهم، وتكفَّل بنوائبهم، فقد زاد على شروط المروءة، وتجاوزها إلى شروط الرياسة، وقيل لبعض الحكماء: أي شيء من أفعال الناس يشبه أفعال الإله؟ قال: الإحسان إلى الناس. وإنْ كفَّ تشاغلاً بما لزم فلا لوم، ما لم يلجأ إليه مضطر؛ لأنَ القيام بالكل مُعْوِز، والتكفُّل بالجميع متعذِّر، فهذا حكم المُؤَازرة.

**فأمَّا المياسرة، فنوعان: أحدهما:** العفو عن الهفوات. **والثاني:** المسامحة في الحقوق.

**فأمَّا العفو عن الهفوات:** فلأنه لا مُبرأ من سَهو وزَلل، ولا سليم من نقص أو خَلَل، ومَن رام سليمًا من هفوة، والتمس بريئًا من نَبْوة، فقد تعدَّى على الدهر بشطَطه، وخادع نفسه بغلطه، وكان من وجود بُغيته بعيدًا، وصار باقتراحه فردًا وحيدًا، وقد قالت الحكماء: لا صديقَ لمن أراد صديقًا لا عيب فيه. وقيل لأنوشِرْوان: هل من أحد لا عيب فيه؟ قال: من لا موتَ له. وإذا كان الدهر لا يوجده ما طلب، ولا ينِّيلُه ما أحبَّ، وكان الوحيد في الناس مرفوضًا قصيًّا، والمنقطع عنهم بهيمًا وحشيًا، لزمه مساعدة زمانه في القضاء، ومُياسرة إخوانه في الصفح والإغضاء، رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إنَّ الله تعالى أمرني بمداراة الناس، كما أمرني بإقامة الفرائض»**[2]. وقال بعضُ الأدباء: ثلاث

---

(١) أي يرتبطون أو يمتُّون بصلة.

(٢) ذكره الإمام الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٢/ ٣٢) (١٢٠٧)، وضعَّفه. وقال: نقده الجرجاني، وقال في «الكامل» لأنَّه فيه منكر الحديث.

خصال لا تجتمع إلا في كريم: حُسْنُ المحضَر، واحتمال الزَّلَّة، وقلة الملال. وقال ابنُ الرومي:

فعُذْرُكَ مبسوطٌ لذنبٍ مقدَّمٍ ... ووُدُّك مقبولٌ بأهلٍ ومَرْحَبِ

ولو بَلَّغَتْني عنك أُذْني أقمتُها ... لديَّ مُقامَ الكاشحِ المتكذِّبِ[1]

فلستُ بتقليب اللسان مُصارِمًا ... خليلاً إذا ما القلبُ لم يتقلَّبِ

وإذا كان الإغضاء حتمًا، والصفح لازمًا، تَرَتَّبَ بحَسَب الهفوة، وتَنَزَّلَ بقدر الذنب.

**والهفوات نوعان:** صغائر وكبائر؛ فالصَّغائر مغفورة، والنفوس بها معذورة؛ لأنَّ الناس مع أطوارهم المختلفة، وأخلاقهم المتفاضلة لا يسلمون منها، فكان الوَجْد فيها مُطَّرَحًا، والعتب مستقبَحًا. وقد قال بعض الحكماء: من هجر أخاه من غير ذنبٍ، كمن زرع زرعًا، ثم حصده في غير أوانه. وقال أبو العتاهية:

وشرُّ الأخلاءِ مَنْ لم يَزَلْ ... يعاتِبُ طَوْرًا وطورًا يَذُمّ

يريك النصيحة عند اللقاءِ ... ويَبْريك في السِّرِّ بريَ القَلَم

**وأما الكبائر فنوعان: أحدهما:** أن يهفوَ بها خاطئًا، ويَزِلَّ بها ساهيًا، فالحَرَج فيها مرفوع، والعتب عليها موضوع؛ لأنَّ هفوة الخاطئ هَدَر، ولومه هَذَر. وقال بعضُ الحكماء: لا تقطع أخاك إلاَّ بعد عجز الحيلة عن استصلاحه. وقال الأحنف ابن قيس: حقُّ الصَّديق أن تحتمل له ثلاثًا: ظلمَ الغَضَب، وظلمَ الدَّالَّة، وظلمَ الهفوة. وحكَى ابن عَوْن أنَّ غلامًا هاشميًا عَرْبَد على قوم، فأراد عمُّه أن يسيء إليه فقال: يا عم، إني قد أسأت وليس معي عقلي، فلا تُسِئْ بي ومعك عقلك. وقال أبو فراس:

لَمْ أؤاخِذْكَ إذ جنيْتَ لأنّي ... واثقٌ منك بالإخاء الصحيح

فجميلُ العدوِّ غيرُ جميلٍ ... وقبيحُ الصَّديقِ غيرُ قبيح

---

(١) الكاشح: أي المعادي.

فإنْ تشبَّه خطؤه بالعمد، وسهوه بالقصد، تَثَبَّتَ، ولم يَلُمْ بالتوهُّم فيكونَ ملومًا، ولا يلومَ بالظن فيصيرَ مذمومًا؛ ولذلك قيل: التَّثَبُّت نصفُ العفو. وقال بعضُ الحكماء: لا يفسدْك الظنّ على صديقٍ أصلحك اليقين له. وقال بعضُ شعراء هُذَيل:

| | |
|---|---|
| **فبعضُ الأمرِ تصلحُه ببعْضٍ** | **فإنَّ الغثَّ يَحْمِلُهُ السَّمِينُ** |
| **ولا تَعْجَلْ بظنّكَ قبْلَ خُبْرٍ** | **فَعِنْدَ الخُبْرِ تَنْقَطِعُ الظُّنُونُ** |
| **تَرى بينَ الرِّجالِ العَيْنُ فَضْلاً** | **وفيما أَضْمَرُوا الفَضْلُ المُبِينُ** |
| **كَلَوْنِ الماءِ مُشْتَبِهًا وليسَتْ** | **تُخَبِّرُ عن مَذاقَتِهِ العُيُونُ** |

**والثاني** - أن يعتمد ما اجترم من كبائره، ويقصدَ ما اجترح من سيئاته؛ فلا يخلو فيما أتاه من أربع أحوال:

**فالحال الأولى** - أن يكون موتورًا، قد قابل على وَترَته، وكافأ على مساءته، فاللائمة على من وَتَرَه عائدةٌ، وإلى البادئ بها راجعة، لأن المكافِئَ أعذر، وإن كان الصفح أجمل؛ ولذلك قال النبي ﷺ: **«إياكم والمشارَّة[1]؛ فإنَّها تميت الغُرَّة[2]، وتحيي الغُرَّة[3]»[4]**. وقال بعضُ الحكماء: مَنْ فعل ما شاء، لقي ما لم يشأ. وقال بعضُ الأدباء: مَن نالته إساءتُك، همَّته مساءتُك. وقال بعضُ البلغاء: من أُولِع بقبح المعاملة، أُوْجِعَ بقبح المقابلة. وقال صالح بن عبد القُدوس:

| | |
|---|---|
| **إذا وترتَ امرءًا فاحْذَرْ عداوتَه** | **مَنْ يَزْرَعِ الشَّوك لا يحصُدْ به عنَبا** |
| **إنَّ العدوَّ وإن أبدى مسالمةً** | **إذا رأى منك يومًا فُرْصَةً وَثَبا** |

والإغضاء عن هذا الذنب أوجب، وإن لم تكن المكافأة ذنبًا؛ لأنه قد رأى عُقْبَى إساءته، فإن واصل الشرَّ واصلته المكافأة. وقد قيل: باعتزالك الشرَّ يعتزِلُك، وبحسن النَّصَفة[5] يكثُر الموصلون. وقال بعضُ الحكماء: من كنت السبب لبلائه، وجب عليك التلطف له في علاجه من دائه. وقد قال أوس بن حَجَر:

---

(١) المشارَّة: فعل الشر.
(٢) الغُرة: العمل الصالح.
(٣) العُرة: القبائح.
(٤) لم أصل إليه.
(٥) أي العدل والإنصاف.

**إذا أنت لم تُعرِضْ عن الجهل والخَنَا     أصَبْتَ حليمًا أو أصابكَ جاهلُ**

**والحال الثانية** ـ أن يكونَ عدوًا قد استحكمت شَحْناؤه، واستوعَرت سَرَّاؤه، واستخْشَنَت ضَرَّاؤه، فهو يتربَّص بدوائر السَّوْء انتهازَ فُرَصه، ويتجرَّع بمهانة العَجز مَرارة غُصَصه، فإذا ظفر بنائبة ساعدها، وإذا شاهد نعمة عاندها، فالبعد منه حَذَرًا أسلَمُ، والكَفُّ عنه مُتَاركةً أغنَمُ؛ فإنه لا يُسلَم من عواقب شرّه، ولا يُفلَت من غوائل مكره. وقد قالت الحكماء: لا تَعَرَّضَنَّ لعدوِّك في دَولته، فإذا زالت كُفيت شرَّه. وقال لقمان لابنه: يا بنيّ، كَذَب من قال: إنَّ الشرَّ بالشرِّ يُطفأ؛ فإن كان صادقًا فليوقد نارين، ولينظرْ: هل تُطفئُ إحداهما الأخرى؟ وإنما يُطفئُ الخيرُ الشرَّ، كما يطفئ الماءُ النار. وقال جعفر بن محمد: كفاك من الله نصرًا أن ترَى عدوَّك يعصي الله فيك. وقال بعضُ الحكماء: بالسيرة العادلة يُقْهَر المعادِي. وقال البحتريّ:

**وَأقْسِمُ لا أَجزيك بالشرِّ مثلَهُ     كَفَى بالذي جازيتَني لكَ جازِيًا**

**والحال الثالثة** ـ أن يكون لئيم الطبع، خبيث الأصل، قد أغراه لؤم الطبع على سوء الاعتقاد، وبعثه خبث الأصل على إيثار الفساد، فهو لا يستقبح الشرّ، ولا يكفُّ عن المكروه. فهذه الحال أطمّ؛ لأنَّ الإضرار بها أعَمّ، ولا سلامة من مثله إلاَّ بالبعد والانقباض، ولا خلاص منه إلاَّ بالصفح والإعراض؛ فإنه كالسبُع الضاري في سوارح النَّعَم، وكالنَّار المتأججة في يابس الحطب، لا يقربُها إلاَّ تالف، ولا يدنو منها إلاَّ هالك.

رَوَى مكحول عن أبي أمامة ﷺ، عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«الناس كشجرة ذات جَنَى، ويوشك أن يعودوا كشجرة ذات شَوْك، إن ناقَدْتهم ناقدوك، وإن هَرَبتَ منهم طلبوك، وإن تركتهم لم يتركوك»**، قيل: يا رسول الله، وكيفَ المخرج؟ قال: **«أقرضْهم من عِرْضِكَ ليوم فاقتك»**[1]. وقال عبد الله بن العباس ﷺ: العاقل الكريم صديق لكُلِّ أحد إلاَّ من ضرَّه، والجاهل اللئيم عدٌّ كُلِّ أحد إلاَّ من نفعه، وقال بعض الحكماء: شرُّ ما في الكريم أن يمنعك خيرَه، وخير ما في اللئيم أن يكفَّ عنك شرّه، وقال بعضُ البلغاء: أعداؤك داؤك، وفي البعد عنهم شفاؤك. وقال بعض البلغاء: شرفُ الكريم تغافلُهُ عن اللئيم.

---

(١) أخرجه في السنن الواردة في الفتن (٢١٩).

ووصَّى بعض الحكماء ابنه، فقال: يا بنيَّ، إذا سلم الناس منك، فلا عليك ألاَّ تَسْلَم منهم؛ فإنَّه قلَّما اجتمعت هاتان النعمتان. وقال عبدُ المسيح بن عمرو ابن بُقَيْلة:

**الخيرُ والشَّرُّ مقرونان في قَرَنٍ ... فالخيرُ مُسْتَتْبع والشرُّ محذورُ**

**والحال الرابعة** ـ أن يكونَ صديقًا قد استحدث نَبْوة وتغيرًا، أو أخًا قد استجدَّ جَفْوة وتَنكُّرًا، فأبدى صفحة عُقوقه، واطَّرَح لازم حقوقه، وعَدَل عن برّ الإخاء إلى جفوة الأعداء. فهذا قد يعرِضُ في المودّات المستقيمة، كما تعرِض الأمراض في الأجسام السليمة، فإن عُولجت أقلعت، وإن أهملت أسقمت ثم أتلفت. ولذلك قالت الحكماء: دواء المودة بكثرة التعاهد. وقال كشاجم:

**أَقِلْ ذا الودِّ عَثْرَته وقِفْهُ ... على سَنَن الطريق المستقيمَه**

**ولا تُسْرِع بمَعْتَبة إليه ... فقد يهفو ونيَّتُه سَليمه**

ومن الناس من يرى أنَّ متاركة الإخوان إذا نفروا أصلَحُ، واطراحَهم إذا فسدوا أولى؛ كأعضاء الجسد، إذا فسدت كان قطعها أسلَمَ، فإنْ شحَّ بها سرتْ إلى نفسه، وكالثوب إذا خَلَق، كان اطراحُه بالجديد أحمد من لبسه. وقد قال بعضُ الحكماء: رَغبتك فيمن يزهد فيك ذُلُّ نفسٍ، وزهدُك فيمن يرغَبُ فيك صغَر همَّة. وقد قال بُزُرجُمْهُر: مَن تغيَّر عليك في مودته، فدعه حيث كان قَبل مَعرفته. وقال نصر بن أحمد الخُبْزُأُرْزي:

**صِلْ مَن دنا وتناسَ مَن بعُدا ... لا تُكْرِهَنَّ عَلَى الهَوى أَحَدا**

**قد أكثَرَتْ حوَّاءُ إذ ولدَتْ ... فإذا جفا ولدٌ فخُذْ وَلَدا**

وهذا مذهبُ من قلَّ وفاؤه، وضعُفَ إخاؤه، وساءَت طرائقه، وضاقت خلائقه، ولم يكن فيه فضل الاحتمال، ولا صبْرٌ على الإدلال، فقابَلَ على الجفوة، وعاقَبَ على الهفوة، واطَّرح سالف الحقوق، وقابَلَ على العقوق بالعقوق، فلا بالفضل أخَذَ، ولا إلى العفو أخلَدَ، وقد عَلِمَ أنَّ نفسه قد تطغى عليه فترديه، وأنَّ جسمه قد يَسقَم عليه فيؤلمه ويؤذيه، وهما أخصُّ به، وأحنَى عليه من صديق قد تميَّز بذاته، وانفصل بأدواته، فيريد من غيره لنفسه ما لا يجدُهُ

من نفسه لنفسه. هذا عينُ المحال، ومَحْض الجهل، مع أن من لم يَحتمِل بقِي فردًا، وانقلب الصديق فصار عدوًا، وعداوةُ من كان صديقًا أعظمُ من عداوة من لم يزل عَدوًا. ولذلك قال النبيّ ﷺ: «أحبِبْ حبيبك هونًا ما»[1].

وقال ﷺ: «أوصاني ربِّي بسبع: الإخلاص في السرِّ والعلانية، وأن أعفوَ عمَّن ظلمني، وأعطيَ مَن حرَمني، وأصلَ مَن قطعني، وأن يكون صمتي فكرًا، ونطقي ذكرًا، ونظري عبرة»[2]. وقال لقمان لابنه: يا بُنيّ، لا تترك صديقك الأوّل، فلا يطمئنّ إليك الثاني، يا بُنيّ، اتخذ ألفَ صديق، والألفُ قليل، ولا تتخذ عدوًا واحدًا، والواحدُ كثير. وقيل للمهلَّب بن أبي صُفْرة: ما تقولُ في العفو والعقوبة؟ فقال: هما بمنزلة الجود والبخل، فتمسَّك بأيِّهما شئت. وأنشد ثعلب:

إذا أنتَ لم تستقبلِ الأمرَ لم تجدْ ... بكفَّيك في إدباره متعلَّقَا
إذا أنتَ لم تترك أخاك وَزلَّةً ... إذا زَلَّها أوشكتُما أنْ تَفرَّقَا

فإذا كان الأمر على ما وَصَفْت، فمن حقوق الصفح الكشفُ عن سبب الهفوة؛ ليعرف الداءَ فيعالجه، فإن لم يعرف الدَّاء، لم يقف على الدَّواء. وكان كما قال المتنبي:

فإنَّ الجرحَ يَنْغَرُ بعد حينٍ ... إذا كان البناءُ على فَسَادِ[3]

وإذا كان ذلك كذلك، فلا يخلو حال ذلك السبب، من أن يكون لَمَلل أو زَلَل؛ فإنْ كان لَمَلل، فمودَّات الملول ظلُّ الغمام، وحُلْم النِّيام. وقد قيل في منثور الحكم: لا تأمَنَنَّ لَملول وإن تحلَّى بالصِّلة، وعلاجه أن يُترك على مَلَله، فيملّ الجفاء، كما ملَّ الإخاء. وإن كان لزَلَل لُوحظت أسبابه؛ فإنْ كان لها مَدْخل في التأويل، وشُبهة تؤول إلى الجميل، حمَله على أجمل تأويله، وصرفه إلى أحسن جهته؛ كالذي حُكي عن خالد بن صفوان، أنه مرَّ به صديقان له، فعرج عليه أحدهما، وطواه الآخر. فقيل له في ذلك، فقال: نَعَم، عرج علينا هذا بفضله، وطوانا ذلك لثقته بنا. وأنشد بعضُ أهل الأدب، لمحمد بن داود الأصفهاني:

---

(١) مرَّ تخريجه.

(٢) أوردها القرطبي في «تفسيره» برواية «بتسع» (٧/ ٣٤٦).

(٣) ينغر: أي يفسد ويسيل دمه.

وتزعم للواشين أنيَ فاسدٌ عليك، وإني لستُ فيما عَهِدْتَني

وما فسدَتْ لي يعلمُ الله نيَّةٌ عليكَ ولكن خُنْتَني فاتهمتني

غدرْتَ بعهدي عامداً وأخفْتَني فخفْتَ ولو آمنتني لأمِنْتَني

وإن لم يكن لزلَّته في التأويل مَدْخَل، نظر حاله بعد زَلله؛ فإنْ ظهر ندمُه، وبان خَجَلَه، فالنَّدم تَوْبة، والخَجَل إنابة، ولا ذنْبَ لتائب، ولا لَوْمَ على مُنيب، ولا يكلَّف عُذرًا عمَّا سلف، فيُلجأ إلى ذُلِّ التحريف، أو خجل التعنيف. ولذلك قال النبيِّ ﷺ: «إياكم والمعاذر، فإنَّ أكثرها مفاجر»[1]. وقال عليٌّ رضي الله عنه: كَفَى بما يُعْتَذَرُ منه تُهْمة. وقال مسلم بن قُتيبة لرجل اعتذر إليه: لا يَدْعُوَنَّك أمرٌ قد تخلَّصْتَ منه، إلى الدخول في أمرٍ لعلك لا تخلصُ منه. وقال بعض الحكماء: شفيع المذنب إقرارُه، وتوبته اعتذاره. وقال بعضُ البلغاء: من لم يقبل التوبة عظمَتْ خطيئته، ومن لم يحسن إلى التائب قبحت إساءته. وقال بعضُ الحكماء: الكريمُ أوْسَعُ ما يكون مغفرة، إذا ضاقت بالمذنب المَعْذرة. وقال بعض الشعراء:

العذرُ يلحقُه التحريفُ والكذبُ وليسَ في غيرِ ما يرضيك لي أرَبُ

وقد أسأت فبالنُّعْمَى التي سلفَتْ إلاَّ مَنَنْتَ بعفوٍ ما له سَبَبُ

وإنْ عَجَّل العُذر قبل توبته، وقدَّم التنصُّل قبل إنابته؛ فالعذر توبة، والتنصُّل إنابة، فلا يكشف عن باطن عُذره، ولا يُعَنِّف بظاهر غدره، فيكونَ لئيمَ الظفَر، سيِّئَ المكافأة. وقد قيل: مَنْ غلبته الحدَّة، فلا تغترَّ بمودَّته. وقال بعضُ الحكماء: شافع المذنب خضوعه إلى عُذره. وقالَ بعضُ الشعراء:

اقبَلْ مَعاذيرَ مَنْ يأتيكَ معتذرًا إنْ برَّ عندكَ فيما قالَ أو فَجَرَا

فقد أطاعكَ مَن يرضيك ظاهرُه وقد أجلَّك من يَعْصيك مُسْتَتِرا

وإنْ ترك نفسه في زلله، ولم يتداركْه بعُذْره وتنصُّله، ولا محاه بتوبته وإنابته، راعيْتَ حالَه في المتاركة، فستجده لا ينفك فيها من أمور ثلاثة:

أحدها ـ أن يكونَ قد كفَّ عن سَيِّئ عمله، وأقلَعَ عن سالف زَلَله؛ فالكفُّ إحدى التوبتين، والإقلاعُ أحدُ العُذْرَين، فكن أنتَ المعتذرَ عنه بصفحك، والمتنصِّل له بفضلك. فقد قالَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: المحسن علَى المسيء أمير.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥/٣٣٨) (٢٦٦٦٩) عن إبراهيم.

**والثاني** - أن يكون قد وقف على ما أسلف من زلله، غيرَ تارك ولا متجاوز، فوقوف المرض أحد البُرْءين، وكفُّه عن الزِّيادة إحدى الحُسْنَيين، وقد استبقى بالوقوف عن التجاوز أحد شطريه، فعوَّل به على صلاح شطره الآخر.

وإياك وإرجاءَه؛ فإنَّ الإرجاءَ يُفسدُ شطر صلاحه، والتلافيَ يُصلح شطر فساده؛ فإنَّ من سَقم من جسمه ما لَم يُعالجه، سَرَى السَّقَم إلى صحته، وإن عالجه سرت الصِّحَّة إلى سَقَمه.

**والثالث** - أن يتجاوز مع الأوقات، فيزيد فيه على مرور الأيام. فهذا هو الدَّاء العُضال، فإن أمكن استدراكه، وتأتَّى استصلاحُه، وذلك باستنزاله عنه إن علا، وبإرغابه إن دنا، وبعتابه إن ساوَى، وإلاَّ فآخرُ الداء العَياء الكيُّ. ومن بَلَغتْ به الأعذار إلى غايتها، فلا لائمةَ عليه، والمقيم على شقاقه باغٍ مصروعٌ. وقد قيل: مَن سلَّ سيفَ البغي أغمدَه في رأسه، فهذا شرط.

**وأمَّا المسامحة في الحقوق**: فلأنَّ الاستيفاء مُوحش، والاستقصاء منفِّر. ومن أراد كل حقِّه من النفوس المستصعبة بشحٍّ أو طمع، لم يصلْ إليه إلاَّ بالمنافرة والمشاقة، ولم يقدرْ عليه إلا بالمخاشنة والمشاحَّة لما استقرَّ في الطباع من مَقْت مَن شاقَّها ونافرها، وبغض من شاحَّها ونازعها، كما استقرَّ فيها حُبُّ من ياسرها وسامحها، فكان أليق الأمور بالمروءة استلطاف النفوس بالمياسرة والمسامحة، وتألفها بالمقاربة والمساهلة. قال بعضُ الحكماء: مَن عاشر إخوانه بالمسامحة، دامت له مودَّاتهم. وقال بعضُ الأدباء: إذا أخذْتَ عفوَ القلوب زكا ريْعك، وإنِ استقصيْت أكْدَيت. والمسامحة نوعان: في عقود، وحقوق.

**فأما العقود**: فهو أن يكون فيها سهلَ المناجزة، قليلَ المحاجزة، مأمون الغَيبة، بعيدًا من المكر والخديعة. رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**أَجْمِلوا في طلب الدُّنيا؛ فإنَّ كلاً مُيسَّرٌ لما كُتب له منها**»[١]. وقال ﷺ: «**ألا أدلُّكم على شيءٍ يحبُّه الله تعالى ورسولُه؟**». قالوا: بلى يا رسولَ الله، قال: «**التغابُن للضعيف**»[٢]. وحكَى ابنُ عَوْن: أنَّ عمرو بن عبيد اشترى للحسَن البصريِّ إزارًا بستة دراهمَ ونصف،

---

(١) شطره الأخير، أخرجه البخاري ومسلم وغيرهم من أهل السنن.

(٢) لم أصل إليه.

فأعطى التاجرَ سبعة دراهم، فقال له: ثمنه ستة دراهم ونصف، فقال: إني اشتريته لرجلٍ لا يقاسم أخاه درهمًا.

ومن الناس من يرى أن المساهلة في العقود عجز، وأنَّ الاستقصاء فيها حَزْم، حتى إنه ليماكس في التافه الحقير، وإن جاد بالجليل الكثير، كالذي حكي عن عبد الله بن جعفر وقد ماكس في درهم، وهو يجود بما يجود به. فقيل له في ذلك، فقال: ذلك مالي أجودُ به، وهذا عقلي بخِلْت به. وهذا إنما يسوغ من أهل المروءة في دفع ما يخادعهم به الأدنياء، ويُغابنهم به الأشحّاء، وهكذا كانت حالُ عبد الله بن جعفر. فأمَّا مُماكسة الاستنزال والاستسماح، فكَلاَّ؛ لأنَّه منافٍ للكرم، ومباين للمروءة.

**وأمَّا الحقوق:** فتتنوَّع المسامحة فيها نوعين: **أحدهما:** في الأحوال. **والثاني:** في الأموال.

**فأمَّا المسامحة في الأحوال:** فهي اطراح المنازعة في الرتب، وترك المنافسة في التقدُّم، فإنَّ مُشاحَّة النفوس فيها أعظم، والعناد عليها أكثر، فإنْ سامح فيها ولم ينافسْ، كان مع أخذه بأفضل الأخلاق، واستعماله لأحسن الآداب، أوقَعَ في النفوس من إفضاله برغائب الأموال، ثم هو أزيد في رتبته، وأبلغ في تقدُّمه؛ وإن شاحَّ فيها ونازع، كان مع ارتكابه لأخشن الأخلاق، واستعماله لأهجن الآداب، أنكى في النفوس من حدِّ السيف وطعن السِّنان، ثم هو أخفضُ للمرتبة، وأمنع من التقدُّم. حُكِيَ أن فتىً من بني هاشم تخطَّى رقابَ الناس عند أبي داود، فقال: يا بُنيَّ، إن الآداب ميراث الأشراف، ولست أرى عندك من سَلَفك إرثًا.

**وأمَّا المسامحة في الأموال:** فتتنوَّع ثلاثة أنواع: مسامحة إسقاط لِعدَم، ومسامحة تخفيف لعجز، ومسامحة إنكار لعُسرة، وهي مع اختلاف أسبابها تفضُّلٌ مأثورٌ، وتألّف مشكور، وإذا كان الكريم قد يجود بما تحويه يده، وينفذ فيه تصرُّفه، كان أولى أن يجود بما خرج عن يده، وطاب نفسًا بفراقه. وقد تصل المسامحة في الحقوق إلى من لا يقبل البرّ، ويأبى الصِّلة، فيكون أحسن موقعًا، وأزكى مَحَلاً، وربما كانت المسامحة فيها آمن من ردّ السائل، ومَنْع المجتدِي،

لأنَّ السائل كما اجترأ على سؤالك، فسيجترئ على سؤال غيرك إن رددته، وليس كُلُّ من صار أسيرَ حقك، ورهينَ دَينك، يجدُ بدًا من مسامحتك ومياسرتك، ثم لك مع ذلك حسْنُ الثناء، وجزيلُ الأجْر. وقال محمود الورَّاق ـ رحمه الله ـ:

المرءُ بعدَ الموتِ أحدوثةٌ يفنَى وتبقَى منه آثارُهُ
فأحسَنُ الحالات حالُ امرئ تطيبُ بعد الموت أخبارُهُ

فهذه حالُ المياسرة.

**وأما الإفضال، فنوعان:** إفضالُ اصطناع، وإفضالُ استكفاف ودفاع.

**فأمَّا إفضال الاصطناع فنوعان: أحدهما:** ما أسداه جودًا في شكور. **والثاني** ـ ما تألف به نَبْوَةَ نَفُور، وكلاهما من شروط المروءة؛ لما فيهما من ظهور الاصطناع، وتكاثر الأشياع والأتباع، ومَن قلَّت صنائعه في الشاكرين، وأعرَضَ من تألُّف النافرين، كان فردًا مهجورًا، وتابعًا محقورًا، ولا مروءة لمتروك مُطَّرح، ولا قَدْرَ لمحقور مهتضَم، وقال عمر بن عبد العزيز: ما طاوعني الناس على شيء أردتُه من الحقِّ حتى بسطْتُ لهم طَرَفًا من الدنيا. وقال بعض الحكماء: أقلُّ ما يجب للمنعم بحقِّ نعمته، ألاَّ يُتوصَّل بها إلى معصيته. وأُنشدت لبعض الأعراب:

مَن جمعَ المالَ ولم يجُد بِهِ وجَمَّعَ المالَ لعام جَدْبِهِ
هانَ على النَّاسِ هوانَ كَلْبِهِ

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصليّ:

يبقَى الثناءُ وتذهَبُ الأموالُ ولكُلِّ دهرٍ دَوْلَةٌ ورجالُ
ما نالَ مَحمدةَ الرجالِ وشُكرَهم إلا الجوادُ بمالِه المفضالُ
لا ترضَ من رجلٍ حَلاوَةَ قولِه حتى يُصدِّقَ ما يقولُ فِعالُ

فإن ضاقت به الحال عن الاصطناع بماله، فقد عَدم من آلة المكارم عمادَها، وفقد من شروط المروءة سِنادَها، فليُواسِ بنفسه مواساة المساعِف، وليُسْعِد بها إسعادَ المتألِّف. وقال المتنبيُّ:

فليُسْعِدِ النُّطْقُ إن لم تُسْعِدِ الحالُ

وإن كان لا يراها وإن أجهدها، إلاَّ تبعًا للمفضلين، قليلةً بين المكثرين؛ فإنَّ

الناس لا يساوُون بين المعطِي والمانع، ولا يُقْنعهم القولُ دون الفعل، ولا يغنيهمُ الكلام عن المال، ويَرَوْنه كالصَّدَى الذي إن ردَّ صوتًا، لم يُجْدِ نفعًا، وكما قال الشاعر:

يجودُ بالوعدِ ولكنَّه يَدْهُن من قارورةٍ فارغَهْ

فكُلُّ ما خرج عندهم عن المال كان فارغًا، وكُلُّ ما عدا الإفضال به كان هيِّنًا. وقد قدَّمنا من القول في شروط الإفضال ما أقنع.

**وأما الإفضال للاستكفاف:** فلأنَّ ذا الفَضْل لا يعدَم حاسدَ نعمة، ومعاندَ فضيلة، يعتريه الجهل بإظهار عناده، ويبعثه اللؤم على البذاء بسفهه؛ فإن غفل عن استكفاف السفهاء، وأعرض عن استدفاع أهل البَذاء، صار عِرْضُه هَدَفًا للمثالب، وحالُه عُرْضة للنوائب، وإذا استكَفَّ السَّفيه، واستَدفَع البَذيَّ، صان عِرضَه، وحَمَى نعمتَه. وقد رُوي عن النبي ﷺ، أنه قال: **«ما وَقَى به المرءُ عِرضَه فهو صدقة»**[1]. وقالت عائشة رضي الله عنها: ذبُّوا بأموالكم عن أحسابكم[2]. وامتدح رجل الزُّهْريَّ، فأعطاه قميصَه؛ فقال له رجل: أتعطي على كلام الشيطان؟ فقال: من ابتغى الخيرَ اتقى الشر، ولذلك قال النبي ﷺ: **«مَن أراد بِرَّ الوالدَين فليعطِ الشعراء»**[3]. وهذا صحيح؛ لأنَّ الشعر ساتر، يُستَر به ما ضَمن من مدح أو هجاء، ومن أجل ذلك قيل: لا تؤاخِ شاعرًا؛ فإنه يمدحك بثمن، ويهجوك مَجَّانًا. ولاستكفاف السفهاء بالإفضال شرطان:

**أحدهما** - أن يخفيه؛ حتى لا تنتشر فيه مطامع السفهاء، فيتوصلوا إلى اجتذابه بسَبِّه، وإلى ماله بثَلْبه[4].

**والثاني** - أن يتطلب له في المجاملة وجهًا، ويجعله في الإفضال عليه سببًا، لئلا يرى أنه على السَّفه قد أعطى، ولأجل البذاء قد جَبَى، ليغريه ذلك بزيادة السَّفه واستدامة البَذاء.

---

(١) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٩٣).

(٢) هو عن عائشة، وأورده الجرجاني في «تاريخه» (تاريخ جرجان)، (١/ ٢٢٣) (٣٥٦).

(٣) أورده الديلمي في «الفردوس» (٥٨٦١) بلفظ: «فليرضِ الشعراء».

(٤) أي بتعييبه وتنقصه.

واعلم: أنك ما حييتَ ملحوظُ المحاسن، محفوظ المساوي، ثم من بعد ذلك[1] حديث منتشر، لا يراقبك صديق، ولا يحامي عنك شقيق، فكن أحسنَ حديث ينشرَ، يكُنْ سعيُك في الناس مشكوراً، وحظّك عند الله موفوراً، وأجرك عند الله مذخوراً. فقد روَى زياد بن الجراح، عن عمرو بن ميمون الأَوْدي، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اغتنم خمساً قبلَ خَمْسٍ: شبابَك قبلَ هَرَمِك، وصحتَكَ قبل سَقَمِك، وغناكَ قبل فَقْرك، وفراغَك قبل شُغْلك، وحياتَك قبل مَوْتك»**.

فهذا ما اقتضاه هذا الفصلُ من شروط المروءة، وإن كان كُلُّ كتابنا هذا من شروطها، وما اتصل بحقوقها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

## الفصل الثامن

## في آداب منثورة

اعلم: أنَّ الآداب مع اختلافها بتنقل الأحوال، وتغيُّر العادات، لا يمكن استيعابها، ولا يُقْدَر على حصرها، وإنما يذكر كُلُّ إنسان ما بَلَغه الوُسْع من آداب زمانه، واستحسن بالعُرْف من عادات دهره، ولو أمكن ذلك، لكان الأوَّلُ قد أغنى الثانيَ عنها، والمتقدِّم قد كفَى المتأخر تكلفَها، وإنَّما حظُّ الأخير أن يعاني حفظ الشارد، وجمع المتفرق؛ ثم يعرض ما تقدَّم على حُكم زمانه، وعادات وقته، فيثبت ما كان موافقاً، وينفي ما كان مخالفاً، ثم يستمدّ خاطره في استنباط زيادة، واستخراج فائدة، فإنْ أسعف بشيء فاز بدرْكه، وحَظي بفضيلته، ثم يُعبِّر عن ذلك كلِّه بما كان مألوفاً من كلام الوقت، وعُرْف أهلهَ؛ فإنَّ لأهل كل وقت في الكلام عادةً تُؤْلَف، وعبارةً تُعْرَف؛ ليكون أوقَعَ في النفوس، وأسبَقَ إلى الأفهام، ثم يُرتب ذلك على أوائله ومقدماته، ويثبته على أصوله وقواعده حَسْب ما يقتضيه الجنس؛ فإنَّ لكل نوع من العلوم طريقة، هي أوضح مسلكاً وأسهلُ مأخذاً. فهذه خمسة شروط، هي حظ الأخير فيما يعانيه.

وكذا القولُ في كُلِّ تصنيف مستحدَث؛ ولولا ذلك لكان تعاطي ما تقدَّم به الأوَّل عناءً ضائعاً، وتكلُّفاً مستهجَناً. وأرجو أن يُمدَّنا الله تعالى بتوفيقه لتأدية هذه الشروط، وتُنهضنا المعونةُ بتوفية هذه الحقوق، حتى نسلَم من نقص التكليف،

---

(١) أي بعد الموت.

ونبرأ من عيوب التقصير، وإن كان اليسيرُ مغفوراً، والخاطئ معذوراً. فقد قيل: من صنَّف كتابًا فقد استهدف، فإن أحسَنَ فقد استعطَف، وإن أساء فقد استقذَف؛ وقد مضت أبواب تضمنت فصولاً، رأيتُ إتباعَها بما لا أحبُّ الإخلال به. **فمن ذلك:** حالُ الإنسان في مأكله ومشربه؛ فإنَّ الدَّاعي إلى ذلك شيئان: حاجةٌ ماسَّة، وشهوة باعثة.

**فأمَّا الحاجة:** فتدعو إلى ما سدَّ الجُوع، وسكَّن الظمأ. وهذا مندوب إليه عقلاً وشرعًا لما فيه من حفظ النفس وحراسة الجسد. ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال بين صوم اليومين؛ لأنه يُضْعِف الجسد، ويميت النفس، ويُعجز عن العبادة، وكُلُّ ذلك يمنَعُ منه الشرعُ، ويدفَعُ عنه العقلُ. وليس لمن منع نفسه قَدْرَ الحاجة حظٌّ من برّ، ولا نصيبٌ من زُهْد؛ لأنَّ ما حَرَمها من فعل الطاعات بالعجز والضعف أكثَرُ ثوابًا، وأعظم أجرًا؛ إذ ليس في ترك المباح ثواب يقابل فعلَ الطاعات، وإتيان القرب. ومن أخسرَ نفسَه ربحًا موفوراً، أو حَرَمَها أجراً مذخوراً، كان زهدُه في الخير أقوى من رغبته، ولم يبقَ عليه من هذا التكلُّف إلاّ الشهرة بريائه وسمعته.

**وأما الشَّهوة،** فتتنوع نوعين: **أحدهما:** شهوة في الإكثار والزيادة.

**والثاني:** شهوة في تناول الألوان اللذيذة.

**فأمَّا النوع الأول** - وهو شهوة الزِّيادة على قدر الحاجة، والإكثار على مقدار الكفاية، فهو ممنوع منه في العقل والشرع، كما كان قدر الكفاية مندوبًا إليه في العقل والشرع؛ لأنَّ تناول ما زاد على الكفاية، نَهَمٌ مُعْرٍ[1]، وَشَرَهٌ مضرٌّ، وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إياكم والبطْنَةَ، فإنَّها مَفسَدة الدِّين مورثة السُّقم، مَكْسَلَة عن العبادة**»[2]. وقال علي رضي الله عنه: إن كنت بَطِنًا، فعُدَّ نفسَك زَمِنًا[3]. قال بعض العلماء: أقلل طعامك تجد الصحة. وقال بعضَ البلغاء: أقلل طعَامًا تحمَدْ مَنامًا. وقال بعض الأدباء: لا يسكن العلم معدةً ملئت طعامًا. وقال بعضُ الأدباء: الرَّغَب[4] لؤم، والنَّهَم شؤم. وقال بعضُ الحكماء: أكبرُ الدَّواء تقدير الغذاء. وقال بعض الشعراء:

---

(١) أي يوقع في الإثم.

(٢) أورده ابن حجر في «لسان الميزان» (٣/ ٣٠٧) (١٢٧١)، بلفظ قريب.

(٣) أي مبتلى. (٤) يريد الطمع.

فكم من أكْلَةٍ مَنَعَتْ أخاها ... بِلَذَّةِ ساعةٍ أكَلاتِ دَهْرِ
وكم من طالبٍ يَسْعَى لأمرٍ ... وفيه هلاكُه لو كان يدري

وقال آخر:

كم دخلَتْ أكْلَةٌ حَشَا شَرِهٍ ... فأخرجَتْ رُوحَه مِنَ الجَسَدِ
لا بارَكَ اللهُ في الطَّعامِ إذا ... كانَ هلاكُ النُّفُوسِ في المِعَدِ

وربَّ أكْلَة هاضَتِ[1] الآكل، وحَرَمَته مآكل. روَى أبو يَزيدَ المدنيّ، عن عبد الرحمن بن المرَقَّع، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لم يخلق وعاءً مُلِئَ شرًا مِنْ بطن، فإن كان لابد فاعلاً، فاجعلوا ثُلُثًا للطعام، وثلثًا للشراب، وثلثًا للريح»[2].

وأمَّا النوع الثاني - وهو شهوة الأشياء المُلَذة، ومنازعة النفس إلى طلب الأنواع الشهية؛ فمذاهب الناس في تمكين النفس منها مختلفة:

فمنهم مَن يَرَى أنَّ صَرْفَ النفس عنها أولى، وقهرَها عن اتباع شهواتها أحْرَى، ليذلَّ له قيادُها، ويَهونَ عليه عنادُها؛ لأنَّ تمكينها وما تهوى، بَطَرٌ يطغي، وأشَرٌ يُرْدِي؛ لأنّ شهواتها غيرُ متناهية فإذا أعطاها المرادَ من شهوات وقتها، تعدَّتها إلى شهوات قد استحدثتها، فيصيرُ الإنسان أسيرَ شهوات لا تنقضي، وعَبْدَ هوًى لا ينتهي. ومن كان بهذه الحال لم يُرْجَ له صلاح، ولم يُوجد فيه فَضل. وأُنشِدْت لأبي الفتح البُستي:

يا خادمَ الجِسْمِ كم تَشقَى بخدْمَتِهِ ... لتطلُبَ الرِّبْحَ ممَّا فيه خُسْرَانُ
أقبلْ عَلَى النَّفْسِ واستكمل فضائلَها ... فأنتَ بالنَّفْسِ لا بالجسمِ إنسانُ

وللحذَر من هذه الحال ما حُكِيَ أنَّ أبا حازم - رحمه الله - كان يمرّ على الفاكهة فيشتهيها، فيقول: موعِدُك الجنة. وقال آخرون: تمكينُ النفس من لَذَّاتها أولَى، وإعطاؤها ما اشتهت من المباحات أحرى؛ لما فيه من ارتياح النفس بنَيل شهواتها، ونشاطها بإدراك لذاتها، فتنحسر عنها ذلَّة المقهور، وبلادة المجبور، فلا تقصِّر عن دَرْك، ولا تَعصِي في نَهضة، ولا تَكِلّ عَن استعانة.

---

(١) أي أدت إلى الهَيْضة وهي الإقياء.

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، ولكن ورد بلفظ قريب أخرجه ابن حبان: (١٢/ ٤١)، وابن ماجه (٢/ ١١١١) (٣٣٤٩)، والنسائي في «الكبرى» (٤/ ١٧٧) (٦٧٦٩).

وقال آخرون: بل توسُّطُ الأمرين أولَى، لأن في إعطائها كلَّ شهواتها سلاطة؛ والنفس السليطة معاندة، وفي منعها عن جميع شهواتها بلادة، والنفس البليدة عاجزة، وفي منعها عن البعض كفٌّ لها عن السلاطة، وفي تمكينها من البعض حَسْمٌ لها عن البلادة، وهذا لعمري أشبه المذاهب بالسداد؛ لأنَّ التوسُّط في الأمور أحمدُ.

وإذ قد مضَى الكلامُ في المأكول والمشروب، فينبغي أن يُتْبَعَ بذكر الملبوس.

اعلم: أنَّ الحاجة وإن كانت في المأكول والمشروب أدعى، فهي إلى الملبوس ماسة، وبها إليه فاقة، لما في الملبوس من حفظ الجسد، ودفع الأذى، وستر العورة، وحصول الزينة. قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف: ٢٦). فمعنى قوله: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾: أي خلقنا لكم ما تلبَسون من الثياب، ﴿يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾: أي يستر عَوْراتكم، وسُمِّيت العَورة سَوْءَة؛ لأنه يسوء صاحبَها انكشافُها من جسده. وقوله: ﴿وَرِيشًا﴾: فيه أربعة تأويلات:

أحدها - المال، وهو قول مجاهد.

والثاني - أنه اللباس والعيش والنِّعم، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما.

والثالث - أنه المعاش، وهو قول مَعْبد الجُهني.

والرابع - أنه الجمال، وهو قولُ عبد الرحمن بن زَيد.

وقوله: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾: فيه ستة تأويلات:

أحدها - أنَّ لباس التقوى هو الإيمان بالله تعالى، وهو قول قتادة والسُّدِّيّ.

والثاني - أنه العمل الصالح، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما.

والثالث - أنه السَّمْتُ الحَسَن، وهو قول عثمان بن عفان رضي الله عنه.

والرابع - هو خشية الله تعالى، وهو قولُ عُرْوة بن الزُّبير.

والخامس - هو الحياء، وهذا قول مَعْبد الجُهَني.

والسادس - هو سترة العورة، وهذا قول عبد الرحمن بن زيد.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾: فيه تأويلان:

أحدهما - أنَّ ذلك راجع إلى جميع ما تقدَّم من قوله: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا

يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾. ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، أي ذلك الذي ذكرته خير كلُّه.

**والثاني** - أنَّ ذلك راجع إلى لباس التَّقوى، ومعنى الكلام: أنَّ لباس التَّقوى خيرٌ من الرِّياش واللباس؛ وهذا قول قتادة والسُّدِّيّ.

فلما وصف الله تعالى حال اللباس، وأخرجه مُخْرَجَ الامتنان، عَلِم أنه معونة منه، لشدة الحاجة إليه. وإذا كان كذلك، ففي اللباس ثلاثة أشياء:

**أحدها** - دفع الأذى. **والثاني** - سَتْر العَورة. **والثالث** - الجَمال والزينة.

**فأمَّا دفع الأذى به:** فواجب بالعقل؛ لأنَّ العقل يُوجب دفعَ المضارِّ، واجتلاب المنافع. وقد قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ (النحل: ٨١)، فأخبر بحالها ولم يأمر بها، اكتفاءً بما يقتضيه العقل، واستغناءً بما يبعث عليه الطبع. ويَعْني بالظلال: الشجر؛ وبالأكنان: جمعَ كِنّ، وهو الموضع الذي يُستكن[1] فيه؛ ويَعْني بقوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾. ثياب القطن والكتّان والصوف، وبقوله: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾. الدروع التي تقي البأس، وهو الحرب. فإن قيل: فكيف قال: ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾. ولم يذكر البرد؛ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾. ولم يذكر السَّهل؟ فعن ذلك جوابان:

**أحدهما** - أنَّ القوم كانوا أصحابَ جبالٍ وخيام، فذكر لهم الجبال، وكانوا أصحابَ حَرٍّ دون برد، فذكر لهم نعمته عليهم فيما هو مختص بهم، وهذا قول عطاء.

**والجواب الثاني** - أنه اكتفاء بذكر أحدهما عن ذكر الآخر؛ إذْ كان معلومًا أنَّ السَّرابيل التي تقي الحَرَّ تقي أيضًا البرد، ومَن اتَّخذَ من الجبال أكنانًا اتخذَ من السَّهل، وهذا قولُ الجمهور.

**وأمَّا سَتْرُ العورة:** فقد اختلف الناس فيه: هل وجب بالعقل أو بالشرع؟ فقالت طائفة: وجب سَتر العورة بالعقل؛ لما في ظهورها من القبح، وما كان قبيحًا فالعقل مانع منه. ألا ترى أن آدمَ وحواءَ لمَّا أكلا من الشجرة التي نُهيا عنها، بدت

(١) أي يُستَتَر فيه.

لهما سَوآتهما؛ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، تنبهًا بعقولهما لستر ما رأياه مستقبحًا، من سوآتهما؛ لأنهما لم يكونا قد كُلِّفا ستر ما لم يبدُ لهما، ولا كُلِّفاه بعد أن بَدتْ لهما، وقبل سترهما. وقالت طائفة: بل سَتْرُ العورة واجبٌ بالشرع؛ لأنَّه بعضُ الجسد الذي لا يوجب العقل ستر باقيه؛ وإنما اختصت العورة بحكم شرعيّ، فوجب أن يكون ما يلزم من سترها حكمًا شرعيًا. وقد كانت قريش وأكثر العرب مع ما كانوا عليه من وُفور العقل، وصحة الألباب، يطوفون بالبيت عُراة، ويحرِّمون على أنفسهم اللحم والوَدَك[1]، ويرون ذلك أبلغ في القُرْبة؛ وإنما القُرَبُ: ما استُحسنت في العقل، حتى أنزل الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١). يعني بقوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾. الثيابَ التي تستر عوْراتكم، وكلُوا واشْربوا ما حرَّمتموه على أنفسكم من اللحم والوَدَكَ. وفي قوله تعالى: ﴿وَلا تُسْرِفُوا﴾ تأويلان:

**أحدهما** - لا تسرفوا في التحريم، وهذا قول السُّدّيّ.

**والثاني** - لا تأكلوا حرامًا؛ فإنه إسراف. وهذا قولُ ابن زيد. فأوجب بهذه الآية الكريمة سَتْر العورة، بعد أن لم يكن العقلُ موجبًا له، فدلَّ ذلك على أنَّ سترها وجَبَ بالشرع دون العقل.

**وأمّا الجَمال والزينة:** فهو مستحسَن بالعُرف والعادة، مِن غير أن يوجبه عقل أو شرع. وفي هذا النوع قد يقع التجاوز والتقصير. والتوسُّط المطلوب فيه معتبر من وجهين:

**أحدهما** - في صفة الملبوس وكيفيته.

**والثاني** - في جنسه وقيمته.

**فأما صفته:** عُرف البلاد؛ فإنَّ لأهل المشرق زيًا مألوفًا، ولأهْل المغرب زيًا مألوفًا، وكذلك لما بينهما من البلاد المختلفة عادات في اللباس مختلفة.

**والثاني** - عُرف الأجناس؛ فإنَّ للأجناد زيًا مألوفًا، وللتجار زيًا مألوفًا، وكذلك لمن سواهما من الأجناس المختلفة عادات في اللباس مختلفة. وإنما اختلفت عادات الناس في اللباس من هذين الوجهين؛ ليكون اختلافهم فيها سِمَةً

---

(١) هو دَسَم اللحم.

يتميَّـزون بها، وعلامةً لا يخفَوْن مـعها، فإن عَدَل أحدٌ في لبـاسه عن عُرْف بلده وجنسه، كان ذلك منه خُـرْقًا وحُمْقًا، ولذلك قيل: العُرْي الـفادح خيرٌ من الزيّ الفاضح. وأمَّا جنس الملبوس وقيمته: فمعتبر من وجهين:

**أحـدهـمـا** ـ بالمُكْنة من اليـسـار والإعـسـار؛ فـإنَّ للموسـر في الزِّيِّ قَـدْرًا، وللمعسر دونه.

**والثاني** ـ بالمنزلة والحال، فإن لذي المنزلة الرفيعة في الزِّيِّ قدرًا، وللمنخفض عنه دونه؛ ليتفاضلوا فيه على حسب تفاضل أحوالهـم، فيصيروا به متميزين. فإن عَدَل الموسر إلى زيّ المعسر، كان شُـحا وبخلاً، وإن عَدَلَ الرفيع إلى زيّ الدنيء، كان مَهانة وذُلاً، وإن عـدَلَ المعسر إلى زيِّ الموسِر، كان تبـذيرًا وسرفًا؛ وإن عَدَلَ الدَّنيّ إلى زيّ الرفيع، كان جهلاً وتخلُّفًا.

ولزوم العُرف المعـهود، واعتبـار الحدّ المقصـود، أدَلُّ على العقل، وأمنَعُ من الذم. ولذلك قال عمر بـن الخطاب ﷺ: إياكم ولبْستَين: لبسة مشـهورة، ولبسة محقورة. وقـال بعضُ الحكماء: الْبَسْ من الثياب ما لا يزدريك فـيه العظماء، ولا يَعيبه عليك الحكماء. وقال بعضُ الشعراء:

إن العـيـونَ رمـتـكَ إذا فـاجـأتَهـا ... وعليكَ من شَـهْـرِ الثـيـاب لبـاسُ
أمَّـا الطعـامُ فكُلْ لنفـسِك مـا تَشـا ... واجْـعَلْ لِبـاسَك مـا اشْـتـهـاه النـاسُ

**واعلم**: أن من المروءة أن يكون الإنسان مـعتدلَ الحـال في مراعاة لبـاسه، من غيـر إكثارٍ ولا اطِّرَاح، فإن اطِّراح مـراعاتها، وترك تفـقُّدها، مَهانةٌ وَذلٌّ؛ وكـثرة مراعاتها؛ وصرف الهمة إلى العناية بها، دناءة ونقص، وربما توهَّم بعضُ مَنْ خلا من فضل، وعَـرِي عن تمييـز، أنَّ ذلك هو المروءة الكاملة، والسيـرة الفاضلة؛ لما يرى من تميّزه بذلك عن الأكثرين، وخروجه عـن جملة العوامِّ المسترذَلين؛ وخفي عليه أنه إذا تعدَّى طورَه، وتجاوز قدرَه، كان أقبحَ لذكره، وأبعثَ على ذمِّه، وكان كما قال المتنبي فيه:

لا تُعْـجِـبَنَّ مَـضِـيـمًـا حُـسْنُ بِزَّتِهِ ... وهَـلْ يَـروقُ دَفـيـنًا جَـوْدَةُ الكَفَنِ

وحكَى المبرِّدُ أنَّ رجـلاً من قريش، كان إذا اتَّسَعَ لبس أرثَّ ثيـابه، وإذا ضاق

لبس أحسنَهـا؛ فقيل له في ذلك، فـقال: إذا اتسعت تزيَّنت بالجـود، وإذا ضِقْتُ فبالهيئة. وقد أتى ابنُ الرومي بأبلغَ من هذا المعنى في شعره، فقال:

**ومـا الحَلْيُ إلاَّ زينةٌ لنقـيـصـةٍ ... يُتَمِّمُ من حسنٍ إذا الحسْنُ قَصَّرا**

**فـأمَّـا إذا كـان الجـمـالُ مُـوَفَّـرًا ... كحسنك لم يحتَجْ إلى أن يُزَوَّرَا**

ولذلك قالت الحكماء: ليست العِزَّة في حسن البِزَّة. وقال بعضُ الشعراء:

**وتَرَى سفيهَ القومِ يَدْنُسُ عِرْضُه ... سَفَهًا ويَمسَحُ نعلَه وشِراكَها**[1]

وإذا اشتدَّ كلَفُه بمراعـاة لباسه، قطعه ذلك عن مراعاة نفـسه، وصار الملبوس عنده أنفسَ، وهو على مـراعاته أحـرص. وقد قـيل في منثـور الحكم: الْبَسْ من الثياب ما يخدمُك ولا يستخدمك. وقال خالد بن صفوان لإياس بن معاوية: أراكَ لا تبالي ما لبست؟ قال: أَلْبسُ ثوبًا أَقِي به نفسي أحبُّ إليَّ من ثوب أقيه بنفسي.

وكمـا أنَّه لا يكون شديدَ الكلف بها، فكذلك لا يكون شـديد الاطِّراح لها. فقـد حُكِي عن عائشـة: أنَّ رجلاً جاء إلى النبي ﷺ، فنظـر إليه رَثَّ الهيـئة، فقال: **«ما مالُكَ»**؟ قال: من كُلِّ المال قد آتانيَ الله. فقال: **«إن الله تعالى يُحِبُّ إذا أنعم على امرئٍ نعمةً أن ينظر إلى أثرها عليه»**[2]. وقد قـيل: المروءة الظاهرة في الثياب الطاهرة. وهكذا القول في غلمانه وحَشَمه؛ إن اشتدَّ كَلَفُه بهم صار عليهم قَيِّمًا، ولهم خادمًا؛ وإن اطَّرحهم قلَّ رشادُهم، وظهر فسادُهم، وصاروا سببًا لمقته، وطريقًا إلى ذمِّه، ولكن يكفُّهم عن سَيِّئ الأخـلاق، ويأخذهم بأحسن الآداب، ليكونوا كما قال فيهم الشاعر:

**سَهْلُ الفِناء إذا مَرَرْتُ ببابه ... طَلْقُ اليدَيْن مؤدَّبُ الخُدَّامِ**

وليكن في تفقُّد أحـوالهم، على ما يحفظ تجمُّلَه، ويصون مُبتذلَه؛ فقد رُوي عن النبي ﷺ، أنه قال: **«ادَّهِنوا يَذهبِ البؤسُ عنكم، والبسوا تظهرْ نِعمةُ الله**

---

(١) الشراك: رباط النعل، يريد الشاعر مذمة من يهتم ببعض المظاهر البسيطة ويغفل عن الأمور المهمة كصيانة العرض.

(٢) «صحيح ابن حبان» (٥٤١٧).

**عليكم، وأحسنوا إلى مماليككم، فإنه أكبَتُ لعدوِّكم»**[1]، وليتوسَّط فيهم ما بين حالتين اللِّين والخشونة؛ فإنَّه إن لان هان عليهم وإن خَشُن مقتوه، وكان على خطَر منهم. حُكي أن المُوبَذ سمع ضَحكَ الخُدَّام في مجلس أنوشرْوان، فقال: أما تمنع هؤلاء الغلمان؟ فقال أنوشروان: إنما بهم يَهابنا أعداؤنا. وقال أبو تمام الطائي:

**حَشَمُ الصَّديقِ عُيونُهُمْ بَحَّاثةٌ ... لِصَديقِه عن صِدْقِه ونِفاقِه**
**فلْينظُرَنَّ المرءُ مَن غِلْمانُه ... فَهُمُ خلائفُه على أخلاقِه**

**واعلم:** أنَّ للنفس حالتين: حالة استراحة إن حَرَمْتَها إياها كلَّت، وحالة تصرُّف إن أرحتها فيها تخلَّت. فالأوْلى بالإنسان تقدير حاليه: حال نومه ودَعَته، وحال تصرُّفه ويقظته؛ فإنَّ لهما قدرًا محدودًا، وزمانًا مخصوصًا، يضرُّ بالنفس مجاوزة حدّهما، وتغيير زمانها. فقد رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«نَوْمةُ الصُّبْحة مَعْجَزة مَنفخَة مَكْسَلة مَوْرَمَة، مَفْشَلَة مَنْساة للحاجة»**[2]. وقال عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما: النوم ثلاثة: نومةُ خُرق وهي الصُّبْحة، ونومةُ خُلُق وهي القائلة، ونومة حُمْق وهي العشاء. وقد رَوَى محمد بن يزداد، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: **«نوم الضُّحى خُرْق، والقيلُولة خُلُق، ونوم العشيّ حُمق»**[3]. وقيل في منثور الحكم: من لَزِم الرُّقاد، عَدِم المراد.

فإذا أعطَى النفس حقَّها من النوم والدَّعة، واستوفَى حقَّه منها بالتصرُّف واليقظة، خلص بالاستراحة من عجزها وكلالها، وسلم بالرياضة من بَلادتها وفسادها. وحُكي أنَّ عبد الملك بن عمرَ بن عبد العزيز دخل على أبيه، فوجده نائمًا، فقال: يا أبت، أتنام والناس بالباب؟ فقال: يا بُنيّ، نفسي مَطيتي، وأكره أن أُتعبَها، فلا تقوم بي. وينبغي أن يقسم حالة تصرُّفه ويقظته على المهمِّ من حاجاته؛ فإنَّ حاجة الإنسان لازمة، والزَّمانُ يقصر عن استيعاب المهمّ، فكيف به إن تجاوز إلى ما ليس بمهمّ، هل يكون إلاَّ:

**كَتارِكةٍ بَيْضَها بالعَراءِ ... ومُلْبِسَةٍ بَيْضَ أخْرى جَناحا**

---

(١، ٢، ٣) لم أصل إليه.

ثم عليه أن يتصفَّح في ليله ما صدر من أفعال نهاره؛ فإنَّ الليل أخطر للخاطر، وأجمعُ للفكر، فإن كان محمودًا أمضاه، وأتبعه بما شاكله وضاهاه؛ وإن كان مذمومًا استدركه إن أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل؛ فإنه إذا فعل ذلك وجد أفعاله لا تنفك من أربعة أحوال: إمَّا أن يكون قد أصاب فيها الغرضَ المقصودَ بها. أو يكونَ قد أخطأ فيها، فوضعها في غير موضعها. أو يكون قصَّر فيها، فنقصت عن حدودها. أو يكون قد زاد فيها، حتى تجاوزت محدودها.

وهذا التصفُّح إنما هو استظهارٌ بعد تقديم الفكر قبل الفعل؛ ليعلم به مواقع الإصابة، وينتهز به استدراك الخطأ. وقد قيل: مَن كثُر اعتباره، قلَّ عثارُه، وكما يتصفَّح أحوال نفسه، فكذا يجب أن يتصفَّح أحوال غيره؛ فربما كانَ استدراكه الصواب منها، أسهلَ بسلام النفس من شبهة الهوى، وخلوّ الخاطر من حسن الظن، فإن ظفر بصواب وجده من غيره، أو أعجبه جميلٌ من فعله، زيّن نفسه بالعمل به؛ فإنَّ السعيدَ من تصفَّح أفعال غيره، فاقتدَى بأحسنها، وانتهى عن سيِّئها. وقد روَى زيد بن خالد الجُهَني، عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«السعيد من وُعِظَ بغيره»**[1]. وقال الشاعرُ:

**إنَّ السعيدَ له من غيره عظةٌ ... وفي التجارب تحكيمٌ ومعتبرُ**

وأنشدني بعضُ أهل العلم لطاهر بن الحسين:

**إذا أعجبتْكَ خِصالُ امرئٍ ... فكُنْهُ يكُنْ منكَ ما يُعجِبكْ**

**فليسَ على المجدِ والمكرُماتِ ... إذا جئتَها حاجبٌ يَحْجُبكْ**

فأمَّا ما يرومه من أعماله ويُؤْثِر الإقدام عليه من مطالبه، فيجب أن يقدِّم الفكر فيه قبل دخوله؛ فإن كان الرجاء فيه أغلب من الإياس منه، وحُمِدت العاقبة فيه، سلَكه من أسهل مطالبه، وألطف جهاته، وبقدر شرفه يكون الإقدام، وإن كان الإياس أغلب عليه من الرجاء، مع شدة التغرير، ودناءة الأمر المطلوب، فليحذَر أن يكون له متعرِّضًا. فقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: **«إذا هممْتَ بأمرٍ ففكر في عاقبته، فإن كان رشدًا فأمضه، وإن كان غيًا فانْتهِ عنه»**[2]. وقالت الحكماء: طلب ما لا يُدْرَك عجز. وقال بعض الشعراء:

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣/ ١٧٦)، عن ابن مسعود موقوفًا، وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ٧٦).

(٢) أخرجه هناد بن السري في «الزهد» (١/ ٣٠٢) (٥٣١) عن عبد الله بن مسعود.

فإياكَ والأمرَ الذي إن توسعتْ مَوارِدُه ضاقَت عليك المصادرُ
فما حَسَن أن يعذرَ المرءُ نفسَهُ وليس له من سائر الناس عاذرُ

**وليعلم العاقل:** أنَّ لكل حين من أيام عمره خُلُقًا، وفي كل وقت من أوقات دهره عملاً، فإنْ تخلق في كِبره بأخلاق الصِّغَر، وتعاطى أفعال الفكاهة والبَطَر، استصغره من هو أصغَر منه، وحقَرَه من هو أقلُّ وأحقر، وكان كالمثل المضروب بقول الشاعر:

وكلُّ بازٍ يَمَسُّه هَرَم تَخرَا على رأسِهِ العصافيرُ

فكن أيها العاقل مُقبلاً على شأنك، راضيًا عن زمانك، سَلْمًا لأهل دهرك، جاريًا على عادة عصرك، منقادًا لمن قدَّمه الناس عليك، متحننًا على من قدمك الناس عليه، ولا تباينهم بالعُزلة عنهم فيمقتوك، ولا تجاهرْهم بالمخالفة لهم فيعادوك؛ فإنه لا عيش لمقوت، ولا راحة لمُعَادَى. وأنشد بعضُ أهل الأدب لبعضهم:

إذا اجتمعَ الناسُ في واحدٍ وخالَفهم في الرِّضا واحدُ
فقد دَلَّ إجماعُهُمْ دونه على عقلِه أنه فاسِدُ

واجْعَلْ: نُصْحَ نفسك غنيمة عقلك، ولا تُداهنها بإخفاء عيبك، وإظهار عُذرك، فيصير عَدُوُّك أحظى منك في زجر نفسه، بإنكارك ومجاهرتك من نفسك، التي هي أخصُّ بك؛ لإغرائك لها بأعذارك ومساءتك، فحسبُك سُوءًا برجل ينفع عدوه، ويضر نفسه. وقال بعضُ الحكماء: أصلحْ نفسك لنفسك؛ يكن الناس تبعًا لك. وقال بعض البلغاء: مَن أصلح نفسه، أرغم أنف أعاديه، مَن أعمل جدَّه بلغ كنهَ أمانيه. وقال بعض الأدباء: من عرف مَعابه فلا يلم من عابه. وأنشدني أبو ثابت النحويّ لبعض الشعراء:

ومَصروفةٍ عَيْناهُ عن عيبِ نفسِهِ ولو بان عيبٌ من أخيه لأبصَرَا
ولو كان ذا الإنسانُ يُنصِفُ نفسَه لأمسَك عن عيبِ الصَّديق وقصَّرَا

فهذِّب أيُّها الإنسان نفسك بإنكار عيوبك، وانفعها كنفعك لعدوِّك، فإنَّه من لم يكن له من نفسه واعظ، لم تنفعه المواعظ. أعاننا الله وإياك على القول بالعمل، وعلى النصح بالقبول، وهو حسبُنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم.

# الفهـرس

**الموضـــوع** **الرقم**

★★